
المجلس الأعلى للثقافة
تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى
تأليف: موريس بيشوب
ترجمة: على السيد على
566

المشروع القومى للترجمة

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

تـأليـف : موريس بيشوب

ترجمـة : على السيد على



٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٦٦

- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى

- موريس بيشوب

- على السيد على

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب

The Pelican Book of

The Middle Ages

by

Morris Bishop

1968

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

المحتويات

مقدمة المترجم

الحمد لله الذى أعاننى على استكمال ترجمة هذا الكتاب الأولى إلى اللغة العربية، ليكون فى متناول وخدمة العديد من أبنائنا فى وطننا العربى ، والكتاب بالشكل الذى أعده الأستاذ الدكتور موريس جيلبرت بيشوب الذى رحل عن عالمنا عام ١٩٧٣م – هو رحلة فى رحاب تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا– تكشف عن موهبة وذكاء المؤلف، والنظرة الثاقبة فى تناوله للأحداث المختلفة.

وهو كتاب ألفه أحد رواد المدرسة التاريخية الأوروبية من جيل أواخر القرن التاسع عشر للميلاد وأوائل القرن العشرين الميلادى، إذ عاش فى الفترة من ١٨٩٣- ١٩٧٣م، فى وقت لم تكن فيه الدراسات التاريخية، وبخاصة فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، قد وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من ازدهار ورقى. وعلى هذا فإن المؤلف يستحق منا فعلاً أن نعتبره من المبدعين، وهو دليل على رسوخ قدمه فى التاريخ كما هى راسخة فى مجال الدراسات الأدبية، وهو كتاب ضرورى مهم لكى ينتفع به القارئ المثقف والقارئ العادى، إلى جانب طلاب البحث العلمى، والمتخصصين، ولا شك أن المكتبة العربية فى حاجة إلى المزيد والمزيد من مثل هذه الترجمة التى تساعد على إدارة الحوار الحضارى بين عالمنا العربى والعالم الغربى.

ولقد سرت فى ترجمة هذا الكتاب الضخم نوعًا ما وفق المنهج الذى رسمته لنفسى منذ البداية، من حيث الالتزام بالنص الأصلى مع الحرص قدر الإمكان على مراعاة ذوق القارئ العربى فى لغته العربية وسلامة الأسلوب. فالقارئ العربى لا يميل إلى أسلوب الجمل المبنية للمجهول والتى يعشقها المتحدثون بالإنجليزية، فضلاً عن أن هناك

بعضًا من المصطلحات الخاصة بالتاريخ الأوروبى وهى غير شائعة فى تواريخنا، أو بعض الشخصيات غير المشهورة لدينا ، مما دفعنى إلى الإشارة إليها فى الهوامش مع مراعاة التقليل منها كلما أمكن، أو الإيجاز فيها قدر الاستطاعة حتى لا يصاب البعض بالسأم، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

والله الموفق والمستعان

الفصل الأول

الظلام الطويل

★ إن مصطلح "العصور الوسطى" مصطلح سيئ الحظ؛ إذ تم ابتكاره بعد انقضاء ذلك العصر بفترة طويلة ؛ ذلك أن الناس في العصور الوسطى نفسها لم يعرفوا هذا المصطلح، فضلاً عن عدم إدراكهم أنهم يعيشون فيما عرف بالعصور الوسطى ، لأنهم اعتقدوا تمامًا أن العصور التي عاشوها شهدت أحدث ما توصل إليه الإنسان من إنجاز، بينما يدل المصطلح ضمنًا على أن "العصور الوسطى" هي مجرد فترة وسيطة تقع بين عراقة الماضي وعظمة الحاضر، ومن منا يعرف ما التسمية التي سيتم إطلاقها على هذه العصور أو تلك في المستقبل ؟ إن عصرنا الحديث في سبيله إلى ألا يكون حديثًا ، ويتحول إلى مجرد حقبة زمنية ، بل ربما يجيء اليوم الذي يتم تصنيف زماننا على أنه عصور وسطى متأخرة لأننا نتكلم على حين يمضي الزمان قدمًا ، وتتحرك كل الأشياء في الزمان تجاه الفترات الوسيطة وسرعان ما تحتل مكانها عند بدايات التاريخ، إن حالنا يدعو إلى الأسى ؛ ذلك لظننا أننا نمثل قمة التاريخ.

كانت العصور الوسطى الأوروبية فترة استمرارية وتكوين ، لقد كانت فترة استمرارية لروما القديمة في الجنس البشرى ، وفي اللغة ، وفي المؤسسات ، وفي القانون، والآداب والفنون، كما كانت أيضًا استمرارًا لثقافات مستقلة عن روما؛ حيث أسهم كلٍ من الفرنجة، والسكسون ، واليونانيين ، والعرب بحضاراتهم في الحضارة الجديدة التي ورثناها عن أوروبا الغربية ، فاللغة الإنجليزية تشكلت في العصور الوسطى وأخذت من كل مصدر، من اللغة السنسكريتية إلى اللغة الأيسلندية ، وهي رمز لثقافتنا متعددة المشارب.

وبمعنى أعمق كانت العصور الوسطى استمراراً للحضارة الزراعية القديمة التى تعود إلى عشرة آلاف أو عشرين ألف سنة بحيث تصل إلى العصر الحجرى . هذه الحضارة كانت تعتمد أساساً على الزراعة المستقرة ، وتربية الحيوانات الأليفة من أجل الحصول على الطعام ، والملبس ، والخدمة ، وهى حضارة كانت تمتلك أدوات قليلة بالإضافة إلى المحراث والمسحاة، إلا أنها عرفت كيف تكيف نفسها وتبقى حية ، وأن تحقق لأصحابها نوعًا من الرفاهية البدائية. هذه الحضارة الزراعية نادرًا ما عرفت التغيير عبر آلاف السنين، بل إنها بقيت حتى أيامنا الحاضرة ، فالفلاح فى التلال الواقعة فى إقليم مقدونيا والراعى فى مرتفعات أوفرينى، يعيش كلٌ منهما حياة هى أقرب إلى حياة العصور الوسطى منها إلى العصر الحديث.

وكان الأمريكى من جيل الرواد فى القرن الماضى يستخدم العربة التى تجرها الثيران ، والفأس ، والمحراث ، والمسحاة ، لتحويل الغابة إلى مزرعة أقرب إلى العصور الوسطى منها إلى العصور الحديثة ، فقد حقق الاكتفاء الذاتى ، يتداوى هو وأسرته بالأعشاب ، وينتج ما يحتاج إليه من غذاء ، يجمع بيديه غلاله الزراعية ، يقايض الباعة الجوالين القليلين على ما يراه ضروريًا ، ويستمتع بالرقصات فى أجران الغلال فى المناسبات فى عالم يشبه عالم العصور الوسطى.

ولكن العصور الوسطى لم تكن مجرد استمرار؛ وإنما كانت تشكيلاً وتكوينًا لعالمنا، وهناك مدرسة حديثة من المؤرخين تؤكد على أن ما يسمى بالعصور الوسطى المظلمة كانت فترة صعود أكثر منها فترة تدهور، ذلك أنه باضمحلال الحضارة الوثنية القديمة بدأت تظهر براعم حضارة جديدة وهى التى تطورت إلى أن ظهرت حضارتنا الحديثة.

متى بدأت العصور الوسطى ؟ عندما سقطت روما. ولكن متى سقطت روما ؟ لا أحد يعرف إذ إن المؤرخين اقترحوا تواريخ عديدة. والتاريخ الشائع هو سنة ٦٧٤م ، عندما استطاع زعيم قوطى بربرى وهو أودواكر Odoacer أن يخلع آخر الأباطرة الرومان وهو رومولوس أوغسطولوس Romulus Augustulus من على عرش روما. هذا التاريخ يمكن أن يصلح إذا ما تذكرنا أن التحول من العصور القديمة إلى العصور الوسطى

كان بطيئًا ، ذلك لأنه فى وقت مـا فى القرن الرابـع ، أو القرن الخـامس ، أو القرن السادس كان النظام الرومانى من حيث المؤسسات ، والسلوك ، والأفكار قد حل محله نظام آخر وبشكل من الأشكال ، وعندها فقط يمكننا القول إن روما قد سقطت فعلاً ./

ولكن لماذا سقطت روما ؟ الحقيقة أن هناك الكثير والكثير من الإجابات ، مثل **الإجابة الفكرية** : حيث قال مونتسكيو Montesquieu : إن الرومان قد غزوا العالم بمبادئهم الجمهورية ، ثم غيروا من مبادئهم لكى تتلاءم مع الإمبراطورية ، والمبادئ الجديدة دمرت الإمبراطورية. وهناك الإجابة الأخلاقية بأن التساهل والرفاهية والنعومة والتدهور فى الشخصية وفى النظام هو سبب السقوط . أما إجابة أوغسطين المسيحية فتقول : إن روما الآثمة سقطت لكى تمهد الطريق لانتصار مدينة الله.

أما **الإجابة العقلانية** التى ترجع إلى القرن الثامن عشر الميلادى والتى قال بها المفكرون الملحدون ، فترى أن المسيحية ، والتعاليم القائمة على الاستكانة والتسليم بالأمر الواقع ، والانهماك فى الشئون الدنيوية ، كلها جعلت الرومان منزوعى سلاح فى مواجهة البرابرة . بينما يرى أصحاب **التفسير السياسى** أن القيصرية ، وفقدان روح الجماعة ، وفشل القوى الاجتماعية فى السيطرة على مقدرات الجيش هى أسباب السقوط . فى الوقت الذى يرى فيه أصحاب **التفسير الاجتماعى** أن الحروب الطبقية ، وإقامة نظام العبودية قد أخمدا كل البواعث نحو التغيير والتقدم مما أدى إلى السقوط. كما يرى أصحاب **التفسير الاقتصادى** أن السبب راجع إلى الركود التجارى، وانخفاض الإنتاجية، مع ندرة الذهب والفضة. هذا فى الوقت الذى يرى فيه أصحاب **التفسير المادى** أن السبب راجع إلى : استنزاف التربة الزراعية ، وإزالة الكثير من الأحراش ، مع تغير المناخ وما أعقبه من سيادة كثير من فترات الجفاف.

بينما يرى أصحاب **التفسير الباثولوجى** أن السبب هو كثرة انتشار الطواعين والملاريا ، وكذلك التسمم الناجم عن كثرة استخدام الرصاص فى أوانى الطهى وأنابيب المياه . أما أصحاب **التفسير التاريخى** فيرون أن السبب راجع إلى تضاؤل العنصر الرومانى بسبب كثرة الحروب ، وتحديد النسل ، واندماج هذا العنصر مع سلالات شرقية وبربرية أخرى . ويرى أصحاب **التفسير البيولوجى** أن السبب راجع إلى أن الإمبراطورية كأى كائن حى ، لابد أن تمر بعدة مراحل فى نموها، ونضجها ، ثم تأخذ فى الاضمحلال إلى أن تدخل مرحلة الموات .

ومهما كان السبب ، فإن الأيام الأخيرة من عمر الإمبراطورية قد تميزت بشيء من وَهَن العزيمة ، والخوف ، وبما اصطلح على تسمية "الفشل العرقي" . فلقد كانت الإمبراطورية الرومانية مثل أي عمل تجاري في طريقه إلى الاضمحلال، وبرامجه قد وصلت إلى درجة من الانكماش والذبول ، كما أن فرصه للمغامرة كانت يائسة ، في الوقت الذي ترى القائمين عليه يهزون أكتافهم ويتمنون أن يستمر المشروع حتى لا يتم طردهم منه.

ومع هذا فقد بقيت معظم الإنجازات الرومانية القديمة والعظيمة في نفس الوقت ، مثل الأسوار الحجرية الهائلة ، والمعابد ، والحمّامات العامة ، والقنوات المائية ، والمسارح ، والقصور. إلا أن المدن انكمشت من حيث حجمها وعدد سكانها ، نذكر على سبيل المثال مدينة مثل أوتون Autun في فرنسا ، والتي كانت تشغل مساحة ما يقرب من خمسمائة فدان، فقد انكمشت مساحتها إلى أقل من خمسة وعشرين فدانًا. وصحب هذا الانكماش انخفاض مستوى الخدمات المحلية ، مثل إضاءة الشوارع ، وتدفق المياه للحمّامات العامة ، ونظم الصرف الصحي ، في الوقت الذي أخذت تنمو فيه الأعشاب والشجيرات لسد قنوات الري ، وتتراكم الأحجار المنهارة ، وانهارت أسقف كثير من المنازل ، وأخذت حجارة الشوارع المرصوفة تعلو وتتناثر في كل مكان . أما المنازل التي خلت من السكان فقد تداعت وتم استخدام أحجارها في تدعيم الأسوار. لقد عانت المدن الرومانية الكثير من عمليات الدمار الشامل ، وغدت كئيبة المنظر ولا يرجى لها صلاح . أما في الريف ، فقد تدهورت أحوال سكانه ، كما انهارت أكثر وأكثر أحوال الطبقة العاملة من العبيد وفق النظام الروماني القديم ، وتحولت الأرض الزراعية إما إلى أرض بور أو أرض سبخة.

وبدأ التدهور السكاني في إيطاليا وفي بلاد اليونان منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يمض وقت طويل حتى تأثرت بلاد الغال "فرنسا". أما الجيش الروماني فقد تم تجنيده لصد هجمات البرابرة فقط، مما أدى إلى وقوع الكارثة . وقام الأباطرة بدعوة المهاجرين من وراء حدود الإمبراطورية إلى الاستيطان في إيطاليا ، بل انضمت إليهم عناصر أخرى لم تتم دعوتها للاستيطان .

ومن الناحية الاقتصادية فإن النظام القديم قد انكمش أو انهار. حيث غدا اعتماده الرئيسى على عمليات الغزو ، والضريبة ، والرق ، وظهر جليًا ازدراء العمل المنتج . أما المدن المستقرة فقد أخذت تستنفذ مواردها ، بحيث غدت حركة التنقل محفوفة بالمخاطر وباهظة التكاليف ، أما الحروب والتى غدت معظمها حروبًا دفاعية ، فقد كانت حروبًا بلا غنائم. وفى الوقت الذى فقدت فيه النقود أهميتها ومكانتها ، أخذ نظام المقايضة يحل بالتدريج ليصبح الشكل الاقتصادى الطبيعى فى المعاملات. فى الوقت الذى أخذت فيه المجتمعات تقلل من احتياجاتها ومن مستوى معيشتها ، وتعلمت كيف تكون معتمدة على نفسها ومكتفية بذاتها كلية. ومع هذا فقد بقى هناك دائمًا نوع من السخرية اللاذعة والحظوة حتى فى أشد الأيام ضراوة .

ولقد استفاد كبار القادة والضباط والمتملقون ، والسوريان المهرة ، وتجار اليهود ، وكبار ملاك الأراضى على وجه الخصوص، حيث قام بعض كبار ملاك الأراضى بتحصين قصورهم ، واحتفظوا بجيوش خاصة بهم، هؤلاء النين كونوا ممتلكاتهم الخاصة من خلال الهبات الإمبراطورية ، أو من خلال شرائهم الأرض من صغار الملاك، والذين تلقوا فى مقابل ذلك الحماية من الضرائب الحكومية ، والأمن والأمان ضد المغيرين ، سواء كانوا من السكان المحليين أم من الغزاة الأجانب . هؤلاء الرجال أصبحوا مرتبطين بالأرض التى عاشوا عليها ، وتحولوا بمرور الوقت إلى عبيد للأرض، وإن كانت طريقة معيشتهم لم تتغير كثيرًا ، وإن كانوا قد فقدوا حريتهم ، إلا أنهم حصلوا على الأمن والأمان كبديل عن الحرية ، على أساس من المقايضة العادلة فى عالم غير مستقر ، وهنا يمكن لأى فرد منا أن يرى النواة التى تطورت وشكلت فيما بعد النظام الإقطاعى.

هذا العصر بما له من نهايات حزينة قد تميز ببداية عظيمة : وهى ارتفاع شأن الكنيسة المسيحية فى الغرب الأوربى. المسيحية بكل جمالها وفتنتها، ومكانتها العالمية، بكل وعودها الخلابة بحياة خالدة ، حيث لقيت الترحاب كل الترحاب. ولقد تحقق لها النصر عندما تحول الإمبراطور قنسطنطين Constantine من الوثنية إلى المسيحية – قبل معركته عند جسر ملفى the Milvian Bridge فى روما سنة ٣١٢م ، عندما رأى

فى السماء صليبًا يتلألأ ، ومعه كلمات كتبت باللغة اليونانية وهى "بهذا سوف تنتصر". وعندها أقسم أنه إذا انتصر فى المعركة التى ستمكنه من السيطرة على الإمبراطورية فإنه سيصبح مسيحيًا ، على الرغم من أنه لم يكن متعطشًا للدماء ؛ وهكذا أصبحت المسيحية الديانة الرسمية لروما ، بينما بقيت الوثنية على مكانتها فى الريف المحيط بروما ، وبين المحافظين على التقاليد القديمة.

إن نجاح العقيدة القويمة تطلّب نظامًا فعالاً وهو الكنيسة ، حيث كرس القادة الموهوبون كل وقتهم لها ، وبثوا فيها كل حماسهم ، وأصبح منهم قساوستها وأساقفتها. ومثل الإمبراطورية تمامًا كانت الكنيسة مقسمة إلى عدة أقاليم على رأسها الأساقفة ، وفى الوقت الذى أخذت تتضاءل سلطة الحكومة ، إذا برجال الدين هؤلاء هم القادة والمدافعون عن حقوق العامة ، وآلت إليهم كل الاختصاصات المدنية والاجتماعية، وقاموا برعاية الفقراء والمرضى.

وفى الغرب الأوربى أصبح أسقف روما هو الأسمى مكانة على غيره من الأساقفة، ولم يحصل على لقب البابا حتى القرن الخامس للميلاد ؛ وفى الفترة السابقة على هذا التاريخ كان كل واحد من الأساقفة يلقب بالأب ، أما أسقف روما فقد كان يلقب بالكاردينال، وذلك راجع لمكانته الدينية ، باعتباره خليفة القديس بطرس من جهة ، ومن جهة أخرى لأنه توالى على هذا المنصب عدد من كبار الأساقفة ، مثل جريجورى العظيم (٥٠٩-٦٤٠م) الذى دافع عن المدينة ضد البرابرة ، وقدم الكثير من الخدمات الاجتماعية، وشجع الأعمال التبشيرية ، وكتب الكثير فى هذا المجال.

لقد كان العصر الأول للمسيحية هو عصر الرهبان. على الرغم من أن الديرية ازدهرت أولاً فى الشرق ، وبوجه خاص فى مصر ، ومن هناك تمت استعارة النظم الديرية وإن شابها بعض التحريف فيما يتعلق براهبات الأعمدة واللائى قمن برعى كل أنواع الماشية – فالقديس بندكت الذى يرجع أصله إلى نورسيا Nursia فى إيطاليا (حوالى ٤٨٠-٥٤٣م) هو الذى أدخل نظام الديرية . ونظامه الشهير شجع على حياة التنسك والزهد فى الأمور الدنيوية ، وبدون ذكر التفاصيل ، فإن هذا النظام فرض على أتباعه وبشكل معقول ضرورة تخصيص ساعات للصلوات ، والعبادة ، والدراسة ، والعمل فى الحقول . ومازال هذا النظام هو السائد فى كثير من الأديرة.

وفى الفترة ما بين القرنين السادس والعاشر الميلاديين ، وهى الفترة التى شهدت الركود الاقتصادى الذى أعقب سقوط روما ، استطاع الرهبان أن يبسطوا هيمنتهم على العالم الغربى كله ، وقاموا بكثير من الأعمال التبشيرية العظيمة ؛ وبشكل مأمون إلى حد ما فإنهم حافظوا على الحضارة القديمة فى مكتباتهم ، حيث قاموا بنسخ الكثير من الكتب ، وأصدروا العديد من الكتب الجديدة ، كما أداروا معظم المدارس . وفى داخل جدران أديرتهم احتمى كثير من الرجال الذين كان لديهم الدافع للزهد وهجر الحياة ، والبحث عن الفضيلة ، والرضا بالقضاء والقدر. لذا كانت المؤسسات الديرية أشبه ما يكون بالجنة التى يفر إليها كل من يستطيع الهرب من العالم المليء بالشرور والآثام.

ولقد شهدت هذه الفترة ذاتها قيام الكثير من المؤسسات الكنسية ، كما أن الذهاب فى رحلة من رحلات الحج إلى أحد الأماكن المقدسة أصبح شيئًا كثير الحدوث منذ القرن الثالث للميلاد فصاعداً ؛ كذلك فإن عمليات الحصول على الذخائر المقدسة من الشرق كانت آخذة فى التزايد ، وأدت إلى كثير من المنافسات غير الأخلاقية فى جمع تلك الذخائر المقدسة. كما تم وضع القانون الخاص بالتكفير عن الذنوب والآثام. ففى أيام القديس كولمبان St. Columban، حوالى عام ٦٠٠م نراه قد أمر بجلد أى راهب ينسى أن يقول آمين ست مرات بالسوط ، ويضرب من يخدش منضدة بسكينه عشر مرات ، وكذلك ضرب من يشذ عن زملائه أثناء الترانيم ست مرات . كما أن الطقوس الدينية أصبح لها شكل ثابت ، وتم تدوين الترانيم الكبرى ، كذلك تشكلت الجمعيات الخيرية الدينية أو اتحادات الرجال العلمانيين ، كما نالت جماعة "العذراء مريم" للأعمال التبشيرية شهرة كبيرة ، وشيدت أول كنيسة باسمها وهى كنيسة سانتا ماريا الكبرى Santa Maria Maggiore فى مدينة روما .

إلا أن الكنيسة الأولى تعرضت لكثير من الانقسام والتمزق بسبب الأشخاص المولعين بالخصام المذهبى ، ولعل أشدهم تمسكًا بمذهبه المخالف هو آريوس Arius الذى ظهر فى بدايات القرن الرابع للميلاد. والذى قام جداله الرئيسى حول طبيعة المسيح ، وبما أنه مخلوق من قبل الرب ، فلا بد أن يكون فى منزلة أقل منه ، ولذا فهو

غير مساوٍ له فـى القداسة. وفى «مجمع نيقية» سنة ٣٢٥م الذى عقد تحت رئاسة إثناسيوس ، فإن الكنيسة اعتبرت ما ذهب إليه آريوس هرطقة تستحق اللعن . ومع هذا فإن الآريوسية انتشرت على نطاق واسع ، ووصلت عن طريق المبشرين المتحمسين إلى القبائل المتبربرة ، وخصوصاً إلى القوط ، والوندال ، والبورجنديين ، واللمبارديين ، مما كان سببًا قويًا فى نشوب الصراع . هذه القبائل المتبربرة كانت قد استقرت منذ زمن طويل خارج الحدود الواهنة للإمبراطورية الرومانية ، كما أنها أخذت تتسلل عبر حدود الإمبراطورية بحيث أصبحتَ تراهم فى كل مكان. ففى المدن الرومانية كانت الشوارع تزدحم بالعبيد ، والجنود ، والمحاربين البرابرة ؛ كما أن مناطق رومانية كثيرة شهدت استقرار عديد من قبائلهم المتحالفة مع الإمبراطورية الرومانية ؛ وهكذا كان هناك طابور خامس قوى ساعد على الزيادة المفاجئة للسكان.

وعن الغزاة الأوائل الذين اجتاحوا حدود الإمبراطورية ، يأتى الجرمان الذين احتلوا وسط أوربا ، وإلى الشرق منهم كانت قبائل السلاف البدائية ، وإلى الشرق منهم نزل شعب الهون المعروف بهمجيته ، والذين اشتهروا بكثرة إغاراتهم على من يجاورونهم ، وعندما حدّ سور الصين العظيم من إغاراتهم تحولوا إلى أوربا، وضغطوا على جيرانهم من القوط الغربيين الذين لم يجدوا مفراً من اجتياح الحدود الرومانية ؛ إلا أن المناطق التى نزل بها الهون تعرضت لفترة من الجفاف مما دفعهم إلى اجتياح الدفاعات الرومانية، وهكذا تحالف العطش مع عشقهم للإغارة لاجتياح الحدود الرومانية.

لقد عبر القوط الغربيون – وهم من العناصر الجرمانية – المناطق السفلى من الدانوب عام ٦٧٣م ، وكانوا شعبًا من البدو الرحل ، يمتطون الجياد ويشكلون جيشًا قويًا حتى من النساء والأطفال ، أما الكبار فيركبون العربات. ولقد دمر الفرسان منهم فرق المشاة الإمبراطورية بالقرب من القسطنطينية وقتلوا الإمبراطور؛ وبزعامة قائدهم الشهير ألريك Alaric انساحوا خلال بلاد اليونان ، ثم تحولوا إلى الغرب واستولوا على روما سنة ٤١٠م. إلا أنهم وجدوا إيطاليا بلداً فقيراً لا يستطيع إعالتهم ، فتحركوا منها وعبروا بلاد الغال "فرنسا" إلى إسبانيا ، لكى يؤسسوا مملكة للقوط الغربيين استمرت حتى قضت عليها قوات المسلمين فى بدايات القرن الثامن للميلاد.

ثم يأتى من بعدهم الوندال ، والذين اشتهروا بإسرافهم فى التدمير والوحشية وعمليات النهب والسلب ، والذين اجتاحت جموعهم بلاد الغال وإسبانيا ، وشيدوا مملكة لهم فى موقع قرطاج القديمة ، ومن هناك وصلوا بسفنهم إلى روما سنة ٤٥٥م لكى يقوموا بكثير من عمليات النهب والسلب ، واستمرت إغاراتهم المدمرة مدة أسبوعين ، فحطموا سقف "الكابيتول" the Capitol معتقدين أنه من الذهب ، كما أنهم حملوا معهم حتى التماثيل ، ومن المحتمل أنهم فعلوا هذا لما فيها من معدن البرونز أكثر منه تقديرًا لها كأعمال فنية.

أما عن الهون ، فهم شعب مغولى الأصل ، كان الأوربيون الغربيون ترتعد فرائصهم من مجرد رؤية وجوههم عديمة الشعر، المليئة بآثار الجروح ، وعيونهم الصغيرة الغائرة ، وروائحتهم العفنة. والذين استطاعوا تحت قيادة زعيمهم أتيلا Attila "نقمة الله" أن يجتاحوا بلاد الغال سنة ٤٥١م ، فتحالفت القوات الرومانية ، والقوط الغربيون ، والعديد من القبائل الجرمانية ، واستطاعوا دحرهم وطردهم بعد معركة طاحنة بالقرب من مدينة Troyes. وبعدها استطاع الهون اجتياح إيطاليا بخيالتهم ووصلوا إلى أسوار روما ، حيث تصدى لهم البابا ليو العظيم بشكل فعال ، إلا أنهم سرعان ما رفعوا حصارهم وغادروا إيطاليا بسبب موت أتيلا Attila المفاجئ.

أما الفرنجة من القبائل الجرمانية والذين كانوا قد استقروا فى جزء من الإمبراطورية الرومانية وهو ما يعرف الآن باسم بلجيكا ، فإنهم تقدموا صوب الشرق ، فى الوقت الذى قام فيه البرجنديون بعبور الراين الأعلى ودخلوا المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم برجنديا Burgundy. مما اضطر الجيش الرومانى المتضائل إلى أن يحمى خطوط دفاعات الإمبراطورية على امتداد الجزء الأعظم من القارة ، وبالتالى إلى أن ينسحب شيئًا فشيئًا من بريطانيا Britain فى بدايات القرن الخامس الميلاد. وعندئذ احتج السكان المحليون لدى الإمبراطور وطالبوا بالمساعدة ، فكان رده عليهم أنهم يجب أن يتعلموا كيفية الاعتماد على أنفسهم فى الدفاع . وسرعان ما تدفق البكت The Picts صوب السور الذى أقامه هادريان فى الشمال ، كما أغارت قبائل الإسكوتش على المناطق الساحلية من مواطنهم فى شمال أيرلندا.

وقـام السكسـون أو الأنجلو سكسـون بغـاراتهم من الدانمرك وألمانيـا ليـخـربوا الشواطئ الشـرقية لإنجلترا ، فوجـدوا المنطقة مـلائمـة تمامًا ، فـأقاموا مسـتعمرات استـيطانيـة دائمـة لهم · كـمـا تجولوا فـى المناطق الرومـانيـة الأخـرى ، وقـام السكان المحليون وهم من البريتون الرومان ، فحاربوا السكسـون طويلاً ، وعلى مدى قرنين من الزمـان حـقـقوا النصـر عام ٥١٧م · كـان الملك آرثر أحـد الزعـمـاء البـارزين فى هذا النصر ، وهـو فى الحقيقة من البـريطانيين الذين قـاومـوا الغـزاة ، ومـعه مـجـمـوعة من زملائه الذين اشتهروا باسـم «فرسـان المائدة المستديرة» Knights of the Round Table. ومع نهاية القرن السادس للميلاد قـامت مملكة السكسون ، فى الوقت الذى انسحب فيه البريطـانيون The Britons إلى الغرب لرفضـهم الخضـوع لحكم أجنبى عنهم ، فذهبوا إلى ويلز Wales، وكورن وول Cornwall وإلى بريطانيا Brittany عبر بحر الشمال.

لقد كان هناك نوعان من حركات التوسع التى قام بها البرابرة ، إما غزوات بهدف الحصول على المغانم ، أو على شكل هـجرات بسبب التزايد السكانى ، فأما الذين قاموا بعمليـات الغزو من أجل الغنائـم من أمـثـال الهـون The Huns، فكان الهـدف منهـا هو حمل كل مـا يسـتطيـعون حـمله على ظهور جـيـادهـم من أمـوال ومـجـوهـرات كـان يمكن العثور عليـهـا فقط داخل الكنائس وفى منـازل الأثرياء · وربمـا قـام المغيـرون بارتكاب بعض الأعمـال الوحشـيـة ، وإشـعـال الحـرائق ، إلا أن المنازل لم تتـأثر كـثـيراً فى المدن التى تعرضت لمثل هذه الحـالات بسبب صلابة أحـجار مبانيها · أما فى المناطق الريفية فإن الغـزاة ربما أحـرقـوا المنازل المسـقـوفة بالقش ، وحظائر الماشـيـة والأمـاكن المعدة لإيواء العربات ، ونهبوا مـا فيها من حيوانات وخصوصـًا التى يعتمد عليـهـا القرويون فى الحصـول على بعض غذائهم ؛ إلا أنهم لم يتـعرضـوا لحقول القمح ولم يقطعوا أشـجـار الكروم أو أشـجار البسـاتين.

أما الغزو من أجل الاستيطان فقد كان مـختلفًا تمام الاختلاف ، فالقـادمون الجدد يريدون الهـيـمنة أو السـيطرة وليس إلحـاق الدمـار، وكـانت أعدادهـم قليلة نوعًـا مـا ، وتراوحت جـمـاعـاتهم مـا بين ٢٠٠٠ و ١٢٠٠٠ بمن فـيـهم النسـاء والأطفـال ، ويشكل المحاربون من كل جمـاعة من هذه الجمـاعات حوالى الخمس تقريبًا ، وهم عبـارة عن قبائل دائبة الحـركة ، يبـحـثون عن أرض الميـعاد ، وفـى أثناء تحـركاتهم هذه يـرتكبون بعض الأعـمـال الوحـشـيـة بطريق الصـدفة ، ولـم يكن غـرضـهم الإبادة لأنهـا لا تخـدم هدفهم الرئيسى.

كما لم تكن الغزوات التى قام بها البرابرة كلها كارثة بالنسبة لمن يقطنون داخل حدود الإمبراطورية ، والذين لم يكن يعنيهم فى كثير من الأحوال إذا ما كان مغتصب الأرض رومانيًا أو جرمانيًا مادام يعاملهم برفق ، ولا شك أنه وُجِدَ الكثيرون ممن لم يسمعوا عن البرابرة ، أو حتى عن أثر غزواتهم ، وعاشوا حياتهم الرتيبة يومًا بعد يوم وسنة تلو الأخرى غير مدركين ما كان يلوح فى الأفق من أحداث لها تأثيرها التاريخى الكبير.

ومع هذا فإن الكثير من المعالم الرومانية القديمة بقيت فى ظل سيطرة البرابرة ، من حيث اللغة ، والأشكال المختلفة للعبادة واحترامها ، والمؤسسات ، والقانون ، وحتى فكرة الوحدة المثالية للإمبراطورية. واندمجت الحضارات ، وغدا الامتزاج واضحًا ، واختلطت السلالات والأصول - وتلاشى التعليم بشكل مؤكد ، فقد كانت الحضارة الرومانية القديمة قائمة على سعة الاطلاع ، وهذا مما يروق لكثيرين من الكتاب فى الماضى والحاضر، إلا أنها فقدت قوتها الإبداعية. بينما تجد حضارة البرابرة حضارة لها قوتها وفعاليتها ، ليس فى مجال التدوين والتراث ، لأنها لم تكن قادرة أبدًا على تدوين الأحداث ومسبباتها بشكل مقبول ، ولكنها كانت دائمًا منشغلة بتحويل عالمها.

وبشكل أو بآخر فإن القادمين الجدد قد جعلوا الحياة أفضل وأسهل ، حيث جلبوا معهم أنواعًا جديدة من الملابس والمنسوجات ، مثل اللباد والفراء ، وفوق كل ذلك السروال "البنطلون" الغالىّ. لقد عرف الغاليون القدماء السروال "البنطلون" ، إلا أنهم تركوا استعماله ، واستخدموا الثوب الرومانى الفضفاض. كما انتشر السروال المغولى الأصل فى كل أنحاء العالم ، حتى وصل إلى الإسكيمو وسكان المناطق القطبية . كما جلب البرابرة أنواقهم فى الطعام ، مثل الخبز الغجرى والزبد ، والخبز المستدير ، والخبز الهش، وكذلك السرج الخشبى ، وتقريبًا المحراث ذا العجلات ، والذى نجح فى زراعة الأرض الثقيلة ذات الأمطار الغزيرة فى الشمال. كما أن البرابرة أحيوا المفاهيم المثالية عن البطولة وقيمتها الروحية للمحاربين فى عالم اندثرت فيه القيم الروحية.

ومن القبائل الجرمانية المتبربرة يأتى الفرنجة الذين قدر لهم أن يشكلوا الفترة الزمنية القادمة ، حيث كانت بلادهم – وهى أرض الفرنجة أو فرنسا – قد غدت مركزًا

ومثالاً لحضارة العصور الوسطى. فالفرنجة، وهم إحدى القبائل الجرمانية ، كانوا أول من نزل الأراضى المنخفضة وعلى امتداد نهر الراين. ففى عام ٤٨١م فإن كلوفس Clovis البالغ من العمر الخامسة عشرة نجح فى فرض سيطرته على معظم أفراد قبيلته ، وقام بغزو غاليا ، وشيئاً فشيئًا نجح فى بسط نفوذه على المناطق الشمالية والغربية منها إلى أن امتد نفوذه إلى جبال البرانس The Pyrenees . ولكى يحقق هذا فقد كان عليه أن يُخْضِع ليس فقط العناصر الغالية المتحالفة مع روما ، بل والجماعات الجرمانية المنافسة مثل اللاأليمان والبورجنديين والقوط الغربيين . وفى وقت ما اعتنق المسيحية على المذهب الإثناسيوسى.

ومما لا شك فيه أن تحوله ومن ثم تحول شعبه بالتبعية عن الوثنية ، كان بمثابة الحصن الحصين للمسيحية الكاثوليكية فى الغرب الأوربى. إن اسم كلوفس والذى تحول فيما بعد من الفرنسية إلى اسم لويس ، هذا الاسم ظل متألقًا كعلم فى تاريخ فرنسا على أول ملوكها العظماء تمامًا مثل اسم لويس الذى حمله تسعة عشر ملكًا. كما أن كل طفل فرنسى يحفظ عن ظهر قلب العبارات التى قالها ريميجيوس Remigius أسقف ريمز : "احْنِ الرأس، أيها الفرنجى العظيم ، كن محبًا لدرجة العبادة لما تتميز به ، وتميز بما أحببته" . لقد مات كلوفس سنة ٥١١م ، بعد أن قسم مملكته بين أولاده الأربعة وفقًا لتقاليد الفرنجة فى الميراث . وسرعان ما انقسمت هذه المملكة إلى عديد من الإمارات الصغيرة ، بسبب كثرة عدد الورثة من جهة ، وعملية الاغتيال والقتل من جهة أخرى ، هؤلاء الحكام هم الذين عرفوا باسم الملوك الميروفنجيين الذين استمدوا اسمهم من جد كلوفس وهو ميروويج Merowing. ولسبب ما فإن الملوك المتأخرين منهم قد اشتهروا باسم The rois faineants أى الذين لاحول لهم ولا قوة، أو الذين لم يفعلوا شيئًا.

ولقد حاول نظام الحكم الميروفنجى – رغم ضعفه الظاهر – أن يجد حلاً لكثير من المشكلات الطارئة. فالنظام الرومانى قد اعتمد على مركزية المؤسسات وتحصيل

الضرائب وثبت فشله ، كما اختفت كثير من المرافق العامة والخدمات ، وأخذت تظهر القوى المؤثرة فى الأقاليم المحلية ، وهم من الرجال الجدد ومعظمهم من الفرنج . وقام الملوك بتعيين هؤلاء من أصحاب التفوق كدوقات أو كونتات ، وكلفوهم بمهام الدفاع ، وإنشاء الإدارات ، والمحاكم لفض المنازعات وفقًا للأعراف المحلية ؛ وكان على الكونتات أن يمدوا الملك ببعض الفرق الحربية الصغيرة والذين جندوهم من أتباعهم ، وأغدقوا عليهم قطعًا من الأرض ، وهم الذين عرفوا باسم الفرسان . هذه الجيوش كان عليها أن تلبى نداء الملك فى أية حروب هجومية أم دفاعية . ولم يقم الكونتات بدفع أية مبالغ نقدية للملك وذلك لندرة التعامل بالنقود ، وكان من المتوقع أن يكتفى الملك بما تغله أراضيه الملكية وهى ما عرفت باسم الدومين ، هذا النظام الذى تطور بمرور الوقت إلى أن ظهر النظام الإقطاعى المعروف.

ومن وجهة نظر الملك فإن هذا النظام كان نظامًا فقيرًا جدًا، لأنه لم يحصل إلا على عائدات بسيطة جدًا ، ولم يكن لديه ما يستطيع أن يمنح أحدًا إياه سوى الأرض ، وحتى الأرض التى كان يمنحها لأحد فإنها لم تعد أبدًا لحوزته ، وبمرور الوقت كان يزداد فقرًا، ولم يعد فى يديه شيء من السلطات الفعلية . وحوالى منتصف القرن السابع للميلاد فإن هؤلاء الملوك البائسين كانوا قد تخلوا عن المقاليد الفعلية للحكم ، وشغلوا أنفسهم بالنزهات فى العربات الملكية التى تجرها الثيران ويقودها أحد الفلاحين . وبالنسبة لأمثال هؤلاء الحكام كان من السهل عليهم أن يجدوا وزيرًا عديم الضمير أو سكرتيرًا ينوب عنهم فى تسيير الأمور التى تتعلق بسلطاتهم . لذا فقد كان المهيمن على كل الشئون فى الدولة الميروفنجية فى حالتى السلم والحرب هو كبير المستخدمين فى القصر الملكى ، والذى قوى مركزه بالتدريج بحيث أصبح يورث منصبه لأبنائه ، والذى يمكننا أن نسميه رئيس الوزارة الذى يتولى منصبه بالوراثة. وبالطبع فإن رئيس المستخدمين فى القصر الملكى لم يكن على قناعة بأن يكون ملكًا سوى بالاسم فقط.

ولو افترضنا أن أحد رحالة القرن العشرين قام بزيارة لفرنسا عام ٧٥٠م فإنه سوف يرى أنها مجرد منطقة زراعية بسيطة ومتخلفة تمامًا مثل بقية الغرب الأوربى.

بينما لو زار الإمبراطورية الشرقية سيرى فيها مكانًا أكثر ملاءمة للحياة . فالعالم كريستوفر بروك Christopher Brooke يقول : إن رحالة العصر الحديث سوف يشعر بعدم الغربة فى قسطنطينية العصور الوسطى أكثر من أى مكان آخر فى أوربا . لأنها تمثل عالماً فيه الكثير من المتعلمين الذين يعرفون إنجيلهم تمامًا وتاريخهم اليونانى القديم ، ويمكنهم أن يتحدثوا بطريقة معقولة عن ربهم ، وعن الزلازل وارتفاع الأسعار، إنه عالم يشكل المال فيه كل شىء صغيراً كان أو كبيراً، تجد فيه المحالّ والمتاجر والمصانع ، أقرب ما يكون إلى المدينة الصناعية التى تجدها فى أوربا الحالية ، عالم تجد فيه الأشخاص ذوى الأصل النبيل وقد انخرطوا معًا فى النقابات والأندية.

كما أن الزائر سوف تأخذه الدهشة لعظمة الإمبراطور وعرشه المرتفع والشامخ ، وحوله تماثيل السباع وهى تزأر ، والطيور وهى تصدح بالغناء ، ولسوف تترك لديه الفنون الجميلة والمنشآت المعمارية انطباعًا هائلاً ، فهناك كنيسة القديسة صوفيا والتى تعتبر واحدة من أعظم الإنجازات المعمارية فى العالم . وإذا كان لديه حماسة العلماء فإنه سوف ينبهر لحركة ازدهار الأدب فى هذه المدينة ، والاهتمام الواضح بعلم اللاهوت ، ودراسة القانون.

ولربما مد رحلته إلى العالم الإسلامى ، ففى القرنين السابع والثامن للميلاد ، فإن العرب أتباع محمد ﷺ كانوا قد غزوا نصف العالم الغربى ، وامتدت إمبراطوريتهم من الهند إلى إسبانيا ، وهددت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وفرنسا ، وإيطاليا. كما سارت التجارة فى ركاب الفتوحات الإسلامية ، حيث تحكم المسلمون فى البحار ، وقامت الأساطيل البحرية والقوافل الإسلامية بالتجارة مع الصين ، وتم تشييد الكثير من المدن الرائعة فى صحراء الشرق . ففى سنة ٧١٢م عبر العرب جبال البرانس Pyrenees وباختصار فإنهم سيطروا على الساحل الفرنسى المطل على البحر المتوسط، كما شنت فرق فرسانهم هجوماً ضخمًا على فرنسا عام ٧٣٢م ، وحطموا الكنائس فى بوردو Bordeaux وبواتير Boitiers، ولكن تصدى لهم الفرنجة بزعامة شارل مارتل كبير مستَخْدَمى القصر الملكى بالقرب من تور Tours، لذا تعتبر موقعة تور "أو بلاط الشهداء" ذات دلالة مهمة لأنها أوقفت المد الإسلامى. إلا أن الإمبراطورية العربية

أخــذت فى التـمـزق بسـبب المنافـسـات والنزاعـات التى كـانت ثمن النجــاح ؛ ذلك لأن عمليات الفتح استمرت مائة عام ، واستنزفت حماس الفاتحين ، وتطلعوا لأن يجنوا ثمرة النجاح.

وعندما يغادر رحّالتنا أرض الإسلام والشرق ، فإنه سوف يجد نفسه فى أوربا المتبربرة ، حيث الحياة الشاقة ، والجوع ، وعدم الأمان والأمن . وعلى كراسى الحكم هناك رجال أشداء ، معظمهم من الجرمان ، أيديهم دائمًا قابضة على سيوفهم ، وحيث قلة من مـلاّك الأرض الذين وضعوا أنفسهم تحت حماية كبار الملاك ، فضلاً عن أن المدن لم يكن فيها سوى القليل من متطلبات الحياة ، والتى غدت فى معظمها كملاجئ للفلاحين أو كانت آخذة فى الاختفاء تمامًا .

ولأن السلطة المركزية كانت قد ضعفت ، فإن الكنيسة وأساقفتها تولوا القيام بكثير من مهام السلطة الزمنية ، حيث قام الأساقفة بنشر العدالة بين الناس ، كما قاموا بكثير من الأعمال المدنية ، وقدموا الحماية لأتباعهم ، وفى الأوقات العصبية ثبتوا من عزائمهم عند مواقع القتال ، وكانوا على رأس المدافعين ضد الغزوات الأجنبية وضد المعتدين المحليين. وبهذا أخذ العلمانيون كبارًا وصغارًا – من الملوك وحتى العبيد – يحسبون للكنيسة حسابها ، وأسلحتها الروحية ، واحترموا حقوقها ، مثل حقها فى أن تكون حرمًا وملاذًا مقدسًا لكل من يلوذ بها.

وسرعان ما تجلّى حماس الكنيسة للتبشير ، ففى بدايات القرن الخامس للميلاد نجد القديس باتريك St. Patrick، وهو بريطانى قام بتعليم الأيرلنديين اللغة عندما وقع أسيرًا فى قبضة بعض قراصنتهم ، مما كان له تأثيره فى تحول جزيرتهم من الوثنية إلى المسيحية. وسرعان ما اكتسبت الكنيسة الأيرلندية طابعًا خاصًا بعيدًا عن كنيسة روما ، حيث قامت على أكتاف المؤسسات الديرية ، ومقدمى الأديرة الكبرى الذين عمدوا إلى الابتعاد تمامًا عن روما حتى ولو كان ذلك بوسائل غامضة ، فأقاموا الكثير من الأديرة فى كثير من الأماكن غير المأهولة فى الجزيرة ، واهتموا اهتمامًا فائقًا بالتعليم فى أماكنهم الموحشة هذه ، وأقبل كثيرون منهم على تعلم اللغة اليونانية فى الوقت الذى أصبحت فيه هذه اللغة تكاد أن تكون غير معروفة فى روما نفسها. وقاموا

بنسخ كثير من الكتب المقدسة فكتاب الـ Kells والذى يرجع تاريخه إلى القرن الثامن أو القرن التاسع للميلاد ، والمحفوظ الآن فى كلية الثالوث المقدس فى دبلن Dublin ما يزال يشد انتباه كثير من الزوار كشىء مقدس.

كما قام الرهبان الأيرلنديون برد الجميل ومكافأة القديس باتريك بمحاولاتهم تحويل الاسكتلنديين والأنجلو سكسون إلى المسيحية. ففى القرن السادس للميلاد نجد القديس كولمبا St. Columba يعلن عقيدة الإيمان من مقره فى جزيرته المنعزلة فى أيونا Iona على الساحل الغربى لاسكتلنده ، وسرعان ما غزت دعوته القارة ، وأتت ثمارها فى كثير من الأنحاء الوثنية فى فرنسا والأجزاء المعروفة حاليًا باسم سويسرا.

وفى عام ٥٩٦م فإن البابا جريجورى العظيم كان ملهمًا عندما أرسل بعثة تبشيرية من الرهبان البندكتيين إلى انجلترا. ولقد أدى نجاحهم إلى الدخول فى صراع مع الرهبان الأيرلنديين ، والذين كانوا يتبعون بعض الطقوس الخاصة غير المقبولة فى روما. ونتيجة لهذا الصراع ، فإن انجلترا الأنجلوسكونية قبلت الطقس الكاثوليكى الرومانى. وقام الرهبان الإنجليز بحمل هذه العقيدة إلى الشعوب الجرمانية فى القارة ، واستطاعت البعثة التبشيرية الإنجليزية بزعامة القديس بونيفاس St. Boniface(٦٨٠-٧٥٥م) أن تقيم عدة أديرة فى البلاد المعروفة الآن باسم ألمانيا ، ولا يزال بعضها موجودًا إلى الآن.

ولم يمر وقت طويل حتى تحولت معظم بلدان أوربا إلى المسيحية ، ومن الطبيعى ألا تتعمق المسيحية فى نفوس الناس بسرعة ، إذ لابد من وجود زعيم يعتنق هذه العقيدة ، وأن يستغل سجاياه الشخصية ويصدر مرسومًا عامًا إلى شعبه ممن يجهلون أهمية المعمودية بضرورة المعمودية الجماعية ، كما أنهم لم يكونوا قادرين على نسيان آلهة الغابات التى اعتادوا عليها ، فاستمروا فى تقديم القرابين للأرواح المتمثلة فى الأشجار، والتماثيل ، ومجارى المياه ، وتحولت الطقوس الوثنية لتخدم أغراضًا مسيحية، كما أن الاحتفالات التى كانت تقام مع تغيير فصول السنة وجدت طريقها إلى السنة الميلادية ، حيث ظلت هذه الاحتفالات إلا أن إله المسيحية سرعان ما انتصر ، ولم تعد هناك استغاثة بالآلهة الوثنية القديمة ، والتى غدت مجرد خرافات ، وشياطين ، وأعداء للبشرية.

وعلى الجانب الدنيوى من الحياة ، فإن التجارة أخذت تتقلص شيئًا فشيئًا ، لدرجة أنه حوالى عام ٦٠٠م لم يعد هناك سوى القليل من الطرق التجارية الصالحة والتى تربط الغرب الأوربى بالشرق. كما أن المقابر الميروفنجية قد زخرت بالكثير من المؤثرات الفنية الشرقية ، فضلاً عن أن الحفائر الأثرية التى تمت فى انجلترا كشفت عن الكثير من أنواع الخرز ، والأصداف ، والآنية البرونزية التى تم جلبها من مصر، إلى جانب كأس مرسوم عليها نقوش يونانية من البحر الأبيض المتوسط . إلا أن الكثير من السلع القادمة من الشرق توقفت بسبب عدم توافر الأمن فى تلك الطرق التجارية وفى البحار، وعانى الغرب الأوربى من العجز الواضح فى ميزان التجارة ، إذ لم يستطع أن يصدّر سوى الرقيق ، والسيوف الفرنجية ، وبعض المواد الخام مثل الأخشاب والمعادن والتى لم يتم الاستفادة منها بالطريقة المثلى فى عمليات التصدير بسبب صعوبة نقلها وتحريكها.

وبالطبع فإن بعض الطرق الداخلية قد ظلت مستخدمة ، حيث قام الباعة الجوالون بالتردد على السكان المحليين إما سيراً على الأقدام ، أو فى صحبة بعض دواب الحمل، إلا أن هؤلاء الباعة الجوالين واجهتهم كثير من الصعاب التى عانوا منها ، مثل الضرائب المرتفعة على متاجرهم ، ومنها قطّاع الطرق واللصوص إلى جانب ندرة النقود ، ونقص المنبع الذى يجلبون منه سلعهم ، وفى كل أنحاء الغرب الأوربى كان هناك تضاؤل مستمر فى طبقة التجار التى يمكن وصفها بأنها الطبقة الوسطى أو الطبقة البورجوازية . ومع هذا فإن الحركة على الطرق الرومانية القديمة لم تتوقف بشكل نهائى ، والدليل على ذلك أن أحد رهبان دير Wearmouth فى إنجلترا ويدعى بندكت بيسكوب Benedict Biscop قام بخمس رحلات برية إلى روما أواخر القرن السابع للميلاد ، وعاد منها محملاً ببعض الكتب والصور ، والملابس ، والكثير من الذخائر المقدسة لديره الذى ينتمى إليه ، ومعه رئيس للمنشدين فى كنيسة القديس بطرس لكى يعلم الرهبان فى الدير الترانيم الصحيحة والموسيقا.

كما أن رحلات الحج أصبحت كثيرة بالنسبة للإنجليز بوجه خاص فقد اعتادوا أن يولوا وجوههم شطر القارة لقضاء الأعياد المقدسة من أجل الاستجمام ، لدرجة أنهم

وصلوا إلى بيت المقدس ذاته غير مبالين بثلوج جبال الألب ، أو غرق سفنهم ، أو أعمال القرصنة فى البحار، أو قطاع الطرق أو حتى لصوصية ملاك الأرض فى طريقهم ، هذا إلى جانب بعض المخاطر الروحية "الخلقية" ، وعلى وجه خاص تلك المتمثلة فى النساء الخاطئات اللائى يقمن بالحج ؛ ففى بدايات القرن الثامن الميلادى فإن القديس بونيفاس St. Boniface اقترح منع النساء من القيام بالحج من أجل صالح جماعة الحجاج ، حقًا هناك قليل من المدن فى لمبارديا أو فى فرنسا أو فى غاليا لا يوجد فيها نساء عاهرات أو بنات الهوى.

ومما لا شك فيه أن الفترة الزمنية من القرن السادس وحتى القرن الثامن للميلاد تعتبر فترة توقف ونسيان ، ففى معظم بلدان الغرب الأوربى لم يعد أى فنان قادراً على أن يبنى مجرد قبة ، وحتى صانع السفن لم يستطع أن يشيد سفينة شراعية حربية كما لم يستطع أى صانع للعربات أن يصنع عربة صغيرة ذات عجلتين أو أربع عجلات، كما لم تصلنا من تلك الفترة أية كتيبات ؛ لذا فقد كان على الصناع المهرة فى فترة متأخرة أن يبدأ كل واحد منهم من جديد . ولكن مع كل هذا التوقف والنسيان ، فقد كانت فترة ذات بدايات غير واضحة . وعلى هذا الأساس فإننا عادة ما نطلق على السنوات من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ اسم « العصور المظلمة »، لأن تلك العصور ليس لها ما نستطيع به أن نزيل هذا الغموض أو الظلام. ومن المحتمل أن يكون هذا الغموض وهذا الظلام متعلق بأحكامنا نحن ، ومن المحتمل أننا لو تابعنا البحث فى هذا الظلام أو الغموض أن نعثر على ضوء لدى البرابرة يكون بمثابة الطاقة الخلاقة التى تؤدى بنا إلى جلاء ما غمض علينا معرفته.

ففى الربع الأخير من الألف سنة الأولى ، لم يكن هناك شىء غامض أو مظلم فى الحضارة البيزنطية المنبعثة من القسطنطينية ، كما أن الحضارة العربية الإسلامية كانت فى أوج تألقها، فالإصلاح الزراعى ، والصناعات المزدهرة ، وتشجيع العلوم ، والفلسفة والأدب ، والفنون ، وفنون العمارة ، كل ذلك كان جليًا واضحًا فى بناء عديد من المدن العظيمة مثل قرطبة التى تمتعت بكل أسباب مباهج الحياة الحديثة . وفى الغرب الأوربى كان هناك انبعاث لنهضة جديدة تحت رعاية الفرنجة بزعامة حاكمهم العظيم شارلمان.

لقد بدأ ظهور مملكة الفرنجة عام ٧٥١م ، عندما أرسل بيبين القصير ابن شارل مارتل رسله إلى البابا ليستفسر عما إذا كان من حق أحد من الملوك ممن لاحول لهم ولا قوة ، ومن غير الأكفاء مثل الميروفنجيين أن يحمل الواحد منهم لقب ملك ؟ وكان رد البابا عليه أنه لا يحق لأحد منهم ذلك . وعندئذ عقد بيبين عدة اجتماعات حيث تم تنصيبه ملكًا باسم بيبين الأول. وفى سنة ٧٥٣م أو ٧٥٤م قام البابا ستيفن Stephen برحلة إلى بلاد الغال وتوّجه ملكًا ، وفى مقابل ذلك فإن بيبين قام بزيارة لإيطاليا ، واستطاع إلحاق الهزيمة باللمبارديين أعداء البابوية ، كما قدم أيضًا هدية للبابا عبارة عن منطقة زراعية تقع فى وسط إيطاليا، لكى تصبح معروفة لحوالى ألف سنة باسم « الممتلكات البابوية » ، هذه الهدية لم تجلب للبابوات سوى القليل من الراحة مع الكثير من الويلات وهى التى تم تقليصها إلى المساحة التى تشغلها مدينة الفاتيكان.

ولقد بررت البابوية ملكيتها للأرض بواسطة الوثيقة المشهورة باسم « هبة قسطنطين » والتى من المفترض أنها كتبت بواسطة الإمبراطور قسطنطين حوالى سنة ٣١٢م ، وفيها يعلن قسطنطين أنه ابتلى بمرض الجذام ، لاتباعه نصيحة رجال الدين الوثنيين ، وتسجيله نقشًا عند معبد الإله جوبيتر فوق تل الكابيتول ، وقيامه بحشد جماعة من الأطفال الأبرياء حيث كان ينوى الاغتسال فى دمائهم، ولكن عندما سمع صرخات أمهات الضحايا فإنه تراجع عن تنفيذ فكرته . وبعد الرؤية التى أخبر فيها أنه سيتم شفاؤه على يد أسقف روما سيلفستر ، فإنه لجأ لهذا الأسقف الذى قام بتعميده ثلاث مرات بالماء المقدس فى جرن المعمودية ، وبواسطة المعمودية ، فإن يدًا من السماء أخذت بيده ، وقام معافًى من مرض جذامه. وعرفانًا منه بالجميل ، فإن الإمبراطور منح كل إيطاليا كممتلكات للبابا ، ثم غادرها الإمبراطور إلى عاصمته القسطنطينية تاركًا الوثيقة التى تثبت هبته هذه عند قبر القديس بطرس المصون. "واحسرتاه ، لقد ارتكبت يا قسطنطين خطأ جسيمًا نحو الكنيسة الأم" ، هكذا يصرخ دانتى Dante قائلاً . لأن هذا التصرف لا يمكن أن يكون قد حدث من قسطنطين ، ومن الواضح أن أحد رجال الدين المتعصبين للبابوية قد ابتدع هذه القصة ، ومن المحتمل أنه ابتكر أكبر عملية تزوير فى التاريخ . وهذه القصة عن الهبة كانت قابلة للتصديق حتى القرن الخامس عشر للميلاد، عندما قام لورنزو فالا Lorenzo Valla أحد المتخصصين فى العلوم الإنسانية بتفنيد هذه الوثيقة تاريخيًا ولغويًا.

لقد رزق الملك بيبين من زوجته الملكة بيرثا ذات الأقدام الكبيرة Big-foot Bertha بطفل هو شارل ، الذى وصل إلى العرش سنة ٧٦٨م . والذى اشتهر باسم شارلمان Charlemagne أو شارل العظيم . ولقد كان عظيماً بكل المقاييس ، عظيماً فى بنيته الجسمانية ، فى شجاعته ، وأهدافه ، فى ذكائه ومثابرته . فهيكله العظمى أظهر أن طوله قد بلغ ستة أقدام وأربع بوصات ، وأنه تميز على رجال عصره بشعره الكستنائى ، ورأسه المستديرة ، وعينيه الواسعتين اللتين تشعان بريقًا ، وعنقه القصير الغليظ ، وشاربه الفرنجى المتدلى ، ولحيته التى لم تكن من ذلك النوع الأسطورى. وعلى الرغم من أنه كان معتدلاً فى طعامه وشرابه ، إلا أن بطنه ازدادت ترهلاً فى سنواته الأخيرة ؛ كما كان جهورى الصوت ، ويميل إلى التلفظ بألفاظ طنانة فى حديثه. كذلك كان يعشق الصيد ، والألعاب العنيفة ، ومطاردة الثيران البرية فى الغابات الشرقية. ويقال إنه كان أمهر السباحين فى مملكته ، إذ كان لديه بركة ماء كبيرة مصنوعة من الرخام فى قصره فى مدينة آخن Acahen تتسع لمائة من السباحين، وكان مفطوراً على الحب ، يكره الخيلاء والأبهة ، والاحتفالات ، والمآدب ، كما كان بسيطًا ، يدعو كل أحد إلى موائد العشاء مهما كانت منزلته ، وكان محبوباً من الجميع ، يطلب من كل من له مظلمة أن يأتى إلى باب قصره ويدق الجرس ، ووفقًا لما تذكره إحدى الأساطير فإن فرسًا قد فعل ذلك ، وعندما استدعى الإمبراطور صاحب الفرس ولأنه عديم الرحمة بفرسه فقد عاقبه لأنه لم يرع حق خادمه المخلص ، وكان عادة ما يتحدث بالألمانية ، إلا أنه كان ملمًا تمامًا باللاتينية وعلى دراية باليونانية إلى حد ما ، كما كان مغرمًا بالموسيقا ، وحصل على إحدى الجوائز فى طفولته أثناء انضمامه لفرقة الإنشاد الدينى. وكان أول من اهتم بالتراث الشعبى "الفلكلور" فجمع القصائد الفرنجية القديمة ، ومن المؤسف حقًا أنه تم إتلافها على يد ابنه التقى. كذلك بدأ فى تصنيف قواعد لغته الأصلية، كما حاول الكتابة ، واعتاد أن يضع بعضًا من ورق الكتابة والأقلام عند فراشه وتحت وسادته ، لكى يستغل وقت راحته فى تعويد يديه على رسم الحروف ؛ وعلى أية حال ، فإنه لم يبدأ فى بذل الجهد المطلوب فى التعليم فى الوقت المناسب ، ولكن كان ذلك فى أيام حياته الأخيرة، ولم يحقق إلا قدراً بسيطًا من النجاح حسبما يذكر صديقه وكاتب سيرته إينهارد Einhard.

لقد استطاع أن يوحد مملكته الفرنجية ويوسعها ، وقهر اللمبارديين فى شمال إيطاليا والبافاريين والسكسون الهمجيين إلى الشرق ، وفى كل مكان استطاع أن يفرض الكاثوليكية الرومانية التى آمن بها. كما هاجم إسبانيا المسلمة ، إلا أنه لم يحقق نجاحًا يذكر ، بالمقارنة بما علق فى أذهان الغرب الأوربى من ذكريات « أنشودة رولان » الخالدة . كما أصبح شارلمان القوة المهيمنة فى أوربا. وكان الضعفاء شغوفين بأن يستفيدوا أنفسهم من قوته. فالبابا ليو الثالث Pope Leo III والذى كان ضعيفًا وغير سعيد بالمرة ، حيث قام بعض النبلاء الرومان سنة ٧٩٩م بمهاجمته فى الشارع وضربه واستمروا فى إيذائهم له حتى قطعوا لسانه ، وحاولوا قلع عينيه بأصابعهم ، كما أنهم قاموا بجرح عينيه بسكين كنوع من التشفى فيه، "وإن كان قد استرد بصره فيما بعد وبقيت آثار الجروح ظاهرة على جفنيه" ، لقد لجأ البابا ليو هذا إلى أراضى شارلمان ، وتوسل إليه أن يعيد الأمن إلى إيطاليا ، وعلى الرغم من انزعاج شارلمان كثيرًا لما حدث، فإنه سرعان ما قام بالزحف إلى إيطاليا وقضى على الثوار بكفاءته المعهود.

وفى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠م ، فإن شارلمان وجيشه حضروا القداس فى كنيسة القديس بطرس فى الاحتفال الذى تولاه البابا ليو ، حيث لبس شارلمان الرداء الرومانى الطويل ، ومعه العباءة الفضفاضة ، وحزامًا من الذهب ، وصندلاً مرصعًا بالجواهر؛ وعلى المذبح المتألق جمالاً تم وضع تاج عظيم ، ونهض شارلمان من على ركبتيه ، وتناول البابا التاج من على المذبح ووضعه فوق رأس شارلمان ، وعندما هتف كل الرومان ثلاث مرات قائلين : العمر الطويل والنصر لشارل أوغسطس المتوج من الرب ، إمبراطور السلام العظيم لكل الزمان ! عندها ركع البابا ليو على ركبتيه أمام شارلمان وقبَّل حاشية عباءته ، مباركًا إياه وفق التقليد البيزنطى. وهكذا قامت أول إمبراطورية رومانية فى الغرب والتى دامت أكثر من ثلاثة قرون.

ماذا يعنى كل هذا ؟ فيما يبدو فإن شارلمان لم يأخذ عملية التتويج هذه مأخذ الجد ، ذلك لأنه ظل يلقب نفسه بملك الفرنجة واللومبارديين ، كما أنه لم يقم بزيارة روما مرة أخرى أو يرتدى الملابس الرومانية . إلا أن عملية التتويج هذه كان لها وقعها

الكبير فى التاريخ ، إذ اعتبرت دلالة على انتقال السلطة من الشرق إلى الغرب . فحتى القرن الثامن الميلاد كانت إيطاليا تتطور حضارياً كتابع للحضارة البيزنطية ، فضلاً عن أن الفرنجة وشارلمان قد ربطوا إيطاليا بشمال أوربا أكثر من ارتباطها بالكتلة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، كما أن عملية التتويج كانت تعنى ضمن مفاهيمها أن هناك أوربا جديدة آخذة فى التكوين ، كذلك كانت بداية للمزاعم البابوية بصنعها وتحكمها فى الإمبراطورية، ومن خلال هيمنتها على الإمبراطورية فإنها يمكنها أن تتحكم فى العالم ؛ فضلاً عن أن عملية التتويج هذه قد زُعِمَ أنها علامة على ميلاد حضارة أوربية غربية.

وتتمثل أقل إنجازات شارلمان فى تأسيسه لحكومة على قدر كبير من الكفاءة ، حيث جمع بين النظام الجرمانى المتمثل فى الرؤساء أو الدوقات شبه المستقلين ، والمسئولين فقط أمام الرئيس الأعلى ، والنظام الرومانى التقليدى للمركزية ، والذى تمثل بشكل أكبر فى النظام الكنسى. وابتكر نظام المفتشين الملكيين الذين سافروا من باريس إلى الأنحاء المختلفة ، لتحقيق العدالة ، يحملون المراسيم ، ويكتبون التقارير للملك ، مثله مثل نابليون حيث كان يملى الأوامر والتشريعات والشروح لكل كبيرة وصغيرة . كما كان يعقد مؤتمراً سنوياً يحضره النبلاء وكبار رجال الكنيسة الذين لم يكن لديهم الكثير مما يفعلونه سوى أن يستمعوا ويصفقوا استحساناً لرأيه ، وبذلك تحكمَ فى الكنيسة وفى الدولة وحتى فى حياة أتباعة الخاصة ، ولقد كان نموذجاً جيداً للحاكم المسيحى ، وأصبح المثل الأعلى لكثير من الحكام المسيحيين.

وعندما كان يعود إلى موطنه من حروبه الخارجية ، كان يمضى معظم وقته مرتحلاً ، ومفتشاً فى شئون مملكته ، ومستهلكاً ما تبقى له من وقت فى الطعام والتسلية. وبعد سنة ٨٠٢م كان يصطحب دائماً الفيل الذى أهداه له الخليفة هارون الرشيد الذى أرسل إليه أيضاً الحرير والشمعدانات النحاسية ، وساعة مائية تحدد الوقت من خلال الكرات البللورية المتساقطة بطريقة ميكانيكية تخرج على هيئة فرسان ، كل واحد منهم يدل على ساعة معينة ، عندما يخرجون من خلال الأبواب التى تنغلق خلفهم ، هذه الهدايا ربما كان لها تأثيرها فى الفن الكارولنجى.

لقد كانت إقامة شارلمان المفضلة في مدينة آخن أو إكس لا شابل Aix - La - Chapelle الموجودة الآن في ألمانيا على الحدود البلجيكية. وهناك شيد شارلمان كنيسته الصغيرة مثمنة الأضلاع ، والتي تعتبر واحدة من أروع آثار عصره ، وهي لا تزال تتألق بهاءً . ولا شك أنها كانت أكثر تألقًا عندما كان أساقفة شارلمان يجتمعون فيها مرتدين العباءات الحريرية ، والمناطق المذهبة ، وخناجرهم في جراباتها ، ومهاميزهم المزدانة . لقد كان شارلمان يشجع على إقامة المباني الكنسية وغيرها ، ويهمنا أن نعرف الكثير عن الجسر الخشبي الذي أقامة على نهر الراين عند مينز Mainz والبالغ من الطول حوالي نصف الميل ، والكثير أيضًا عن القناة التي تصل ما بين الدانوب والمين Main.

ووفقًا للتقاليد الجرمانية ، فإن شارلمان جعل من أتباعه المقربين منه أفصالاً ، مانحًا إياهم إقطاعات هائلة في حياتهم "ولكن في حالة الوفاة فنادرًا ما يعيد ورثتهم تلك الإقطاعات للملك أو لورثته". هؤلاء الأفصال كانوا يقومون بتقسيم أراضيهم على أتباعهم ، وهؤلاء الأتباع والأفصال كانوا يدينون له بالولاء والطاعة ، وعليهم أن يقدموا أعدادًا محددة من الجنود كنوع من الخدمة العسكرية ، مما كان بداية للعصر الإقطاعي الكبير.

إن عالم شارلمان كان قد تم تنظيمه على أساس من الضياع الإقطاعية الكبيرة التي تخلفت عن نظام الملكيات الكبيرة من عصر الإمبراطورية المتأخر. ففي وسط الضيعة الإقطاعية عادة ما كان يوجد منزل السيد الإقطاعي يحيط به عدد من المباني الإضافية من كنيسة ، وطاحونة ، وفرن ، وكير للحداد ، وحظائر ، ومباني لإيواء العربات ، وبركة لصيد الأسماك ، وربما محل لخياطة الملابس النسائية ، ثم أكواخ الفلاحين البسيطة في عدة صفوف ، وغالبًا ما كانت الضيعة مكتفية اكتفاء ذاتيًا .

لقد اعتبر شارلمان نفسه أبًا مسئولاً عن بلاده ، كما آمن أن من واجبه أن يوفر لأتباعه كل ما يحتاجون إليه في أمور حياتهم الدنيوية والروحية وحتى الثقافية. وكان هذا نمطًا جديدًا فيما يجب على الملك المسيحي أن يؤديه. وباعتباره إمبراطورًا فقد قام بتعيين أساقفته وقام بمؤازرتهم جنبًا إلى جنب مؤازرة صغار رجال الدين . لقد

كان نعم المسئول حقًا ، إذ فرض عقوبة الإعدام على من يمتنع عن الصيام أيام الصوم الكبير ، أو من يتناول اللحوم أيام الجمع ، أو من يرفض التعميد ؛ كما قام برعاية جماعات الرهبان ، مما كان سببًا فى ازدهارها وتضخم أعدادها ، من ذلك أن الأراضى الخاصة بجماعة القديس مارتن فى تور Tours كان يعمل فيها ألفان من العبيد . وكان الرهبان منهمكين تمامًا فى أداء الطقوس الدينية والصلوات . وفى كنتولا Centula فإن جماعة القديس ريكوير St. Riquier والتى ضمت ثلاثمائة من الرهبان ومائة من رجال الدين ، كانوا يصلّون دومًا من أجل صحة شارلمان ونجاته ، وكانوا يقسّمون العمل فيما بينهم على ثلاث دفعات ليلاً ونهاراً، ويستخدمون ثلاثين مذبحًا ، واثنى عشر أسقفًا ، وخمسة عشر ناقوسًا ، ولديهم خمس وستون رفاتًا مقدسًا للشهداء ، وأربعة وثلاثون كاهنًا لتلقى الاعتراف ، وأربعون راهبة ، وأربعة عشر قسًا آخرين.

لقد فكر شارلمان فى أن يفرض حضارة جديدة على إمبراطوريته ، هى مزيج من عناصر رومانية وجرمانية ومسيحية. ورأى أن يبدأ بالتعليم العام ، فوجد - وكما يفعل مستشارو الأمم الناشئة فى أيامنا هذه - أنه يجب أن يبدأ بإعداد المعلمين أولاً والذين كان لديه منهم القليل ، وهم الذين تخرجوا من المدارس الابتدائية الكاتدرائية. فأرسل يستدعى من مملكته ومن خارجها أفضل المعلمين الموجودين ، وعلى رأسهم ألكوين Alcuin الذى قدم من يورك York إلى قصره. وقام هؤلاء بالتدريس فى مدرسة قصره ، وشغلوا أنفسهم بوضع البرامج والأبحاث المدرسية حتى استقرت الأمور. واهتم شارلمان اهتمامًا كبيراً بمدرسة القصر، لدرجة أنه قام بنفسه وعنّف أحد التلاميذ لأنه أخطأ فى قواعد اللغة اللاتينية. كما شكّل علماء القصر وأعضاء البلاط ناديًا، وفيه حصل كل منهم على نصيب من الدعابة ، قليلاً كان أم كثيراً، فألكوين Alcuin عرف باسم فلاكوس Flacus ، بينما أطلق على شارلمان نفسه اسم الملك داوود.

وقامت المدرسة بدور كبير فى تدريس اللغة اللاتينية الصحيحة ، وفى إعداد أرستقراطية متعلمة للعمل فى الجهاز الحكومى. كما أنها أعادت الاحترام إلى الدراسات الكلاسيكية التى لم تشجعها الكنيسة باعتبارها وثنية. كما أن شارلمان

أرسل بصفة دورية إلى كل المؤسسات الدينية يأمرها بالاهتمام بالعلوم الإنسانية كمقدمة لمعرفة الكتابات المقدسة. وفى كل مكان فإن الرهبان قاموا بنسخ المخطوطات القديمة الموجودة فى أرشيفاتهم . ونحن مدينون لتعليمات شارلمان ولهؤلاء الرهبان الصبورين فيما آل إلينا من أعمال لاتينية قديمة ، إذ أن تسعين فى المائة مما فى حوزتنا من كتابات لاتينية قديمة هى عبارة عن نسخ كارولنجية.

ونتيجة لعمليات النَّسخ الكبيرة ، فإن الذين قاموا بهذه العمليات طوروا من أساليبهم فى الكتابة عن طريق استخدام الحرف الكارولنجى الصغير جداً، والذى يختلف تماما عن الحروف الرومانية الكبيرة ، وكذلك مع الحروف غير الدقيقة التى ترجع إلى الأيام الميروفنجية. هذه الحروف الصغيرة جداً المقروءة والواضحة هى فى الواقع مريحة تمامًا لأعيننا ومناسبة تمامًا. وفى القرن الخامس عشر للميلاد فإن الإنسانيين الإيطاليين حاولوا الابتعاد عن نمط الكتابة القوطى والعودة إلى النمط الرومانى القديم . وما أخذوه على أنه رومانى فإنه فى الحقيقة كان كارولنجيًا ، وهو الذى أصبح نمط الإنسانيين فى الكتابة ، وهو ما عرف بالطريقة الرومانية التى استخدمت فى الطباعة لأول مرة . وهى نفس الطريقة التى طبع بها هذا الكتاب فى نسخته الإنجليزية.

إن الحملة التعليمية والثقافية التى قام بها شارلمان كانت لها نتائج مهمة جداً ، فهى قد حفظت الدراسات الكلاسيكية من الضياع ، وتركت آثارها فى مجتمع العصور الوسطى. ذلك أن مستوى التعليم لم يهبط أبداً إلى ما كان عليه الوضع قبل العصر الكارولنجى. إلا أن هذه النهضة الثقافية من الصعب أن يطلق عليها الاسم المتَّسم بالأبهة وهو النهضة الكارولنجية ، ذلك لقلة الأعمال الأصيلة التى دونت ، ولأن هذه الأعمال القليلة لا تلقى اليوم سوى القليل من الاهتمام ؛ كما أن معظم ما تم إنجازه هو عبارة عن كتب مدرسية ، ومقتطفات أدبية ، وبعض الموسوعات ، وعندما توقفت عملية الدفع التى قام بها شارلمان، فإن نهضته سرعان ما أخذت فى الذبول ؛ ذلك لأنه عقب وفاته بمائتى عام لم يعد هناك من أفكار خلاقة ما يستحق التسجيل فى غرب أوربا.

فضـلاً عن أن الإمبراطوريـة التى شيدها شارلمان لم يكن مصيرها بأفضل من هذا، إذ سرعان ما سقطت فريسة للصراعات الداخلية والاضطرابات والهجوم عليها من الخارج. ومهما كان الحال ، فإن شارلمان قد طبع فى ذاكرتنا إنجازًا عظيمًا ، ومثالاً لحاكم عظيم قدير، أثر فى شعب استطاع أن يصنع عالمًا، كما ترك لنا أسطورة واسمًا له سحره ووزنه فى ميدان البطولة.

وينبغى أن نشير إلى أن الإمبراطورية التى شيدها شارلمان تعرضت على أيامه لكثير من التهديدات ، والتى جاءت من الشرق ، لتثير حالة من عدم الاستقرار. فالسلاف The Slavo بما عرف عنهم من جرأة ووحشية قد استولوا على منطقتى البلقان ومقدونيا ، وجزءٍ كبيرٍ من بلاد اليونان ، وروسيا ، وشرقى ألمانيا. كما أن الشعوب الهنغارية (المجرية) البدوية قلبت التوازن ، وأخذت تستعد للاستيلاء على ما يعرف اليوم باسم بلاد المجر. وما تلى ذلك من اجتياحهم لشمالى إيطاليا ووادى الراين . فقاموا فى سنة ٩٢٥م بكثير من عمليات القتل والتخريب فى اللورين وبرجنديا، واستمروا فى عملياتهم التخريبية هذه حتى استطاع أوتو الكبير Otto the Great أن ينزل بهم الهزيمة ، ومنذ ذلك الحين استقروا فى سهل المجر الخصيب ، وأدركوا أن الفلاحة أكثر فائدة من عمليات النهب والسلب.

وفى الجنوب كان للمسلمين الهيمنة على البحر الأبيض المتوسط ، وبفضل استحواذهم على الجزر الكبرى بما فيها جزر البليار. فمن صقلية شنوا هجومهم على كثير من أراضى إيطاليا ، وكثيراً ما قنعوا بمصانعة النبلاء لهم وحتى الأساقفة . وفى سنة ٨٤٦ وصلوا إلى مدينة روما ، فخربوا كنيسة القديس بطرس ، كما انتهكوا حرمة القبر الرسولى. وأقاموا عدة قواعد لهم جنوبى فرنسا ، وشنوا منها غزواتهم التى وصلت إلى برجنديا Burgundy، كما عبروا ممرات الألب ، استولوا على كثير من القوافل التجارية، ووقع فى أيديهم عدد كبير من المطارنة (الأساقفة) الذين تم فك أسرهم نظير دفعهم الفدية.

أما فى الشمال فقد كان هناك خطر الفايكنج المروع ، وهم أحد الشعوب الجرمانية ، والذين كانوا يقومون بزراعة الأراضى القليلة فى اسكندنافيا خلال فصول

الصيف القصيرة الذين دفعتهم بعض الأسباب الداخلية إلى أن يتجهوا صوب البحر ، والتي ربما كان من أهمها المجاعة ، أو التزايد السكاني المفاجئ الذي تزامن مع إدراكهم لقوتهم ، في الوقت الذي حققوا فيه بعض التقدم في فن بناء المراكب . وفي تجاراتهم فإنهم اتجهوا شرقًا وغربًا ، بحيث وصلوا إلى أعالي نهري الدفنا The Dvina والفولكهوف The Volkhov وإلى الدنيبر The Dnieper والدنيستر وإلى البحر الأسود ، كما هاجموا بيزنطة سنة ٨٦٥م . وفي طريق عودتهم إلى اسكندنافيا فإنهم حملوا معهم الغنائم ، بما فيها الكثير من العملات البيزنطية والإسلامية. واستطاعت جماعة منهم أن تقيم إمبراطورية غريبة في روسيا ، كانت عاصمتها كييف Kiev، وهناك – وبعد فترة من الوقت – أصبحوا من الروس تمامًا مثل أتباعهم.

وأثناء مغامراتهم في البحار المجهولة شمالاً وغربًا ، فإن الفايكنج استولوا على أيسلنده في القرن التاسع ، وبعدها بقليل على جرينلاند، بل إنهم وصلوا إلى أمريكا؛ إلا أن غربي أوربا هو الذي أغراهم أكثر ، فبدأوا في شن إغاراتهم على إنجلترا، ومنها وصلت جموعهم إلى أيرلنده . وفي سنة ٨١٠ م أخذوا في سبر غور الممتلكات الفرنجية، لدرجة أنه قيل إن شارلمان قد بكي وهو يشاهد الفايكنج وهم يبحرون مثل الطيور السوداء في بحر الشمال . وسرعان ما أمر بتشييد أسطول ، وإقامة عدد من أبراج المراقبة بامتداد الساحل ، إلا أن هذه الدفاعات لم تكن كافية ، إذ كان الفايكنج يتوغلون أكثر وأكثر كل صيف ، ويقومون بكثير من عمليات السلب والنهب والتدمير. وفي سنة ٩٥٨م فإنهم داروا حول مضيق جبل طارق وتوغلوا في البحر الأبيض المتوسط ، وبعد سنوات قليلة كانوا يهددون روما .

لقد طور الفايكنج من أسلوبهم في الإغارة ، عندما قرروا احتلال إحدى الجزر أو المدن الساحلية ، واتخاذها قاعدة لهم يشنون منها هجماتهم ، وكان عليهم أن يبحروا في أعالي أحد الأنهار إلى نقطة معينة في مراكبهم قليلة العمق في تصميمها، ثم الاستيلاء على الخيول اللازمة من السكان ، ومهاجمة إحدى المدن أو أحد الأديرة ، وكل ما كانوا يسعون للحصول عليه هو الذهب والفضة والمجوهرات ، كما أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الكثير من السلع، إلا أنهم استولوا على كئوس القرابين،

والأوعية التى تحفظ فيها الذخائر المقدسة ، والكثير من كنوز الأديرة والكنائس ، وكان سلاحهم هو نشر الرعب والفزع ، وأينما حلوا فإنهم عادة ما كانوا يبتزون المغلوبين ، ويقبلون منهم المبالغ الضخمة كنوع من المسالمة ويرحلون إلى مكان آخر. وإذا قوبلوا بمقاومة فإنهم عادة ما يلقنون أعداءهم درسًا قاسيًا بإبادة كل المقاومين ، لدرجة أن وحشيتهم وقسوتهم فاقت ما عداها فى كل العصور ، وبحيث أدرجت قصيدة جديدة ضمن مجموعة الابتهالات التى يرددها الكهنة والمصلون والتى تقول : إن الرب الرحيم هو الذى ينقذنا من ضراوة الشماليين! إنهم رجال مفزعون ، طوال القامة ، ذوو لحى صفراء ، يرتدون معاطف حمراء فوق ملابس الزرد ذات الحلقات المعدنية المستديرة ، يحاربون فى نوبات متعطشة للدماء ، مثل الكلاب المسعورة أو الذئاب. ويقول عنهم أحد مؤرخيهم : إن إلههم أودين Odin سوف ينزل ضربته على أعدائهم ويحولهم إلى صم وعميان ، ويجعل من سيوفهم عصيًا. وأينما حلوا فهم مسعورون لتكون الكلمة كلمتهم . ويقال إنهم كانوا قبل كل معركة يتجرعون نباتًا فطريًا للهلوسة . كما قال عنهم أنصارهم : إن وحشيتهم عبارة عن خرافة أشاعها الكتاب الرهبان الذين روعتهم انتهاكات الفايكنج الوثنيين للمقدسات والمعابد.

لقد اجتاحت جموع الشماليين معظم فرنسا واحتلتها ، مستولين على كل ما وجدوه ، وخلال أربعين سنة فإن باريس حوصرت أربع مرات ، ونهبت ثلاث مرات ، وأحرقت مرتين . كما أن غالبية الأديرة التى أمكنهم الوصول إليها من هامبورج Hamburg إلى بوردو Bordeaux تم نهبها.

ويرجع نجاح غزوات الفايكنج إلى ما شاع عنهم أساسًا من روح البطولة والقسوة، وقوة التحمل ، وبما تحلوا من اعتزاز بتفوقهم على غيرهم من الأجناس . فضلاً عن أن روحهم هذه قد اكتسبوها من إعدادهم غير العادى وتخطيطهم الحربى المتقن ، ساعدهم على ذلك قدرتهم كبحارة وبناة للسفن . كما أن مراكبهم والتى عرفت باسم Drakken والتى كانت على شكل التنين ، والتى تم الاحتفاظ بها بفضل طقوسهم فى الدفن فى المستنقعات مما أبقى عليها بشكل جيد ، قد بلغ طول الواحدة منها حوالى ستين قدما ، تم صنع قاعها من قطعة واحدة من جزع إحدى

الأشجار. بينما الجوانب تم بناؤها من قطع من الأخشاب متعامدة ومركبة بعضها فوق بعض ، وتم إحكامها بسيور جلدية مثبتة بقطع معدنية أو خوابير خشبية . بينما هيكل المركب كان مرنًا وغير عريض ، وفى وسطه يوجد الصارى ، وعليه شراع مصنوع من عدة شرائح من الصوف الخشن متعدد الألوان. أما المجاديف فإنها كانت تستعمل فقط فى حالات الضرورة ، ولم تكن المركب منها تتسع لأكثر من خمسة وثلاثين شخصًا فى الرحلة الطويلة ، فكانوا يعيشون وينامون على ظهرها ، ولم يكن لديهم ما يحميهم من الشمس ، أو العواصف والرياح ، كما أنهم كانوا يحملون معهم القليل من الطعام ، ومن الطبيعى أنهم لم يكونوا يستطيعون طهى أى طعام على ظهر المركب . لقد كانوا حقاً رجالاً شديدى القدرة على الاحتمال كما كانوا بحارة عظماء . لقد خرجوا من النرويج ، وتجولوا فى البحار الشمالية كثيرة الضباب بلا أى بوصلة ، مسترشدين تمامًا بالطيور لكى يصلوا أيسلاند ، وغالبًا ما لا يصلون إلى اليابسة، ويهبطون إلى الساحل الثلجى لجرينلاند ، أو يهبطون فقط فى قاع المحيط.

وشيئًا فشيئًا فإن ضراوة الشماليين (الفايكنج) ضعفت ، ذلك لأن غزواتهم أصبحت أكثر صعوبة ، بسبب عمليات الدفاع المنظمة ضدهم ، ولأن الأديرة الغنية تم بناؤها بعيداً عن الساحل وفى الداخل. وتحول رجال الفايكنج المسلحون إلى تجار، فقد تم العثور فى قبر أحد زعمائهم على زوج من كفتى ميزان بجوار السيف الطويل . كما تحولوا أيضاً إلى مزارعين ، ومربين للماشية والدواجن. إلا أن أغلبهم فضلوا الزراعة عندما كانوا يعودون إلى مواطنهم الأولى ، وأحبوا الأرض الطيبة ، كما عشقوا البنات الفرنسيات وعقدوا كثيراً من التحالفات الدائمة، بحيث غدا أبناء القراصنة من المستوطنين المسيحيين والمتحدثين فقط بالفرنسية. وقبلوا الحضارة الرومانية وفضلوها على حضارة آبائهم. وكان ظهورهم واضحًا ومعروفًا فى سنة ٩١١م ، عندما عقد الملك شارل الطيب (البسيط) معاهدة سلام مع زعيم الفايكنج رولُّو Rollo ، وبمقتضى هذه المعاهدة فإن زعيم الفايكنج استضاف الملك كأحد أفصاله ووعده بقبول المسيحية ، كما أن الملك جعل من رولُّو دوقًا على البلاد التى عرفت منذ ذلك الحين باسم نورماندى Normandy .

أما فى بريطانيا فإن الفايكنج الذين أطلق عليهم الأنجلوسكسون اسمًا غير صحيح وهو اسم الدانيين ، فقد وصلوا إليها أول مرة سنة ٧٨٧م . حيث التفوا حول شمال أسكتلنده ، ومنها هبطوا إلى أيرلنده واستقروا فيها ، وعاشوا على الإتاوة التى حصلوا عليها من السكان المحليين. وفى سنة ٨٥٣ م أقاموا مُلكًا لهم وجعلوا عاصمتهم دبلن Dublin .وكان أول وصول لهم إلى انجلترا مع نسمات فصل الربيع ، وعادوا محملين بالغنائم قبل أن يبدأ فصل الخريف . ثم أخذوا فى قضاء الشتاء فى انجلترا ، وبعد ذلك جعلوا من انجلترا موطنًا لهم . وعن حدودهم الشمالية الشرقية فكانت يورك شاير Yorkshire ، ونور فولك Norfolk ، أما الأراضى الوسطى ، فقد أطلقوا عليها اسم The Danelaw وهى الجزء الشمالى الشرقى الحالى من انجلترا والذى خضع للقانون الدانمركي فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد. وفرضوا إتاوة على بقية البلاد ، وبذلك حصلوا على أطنان من الفضة سنويًا ، كما عاملوا السكان الوطنيين بكثير من الازدراء ، وكان على الإنجليز أن يطلقوا على كل فرد من أفراد هذا العنصر الحاكم لقب « لورد الشمال ». وإذا حدث والتقى أحد الإنجليز مع أحد الشماليين فوق جسر من الجسور فكان عليه أن يوسع له الطريق ، وينتظر حتى يعبر أولاً.

لقد وقع عبء مقاومة الفايكنج الشماليين على عاتق ألفريد Alfred ملك وسكس Wessex (٨٤٩ – ٨٩٩م) ، والذى عرف بعد فترة بالكبير أو العظيم the great لنضاله العظيم والذى بث فى بلده روحًا جديدة استطاعت بها أن تغير مجرى التاريخ. (ولم يطلق على ملك إنجليزى آخر هذا اللقب ، وإن كان هذا اللقب اختصت به الملكات الإنجليزيات) ، استطاع ألفريد أن يطرد الدانيين (الشماليين) من معظم الأراضى الإنجليزية التى احتلوها بعد حروب مريرة وطويلة. لقد كان ملكًا حكيمًا إلى جانب كونه عظيمًا. لقد كان مشغولاً دائمًا ، وقدم بعض الاختراعات النافعة ، مثل المصابيح المصنوعة من قرون الثيران شفافة اللون ، والشموع ذات العلامات التى يمكن بها معرفة الوقت. ولقد أحزنه كثيرًا مستوى الجهل الذى كان عليه رجال الدين ، والأمية المتفشية بين شعبه ، لذا شيد مدرسة فى قصره مثل تلك التى شيدها شارلمان وجلب إليها الكثير من المعلمين من الخارج. وفضلاً عن عظمته فقد كان ضليعًا فى الأدب ،

فترجم كثيراً من الأعمال والتعاليم الدينية إلى الأنجلو سكسونية. كما أنه نيّل أحد كتبه بالعبارة : "يبدو لي أن كل إنسان لا ينمي معارفه فترة حياته ، فهو أحمق حقًا وبائس جداً، وعليه أن يحاول ويكون تواقًا لأن يصل إلى الحياة الخالدة ، حيث سيكون كل شيء واضحًا". ولم تكن سعادته القصوى تتحقق بما يجنيه من متعة بل فيما يحققه في مجال المعرفة.

ومع نهاية الألف الأولى للميلاد ، كانت المنطقة الأنجلو سكسونية تشتمل على معظم حدود انجلترا التي بلغ عدد سكانها أكثر من مليون نسمة. وإن كانت انجلترا الأنجلو سكسونية قد تبدو لنا حينئذ وكأنها منطقة منعزلة وممزقة ، فالغابات ، بعضها كان على حالته البدائية وتغطي معظم البلاد، وتمد السكان باحتياجاتهم من الوقود ، وتهيئ لهم المكان المناسب لممارسة بعض الألعاب ، والحصول على بعض أخشاب الزان، فضلاً عن المرعى لكثير من الخنازير البرية. أما الأرض الزراعية فلم تلق الرعاية المطلوبة ، والمراعي كانت في معظمها عديمة الجدوى. كما أن المزارع الكبيرة كانت نادرة ، ومعظم الناس كانوا يعيشون في قرى صغيرة مقامة على امتداد الطرق الرئيسية ، أو على شكل بقعة خضراء مستديرة أو مربعة الشكل ، وربما اتخذت القرى هذا الشكل لحماية قطعان الماشية من هجوم الحيوانات المفترسة أو الذئاب المغيرة . وكان الفلاحون يعيشون مع حيواناتهم في بيوتهم الحقيرة والمسقوفة بأغصان الأشجار بعد أن تم تغطيتها بكتل من الطين.

أما المدن فكانت قليلة ومتضائلة منذ الأزمنة الرومانية رغم أنها كانت مراكز التجارة ، وإن كان دورها التجاري يدور حوله كثير من الجدل والنقاش ، ومن المحتمل أنها كانت صغيرة ، وقامت بدور في استيراد كثير من الضروريات ومبادلتها ، مثل الملح والأسماك والحبوب . أما الأصواف الإنجليزية ، والجبن ، والعبيد ، والأقمشة المطرزة فقد تم تصديرها بحراً لمواجهة تكاليف السلع الكمالية من النبيذ والحرير والمجوهرات والزجاج . كما وجدت بهذه المدن بعض الصناعات مثل الصناعات الخشبية ، والمنسوجات ، وبعض الصناعات المعدنية ، حيث قام الصناع المحليون بصناعة بعض الأسلحة والأدوات .

أمـا عن المستـوى الاجتـمـاعى للأشـخـاص فقد كان متفـاوتًا ، ويمكن التعرف عليه ولو بشكل جـزئى من خـلال الدية ، أى دية القـتـيل التى تم تحـديدهـا فى القـانون الأنجلو سكسونى، ويقصد بها المبلغ الذى كان يتحتم على القاتل أن يدفعه لكى يجنب نفسه القـصـاص عن طريق القتل. ففـى كنت Kent كـانت دية الإيرل earl ، وهو لقب انجليزى أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت ، هى ثلاثمائة من الثيران ، أى ثلاثة أمثال دية الرجل العادى. أمـا العـبد فلم تكن له دية مطلقًا، لكن كـان على قـاتله أن يعـوض سيده بدفع قيمته أى حوالى جنيه واحد. أمـا النبلاء فقد كانوا فى العادة قلة ، لكن كـانت هناك طبـقة كـبـيرة من السـادة الإقطاعيين ومـلاك الأرض ، والتى كـانت تعـيش عـيشـة مـتـرفـة ، وتمتلك الذهب ، والمجـوهرات ، والسـجـاجـيـد ، والمنازل المـمـتـازة ، والملابس الغالية.

كان الرجل الانجليزى يرتدى عباءة يتم تثبيتها بدبوس للزينة "بروش" فوق قميص يصل إلى الركبـة يرتديه فـوق السـروال "البنطلون". أمـا النسـاء فكانت الواحـدة منهن ترتدى الثوب الطويل ، وفوقه عباءة ، وتتزين بأحد الأقراط أو تميمة من التمائم أو قلادة أو أحد التـيـجـان. وكـان عـمل المرأة هو الإشـراف على الأعمـال المنزليـة المعـتـادة ، واستقبال الضيوف . وقد تمتعت ببعض الحقوق المدنية ، كما كان لها الحق أن تمتلك الأرض أو تتصرف فيها بالطريقة التى تراها. أما الرجل العادى فقد كان ريفيًا ، وقد كان حرًا ، ولم يكن عبدًا للأرض ، بل كان فى مقدوره أن يحصل على الأرض أو يقوم ببيعها. ومعظم أهل الريف كانوا من الفلاحين ، وإن كان بعضـهم قد اشتغل ببعض الحـرف البـسـيطة مـثـل بيع الطيـور ، ومنهم بـعض البـحـارة ، ومنهم بعض الحـدادين والصناع ، والنجارين ، وصيادى الأسمـاك ، والخياطين ، والخبازين ، والطباخين.

ويأتى العبيد بعد طبقة الفـلاحين ، وقد كانوا مربوطين بالأرض ، وعـادة مـا يتم بيعهم عليها أو شراؤهم معها. وعلى الرغم من أن العبد لم يكن أسوأ حـالاً بكثير من غيره مـن الفـقـراء الأحـرار ، إلا أنه كـان يسـتطيع الهـرب ، أو يتم تحـريره بواسطة سيده، أو يجد وسيلة من الوسائل ليشترى بها حريته. أما الطبقة التى كانت أقل منزلة من الجميع فقد كانت طبقة العبيد الذين انحدروا من عبيد ، وأسرى الحروب ، وأرباب الديون الذين لا يستطيعون سداد ما عليهم من ديون . كمـا أن البائسين من الفقراء كانوا أحيانًا يبيعون أنفسهم أو أطفالهم فى أسواق العبيد ، أو يقدمون أنفسهم للكنائس وحول أعناقهم الحبال ويضعون بنسًا فوق رءوسهم.

كان الفلاح يتمتع بالحماية التى كفلها له القانون الأنجلو سكسونى ، والذى كان فى معظمه عبارة عن مجموعة من العرف القبلى غير المدون ، والذى كان يخول الشخص المظلوم المثول أمام مجلس الشعب الذى هو عبارة عن مجموعة من النواب المحليين ، والذين كان عملهم ينحصر فى تقرير الحقائق التى يمكن أن يعول عليها فى مجموع القضايا ، وكان المتهم والمدعى عليه يقسم كل منهما أنه برىء مما نسب إليه وأنه مظلوم ، وإذا كان المتخاصمون أو المتنافسون من النبلاء فعادة ما يستشهدون ببعض شهود النفى فى مواجهة شهود الإثبات. وعادة ما كانت المحكمة تأمر باتخاذ بعض التدابير التى تثبت براءة المتهم . وفى إحدى هذه التدابير كان على المتهم أن يحمل قضيبًا من الحديد المحمى مسافة تسعة أقدام ، وفى تعبير آخر ، فقد كان عليه أن يغمس يده فى ماء مغلى لكى يحضر قطعًا من الحجر فى أسفل وعاء كبير ، فإذا التأم جرحه فى مدة ثلاثة أيام دون تقيح عد ذلك دليلاً على صدقه ، أما إذا حدث العكس ، فإحراق يده بالنار هو أقل عقاب يمكن أن يناله.

أما المهتمون بالقيم الروحية والثقافية ، فقد وجدوا ضالتهم فى الأديرة ، حيث قاموا بنسخ كثير من المخطوطات وألقوا عليها بعض الأضواء ، كذلك مارسوا الكثير من الفنون التشكيلية وبخاصة عمليات النحت ونقش شواهد القبور ، كما أن الفنانين العلمانيين أنتجوا الكثير من المشغولات المعدنية ، والمجوهرات ، والنقش على المنسوجات ، وبخاصة المنسوجات المطرزة . وفى العصور الوسطى الباكرة فقد بدأ الأدب الإنجليزى ممثلاً فى الشاعرين كايدمون Caedmon ، وبيولف Beowulf اللذين نظما الشعر ببراعة وإحساس الفنان. وهكذا فإن الرجال فى انجلترا ناضلوا من أجل أن يشكلوا عالمًا منظمًا، "مملكة منظمة"، ومقننًا مزدهرًا فنيًا وأدبيًا.

ولكن إذا تأمل الواحد منا مجمل الشعور الأوربى خلال القرنين بعد وفاة شارلمان، فإنه سوف يدرك أن ذلك لن يشبع الخيال الرومانسى. فالحياة عادة ما كانت قصيرة وكريهة فمعظم الأطفال كانوا لا يعمرون كثيراً ، كما أن كثيراً من الهياكل العظمية التى تم الكشف عنها تشير إلى آثار سوء التغذية الشائع. ومنها سرعة الكبر والشيخوخة ، بدرجة جعلت المعاصرين يرحبون بالموت . وفى الوقت الذى اشتد فيه ظلم وقسوة

السادة، فإن الفايكنج والعرب نهبوا وأحرقوا الكثير ، بينما هبط المجريون المتوحشون من الشرق .

وعندما انكشف هذا البلاء ، فإن النبلاء المحليين كانوا قد استولوا على الأديرة المحترقة وأراضيها ، وهم يدركون أنهم بهذا قد أتوا على كل ما تبقى. أما الرجال الأقوياء فقد أحكموا قبضتهم ، فى الوقت الذى تنازل فيه الضعفاء عن حريتهم نظير حمايتهم ، ذلك لأن الحرية لم يكن لها معنى فى عالم تسوده الفوضى السياسية. فالإمبراطورية قد قهرت ، والبابوية التى لا حول لها ولا قوة اعتراها الفساد بشكل يثير الأسى، إذ نسمع أن ربة بيت أحد البابوات وتدعى ماروزيا Marozia جعلت من ابنها غير الشرعى وحفيدها بابلوين على التوالى ، ويقال إنها قد رتبت مقتل أحد البابوات كذلك ، فحفيدها يوحنا الثانى عشر John x11 قد تم خلعه على يد الإمبراطور أوتو الأول Otto 1 سنة ٩٦٣م ذلك لأنه عين أحد الشمامسة فى مكان غير مناسب وهو الاسطبل قام بتحويل القصر البابوى إلى بيت للدعارة ، كما أخصى أحد الكرادلة ، وشرب الخمر فى صحة الشيطان ، وطلب العون من الآلهة جوبيتر وفينوس أثناء لعبه النرد. كما أن من تولوا المنصب البابوى تعرضوا للقتل ، فثلاثة من البابوات المتعاقبين لم يستمروا فى منصبهم سوى أربع سنوات وشهر وسبعة عشر يوماً. وخلال قرن ثم تنصيب ست بابوات ، اثنان منهم ماتا جوعًا فى السجن ، لدرجة أنه فى سنة ٩٩١م أعلن الأساقفة الفرنسيون فى أحد مجامعهم الدينية : "يبدو أننا سنشهد قدوم حركة ضد المسيحية ، وهذه هى نهاية العالم التى تحدث عنها الرسل".

وعلى الرغم من أن كل شيء قد ضاع وبلا سبب ، إلا أنه فى أشد الأوقات حرجاً فإن المسيحية كانت تلقى نجاحًا ، ذلك لأنها وحدها كانت القادرة على أن تقدم للناس السلوى والأمان. كما ظهر للوجود نظام دير كلونى للرهبنة والذى أرسى المثال للحماس والتقوى، وغدا العالم المسيحى مدركًا لنفسه. وتم استخدام هذه العبارة ذاتها بواسطة البابا يوحنا الثامن حوالى عام ٨٨٠م ، والتى أصبحت تعنى تضامن أوربا فى مواجهة الوثنية. كما كان لتحول الفايكنج والمجريين إلى المسيحية أثره فى حالة الاستقرار النسبى فى المناطق الجديدة التى امتلكوها. ومع هذا فإن الحياة الفكرية لم تتغير تمامًا ، كما أن الأديرة الكبرى مثل سان جرمان فى باريس ، وسانت جال فى سويسرا استمرت فى نسخ المخطوطات ، وفى تنمية المواهب العلمية والأدبية.

إن الأبحاث الحديثة أثبتت أنه كان هناك تقدم تقنى خلال تلك السنوات المظلمة .
هذا التقدم التقنى كان يدعو غير المتحمسين واللامبالين من الناس والمتمسكين بالتقاليد إلى الاعتقاد بأنه لو قدر لأحد أن يبتكر طريقة جديدة لأداء العمل ، فإن الآخرين سوف يتبعونه . ولقد كان البرابرة مخترعين لأن الحاجة أم الاختراع ، فنظام زراعة المحاصيل الثلاثى أصبح ثابتًا ، وحيث كان يتم زراعة حقل من الحقول بالقمح الشتوى أو نبات الجاودار ، بينما تتم زراعة حقل آخر بالبقول أو الحبوب الربيعية ، فى حين يبقى حقل آخر خاليًا ومراحًا ، أما الفواكه المألوفة لنا ، فمعظمها جاء أصلاً من الشرق ، وتم تحسينها عن طريق الاختيار. كما أن الأدوات التى كانت مستخدمة منذ العصر الحجرى سواء من الخشب أو الأحجار ، فقد حلت محلها أدوات معدنية من الحديد ، ولقد سجلت ذراع الآلة المحركة أول ظهور لها فى أوربا فى القرن التاسع للميلاد ، واستخدمت فى إدارة أحجار الطواحين ، وبعد ذلك فى كثير من الأسطوانات.
كما غدت الطواحين المائية شائعة ، وإن كنا نسمع عن وجود عدد قليل منها فى القرن السادس الميلادى فى بلاد الغال ، بينما يذكر كتاب الفلاحة أن عددها قد وصل فى انجلترا ٥٦٢٤ طاحونة فى سنة ١٠٨٦م . كما حدث تقدم ملحوظ فى عملية الجر والسحب بواسطة الحيوان ، وفى الأطقم المعدة للخيول . ففى الأزمنة القديمة كانت الحبال والسيور التى يجر بها الحيوان العربة يتم تثبيتها بسير أعلى كاهل الفرس أو أعلى قرون الثور ، وهذا السير كان يثبت فى طوق حول صدر الحيوان ، هذا السير كان يتم إحكامه على القصبة الهوائية للحيوان ، وكلما بذل جهدًا أكبر فى الجر كلما شعر بصعوبة التنفس . وهناك العديد من الصور والرسومات القديمة التى تبين لنا إلى أى حد كان الفرس يرفع رأسه عاليًا لكى يحصل على الهواء الكافى للتنفس. ثم حدث حوالى سنة ٩٠٠م أن ظهر الاختراع الكبير ، والذى ربما ترجع أصوله إلى آسيا الوسطى ، والمتمثل فى طوق عنق الفرس الصلب ، والذى حول الجهد كله إلى أكتاف الفرس وأراح قصبته الهوائية ، وهكذا فإن قوة جر الفرس تضاعفت إلى أربع أو خمس مرات ، وأخذ الفرس يحل فى عمليات الجر محل الثور البطىء غير الرشيق.

وأصبح من المعتاد رؤية الخيول التى تنقل الأحمال الثقيلة فوق العادة وحوافرها تتكسر، وتصاب حوافرها بكثير من الأمراض. وكان الرومان يقومون أحيانًا بتغطية

حوافر الخيول بنوع من القفاز أو ما يشبه الصندل ، مع أن أول دليل على وجود حدوة الفرس فى أوربا يرجع إلى نهاية القرن التاسع للميلاد. وربما مر على ابتكار حدوة الفرس وقت ليتم التعرف عليه ، وسرعان ما انتشرت حدوة الفرس هذه فى كل الغرب الأوربى ، ذلك أن نظام الفارس ثقيل التسليح لم تكن تتم الاستفادة من جهوده دونما استخدام لحدوة الفرس ، وكذلك لطوق عنق الفرس ، إلى جانب استخدام عدة الحرب للفرس ، والمركبة التى يجرها جوادان أحدهما أمام الآخر كوسيلة من أهم وسائل الحمل.

إن تاريخ الُركاب الخاص بالفرس تاريخ لافت للنظر لطرافته ، فالإغريق والرومان كانوا يمتطون ظهور الجياد عليها بطانيات صغيرة خفيفة تغطى ظهر الفرس ، مما كان يسبب نوعًا من العذاب لكل من يمتطى فرسًا. كما أن الصينيين ومنذ وقت مبكر طوروا نوعًا من السروج خشبية الصنع والمستديرة ، والذى انتقل منهم إلى الهون المغول. ومما لا شك فيه أن الخطوة التالية كانت حتمية ، وهى اختراع مسند للقدمين يتدلى من السرج ، إلا أن السرج مر عليه وقت طويل لكى يظهر للوجود وبشكل يدعو للدهشة. ذلك لأن السرج ذا مسند القدم البدائى ظهر فى الهند حوالى سنة ١٠٠م ، ومع هذا فإن السرج لم يظهر فى الصين حتى القرن الخامس للميلاد ، إلى جانب أن أول ذكر له فى الغرب الأوربى يرجع إلى القرن التاسع للميلاد فى صورة لأحد الخيالة جاءت فى نقش من ميلان وهو يستخدم فيها زوجًا من السروج ، وحوالى ذلك الوقت كان استخدام السرج قد أصبح معروفًا وشائعًا تمامًا ، ولأول مرة فإن الفارس كان يستطيع الوقوف بثبات وهو على السرج ومعه سيفه ، ويحصد الأعداء دون أن يتعرض للسقوط من فوق ظهر جواده، كما كان يستطيع أن يقاوم الصدمة التى يحدثها الرمح بدرعه ، فضلاً عن أن السرج قد ساعد الفارس على أن يقاتل بسيفه يمينًا وشمالاً ويتقدم للأمام شاهرًا سيفه ، ولقد كان لهذا التقدم التكنولوجى أثره الكبير فيما بعد.

الفصل الثانى

العصور الوسطى العالية

إن العالم المسيحى بعد حوالى ألف سنة من انتشار المسيحية قد تعرض لنوع من اختبار العقيدة لدى المؤمنين بها، حيث وقعت الأرض التى كانت مهداً للمسيحية فى قبضة المسلمين، وغدت روما بقداستها- والتى كانت ذات يوم حاضرة للعالم- مدينة تنعى أطلالها. وعلى ما يقرب من مائتين وخمسين ميلاً منها كانت جزيرة صقلية تحت الحكم الإسلامى. هذا فى الوقت الذى لم تكن فيه إيطاليا تمثل أمة واحدة، بل كانت مجموعة من الإمارات الصغيرة، كل منها فى صراع مرير مع جاراتها. أما فرنسا، فمن حيث المظهر فقد كانت تمثل ائتلافاً قوياً من النبلاء ملاك الأرض، والذين اختاروا أصغرهم ليكون ملكاً. وباستثناء المناطق الشمالية الجبلية فى نافار وليون، فإن إسبانيا كانت تحت سيطرة المسلمين.

كما شهدت انجلترا فترة سلام مضطرب فى ظل الحكم المعقد للأنجلو سكسون والدانيين. وفى ألمانيا كان هناك العديد من الإمارات التى يحكمها الدوقات وهى فى غالبها غير مستقلة، وما أن تم اختيار ملك إلا وثاروا عليه. أما ممالك اسكندنافيا فقد كانت أوكاراً للقرصنة، حيث يتم إرسال المحاربين لنهب وسلب الضعفاء المسالمين.

ومع هذا فمازال فى إمكاننا أن نشير إلى بعض الإنجازات، وبعض الطموحات والآمال. فالعالم الغربى على الرغم من كل مشكلاته، كان قد وصل إلى شكل أفضل قليلاً عما كان عليه قبل قرن مضى. فكثير من الأخطار الخارجية والداخلية قد تمت مواجهتها، كما أن فترة التمزق والانحلال كانت قد مرت، وكانت فكرة تحقيق نوع من

الوحدة السياسية قد اختمرت لتحقيق نوع من القوة. وفى إمكان أى واحد منا أن يتلمس الخطوط العريضة على الخريطة الأوربية لقيام كثير من الدول الحديثة سنة ألف ميلادية، والتى لم يقدر لألف سنة أخرى أن تغير كثيراً مما اتسمت به من عنف شديد وسفك للدماء.

ومع ذلك فإن سنة ألف يمكن اعتبارها نقطة تحول، فحوالى ذلك الوقت أى مع نهاية الألف الأولى للميلاد، بدأت فترة جديدة وهى التى شهدت تزايداً كبيراً فى السكان نتج عنه كثير من الاضطرابات فى الحياة الاجتماعية، وفى مجال العمل فى كل من المدن والقرى، وما أدى إليه ذلك من استصلاح كثير من الأراضى الزراعية فى غرب أوربا والتى كانت بوراً. وفى إسبانيا أخذ المسيحيون يوسعون من نطاق غزواتهم شرقًا، كما أخذ الألمان فى الاستحواذ على كثير من مناطق السلاف فى الشرق، كذلك قام فرسان نورماندى وشمالى فرنسا بغزو انجلترا، وجنوبى إيطاليا وصقلية، وشاركوا فى الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٩م، وتم لهم الاستيلاء على الأرض المقدسة كذلك.

فى الوقت الذى أخذت فيه القرى والمدن تنمو وتخطو خطوات سريعة نحو المساهمة فى التجارة المزدهرة التى جذبت إليها الفائض من الأيدى العاملة الزراعية لفتح أسواق جديدة للإنتاج الزراعى. وتزايد استخدام التقنية الزراعية الحديثة مما أدى إلى زيادة إنتاجية الفدان، وشجع الناس على زيادة استهلاك المنتجات. كذلك ازدهرت مجالات الصناعة والأعمال التجارية، والفنون والآداب والعلوم. وخطا الغرب الأوربى أولى خطواته نحو الاستفادة من الأرض الزراعية شرقًا وجنوباً. وهنا بدأت فعلاً العصور الوسطى العالية العظيمة.

لقد كان القرنان الحادى عشر والثانى عشر للميلاد فترةَ تقدم وابتكار، حيث شيد الرجال المدن، والقلاع، والكاتدرائيات، وحققوا الثروة، ونظموا القصائد الشعرية، وشاركوا فى الحروب الصليبية. ومع مطلع القرن الثالث عشر للميلاد كانوا قد تحرروا من قيود كثيرة، وأصبحوا قادرين على جعل الحياة فى أوربا أكثر أمنًا وراحة. وإن كانت القرون السابقة قد شهدت بعض الإبداعات، فإن القرن الثالث عشر أرسى القواعد المنطقية لكثير من المجالات والتشريعات، حيث قدم العلماء فى الجامعات كثيراً

من الأفكار الفلسفية والنظم وبشكل لم يسبق له مثيل منذ العصر الهللينستي. يظهر ذلك بوضوح فيما قدمه توماس الأكويني Thomas Aquinas ورفاقه من تعاليم تنظم العلاقة بين الرب والبشر. كما انتشرت روح التفاؤل والرضا النفسي، وأخذ الناس يؤمنون بأن الكون الصغير قد استطاع أخيراً أن يجني نوعاً من التوازن الدائم.

ومما لا شك فيه أن روح التفاؤل التي سادت القرن الثالث عشر ساعد عليها ما تم تحقيقه من ازدهار مادي. لدرجة أن الفلاحين كان في مقدورهم تحمل نفقات المداخن وثمن الشموع المصنوعة من الشحم الحيواني وكذلك ثمن أدوات الطبخ المعدنية. كما عاش أبناء الطبقة البورجوازية في منازل راقية، بها الكثير من التحف التي ازدانت بها جدران منازلهم، والكثير من الأثاث المنزلي، والصناديق الكبيرة ذات الأغطية التي تتحرك بالمفصلات، ولها أقفالها، كما أن نوافذ المنازل أصبح يستخدم فيها الزجاج بدلاً من القماش الكتان (وفي هذه الفترة نسمع أن الطلبة كانوا يدفعون في جامعة بولونا Bologna ثمن ما يكسرونه من زجاج النوافذ).

واكتسب جنس النساء منزلة رفيعة، ففي السابق لم يكن النساء يحصلن على أجر نظير أي جهد يبذلنه في العمل حتى لو كان هذا الأجر رمزيًا، أما الآن فقد حظين بالكرامة والاحترام المطلوبين. فضلاً عن أن نظام الفروسية، ومجموعة القوانين التي تنظم علاقة الحب في البلاط رفعت من قدر المرأة، أو على الأقل من قدر نساء الطبقات العليا، فكان لديهن متسع من الوقت كن يتعلمن القراءة والكتابة، و يستمتعن بسماع القصائد الشعرية الطويلة التي كتبت من أجلهن، وامتدحت أحاديثهن، وانتشرت علاقات الصداقة بينهن. أما الحياة الاجتماعية بمفهومها الصحيح فقد بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر للميلاد.

وكان أفضل ما تقوم به زوجة أحد سكان المدن هي أن تحاكي سلوكيات الطبقة الأرستقراطية، وتعمل من أجل رفعة سمعة زوجها بأن تتباهى باستعراض ثروتها باستمرار. إن المرأة البوجوازية الصغيرة حقًا كانت هي تلك الزوجة التي تساعد زوجها في محل عمله وترعى أطفالها، وتشرف على منزلها، وترعى الصبية لأنهم بحكم ارتباطهم بها كانوا في حاجة إلى رعايتها كأم. أما المرأة في الريف وإن كانت قد تغيرت قليلاً، إلا أنها ظلت تعمل طوال نهارها في الحقل، ولم تُلق بالاً لما يحدث حولها من تحول.

ولعل من أهم الدلائل على حدوث التحول ظهور كثير من القرى والمدن الجديدة فى كل مكان، فالمدن والموانئ الجديدة، والمدافن الجديدة ظهرت فى انجلترا وفرنسا وألمانيا. هذه المدن الجديدة اشترت حقوقها وحرياتها من اللوردات الإقطاعيين الذين كانوا يمتلكون تلك الأراضى التى قامت عليها هذه المدن، وهؤلاء المغامرون انسلخوا عن المجتمع الإقطاعى واتجهوا إلى التجارة، وتطلعوا إلى حياة أفضل، وأحاطوا أنفسهم بأسوار تحميهم من جشع الإقطاعيين العسكريين.

كما أن رخاء هذه المدن ارتكز بشكل أساسى على التجارة، والتجارة بدورها اعتمدت على الصناعة، والتى اعتمدت بدورها على ما تم تحقيقه من تقدم تكنولوجى بسيط. هذا إلى جانب أن التقدم التقنى فى الزراعة. نجم عنه فائض فى الإنتاج مما مكن من كفاية متطلبات المدن وسكانها المتزايدين. وساهمت الآلات الحديثة والأجهزة فى التطور ولو على نطاق محدود فى العمليات الصناعية. فكان ظهور النول المتواضع فى القرن الثالث عشر للميلاد كمثال بسيط على استخدام السيور فى نقل الطاقة، كما شهدت نفس الفترة ظهور الساعة الآلية الثقيلة التى عدلت من إدراك الناس للوقت عن طريق تقسيم الليل والنهار إلى أربع وعشرين ساعة متساوية، مما جعل فى الإمكان وضع معايير ثابتة للوقت وللعلم الحديث نفسه، ففى السابق كانت الفترة من شروق الشمس إلى غروبها تكون اثنتى عشرة ساعة، واختلف طول الساعة والدقيقة من يوم لآخر. كما شهدت الملاحة تطوراً عن طريق استخدام البوصلة البدائية. وإن كنا نفتقر إلى كثير من المعلومات الخاصة بتكنولوجيا العصور الوسطى، ولكن علينا أن نضع فى الاعتبار النظام الهندسى الذى بنيت على أساسه إحدى الكاتدرائيات، أو العقود الكبيرة لأحد الجسور البالغة من العمر سبعمائة سنة لكى ندرك مهارة من قاموا بتشييدها.

وعلى أية حال، فإن الازدهار التجارى لم يغير الكثير من أبناء الطبقات الدنيا للمجتمع، فالفلاح كان له أعداء دائمون: الحرب والضرائب والأوبئة والطواعين والمجاعات. وفى أثناء فترة حكم فيليب أوغسطس ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣م) تم إحصاء إحدى عشرة سنة عمت فيها المجاعات، بحيث نسمع أن أهل الريف أكلوا جذور النباتات، ولحاء الأشجار ولحوم الحيوانات النافقة، ثم ماتوا. أما الفقراء من

سكان المدن فلم يكونوا أحسن حالاً من أهل الريف. حيث عانوا كثيراً من أخطار الأمراض التى انتشرت فى المدن، ومن الحرائق، (فلقد احترقت مدينة روين Rouen ست مرات على مدى خمس وعشرين سنة، بالإضافة إلى البطالة الكئيبة التى طال أمدها).

إن القرنين الأول والثانى من الألف الثانية للميلاد شهدا نزوع بعض البلدان تدريجياً إلى القومية. وتأتى فرنسا على رأس هذه البلدان لما نالته من تقدم فى مجال الحياة الفكرية والثقافية، وفى الفنون، والعمارة، وفى تهذيب الحياة الاجتماعية التى رسمت المجتمع الإقطاعى فى أنحاء غربى ووسط أوربا. وحوالى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد كانت اللغة الفرنسية يتم التحدث بها فى كل بلاط، كما كانت اللغة الرسمية فى الإمارات التى أسسها الصليبيون شرقى البحر الأبيض المتوسط. كما كانت حياة النبلاء الفرنسيين الرسمية يتم تقليدها فى كل مكان. وغدت باريس المدرسة الكبرى للفلسفة جذبت إليها طلبة العلم من كل مكان فى عالم العصور الوسطى، ثم يعودون إلى مواطنهم وقد تشبعوا بالآراء الجديدة.

وفى الركن الشمالى الشرقى لفرنسا وفيما وراء حدودها كانت تقع كونتية الفلاندرز كثيفة السكان، وأقاليم هولنده وفريزلاند. هذه الأراضى المنخفضة كانت المناطق الأولى التى شهدت قيام الصناعة، وهى التى كانت أيضًا أول من اكتشف مباهج وشقاء الازدهار التجارى، فالفريزيون كانوا مشهورين منذ الأزمنة القديمة بأقمشتهم الصوفية التى مازلنا نطلق عليها اسم الفريزيه. ولاستكمال مواردهم من الصوف فإنهم كانوا يرسلون المشترين إلى انجلترا، حيث تطورت عملية رعى الأغنام منذ زمن بعيد، وحيث صوف الأغنام الناعم ليحموا أنفسهم من المناخ الإنجليزى.

وفى الوقت الذى ازدهرت فيه التجارة الأوربية، فإن الفلاندرز استفادوا من موقعهم الذى تلتقى عنده العديد من الطرق التجارية، وحيث تنتهى الطرق القادمة من باريس، وجنوبى ألمانيا وإيطاليا، كما أن المراكب التجارية المنحدرة فى نهر الراين كانت تصل إلى موانيها، وتلتقى هناك بالمراكب التجارية القادمة من اسكندنافيا، وإنجلترا، وبقية فرنسا.

وعلى امتداد بلدان الأراضى المنخفضة تم إقامة كثير من المدن الجديدة، وتكدست الثروات عن طريق الصناعة والتجارة. هذه المدن الجديدة جذبت إليها نوعين من الرجال، النوع النشط الطموح، والنوع المستاء وهم الذين أصبحوا سكان هذه المدن، وفاقدى الأمل فى الحصول على أرض، وهؤلاء هم الذين أصبحوا من العاملين بالصناعة. كما أن الأموال والفرص ساعدت على خلق الرأسمالية الخاصة والتى غدت متواجدة جنبًا إلى جنب مع الاشتراكية البدائية التى تمثلها الدولة.

ولقد قامت المدينة بتنظيم كل شىء، من حيث الأسعار، والأجور والرواتب، ولأنها كانت مهتمة بالصحة العامة فقد تم بناء المستشفيات، وتم منع استخدام الأطفال والنساء فى العمل، لا لأن ذلك غير إنسانى، ولكن لأن عمل هؤلاء كان يدخلهن فى منافسة غير عادلة مع الرجال. أما رجال الأعمال فقد كانوا مزهوين بثرواتهم، لذلك أقاموا المبانى العامة الفخمة، وفى الشوارع الخلفية فإن عمال الغزل المنهكين كانوا يسخرون منهم، لأنهم كانوا تحت رحمة دورة العمل وقيود هذه الدورة الناجمة عن المناخ العام وما فيه من صراع.

ـ وفى العصور الوسطى ظهرت قوتان كُبريان هما البابوية فى روما والإمبراطورية فى ألمانيا، البابوية بما لها من مسئولية روحية أملت عليها ضرورة الإشراف والتوجيه لسلوكيات كل البشر بمن فيهم الأباطرة. أما العلماء الذين تم تعيينهم بواسطة الملوك والأباطرة فقد نادوا بأن الملك يستمد قوته من الرب، وهو مسئول فقط أمامه، وأن اختصاص الكنيسة يجب أن يكون منصبًا على الشئون الدينية لا الدنيوية. كما أن العصور الوسطى العالية اشتهرت بالصراع بين البابوات والأباطرة وبعض الحكام العلمانيين. وكان لكل من الملوك والأباطرة جيوشهم، أما البابوات فلم يكن لديهم شىء سوى السلطة الدينية والأسلحة الروحية، وهى قرارات الحرمان، والمنع، واللعنة. ونتيجة لذلك فإن القوى المعارضة كانت تقريبًا متوازنة معهم.

إن حكام ألمانيا كانوا من سلالة رؤساء القبائل الذين قدر لأقويائهم وأكثرهم قسوة وجشعًا أن يبقوا وأن يصبحوا ملوكًا. وفى القرن العاشر للميلاد ظهرت واحدة من الإمبراطوريات القبلية شمالى ألمانيا والتى انبثقت من الفرع السكسونى كأقوى

الأقوياء، ومنها جاء الدوق أوتو السكسونى Duke Otto of Saxony، والذى تم اختياره ملكًا لألمانيا بواسطة رفاقه الدوقات عام ٩٣٦ م والذى استغل لقبه بشكل حازم. وهكذا وبشكل مثير للغضب فإنه أصدر مجموعة من التعليمات المثيرة للنبلاء الذين اختاروه، كما أنه شن عدة حملات حربية على السلاف والبوهيميين، وأحرز نصراً كبيراً على الشعوب المجرية سنة ٩٥٥م منهيًا وإلى الأبد تهديدهم لغربى أوربا. كما طلب منه البابا يوحنا الثانى عشر مساعدة حربية ضد ملك اللومبارد، فعبر أوتو جبال الألب واستولى على التاج اللومباردى لنفسه، وفى سنة ٩٦٢م تم تتويجه إمبراطورًا على يد البابا الذى لم يتعلم الدرس المهم من دروس التاريخ : وهو أنه يجب ألا تطلب المساعدة من رجل قوى ضد واحد من منافسيك. وهكذا أصبح أوتو الإمبراطور أوتو الأول، الذى كرر نفس العمل الخيالى وبنفس الصورة التى قام بها شارلمان، واستعاد الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، والتى عرفت باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة: المقدسة لأن التتويج تم على يد البابا، والرومانية لاستعادة الزمن الذى كانت فيه أوربا تنعم بالوحدة.

إن أوتو الثالث حفيد أوتو الأول - بما له من سجايا - قد جمع فى شخصه بين قوة الألمان عن طريق والده وحساسية اليونان عن طريق والدته، وهى إحدى الأميرات البيزنطيات، واستفاد كثيراً من معلمه ومرشده جيربرت الأوريلاكى Gerbert of Aurillac، وهو أحد كبار العلماء والذى استطاع أن يقيم عدة أجهزة فلكية أدخل بها الغرب الأوربى لأول مرة فى مجال الحسابات الفلكية، وجيربرت هذا هو الذى عرف فيما بعد باسم البابا سيلفستر الثانى منذ سنة ٩٩٩م، والذى ألهم تلميذه السابق الحلم المثالى لإمبراطورية وبابوية تحكمان العالم المسيحى فى انسجام لصالح البشرية ومجد الرب، لكن هذا الحلم سرعان ما تحطم بموت الإمبراطور المفاجئ سنة ١٠٠٢م وموت جيربرت فى السنة التالية.

وفى سنة ١٠٥٣م اختار الأمراء الألمان هنرى الرابع ملكًا كوريث من الفرع السكسونى؛ فاعتلى هنرى العرش وهو طفل صغير، إلا أنه سرعان ما أثبت قدرة كبيرة على التفوق والنبوغ، وكملك كفؤ حاول أن يمنح الإمبراطورية التى ورثها عزماً جديداً، وكان من الممكن أن يصبح إمبراطوراً عظيمًا لو أنه لم يدخل فى صراع مع البابا جريجورى السابع الذى كان على قدر كبير من الذكاء، ومليئًا بروح الحماس لجعل البابا الحاكمَ الفعلى لملكة المسيح على الأرض.

كان جريجورى صغير السن ممتلئ الجسم، قصير الساقين، ومن حيث المولد فربما كان ينتمى إلى أصل متواضع، ومن حيث مزاجه العقلى كان أقرب إلى عامة الناس وبشكل كبير. كما كان مدركًا بأنه كخادم للرب يجب أن يناضل ضد الحكام الأشرار، كذلك كان واحداً من هؤلاء الرجال الأقوياء ذوى الإيمان الحق الذين يمكنهم بقوتهم الروحية تغيير العالم حتى ولو لم يكن هذا التغيير دائمًا إلى الأفضل. لقد استحوذ عليه شيء واحد، وهو أن ينقّى الكنيسة مما وقعت فيه من مفاسد ويستعيد لمدينة روما قوتها الروحية المستمدة من الرسل، وعندما تتمكن كنيسته من لمّ الشمل، وأن تعاقب وتصدر قرارات التحلل من الأيمان فسيكون لها الكلمة العليا فوق أية سلطة بشرية أخرى بما فيها الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وفى ربيع سنة ١٠٧٥م أصدر جريجورى مرسومًا يقضى بإلغاء التقليد العلمانى، أى النظام السابق والذى كان يقوم فيه الحكام العلمانيون بتعيين رجال الدين من كهنة وأساقفة فى وظائفهم الكنسية، هذا المرسوم جعل الخاتم والصولجان فى يد البابا، أو بعبارة أخرى فرض هيمنة البابا على رجال الدين. وإن كان بعض المغرضين يرون أن هذا التقليد كان قديمًا ولكن متطلبات العصر حتمت ضرورة الشعور بقوة هذا الرمز. كما أن الخاتم كان الرمز الأسقفى لرسامة الكاهن، فضلاً عن أنه كان رمزًا لرعاية البابوية لأتباعها من رجال الدين. ولقد نظر كثيرون إلى عملية التقليد العلمانى على أنها الدليل الواضح على حق الملك فى اختيار وتعيين رجال الدين.

كما أن المرسوم الذى أصدره جريجورى كان لطمة قاسية بالنسبة لهنرى الرابع، ذلك لأن الكنيسة كان فى حوزتها أكثر من ثلث حدود ألمانيا، كما أن كبار رجال الكنيسة هناك كانوا أتباعًا مخلصين وحكامًا خاضعين لهنرى، ويعملون مُدراءً فى مؤسسته السياسية والمالية والإدارية، ويمدونه بمعظم دخله. كما أنهم كانوا له حصنًا قويًا ضد أعدائه الدائمين من البارونات الثائرين. وتعيين هذا العدد الكبير فى جهاز الدولة من قبل البابوية كان معناه ضياع الحكومة أو الفوضى السياسية والاجتماعية. واعتقد هنرى أن البابا قد اختل عقله، إلا أنه فى نفس الوقت لم يتخذ أى إجراء ضد مرسوم جريجورى، لأنه كان مشغولاً بإخماد الثورة فى إقليم سكسونيًا Saxony.

وقام جريجورى بتهديد هنرى بخلعه وإصدار قرار الحرمان ضده إذا هو لم يذعن فوراً لبرنامج الإصلاح البابوى، ورد عليه هنرى بعقد مجمع دينى يضم أساقفة ألمانيا، والذى قرر بإجماع الأصوات عزل جريجورى من منصبه الدينى. وأرسل هنرى القرار إلى البابا، فى رسالة جاء فيها : "**الآن، وبعد أن تمت إدانتك وإنزال اللعنة عليك بالقرار الصادر عن جميع أساقفتنا ومنّا، ما عليك إلا أن تتنحى عن الكرسى الرسولى الذى اغتصبته. اترك هذا المكان لشخص آخر يستحق مقعد القديس بطرس، لا يمارس العنف من وراء ستار الدين، بل يقوم بنشر تعليم القديس بطرس الصحيحة. أنا هنرى الملك بنعمة من الله ومعى كل أساقفتنا، نقول لك : تنحَّ . تنحَّ وعليك اللعنة الأبدية**" .

ولم تكن هذه هى الطريقة التى يجب مخاطبة البابا جريجورى بها، ففى الحال أصدر قرار الحرمان ضد هنرى وأعلن قطعه من الكنيسة، قائلاً : "إننى أحلُّل كل المسيحيين من يمين الولاء الذى أقسموه له، وأمنع كل واحد من أن يعترف به ملكًا" . ولم يكن قرار الحرمان هذا ليزعج هنرى كثيراً لو أن ألمانيا كانت كلها توازره. ذلك أن أساقفته قد أخذوا موقفًا غريبًا منه، كما أن الحكام العلمانيين فى إمبراطوريته قبلوا وببساطة القرار البابوى لأنه أمدهم بسبب جوهرى للثورة. كما أن أمراء ألمانيا تقدموا باقتراح بعقد لقاء فى أوجسبرج فى فبراير سنة ١٠٧٧م يعقد تحت إشراف البابا، على أن يكون جدول أعماله الرئيسى طرد هنرى واختيار ملك جديد.

لقد كان على هنرى أن يعترف بالهزيمة، وكانت فرصته الوحيدة لكى يستبقى جزءًا من ثروته أن يعترض سبيل جريجورى وهو فى طريقة إلى ألمانيا، ويحصل على رضاه ومساندته. وفى يناير عبر هنرى وزوجته وابنه الأصغر جبال الألب فى رحلة قاسية، ودار الركب فى طريق متعرج حول ممر البغل فى جبل Cenis pas، فى مواجهة الرياح الثلجية العاصفة عند قمة الجبل، ثم هبطوا إلى إيطاليا. وكان جريجورى قد بدأ فعلاً طريقه إلى مجمع أوجسبرج، واستقبل هنرى عند قلعة كانوسا Canossa، مقر حكم الكونتيسة ماتيلدا صاحبة توسكانيا Tuscany وهى إحدى أتباعه المخلصين.

وتقع كانوسا على قمة جبل، غير بعيد من بارما Parma وللوصول إليها، فإنه يتحتم على المسافر أن يصعد طريقًا صعبًا مرهقًا إلى جانب صعود جبل بورجاتورى Purgatory نفسه. لقد كانت أطلالها مقيتة ومروعة كما كان الحال نفسه بالنسبة لهنرى. وتم إغلاق أبوابها فى وجهه وفق تعليمات جريجورى، مما اضطر هنرى إلى الانتظار خارجها فى ثلوج شهر يناير حافى القدمين، فى ثياب خشنة، وقد نزعت عنه جميع الشارات والرموز الدالة على الملك، وحيث تركه جريجورى هكذا ثلاثة أيام وليلتين، إلى أن رأى البابا أن إذلال الإمبراطور قد أصبح كافيًا، ففتح الأبواب، وسمح لهنرى بالدخول لكى يقبّل قدمى البابا ويسأله الصفح، وعندها فقط صفح عنه.

إن استسلام هنرى قد تحول - كما كان يأمل - إلى نصر سياسى، إذ اعتقد الأمراء الثائرون الألمان أن البابا قد خذلهم، كما أن الائتلاف الذى شكلوه قد تم حله، واستعاد هنرى قوته، كما استعاد سيطرته على الإمبراطورية، مما جعله يجدد تحديه، ولهذا لم يبق طويلاً فى حالة سلام مع جريجورى. وتم إصدار قرار الحرمان ضده مرة ثانية، مما دفعه إلى قيادة جيشه إلى روما ومحاصرتها، ولم يلق مقاومة سوى من إحدى قلاع البابا وهى قلعة القديس أنجلو، واستدعى هنرى جريجورى، وفى مقابل سلامته وسلامة القلعة اشترط هنرى عليه أن يتوّجه إمبراطوراً رومانيًا. ورفض جريجورى، إلا أنه -وكما يقال- عرض أن يضع التاج على رأس هنرى بواسطة حبل، ولم يرض هنرى بهذا الوضع كحل وسط، فقام بتعيين بابا آخر وقام هذا البابا الجديد بتتويج هنرى بشكل رسمى. فما كان من جريجورى إلا أن طلب مساعدة روبرت جويسكارد، الحاكم النورماندى لجنوب إيطاليا. وسرعان ما ظهر روبرت على رأس جيش تم تشكيله بشكل أساسى من المسلمين، واستطاع أن يطرد هنرى من روما، وأتبع ذلك بعمليات سلب ونهب للمدينة وأسر عدة آلاف من أهلها وتم بيعهم كعبيد.

أما جريجورى فقد تخلى عنه معظم الكرادلة وأصبح ممقوتًا من الناس، فغادر روما مع الجيش النورماندى ولم يلبث أن وافته المنية ذليلاً، وهو يردد العبارات التى جاءت فى مزامير داود : **"لقد أحببت الحق وكرهت الظلم"**، ويضيف :**"لهذا أموت فى المنفى"**. واستمر الصراع حول التقليد العلمانى، ولكن فى ظل أبطال آخرين، إلى أن تم حسم هذا الصراع فى الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى ورمز Worms سنة١١٢٢م،

عندما تنازل الإمبراطور عن حقه في تعيين الأساقفة مع الخاتم والصولجان، ولكنه احتفظ بميزة الإشارة إلى أسقف المستقبل بصولجانه قبل أن يمنحه البابا الشعارات المقدسة، ولقد كان هذا حلاً معقولاً. وعلى أية حال، فمن الذى فاز فى الصراع الذى دار حول التقليد العلمانى؟

البعض يقولون إن الحكام العلمانيين هم الذين فازوا، إذ استمر الملك فى اختيار رجال الدين كحكام ورجال إدارة وتم منحهم شارات السلطة من قبل السلطة الزمنية. والبعض الآخر يقول إن الذى فاز هو الكنيسة، وفقًا لما قاله المؤرخ كريستوفر داوسن Christopher Dawson : فإن الكنيسة كانت هى فى الحقيقة الشىء الاجتماعى والأساسى والجوهرى، أما الحكومة أو الدولة فكانت مؤسسة تابعة مسئولة عن تحقيق السلام والنظام. بينما يرى البعض الآخر أن النتيجة كانت مأزقًا، بعد أن أصبح واضحًا أنه لا البابا ولا الإمبراطور قد حققا الفوز التام، مما جعل الاتفاق ينهار. والبعض يؤكد أن الصراع أدى إلى ثورة عالمية يمكن مقارنتها بثورة البروتستانت، أو الثورة الليبرالية أو الثورة الشيوعية التى ظهرت فى القرون السادس عشر والثامن عشر والعشرين، والتى حطمت النظام القديم، وحررت الكنيسة من السيطرة العلمانية، وجعلت منها دولة فوق كل الدول. كما أن الصراع حول التقليد العلمانى تحول إلى جدال بين المؤرخين.

فإيطاليا، وهى البلد التى شهد دراما "كانوسا"، لم تلق بالاً للإمبراطور أو البابا. كما أن مملكة اللمبارديين القديمة فى المناطق الشمالية من شبه الجزيرة قد أصبحت تحت السيطرة الألمانية، وإن كان الألمان غير قادرين على أن يحكموا بكفاءة فيما وراء جبال الألب. أما المدن اللمباردية التى كانت مستقلة فقد ازدادت ثروة وقوة، وشيئًا فشيئًا فإن مواطنى ميلان أخذوا يصدون الجيوش التى كان يرسلها الأباطرة. وغدت بافيا Pavia مركزًا تجاريًا كبيرًا، حيث وصلتها القوافل من الشمال البعيد، بعد عبورها لجبال الألب، محملة بالخيول، والعبيد، والصوف، والكتان، والدروع، وفيها يلتقى التجار القادمون من الموانئ الإيطالية ومعهم الحرير، والتوابل، والمجوهرات، والذخائر المقدسة الشرقية والصلبان.

كما عرفت مدن شمالى إيطاليا نظام القوميونات والذى عرفه أحد العلماء بقوله : هو اتحاد يضم جميع أبناء المدينة، وليس التجار وحدهم، ويرتبطون فيه بقَسَم بالمحافظة على السلام العام، ويدافعون عن الحريات العامة، وإطاعة الحكام. وأخذت قوميونات المدن التجارية جنوا، وبيزا والبندقية تهيمن على تجارة البحر الأبيض المتوسط، وبدت عظمة البندقية حوالى سنة ١٠٠٠م بتوسيع مجالها على امتداد الساحل الإدرياتيكى، وأخذت الأساطيل البندقية تمد بيزنطة بالقمح، والنبيذ، والصوف، والملح، والعبيد، وتعود محملة بالسلع الكمالية من الشرق والتى كانت تلقى إقبالاً فى الغرب. وفى سنة ١٠٨٥م حصلت البندقية على امتياز بامتلاك حى خاص بها فى بيزنطة والإعفاء من الرسوم الجمركية فى الإمبراطورية الشرقية.

كذلك كان جنوبى إيطاليا وصقلية يرتبطان بعلاقات حميمة مع القسطنطينية أكثر من ارتباطهما بروما. ففى القرن التاسع الميلادى ضعفت الروابط مع الإمبراطورية الشرقية بسبب استيلاء المسلمين على صقلية وأخذها من حكامها البيزنطيين. حيث مازالت تُرى كثير من الآثار الإسلامية فى صقلية فى كثير من مجالات الفن هناك، فى العمارة، واللغة، والعادات والتقاليد. فلقد أدخل العرب نظام الرى إلى الجزيرة ومعه أدخلوا زراعة البرتقال، وأشجار التوت، وقصب السكر، وأشجار النخيل، والقطن. حيث استقروا فى مناطق كثيرة من الجزيرة، والتى كانت اسميًا ضمن الحدود البيزنطية، ووطدوا لأنفسهم مكانة بين النبلاء المتنازعين.

إلا أنه فى سنة ١٠١٦م حدث أن أربعين فارسًا نورمانديًا كانوا فى طريق عودتهم من رحلة حج إلى الأرض المقدسة، فتوقفوا فى سالرنو، ودعاهم أهل المدينة للانضمام إليهم لصد هجوم إسلامى. فأظهروا من الشجاعة ما دفع أهل المدينة على حثهم على البقاء، فاستجابوا لندائهم، وأرسلوا - يعبّرون عن سعادتهم فى البقاء - لكثير من أصدقائهم فى نورماندى. ومن بين الذين استجابوا للدعوة فى المجىء والمشاركة ستة من الإخوة الاثنى عشر من أبناء تانكرد هوتفيل أقوياء البنية، وتانكرد قد تمتع بكثرة الذرية ولكنه كان فقيراً إلى الأرض. وقام هؤلاء الإخوة بمساندة البيزنطيين ضد المسلمين واستولوا على جزء من أبوليا فى مقابل خدماتهم التى قدموها. وفى سنة ١٠٥٦م انضم إليهم أخ سابع هو روبرت جويسكارد أو "المراوغ"، وبقيامه بنهب إحدى

المدن البابوية فإنه أثار غضب البابا ليو التاسع الذى خرج على رأس جيش كبير لمحاربته. واستطاع روبرت أسر البابا، وبكل تواضع طلب منه العفو لدحره الجيش البابوى، وخلال لقائه بالبابا نجح فى الحصول منه على الاعتراف به حاكمًا على المناطق التى قام بغزوها أو التى سيقوم بغزوها. وبعدها استولى روبرت على أبوليا البيزنطية وكالبريا Calabria، وعزم على غزو الإمبراطورية البيزنطية جميعها، وبدأ مشروعه بالاستيلاء على كورفو Corfu ودورازو Durazzo على الساحل الشرقى للادرياتيك. ولكنه فوجئ بالبابا جريجورى السابع يستغيث به ويطلب منه العون ضد الإمبراطور هنرى الرابع الذى كان قد قام فعلاً بغزو روما، فعاد روبرت إلى إيطاليا وأنقذ البابا، إلا أنه لم يستطع أن يحقق مشروعه الكبير بغزو الشرق؛ لوفاته.

وفى تلك الأثناء استطاع الأخ الأصغر لروبرت جويسكارد، وهو روجر، أن يستولى على صقلية من المسلمين، ثم قام ابنه روجر الثانى بتوحيد صقلية وشرقى إيطاليا، بل إنه استطاع أن يضم جزءًا من الساحل الإفريقى لممتلكاته، وروجر هذا هو الذى اشتهر بلقب "الوثنى"، والذى صدم العالم المسيحى بصداقته الحميمة للمسلمين. فقد كان يتحدث العربية، ويرعى المهندسين المعماريين والشعراء المسلمين، وكان يزين عباءته بكثير من التطاريز العربية. كما أن وسائل الرفاهية فى عاصمته بالرمو Palermo بهرت الغرب الأوربى، حيث وصف أحد زوارها فى سنة ١١٨٠م القصر قائلاً بأنه حتى الأرضيات كان قد تم ترصيعها بالذهب والفضة، وكان الملك يتشمس مع نسائه فى بركة صناعية فى الحدائق الملكية.

أما فى الشمال فإن النورمان كانوا قد قاموا بغزو جزيرة أخرى – هى انجلترا – وهى منطقة أقل بهاء وثروة من صقلية، ومازالت آثار هذا الغزو يتردد صداها حتى الآن. ذلك أن النورمان استطاعوا أن يقضوا على عزلة مملكة انجلترا وربطوها بالغرب الأوربى، كما كان لهم الفضل فى خلق حضارة غنية مهمة هناك.

ففى السنوات التى سبقت الغزو النورماندى، كانت انجلترا تنعى حظها فى حكامها الأنجلو سكسون، ذلك أن إيثلرد Ethelred غير المبالى أو «الطائش»، كان قد أجبر على دفع إتاوة للغزاة الدانيين، وفى سنة ١٠١٣م وتحت ضغط الدانيين اضطر أن

يرسل زوجته النورمانية إما Emma ونجله إدوارد إلى القارة حرصًا على سلامتهما، وبعد فترة وجيزة انضم إليهما هناك، واستولى الدانيون على كل البلاد أيام حكم الملك كانوت Canute، وهو الذى زهد فى الحكم وتحول إلى راهب كبير، وبعد وفاة ابنى كانوت، استحوذ إدوارد نجل إيثلرد، والملقب بـ « المعترف »، على العرش الإنجليزى سنة ١٠٤٢م، وكان قد بلغ من العمر حوالى الأربعين عامًا، ولم يكن قد أنجب، لذا كان من المتوقع حدوث صراع حول من يخلفه على عرش البلاد، ولأنه كان قد أمضى حياته فى إقليم نورماندى، فإنه كان يشعر أنه غريب فى انجلترا، كما أنه كان قد استعان بعدد من أصدقائه النورمانديين فى حكومته، كما استقبل بحفاوة بالغة فى ويست منستر Westminster ابن عمه وليم الثانى، الابن غير الشرعى لدوق نورماندى، مما جعل وليم يذكر فيما بعد أن إدوارد عرض أن يخلفه على التاج الإنجليزى. ومن المحتمل أن يكون إدوارد قد فعل هذا، لأن إدوارد لم يكن لديه الحق فى أن يحدد من يخلفه.

فى ذلك الوقت كان أقوى الشخصيات فى انجلترا هو هارولد جودونسون Harold Godwinson ابن حاكم وسكس Wessex، وأخو زوجة إدوارد. كان طويل القامة جدًا، ضخم البنية، أشقر اللون، تمامًا مثل غيره من الجرمان من أهل الشمال. كما كان أيضًا جديرًا بالاحترام، يتوقد حماسًا ومرحًا، رياضيًا، نبيلاً، من الريف الإنجليزى، أصيلاً، حاز حب الناس أكثر من غيره. وكان إدوارد قد أرسله فى سفارة إلى نورماندى، ولكن لسوء الحظ أنه وصل كأسير أكثر منه كسفير. وسرعان ما جمعت المودة بين إدوارد وهارولد، فكانا يخرجان للصيد معًا، ويحضران الولائم معًا، ويتحدثان ويتشاوران فى الأمور السياسية معًا، ويحاربان جنبًا إلى جنب ضد بريطانيا Brittany ولكن عندما حان وقت رجوع هارولد إلى موطنه فى انجلترا England فإن وليم لم يدع صديقه العزيز يرحل قبل أن يقسم اليمين بمساندة من يخلف وليم على العرش الإنجليزى. وفعلاً وافق هارولد، مدركًا أن يمينًا كهذا يمين عادى قد تم حلفه فى ظل الإكراه ويمكن التنصل منه. ولكى يضمن وليم ضمان سريان هذا اليمين فقد جمع أكثر الذخائر المقدسة فى الدوقية، وخزانة كبيرة مليئة بالعظام المقدسة كان قد أخفاها تحت المذبح الخاص بكاتدرائية بايو Bayeux ؛ وبمجرد أن

أقسم فيها هارولد يمين الإخلاص والمؤازرة، فإن وليم أزاح - وبسرعة - الغطاء عن المذبح وأظهر الشهود الذين أخفاهم، وبضربة واحدة استطاع وليم أن يجمع بين تأييد العالم الإقطاعي والكنيسة بل وحتى القديسين إلى جانبه.

وفي الخامس من يناير عام ١٠٦٦م توفي إدوارد تاركًا الوصيّ الأول على عرش مملكته وهو هارولد بدلاً من وليم، ولقد استحسن النبلاء الإنجليز هذا الاختيار، وفي نفس اليوم الذي تمت فيه مواراة جسد إدوارد في كنيسة ويست منستر الجديدة، تم تتويج هارولد ملكًا على يد كبير أساقفة يورك York، ولكن وليم كان لا يزال مصممًا على أن يكون ملكًا على انجلترا. وبارك البابا مغامرته هذه وأرسل إلى نورماندي مرسومًا بحرمان هارولد وأنصاره، مع راية حربية مكرسة لهذا الغرض النبيل، وخاتمًا ماسيًا يحتوي على شعرة وإحدى أسنان القديس بطرس. ولقد استحسن المجتمع الإقطاعي أي إجراء يتخذ ضد من يحنث في قسمه أو من يقسم يمينًا كاذبة. وقام وليم ببذل كثير من الوعود الخلابة والمغرية لأنصاره تتضمن حصولهم على كثير من الأرض، والغنيمة، والمناصب، والامتيازات الإقطاعية. وفي صيف سنة ١٠٦٦م أرسل حملة بامتداد الساحل النورماندي، وهناك تجمع حوالي ٧٠٠٠ من المقاتلين بالإضافة إلى الآلاف من القوات المساعدة.

وإن دلت عملية الغزو هذه على شيء فإنها تدل على حسن الإعداد والتمويل، لدرجة أن وليم حمل معه حصنًا سبق تجهيزه، بحيث يتم تشييده فور وصوله إلى انجلترا. وتطلب هذا الغزو حوالي سبعمائة ناقلة من ناقلات الجنود لكي تقلهم عبر بحر الشمال "المانش"، ومعظم هذه الناقلات كان قد تم إعدادها بشكل كبير لمثل هذه العملية. ومن المحتمل أن يكون وليم قد جعل حملته هذه تتزامن مع حملة أخرى من الشمال قام بها ملك النرويج هارولد هادراد Harold Haddraade "متحجر الفؤاد"The Hard– Boiled، والذي كان يبحث عن العرش الإنجليزي لنفسه، وهبط النرويجيون قرب يورك، وهزموا الجيش الإنجليزي تمامًا، والذي كان يدافع عن الساحل.

وعندما سمع الملك هارولد بالأخبار القادمة من لندن، فإنه حشد جميع فصائله وكذلك كل القوات المساعدة التى وجدها، وأسرع باتجاه الشمال فى سرعة ملحوظة، وواجه الغزاة النرويجيين عند قنطرة ستامفورد Stamford Bridge إلى الشرق من يورك فى الخامس والعشرين من شهر سبتمبر، وفى معركة كبيرة استطاعت خيَّالته أن تبيد العدو. فالنرويجيون الذين جاءوا فى ثلاثمائة سفينة رجعوا إلى موطنهم فى أربع وعشرين سفينة.

وبعد ثلاثة أيام أى فى الثامن والعشرين من سبتمبر، هبط الدوق وليم فى الجنوب، كما رست قواته فى ميناء القديس ڤاليرى St-Valery صباح اليوم السابق، وكان هذا العبور نجاحًا بحريًا كبيرًا، على الرغم من أن المسافة التى تم قطعها إلى بيڤنسى Pevensey كانت ستين ميلاً، ولقد ساعد هبوب الرياح المواتية لاتجاه السفن ربابنة هذه السفن أن يشقوا طريقهم مهتدين بالنجوم والبديهة، لأنه لم يكن لديهم أية بوصلات مع عدم ظهور القمر. وإن كان قد تم فقد سفينتين من سفن الأسطول البالغ عدده سبعمائة سفينة، واحدة منهما كانت تحمل عراف الحملة، وعندما قال وليم : **"ليست هناك خسارة كبيرة، فهو لم يستطع حتى أن يتنبأ بمصيره"** وعلى الرغم من حالة التسرع التى كان عليها الأسطول، فإنه استطاع أن يجد منطقة آمنة ويتحصن بها.

وعندما سمع هارولد جود ونسون أخبار غزو وليم وهو قابع فى الشمال، فإنه حشد قواته بأسرع ما يمكن واتجه إلى لندن، فقطع المسافة إليها فى أسبوعين حيث انضم إليه بعض جنود الميليشيا، وكان عسكره يضم كثيرًا من خيرة الجنود المنتقاة، والذين يرتدون السترات الجلدية الطويلة بلا أكمام، ومدرعين بملابس الزرد، كما كان تسليحهم الرئيسى هو البلطة القوية التى يبلغ طولها خمسة أقدام، ويتم إمساكها بكلتى اليدين. أما القوات المساعدة وهى قوات الميليشيا فلم تكن على قدر كاف من التدريب، وحمل أفرادها من الأسلحة ما يستطيعون إجادة استعماله، من السهام، والفئوس، والمقاليع، بل وحتى المناجل. كما كان هناك عجز واضح فى رماة النبال. ووصل هارولد إلى المنطقة المرتفعة شمال هاستنجز Hastings، ووجد موقعًا حصينًا عند قمة أحد التلال، محصن الجوانب، بحيث كانت مزايا موقعه تعوضه عن الإرهاق وعدم التنظيم الذى ساد معسكره.

وفى صباح اليوم الرابع عشر من أكتوبر تقدم وليم للهجوم، ومع أصوات التحذير من اقترابه، فإن الإنجليز اندفعوا ليأخذوا أماكنهم مشكلين حائطًا دفاعيًا فى مقدمته خيرة الجنود، ومن خلفهم الرماة وأمامهم كانت الأرض تنحدر شيئًا فشيئًا بدرجة تسمح بالتحرك السريع لجنود المشاة المدرعين بملابس الزرد الثقيلة التى يبلغ وزن الواحدة منها حوالى ثلاثين رطلاً، وفى منتصف الطريق وعلى المنحدر كان وليم فى الطليعة ينشر جنوده المشاة مشكلاً جبهة عريضة، بينما كانت راية الحرب التى باركها البابا ترفرف عاليًا، وكان وليم يعلق فى رقبته كيسًا مليئًا بالذخائر المقدسة، ويمتطى فرسه يتقدم هنا وهناك مُصدرًا أوامره.

إن مجال المعركة مثار جدل كبير، لكن من الواضح أنه شهد سلسلة من التقدم التى قام بها النورمان ضد الخطوط الأنجلو سكسونية، بحيث وصلت الأمور إلى اشتباكات فردية، رجلاً لرجل، ويداً ليد، وصراعات بلا نتيجة حاسمة. وبعد الظهيرة وقع هجوم نورمانى عن طريق الفرسان الخيالة، إلا أن هذا الهجوم تم دحره، وخلّف خسارة فادحة. واندفع الإنجليز بكل رتبهم يسلبون الموتى والجرحى دروعهم وملابس الزرد المعدنية، واستغل وليم هذه الفرصة، وقام فرسانه بإغلاق الطريق أمام الإنجليز المعزولين، ثم أمر بالهجوم المباشر على القوات الإنجليزية الرئيسية. ويقال إن هارولد أصابه سهم فى عينه، ولكن يبدو أن هذا نَجَم عن عدم فهم أحد المناظر التى تم تسجيلها على قطعة نسيج مزدانة بالرسوم والصور فى بايو Bayeux ، فلقد تكتل النورمان بكل ما أمكنهم لتحقيق النصر، واندفعوا وسط دفاعات الإنجليز، لدرجة أن هارولد وأخويه الاثنين قد أطيح بهم أرضًا على يد خيالة النورمان. وفى الموقع الذى سقط فيه هارولد صريعًا تم تشييد كنيسة كبرى حسب أوامر وليم تخليداً لذكرى هذه المعركة.

لقد كان يوم الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٠٦٦م أحد الأيام الحاسمة فى التاريخ، فالمعركة نفسها كانت قد انتهت، ولم يتبقَ منها سوى بضع عمليات بسيطة هنا أو هناك، أو توزيع هدية نصر، ولو قدر لهارولد أن يفوز عند هاستنجز ويبقى على قيد الحياة، لما كان له أية فرصة سوى أن يتخلى عن حقه فى العرش، ولكان من المحتمل ولو بنسبة بسيطة أن يحاول شخص ما غزو إنجلترا خلال الألف سنة التالية ولو على

الأقل بطريق البحر، ولما وثقت إنجلترا صلاتها مع إسكندنافيا، ولظلت تنظر إلى القارة الغربية بعين من الشك والريبة أكثر مما هى عليه الآن، ولما استطاعت الحضارة الأنجلو سكسونية المحلية أن تتطور بطريقة تفوق التصور، ولما أمكن لوليم الفاتح أن يُعرف فى التاريخ باسم الفاتح فى مدى قصير، ولظل اسمه يتردد على أنه الابن غير الشرعى أو المشكوك فى أصله فحسب.

ولكن وكما حدث فإن النورمان تحقق لهم النصر فى هاستنجز، ليس فى المعركة فحسب بل وفى الحرب كذلك، وبوفاة هارولد وأخويه، فقد ضاعت الزعامة الأنجلو سكسونية، ولم يعد هناك منافسون خطرون لوليم على التاج الإنجليزى، ومن ذلك الحين فصاعدا تم التخلص منهم، وبعد شهر من المعركة دخل وليم لندن، وفى يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦م تم تتويجه ملكًا على الإنجليز.

وقرر الملك الجديد أن يواصل تقسيم الغنائم، وما عمله كان بسيطًا للغاية، فقد امتلك كل الأرض الزراعية فى انجلترا، وقام بتوزيع بعض حصص معينة من هذه الأرض على أتباعه المخلصين كمستأجرين، وفى حالة عدم وجود ورثة لهم فقد كانت هذه الأرض تعود إلى التاج، وبذلك كانت انجلترا البلد الإقطاعى الحقيقى. فمن آلت إليهم الإقطاعات الكبيرة كانوا مستأجرين بشكل رئيسى أو بارونات، ويقومون بإعالة أتباعهم بإعطائهم جزءًا من إقطاعياتهم، أى منحهم جزءًا من الأرض فى ظل الالتزامات التى تم فرضها على الأفصال، وهكذا كان هناك حوالى خمسة آلاف من الفرسان تحت أمر الملك، ولكى يضمن وليم تدعيم حكمه، فإنه أمر بتشييد عدد من القلاع الملكية فى شتى أنحاء المملكة.

وكرجل أعمال جيد وتواق لجمع المال، فإن وليم أمر بعمل إحصاء رسمى ومسح للموارد الطبيعية فى مملكته كلها، لم يشمل البشر فحسب، بل شمل حتى الأبقار والخنازير. هذا الإجراء غير العادى أغضب المشاغبين والحانثين بالأيمان، ذلك لأن أتباع وليم الجدد كانوا على يقين أنهم سوف يقومون بدفع ضرائب ثقيلة على كل الممتلكات التى سوف يتم تسجيلها. أما الممتنعون عن التسجيل فقد كانوا يحاكَمون بشدة أمام محاكم هى أشبه بمحاكم العامة التى أقيمت فى كل مكان ليوم الحساب، لهذا فإن تقارير الإحصاء كانت ولا تزال تسمى « دفاتر الأرض الزراعية»، وهى تعد من أهم المصادر التاريخية القَيِّمة فى العالم.

كما أن هذا الغزو قد أحدث تحولاً فى البنية الاجتماعية فى انجلترا، حيث أخذت الأرستقراطية الأنجلو سكسونية القديمة فى الاختفاء ولم يعد لها أثر، وذابت وسط أصحاب الإقطاعات الزراعية، وفى سنة ١٠٨٧م استقر ما يقرب من مائتى ألف من النورمانيين والفرنسيين فى انجلترا، وانخرطوا فى السكان المحليين والذين زاد عددهم إلى أكثر من المليون. كان كثير من الفرسان الجدد القادمين قد تزوجوا بفتيات محليات، وسرعان ما أخذ أولادهم يتحدثون الإنجليزية أكثر من الفرنسية.

أضف إلى ذلك أن فترة حكم وليم القوية قد حققت لانجلترا الأمن والنظام، ذلك أنه كان فى استطاعة أية فتاة أن تمر فى انجلترا من أقصاها فى سلام بما تحمله من ذهب وفى أمن حسبما يذكر ذلك أحد المؤرخين. بينما كانت البلاد تعانى الفوضى السياسية فى ظل من خلف وليم من حكام ضعاف، **" كما أن الأرض لم تنتج القمح وكأنك كنت تحرث فى البحر، ذلك لأن الخراب كان قد شمل الأرض الزراعية، لدرجة أنه قيل علنًا وبصراحة :إن المسيح والقديسين كانوا فى غفوة ".**

وفى سنة ١١٥٤م اعتلى عرش البلاد هنرى الثانى، وكان أول ملك من الأنجويين وهو ابن جيوفرى بلانتاجنت Geoffrey Plantagenet كونت أنجو Anjou. امتاز بأنه كان قوى البنية، عريض المنكبين، مفتول العضلات وخاصة عضلات الذراعين والرجلين، ذا رأس مستدير ضخم، وعنق قصير، وشعر كستنائى، وجلد منمش، محب للاستطلاع بشكل كبير، يجيد عدة لغات بطلاقة، وذاكرة جادة، لا ينسى وجها رآه ولو مرة واحدة، أو شيئًا مهمًا.

وبفضل قدراته الخلابة نعمت انجلترا بكثير من الرخاء، وعلى أيامه اكتسبت انجلترا لقبًا لا يمكن نسيانه وهو "انجلترا السعيدة Merrie England " أو "أرض انجلترا المملوءة سعادة Anglia Plena Jocis". حيث امتلأ الريف بالقلاع الحصينة، وزاد عدد القرى الصغيرة على جوانب البرك والجداول المائية، وظهر النماء فى الريف والذى لا يزال أثره واضحًا فى الريف الإنجليزى إلى الآن، كما تم بناء العديد من الكاتدرائيات الضخمة مثل كنتربورى Canterbyry، وإلى Ely،

وأكسفورد Oxford، وويلز Wells وازدهرت التجارة، وزاد عدد المدن، وتم بناء قنطرة لندن London Bridge، وهى أول قنطرة تم تشييدها من الحجارة على المنطقة التى يصل إليها المد من نهر التيمز Thames، والتى بدأ العمل فيها سنة ١١٧٦م. ولإقامة أساسات هذه القنطرة كان لابد من تقسيم مياه نهر التيمز عن طريق إقامة عدد من السدود لتمكين العمال من وضع الأساسات فى مجرى النهر، مما يعد عملاً هندسيًا بطوليًا أو فذًا.

أما أهم إنجاز قام به هنرى فهو وضع القواعد الأساسية للقانون العام الذى تم بمقتضاه تنظيم العمل فى المؤسسات الحكومية، وترسيخ قواعد الحرية الإنجليزية، هذا القانون العام اعتمد على العرف السائد والتقاليد المرعية، وهو عام لأنه شمل كل المملكة. ذلك لأن الأساليب السابقة التى كانت متبعة ويتم بمقتضاها تحديد ما إذا كان الشخص بريئًا أم مذنبًا عن طريق المحاكمة بالتعذيب، أو الصراع بين الأبطال، قد غدت سخيفة وغير عادلة، وكثيراً ما كان يبدو فيها حكم السماء مناقضًا للواقع. لذلك فقد قام هنرى بتقسيم هيئة المحلفين إلى مجموعة من الشهود وهم الذين يقسمون على أن يشهدوا بالحق، وربما كانوا فى عملهم هذا مثل هيئة المحلفين فى العصر الحديث، والذين يتخذون قرارهم بناء على الحالات والمعلومات المتاحة لهم لا على أساس البراهين التى كانت تقدم لهم أمام المحكمة، وبناء على إجماعهم على رأى ما يتم البت فى القضية.

ولقد أدت جهود هنرى فى إرساء نظام قضائى عادل إلى الدخول فى صراع مع الكنيسة التى كانت لها محاكمها، وقراراتها التى لابد من سريانها على جميع رجال الدين وحتى الكتبة. ولكى يجنب الإنسان نفسه الإتيان بكاتب، ويحمى نفسه من عقوبة قطع الرأس فقد كان عليه أن يقرأ– وبصوت مسموع – بعض المقاطع الشعرية المقدسة وهى التى كانت تسمى المقاطع الشعرية الخاصة بالرقبة. وفى سنة ١١٦٤م أصدر هنرى مجموعة القوانين الشهيرة باسم كلارندون Clarendon، والتى حدّت من سلطة المحاكم الكنسية نوعًا ما.

وكان أول من وضع توقيعه علي مجموعة القوانين هذه هو توماس بيكيت Thomas Becket أسقف كانتربورى، ولكنه سرعان ما تبرأ منها، وطالب بحقوق للكنيسة لم يشر إليها البابا نفسه، ومن بينها منع تطبيق عقوبة الإعدام على كل رجال الدين، حتى لو ارتكبوا جريمة القتل وبعد سنوات من الصراع، فقد اضطر الملك أن يصيح معلنًا : **يا لهم من رجال وضيعي المولد، بُلداء، هؤلاء الذين جلبتهم إلى مملكتى ! ألا يوجد من يخلصنى من هذا القس اللعين ؟** وقام أربعة من رجاله بهذه المهمة، فامتطوا خيولهم إلى كانتربورى حيث وجدوا بيكيت فى كاتدرائيته، وصرعوا رجل الدين غير الهياب أمام كنيسة مريم العذراء. ولقد عثر الرهبان الذين جهزوا جثمانه للدفن أسفل عباءته على قميص من وبر يابس تمامًا وبال بدرجة توحى بقداسته. ولقد تم إضافة اسمه إلى قائمة القديسين خلال سنتين، وأصبحت كنيسته واحدة من المزارات المقدسة التى يُحج إليها فى العالم وكما هى عليه الحال الآن تمامًا، على الرغم من أن الحجاج اليوم أقل ورعًا عن سابقيهم.

وبالنسبة لأيرلنده، فترجع تبعيتها الطويلة لإنجلترا إلى أيام هنرى، نتيجة لطلب أحد الزعماء الأيرلنديين المساعدة الإنجليزية ضد منافسيه. فاستجاب لهذا النداء جماعة من الفرسان الأنجلو نورمان الذين أخضعوا لنفوذهم المنافسين وكذلك الزعيم الذى طلب المساعدة. ولم يكن فى مقدور هنرى أن يسمح بقيام مملكة مستقلة، فقام بغزو أيرلنده وأخضع الطرفين الأيرلنديين والأنجلو نورمان. وفى كل مكان دان له بالطاعة فى ممتلكاته أقام العديد من الأبراج المحصنة، والتى قام السادة الإنجليز منها بمراقبة أتباعهم، وكثير من هذه القلاع ما زال باقيًا كرمز وتذكار للأيرلنديين على تبعيتهم الطويلة الآن.

كما كانت علاقات هنرى بفرنسا صعبة ومعقدة، ففى فترة حياته فإن الملوك الفرنسيين كانوا يزدادون قوة ويوسعون ممتلكاتهم، حيث قاموا بإصلاح كثير من الأراضى البور وتحويلها إلى أرض زراعية، وعززوا التجارة، وشجعوا قيام كثير من المدن الجديدة، وغدا الإحساس بالقومية الفرنسية يزداد وضوحًا. وكان هنرى كملك لانجلترا قد ورث كونتية أنجو الفرنسية، وفى نفس الوقت فقد كان دوقًا على نورماندى، وبالتالى فإنه كان فصلاً للملك الفرنسى.

عـلاوة على ذلك فـإن الملك لويـس السابع كان قد تزوج من إليانور الأكويتينية Eleanor of Aquitaine صـاحبة إقطاع معظم غربي وشرقي فرنسا، ولأنها لم تنجب له ذكوراً، إلى جانب أنها لم تكن مخلصة فإن لويس طلقها ؛ وانتهز هنرى هذه الفرصة ليشن هجوماً من أجل حبيبته وفي نفس الوقت لتوسيع ممتلكاته ؛ وبعد شهرين من طلاق إليانور قام بالزواج منها، كما آلت إليه أراضيها، ووسع سلطته من الفلاندرز إلى جبال البرانس. وبسبب تلك الممتلكات الفرنسية التى حازها فقد كان عليه بعض الالتزامات الإقطاعية ومنها حق الضيافة لملك فرنسا، ولكنه كان أكثر قوة بكثير من سيده الاسمىّ.

ولم يلبث هنرى وإليانور أن أنجبا أربعة أولاد ذكوراً، سرعان ما كبروا وبلغوا سن الرشد، وتلقب ولى عـهده بلقب « الملك الصـغير » ، والذى كـان وغداً لا سبـيل إلى إصـلاحـه، حيث قـاد فرقـة من قُطَّاع الطرق، وهم الذين لم يتورعوا عن نهب مـا فى الأديرة من ذخائر وآنية مقدسة، لكنه توفى سنة ١١٨٣م فى حالة من الفقر المدقع، لدرجة أنه يقال إن حامل نعشه وقع مغشياً عليه من شدة الجوع.أما الابن الثانى لهنرى فقد تزوج من وريثة إقطاع بريطانيا، ومات بعد ذلك بقليل.

والابن الثالث لهنرى فهو ريتشارد قلب الأسد والذى لم يكن عديم الرأى فحسب، بل كان سلبياً، وقد أصبح ملكاً على إنجلترا منذ عام ١١٨٩م، ولم يكن يحب إنجلترا، ولم يمكث فيها سوى مرتين طوال حياته، المرة الأولى عندما تم تتويجه، والمرة الأخيرة عندما قرر جمع بعض الأموال، حيث قال عبارته المشهورة **"من الممكن أن أبيع لندن لو أننى عثرت على من يدفع الثمن"**. كان ريتشارد بطلاً رومانسياً، كما كان محارباً وسيماً وشاعراً، وبارعاً فى الاستراتيجية الحربية إلى جانب كونه مهندساً. وشارك فى الحملة الصليبية الثالثة إلى الأرض المقدسة فى الشرق، وشن حصاراً على مدينة عكا الحصينة إلى أن استولى عليها، ولكنه فشل فى استرداد بيت المقدس. وبينما كان فى طريق عودته من الشرق إلى وطنه، فقد تحطمت السفينة التى تقله، وتم القبض عليه أثناء عبوره النمسا حتى يدفع فدية عن نفسه للإمبراطور هنرى السادس إمبراطور ألمانيا . ولقد بذل كل من ملك فرنسا فيليب أوغسطس وأخو ريتشارد چون John مساعيهما لكى يبقى ريتشارد فى الأسر إلى ما لانهاية، ولكن إنجلترا وبجهود جبارة،

استطاعت أن تدبر الفدية التى اشترطها الإمبراطور الألمانى، وتم الإفراج عنه بعد أسر دام أكثر من سنة؛ وشن ريتشارد حربًا ضروسًا ضد فيليب إلى أن مات مسمومًا من جرح أصابه من رمية سهم سنة ١١٩٩م، وخلفه على العرش أخوه الصغير چون.

لقد نظر التاريخ والأدب الإنجليزى إلى چون على أنه مدان إلى حد ما، بالرغم من أن له بعض الجوانب الطيبة، وعلى أية حال، فقد كان ذكيًا وكريمًا إلى حد ما، شفوقًا وممتلئًا حيوية، إلا أنه لا يُحتَمَل فى نوبات الغضب، كما كان شديد القسوة وعلى درجة كبيرة من اللامبالاة، كما لم يعرف الاستقرار، فقد كان كثير التنقل بين قلاعه الاثنتين وسبعين بمصاحبة اثنى عشر كلبًا من كلاب الصيد، كما كان ركبه يضم ضابطًا مسئولاً عن تجفيف ملابسه المبللة، وعن عدة مئات من كلاب الصيد والمكلفين برعايتها، إلى جانب فريق من النساء اللاتى يقمن بغسل الملابس وكيها، والنساء العاهرات وغيرهن.

لم يمض وقت طويل على اعتلاء چون للعرش حتى دخل فى صراع أدى إلى حرب مع سيده الإقطاعى الأعلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا، والذى قام بدوره بالاستيلاء على معظم أراضى چون شمالى وغربى فرنسا وضمها إلى ممتلكاته. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت فرنسا قوة سياسية كبرى، كما استفادت انجلترا أيضًا، لأن ملكها لم يعد له اهتمام بالجانب الفرنسى. ومنذ ذلك الحين فإن سياسة المملكة الإنجليزية اتخذت لها مسارًا مختلفًا لم يعد مرتبطًا بالمسار الفرنسى.

وفى تلك الآونة كان على رأس البابوية البابا إنوسنت الثالث « العظيم » ، والذى استطاع أن يحقق للبابوية سيادتها الروحية والدنيوية على كل الحكام. إلا أن الملك چون اختلف معه، فأصدر إنوسنت قراره بالحرمان ضد انجلترا، وأحل أتباع چون من قسمهم لملكهم، وكان رد چون عليه أن قام بمصادرة كل الأملاك الكنسية فى انجلترا، والاستيلاء على ريعها مع التحكم فى الكنيسة فى بلاده، فكانت هذه هى السابقة الأولى لما فعله فيما بعد الملك هنرى الثامن فى خلافه مع روما. وتحت التهديد الذى وجهه إليه فيليب أوغسطس بشن حرب صليبية ضده، فإن الملك چون كان مجبرًا على التراجع. وفى سنة ١٢١٣م قبل الاستسلام وأن تكون إنجلترا إقطاعية بابوية تابعة للكرسى

الرسـولى فى رومـا، كمـا قـبل أن يدفع سنويًا ألف مـارك فـضـة، عندهـا أعـاد البـابا انجلترا لحكـم جـون، والذى أصبـح منـذ ذلك الحين فـصـلاً له، إلا أن هـذا الوضع لم يستمر طويلاً.

إذ أدى فشل چون فى مجالى الحرب والسياسة إلى إثارة الإنجليز الناقمين عليه، فدعوه إلى عقد اجتماع فى بنيميد Punnymede على نهر التيمز قريبًا من وندسور Windsor، وهناك طلبوا منه التوقيع على وثيقة بها قائمة بكل مطالبهم. وفى البداية ارتبك چون بعض الشىء ولكنه قام بالتوقيع على هذه الوثيقة، وهى ما عرف باسم «العهد الأعظم» Magna Carta فى الخامس عشر من يونيو ١٢١٥م.

والعهد الأعظم بصفة أساسية عبارة عن تقرير لحقوق البارونات الإقطاعية تجاه سيدهم الأعلى "الملك" – أو كحالة من رد الفعل الحقيقى نحوه – ولكى يكسب البارونات تأييد بعض الجماعات الأخرى، فإنهم ضمّنوا هذه الوثيقة بعض المواد المحببة للكنيسة، وللمدن، وللتجـار، وأهل ويلز، وملك اسكتلنده. هذه الوثيقـة ألغت الأعبـاء الضريبيـة، وجعلت الملك يعلن : **"أنه لن يتم القبض على أحد من الأحرار، أو سجنه، أو الاستيلاء على أرضه، وحرمانه من حماية القانون، أو يتم طرده أو إيذاؤه بأى طريقة من الطرق، كما أننا لن نقف ضده أو نرسل فى طلبه إلا عن طريق حكم قضائى يصدره نظراؤه أو بواسطة قانون الأرض"**. وهذه نقطة مهمة فعلاً نحو تنفيذ القانون. والشىء المهم أيضًا والذى تم تقريره فى العهد الأعظم والخاص باستدعاء البارونات للمثول أمام الملك، حيث لم يعد فى إمكانه فرض ضرائب غير عادية عليهم. ولقد أصبح العهد الأعظم بمثابة نوع من الأيقونات المقدسة، يقف فى وقار ضد أى استثناء، كما اعتُبر رمزًا للحرية الإنجليزية، وكإعلان عن حقوق الإنسان العادى، وأفضل من الصيغ التى تم إعدادها إلى حد ما.

وظل الملك چون يناضل نبلاءه حوالى سنة إلى أن انتهت المشكلة بوفاته سنة ١٢١٦م، وخلفه على العرش أخوه هنرى الثالث، والذى اتصف بأنه راعى الفنون، وأنه رجل سلام إلى جانب جهوده العظيمة فى البناء والتشييد. وخلال فترة حكمه الطويلة والتى بلغت ٥٦ عامًا، فإن القانون الإنجليزى بما له من اعتبار روحى تطور تطوراً

كبيراً. كما أن الضمانات التى كفلها العهد الأعظم تم التأكيد عليها، كما تم تثبيت مبدأ خضـوع الملك نفسـه لقانون الأمة. أما المجلس الكبير، أو المحكمة الإقطاعية العليا، فقـد زادت سلطاتهـا ووصلت إلى ما سمى البرلمان، أو جماعة الباحثين والمناقشين. فى الوقت الذى أصبح فيـه الممثلون من البارونات ورجال الدين ينتقدون بحرية ويناقشون قرارات الملك لدرجة أن برلمان سنة ١٢٥٨م أجبر الملك على قبول المعونة الخاصة والشهيرة لأكسفورد والتى كان لها تأثير فعال ولفترة ما على سياسة المملكة المالية.

وعندما وصـل إلى العرش الملـك إدوارد الأول أو الشهير بصاحب الحاشية الكبيرة Longshanks سنة ١٢٧٢م، فقد كان ملكًا جيداً، وفارسًا مخلصًا وصليبيًا. ولقد أخذ فعلاً الشعار الذى حفره على قبره فيما بعد مأخذ الجد، وهو «حامى الميثاق» Pactum Serva، والمحافظ على العهد Keep troth، واستطاع أن يخضع انجلترا كلها للقانون العام، منفذاً ذلك عن طريق العديد من المحاكم الملكية. كما استعان بمجلس خاص من المستشارين المتخصصين بما يشبه مجلس الوزراء حاليًا، والذى ساعده كثيراً، وعاون الحكومة أيضًا. وتعاون إدوارد تمامًا مع برلمانه الذى جعل منه منبراً لتحقيق العدالة، لذا كـان على الأعضاء أن يساندوه تمامًا عندما يحتاج إلى الأموال أو الجيوش. ويرجع الفضل إلى برلمان سنة ١٢٩٥م الذى اشتهر باسم البرلمان الحديث، فى أن الملك قام بدعوة ليس النبلاء فحسب بل دعوة اثنين من فرسان كل مقاطعة، واثنين من كل مدينة فى كل إقليم، وممثلين لرجال الدين على أساس القاعدة الديمقراطية التى تقول : **"إن ما يخص الجميع يجب أن يشارك فيه الجميع"**، هذه المجموعة قامت بعقد كثير من اللقاءات، واستطاعت أن تتحكم فى الشئون المالية للبلاد، وتطورت إلى أن أصبحت ما يعرف بمجلس العموم البريطانى.

وفى سنة ١٢٧٧ قام الملك إدوارد بغزو ويلز بجيش تم إعداده جيداً، وتم إخضاع البلاد سريعًا للحكم الإنجليزى باستثناء منطقة بسيطة، تمتعت بالاستقلال الذاتى وحمل حاكمها لقب أمير ويلز، على أن يقوم التاج الإنجليزى باختيار من يخلفه، وظل هذا النظام رغم تلاشيه ورغم استياء الإنجليز منه. وفى نفس تلك الفترة أخذت اسكتلنده رغم استقلالها تعانى كثيراً من الاضطرابات السياسية. وفى سنة ١٢٩٠م طلب من إدوارد التدخل وأن يفصل فى النزاع الذى شب بين اثنى عشر وريثًا للحكم،

وعندما اختار واحداً منهم فإن اختياره هذا تم رفضه، واندلعت حرب أهلية، مما دفع إدوارد إلى غزو اسكتلنده وإقامة حكومة تابعة له. وقام الإسكتلنديون تدعمهم فرنسا بشن الحرب مدة أربع سنوات تحت قيادة زعيمين هما وليم والاس William Wallace، وروبرت بروس Robert Bruce، وبعد حرب طويلة ودامية تمت هزيمة الإنجليز عند بانوك بيرن Bannock burn سنة ١٣١٤م، وظلت اسكتلنده مستقلة لمدة ثلاثة قرون أخرى.

وخلال فترة العصور الوسطى العالية فإن تاريخ فرنسا كان على النقيض تماماً من انجلترا، ذلك لأن طريق انجلترا للوحدة القومية كان طريقًا سهلاً نوعًا ما، على العكس تماما من طريق فرنسا الذى شهد نضالاً عنيفًا وصعبًا للغاية. ففى القرن الحادى عشر فإن ملك فرنسا، والذى كان من الناحية النظرية سيداً إقطاعياً - لا حوله ولا قوة - على كثير من الدوقات الأقوياء، ولم يكن يحكم سوى فى إقطاعه الشخصى فقط والذى كان يغطى بالكاد المنطقة من باريس إلى أورليان. وكافح الملوك الفرنسيون لعدة قرون لكى تكون لهم السلطة أو الهيمنة على كثير من المناطق، مستخدمين فى ذلك شتى السبل، من زواج سياسى، ومصادرة الممتلكات، والحروب، وتطلب برنامجهم هذا الكثير من المغامرات والحروب. كما كان على الملك أن يمارس حقوقه فى كل قرية فى الإقطاع الخاص به سنويًا وإلا فقد هذه الحقوق، ذلك لأن القانون هو وليد العادة، "وأن العادة بنت التكرار".

كان كبار الدوقات فى فرنسا من الناحية الواقعية مستقلين، ولم يختلفوا عن الملك إلا من الناحية الاجتماعية البحتة، كما كانت دوقية أكويتين تساوى خمس مرات حجم الإقطاع الملكى، ولها عاصمتها ومحكمتها فى بواتييه Poitiers، كما كان لها لغتها وثقافتها البروفنسالية، ولها تقاليدها القديمة المستمدة من الشمال والتى ظلت سائدة. وكحقيقة فإن الحضارة الرومانية لم تندثر تماماً فى الجنوب، وحتى أوقات قريبة فإن الناس فى بروفانس كانوا يأكلون أطعمة رومانية، ويلعبون ألعاباً رومانية، ويبنون الكنائس ذات الأعمدة الرومانية، ويحفرون على توابيتهم عبارات بالطريقة الرومانية، ويحكمون أنفسهم وفق القانون الرومانى.

لقد أشبع الملوك الفرنسيون رغبتهم باستمرار عن طريق تقوية حكمهم، وتوسيع سلطاتهم الملكية، مع الإقلال من طموحات النبلاء نحو الاستقلال والثروة. وكان من

أعظم هؤلاء الملوك وأكثرهم حرصًا على مصالح فرنسا فيليب الثانى، فأطلقت عليه الجماهير اسم "أوغسطس" وهو الذى وصل إلى كرسى العرش سنة ١١٨٠م. وعلى الرغم من أنه كان أصلع الرأس، وله عين لا يبصر بها، ومبذراً إلى حد مقيت، إلا أنه أظهر مقدرة كبيرة فى الحكم. كما أنه كان ذكياً، ومجرداً من المبادئ الخلقية، وكل ما يشغله باستمرار هو انتهاز الفرصة لصالحه ولصالح مملكته. فقام بإعادة تنظيم الجهاز الحكومى الفرنسى، وتعيين رجال مجلس العموم ذوى الخبرات القانونية ورجال الدين والإدارة، ومنحهم رواتب ثابتة، وبذلك أوجد خدمة مدنية وجهازًا حكوميًا على درجة من الكفاءة، مسئولين أمام الملك وحده. وخلال فترة حكم فيليب أوغسطس الطويلة بلغت ثروته وقوته حداً كبيراً، ونال شهرة كبيرة فى كل أنحاء أوربا سياسيًا وثقافيًا. فازدادت مكانة فرنسا أهمية، وظل تأثيرها السياسى واضحًا، كما استمرت وحدتها لعدة عقود من السنين حتى بعد وفاة فيليب.

وخلَف فيليب أوغسطس حفيده التَّقى لويس التاسع على عرش فرنسا سنة ١٢٢٦م، وكان عمره آنذاك اثنى عشر عامًا. كانت شخصيته على النقيض تمامًا وبشكل ملحوظ من شخصية جده، فعلاً هناك القليل من الملوك الأفاضل، والكثير من الملوك الأراذل. أما لويس التاسع أو القديس لويس فيكفى أنه الملك الوحيد فى فرنسا الذى عرف بالقديس. إن حب الفرنسيين له لا يزال قائمًا، حيث يأتى فى المرتبة الثانية بعد جوان دارك Joan of Arc، كما يعتبر لويس أكثر الملوك شهرة فى التاريخ الفرنسى. فقد استطاع بخصاله الحميدة أن يأسر قلوب كل من عرفه، وبفضل كاتب سيرته جين جوا نفيل، فإن لويس لا يزال يستحوذ يومًا بعد يوم على إعجاب صغار الفرنسيين وكبارهم. فلقد كان معتدلاً، عفيفًا، مخلصًا دائمًا حتى لزوجته البغيضة مرجريت البروفنسالية، والتى أنجبت له أحد عشر طفلاً. كما كان طويل القامة، نحيفًا، طويل الشعر، ذا عيون زرقاء مثل عيون الحمام وفقًا لما ذكره أحد المؤرخين، والذى أضاف قائلاً: **إنه كان ذا وجه ملائكى، حلو الشمائل. وعلى الرغم من أنه كان يعانى من مرض جلدى كثيرًا ما ينتابه إلا أنه كان بشوشًا دائمًا.**

لقد كان عميق الإيمان، ويشارك فى كل قداس، كثير الاطلاع على الكتب المقدسة، كثير الاعتراف بذنوبه، عنده بساطة بالغة. كما كان يرتدى قميصًا من الكتان.

وذات مرة أرسل لابنته قميصاً مثله كهدية عيد الميلاد، وكان يقوم بتقبيل مرضى الجذام، وذات يوم دعا مائة فقير للعشاء، وقد تقزز من رائحتهم جنود حرسه. كما فكر فى الانضمام لطائفة السسترشيان أو الفرنسيسكان، لكن زوجته نصحته بالعدول عن تلك الفكرة. كما حاول أن يصل إلى درجة روحية عالية، وفى أثناء صلواته كان يفقد كل إحساس بالعالم المحيط به. ومن ناحية الإيمان، فقد كان هو شاغله الأكبر، وكان يطرد كل من يتسامح مع الإلحاد، ومن أقواله : إن الشخص العادى عندما يسمع أن دين المسيح يساء إليه على يد أحد اليهود، "فإنه يجب ألا يحاول أن يدافع عن معتقدى هذا الدين إلا بالسيف، وأنه يجب أن يطعن ذلك الوغد فى بطنه ويغمد سيفه فيها إلى أبعد مدى".

هذا إلى جانب أنه كانت له طريقة جميلة ومميزة فى الحديث، ومنها يقتبس جوا نفيل قوله : "لكى ننطق الكلمات بنفس طريقة نطقه فهذا شيء صعب جداً فى حد ذاته، حتى لو كررنا النطق، فإن الكلمة نفسها يصعب خروجها من حلق الواحد منا بسبب حرف الراء المتواجد بكثرة فيها، هذه الراءات لكى ننطقها فإنها تصعب على الحانق، ومن خلالها نستطيع أن نصدر حكماً على كل الذين حاولوا محاكاته بأنهم فشلوا على الرغم من أنهم تناقلوها عن الآخرين" (وهذه الملاحظة التى ذكرها جوا نفيل تؤكد أن حرف الراء R باريسى النطق كان معروفاً فى القرن الثالث عشر للميلاد).

لقد كان ملكاً عظيماً، عشق العدالة وبذل كل جهدة لتعميمها، وجعلها جزءاً من شعارات الملكية، ليس فقط كشعار للحكم، بل كهدف لنشر الطمأنينة، وكعكاز يقبض عليه بيد قوية ليرمز به إلى ما يجب أن تكون عليه كل الأعمال. لقد ألغى نظام المحاكمة عن طريق التعذيب، وأصر على أن تتم إدانة الشخص عن طريق الدليل القاطع وحده. كما حاول أن يقلل من الحروب الإقطاعية بين النبلاء و بعضهم، عن طريق تحديد أربعين يوماً يمنع فيها القتال تماماً، كما يمنع فيها إحراق المحاصيل وقتل الفلاحين. كما منع القضاة وطوائف الحرفيين من تحصيل أية رسوم أو ضرائب، كذلك أصدر تعليمات بمنع الحانات، ولعب القمار، وتم وضعها ضمن القائمة التى بمقتضاها تتحقق العدالة. هذه المجموعة من التعليمات هى التى تطورت فيما بعد وأصبحت من أهم أعمال برلمان باريس، أو المحكمة الوطنية العليا. كما استخدم عدداً من طائفة الفرنسيسكان

كمحلفين فى المحاكم الوطنية. وكان يحب الجلوس تحت أشجار البلوط (السنديان) فى فنسان Vincennes، والتجول في الحدائق العامة فى باريس، ويتلقى الشكاوى ويعمل على إنصاف المظلومين فوراً.

لقد كان القديس طوال عصره وحتى أواخر أيامه مثالاً للملك المسيحى. لقد عرفت أوربا فيه تجسيد العدالة والبرهان على أن الملوك يحكمون فعلاً بالحق الإلهى. وبالقداسة التى كان عليها، وعلى كل حال فإنه لم يكن الحاكم غير العادى فى العصور الوسطى. لأن هذه الصفة البارزة يمكن أن تدخر للإمبراطور فردريك الثانى، والملقب بأعجوبة العالم Stupor Mundi.

لقد ولد سنة ١١٩٤م، وشب فى بالرمو فقيراً، لم يأبه به أحد، رغم أنه كان وريث عرش صقلية. ولقد قرب إليه مجموعة من رجال القانون، والعلماء المسلمين كما كان ناضج العقل، مثقفاً، يجيد التحدث بست لغات فى مقدمتها اللغة العربية، وكان يتمتع بقدر كبير من حب الاستطلاع عن كل شىء، بما فى ذلك العلوم وخصوصاً علم الحيوان. وكان يحلم منذ طفولته باستعادة أمجاد الإمبراطورية، وتوحيد ألمانيا وإيطاليا، وأن يضم إلى سلطاته السلطات الدينية للبابوية. ولقد حقق طموحاته بالنسبة لألمانيا عندما تم تتويجه عام ١٢٢٠م إمبراطوراً، ونال مؤازرة البابوية له فى حروبه من أجل المنصب الإمبراطورى عن طريق منحه صقلية للبابا كإقطاع. وعلى الرغم من الوعد الذى أخذه على نفسه، فإنه لم يستطع أن يجبر نفسه على أن ينفذ دوره فى مقايضة صقلية والتنازل عنها. بل إنه عادى روما أكثر عندما أقسم على الذهاب فى حملة صليبية، ولكنه أخذ يماطل فى ذلك، مما دعا البابا جريجورى التاسع إلى إصدار قرار الحرمان ضده فى النهاية.

وفى سنة ١٢٢٨ فإن الإمبراطور المحروم قام بحملته الصليبية غير العادية، مصطحبا معه كتيبة من العرب وأحد المدرسين المسلمين المتخصصين فى المنطق وطريقة الحوار الجدلى لكى يسترشد بآرائه. وبمجرد هبوطه إلى الساحل، أرسل الهدايا القيمة لقائد المسلمين، وهو "السلطان الكامل"، والذى كان ذا عقلية متفتحة تماماً مثل فردريك، فضلاً عن أنه كان أديباً وشاعراً، ورد السلطان عليه بإرسال العديد

من الهدايا القيمة، منها أحد الأفيال. وعقد الملكان معاهدة سلام فيما بينهما لمدة عشر سنوات، والتى تم بمقتضاها تسليم بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة للصليبيين، مع الشريط الممتد من بيت المقدس إلى البحر، وكان للمسلمين كل الحقوق فى الإشراف على جميع مقدساتهم فى المدينة المقدسة.

وقام فردريك بزيارة بيت المقدس كسائح أكثر منه كحاج، وكمراعاة للسلطان لمشاعر الصليبيين فإنه أمر المؤذنين بعدم الجهر بالأذان للصلاة أثناء فترة زيارة فردريك، واحتج فردريك على ذلك قائلاً : إننى قد أتيت لبيت المقدس لأستمتع بذلك. وعندما سمع البابا جريجورى باتفاقية السلام التى تم عقدها اشتد غضبه لذلك، وعلى الرغم من أن قرار الحرمان لم يشمل القبر المقدس، إلا أنه أصدره بطريقة خاطئة، ولقد تم تحقيق السلام دون إراقة قطرة دماء أو شن حرب. لقد دعا البابا إلى القيام بحملة صليبية ضده وإن كان هذا الغضب لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما اضطر البابا إلى إصدار قرار برفع ذلك الحرمان.

وعاد فردريك إلى أوربا، وشن العديد من الحروب التى صمم فيها على توحيد إمبراطوريته، واستطاع أن يحيط نفسه ببلاط شرقى عظيم فى قلاعه فى صقلية، وجنوبى إيطاليا. حيث كان لديه كل ما يحب، من حدائق، وبرك، وغابات، وحيوانات غريبة، وطيور مغردة، وراقصات، وحاشية تضم العديد من الحكماء. والذين كان من بينهم مايكل سكوت Michael Scot العالم الفلكى المترجم لأعمال أرسطو و Averroes، وبعض أعمال الدجال (المشعوذ)، والذى ما زال يعتبر أسطورة فى كل من اسكتلنده وإيطاليا لأعماله الرائعة. لقد أذهلت عقلية فردريك الجميع، فقد أقام مأدبة لبعض الضيوف المسلمين فى ذكرى الاحتفال بالسنة الهجرية، وأجلسهم جنبًا إلى جنب الأساقفة والنبلاء المسيحيين. ولقد اتهمه البابا مرة بأنه قال : "**إن العالم قد تم تضليله بثلاثة مدّعين : موسى، ومحمد، والمسيح**". وكان الإمبراطور مثل حاكم بروسيا فى القرن الثامن عشر فردريك، يحب تناول طعام العشاء مع الفلاسفة، ومن المحتمل أن يكون ڤولتير قد أحبه وكذلك أتباعه.

لقد كان فردريك مولعًا بالرياضيات والعلوم وقام بالعديد من التجارب التى كان بعضها رهيباً، وفى إحدى المناسبات أمر بإطعام اثنين من السجناء وجبة ضخمة، وأمر أحدهما أن ينام، وأمر بأن يرسَل الثانى إلى حلبة المصارعة، ثم أمر بشق بطنيهما ليرى أيهما كان أكثر هضمًا للطعام (فكان الذى نال قسطًا من النوم). كما كان فخوراً جداً بالقبة السماوية التى يمتلكها، والتى جاءته من سلطان دمشق هدية - وهى عبارة عن خيمة معدنية حيث توجد أجسام نجمية الشكل من المجوهرات، يتم تحريكها بواسطة آلات غير مرئية، وعليها وصف محركاتها. وفى مقابل هذه الهدية، فقد أرسل فردريك إلى السلطان طاووسًا أبيضَ، ودبًا قطبيًا أثار إعجاب السلطان بقفزه فى البحر وصيده الأسماك (وإن كنا نتساءل عمن قام بصيد هذا الدب القطبى، ومن أين، وكيف تم نقله إلى سوريا ؟). كذلك قام بتوجيه عدد من المسائل المحيرة إلى علماء المسلمين، ومنها : لماذا يبدو قضيب من المعدن منحنياً وهو فى الماء ؟ ما الذى يثبت أن هناك خلوداً للروح ؟ أو أن وجود العالم لا نهائى.

ويعد كتابه عن فن قنص الطيور هو إسهامه الوحيد فى مجال العلم، والنسخة المصورة الرائعة والتى تخص ابنه ما زالت موجودة. والكتاب عبارة عن مجموعة رسوم يدوية عن فن البزدرة أو الصيد بالاستعانة بالبزاة، وفى نفس الوقت هى دراسة طيبة فى علم الطيور، مبنية أساسًا على الملاحظة المباشرة. فيها يناقش فردريك هجرة الطيور، وعاداتها فى اتخاذ أوكار لها، والعملية الآلية فى طيرانها، ونصائح وتوجيهات يقوم بتقديمها للبازدارية فى معاملتهم للصقور والشواهين، وما يجب أن يقوموا به من إنشاد للأغانى المختلفة أثناء إطعام هذه الطيور الجارحة.

كان فردريك يشجع شتى فروع المعرفة. فلقد أسس جامعة نابولى سنة ١٢٢٤م لتدريب رجال القانون، بمن فيهم من محامين، ومحاسبين، والمشتغلين بالشئون المدنية، وكانت هذه هى أول جامعة يتم إنشاؤها وتدار بواسطة علمانيين، كذلك يقال أنه أول رجل فى العصور الوسطى قام بتقدير فن النحت القديم. كما كان راعيًا للشعر الإيطالى، وأول من كتب أغنيات الحب باللهجة العامية. وكان يهتم كثيراً بالهجاء، وهو اهتمام نادر لإنسان العصور الوسطى، وإذا حدث وكتب قاصٌ اسم فردريك خطأً فيكون عقابه قطع إصبع الإبهام.

ومن الناحية الجسمانية، فقد كان فردريك قصيراً وقوياً، أصلع الرأس، ضعيف البصر، ذا عيون خضراء يشوبها شيء من المكر الأفعواني. قال عنه أحد المسلمين : إنه لا يساوى مائتى درهم فى سوق العبيد. ولقد كان معتدلاً فى الطعام والشراب ولكنه شديد الحساسية ؛ كانت وجبته الوحيدة اليومية التى يتناولها فى المساء وجبة جيدة. وطبقه المفضل هو الإسكابيس Scapace، وهو خليط من السمك والخضروات، التى يتم تحميرها، ثم مزجها بالنبيذ الأبيض وخلاصة الزعفران. وكان متطرفًا فى شهوته، يصحبه دائمًا عدد من الحريم فى كل ترحاله، وحتى فى حروبه، فى محفات ذات ستائر، ويقوم بحراستهن طائفة من الخصيان، لقد كان مثقفًا، ولكنه فى الحقيقة لم يكن لطيفًا.

لقد فشل فردريك فى تحقيق طموحاته الكبرى فى الحد من سلطة البابوية، وتوحيد إيطاليا، وتكوين إمبراطورية رومانية مقدسة قابلة للتطبيق، تكون عاصمتها روما، وبعد وفاته سنة ١٢٥٠م فإن الإمبراطورية توقفت عن أن تكون ذات وظيفة حقيقية وتقلص نفوذ أسرة الهوهنشتاوفن. وإن كان المحدثون قد أعجبوا بفردريك لأنه كان رجلاً سابقًا لعصره، وكانت هذه هى مشكلته الحقيقية، إذ كان من الممكن أن يكون أكثر نجاحًا لو أنه كان رجلاً من العصور الوسطى أكثر.

كما أن البابوات قد فشلوا فى تحقيق الكثير من طموحاتهم – تمامًا مثل فردريك الثانى– سواء فى تقليص سلطات الأباطرة، وتوحيد أوربا وكل العالم المسيحى تحت قيادتهم، ولم يفطنوا إلى مساوئ الكنيسة التى انتشرت على نطاق واسع. ذلك أن صراع البابوية من أجل السيطرة السياسية قد عقد الأمور، وأكثر ما عطل جهود الكنيسة من أجل البحث عن الإصلاح وإن كان رجال الإصلاح لم يستكينوا، وغالبًا ما كانوا مؤثرين لدرجة كبيرة. والمشكلة التى لم تحل بعد، كانت هى مسألة عدم زواج رجال الدين، ففى القرن الحادى عشر فإن مسألة زواج رجال الدين بدت وكأنها مسألة شائنة أكثر مما تبدو للكثيرين فى عالم اليوم. ذلك أن الفلاحين كانوا يفضلون رجل الدين المتزوج عن العَزَب الشهوانى الذى كان طليقًا، يستطيع أن يتجول فى كل القرية بينما هم فى عملهم فى الحقول. كما أن المشكلة كانت فى إصرار آباء الكنيسة على توريث مناصبهم الدينية لأبنائهم، فغدت المناصب الكنسية وكأنها ممتلكات خاصة.

فعلى الرغم من أن أيسلنده كان لها نظامها فى توارث المناصب الدينية، فإن زوجات القساوسة والمحظيات غالبًا ما أثرن مشاكل لا حصر لها. ففى سنة ١٠٧٢م قمن بإعدام أسقف روين Rouen لأنه ألقى موعظة دينية ضدهن. كما أن مجمع اللاتيران الثانى قرر فى سنة ١١٣٩م جعل العزوبة أمرًا حتميًا، وبالرغم من أن هذا القرار ساعد على تطهير الكنيسة، فإن الكثيرين من رجال الدين، كبارًا، وصغارًا استعاضوا عن الزواج بإقامة علاقات جنسية غير مشروعة. وفى القرن الثالث عشر للميلاد، كان لدى هنرى أسقف ليبج Liege واحدُ وستون طفلاً، أربعون منهم أنجبهم خلال اثنين وعشرين شهرًا، مسجلاً بذلك رقمًا قياسيًا لحب رجال الدين فى الإنجاب.

والمشكلة الأكبر التى فرضت نفسها على الكنيسة هى مشكلة الثروة. ذلك أنه خلال قرون عديدة تراكمت ثروات الكنيسة، بحيث امتلكت كنيسة العصور الوسطى ثروات هائلة. لدرجة أن بعض الأساقفة كانوا من كبار النبلاء الإقطاعيين، والذين نافسوا الملوك فى كل متع الحياة ومباهجها. ولقد أدت ثروة الكنيسة هذه جنبًا إلى جنب السلطة الدينية إلى كثير من المفاسد، وبوجه خاص السيمونية أو بيع الوظائف الدينية بشكل أو بآخر. فالملك أو النبيل الذى كان من حقه تعيين رجال الدين فى إحدى الأبرشيات الغنية أو أحد الأديرة، ربما كان الواحد منهما يشعر بأن هناك ما يبرر حصوله على عمولة ممن قام بتعيينه، تمامًا مثلما تشعر الحكومات الحديثة بأن من حقها أن تتعاقد مع من يتقدم بسعر أكثر ولديه الكفاءة لاستغلال أحد مصادر الإنتاج. وبالمثل فكون رجل الدين تحت يديه الأرض ويستغلها، لذا فهو جزء من النظام الإقطاعى، عليه بعض الالتزام نحو سيده الإقطاعى، منها الالتزام بدفع بعض المبالغ ليتمتع بحمايته له، لذا لم يكن هناك ما يمنع من أن يدفع مقدمًا لسيده الإقطاعى جزءًا مما سوف يحصل عليه مستقبلاً من دخل. كما أن رجل الدين السيمونى، أى الذى تولى منصبه نظير مبلغ ما، كان عليه أن يبرهن إلى جانب ذلك، أنه كان يدفع لا من أجل المنصب الدينى الذى سوف يشغله، ولكن فى مقابل الملكية المادية التى سوف يديرها. وبالمثل، إذا كان عليه أن يدفع من أجل الرزق، فقد كان من حقه أن ينال تعويضًا عما دفعه، بأن يبيع بقصد الرزق لمن يشغل هذا المنصب فيما بعد، وهكذا أصبحت السيمونية واسعة الانتشار تقريبًا.

أما عن جهود الكنيسة نحو الإصلاح، فقد كانت موجهة للعلمانيين جنبًا إلى جنب رجال الدين. فقد حاول رجال الدين وضع حد لكل أشكال العنف، في عصر كانت فيه أعمال القتال هي الشغل الشاغل والذي يحتل مكانة عالية الطبقة الأرستقراطية على أمل أن يسود السلام. وفي سنة ٩٨٩م تم عقد مجمع كنسي نادَى بضرورة عدم مهاجمة القساوسة، والكنائس. والممتلكات الخاصة بالفلاحين. كما أضيفت عدة حالات استثنائية فيما بعد، مثل الطواحين، ومعاصر النبيذ، والتجار، والأشخاص وهم في طريقهم إلى الكنائس، هذه العملية هي التي عرفت باسم "سلام الرب " وكان من الصعب على الناس تفهم الغرض منها، وشيئًا فشيئًا أخذت تلقى القبول.

وفي سنة ١٠١٧م تم فرض اللعنة على كل أشكال العنف ابتداء من الساعة العاشرة من يوم السبت وحتى فجر يوم الاثنين، هذه الفترة من عطلة نهاية الأسبوع، هي التي عرفت باسم "هدنة الرب "، والتي امتدت فيما بعد لتشمل الفترة من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين، وطوال مواسم الصوم الكبير Lent وصوم أيام الآحاد الأربعة السابقة للميلاد Advent. مما حتم وجود فترة تامة لمقت الحرب على نطاق الكنيسة. وفي سنة ١٠٥٤م أعلن مجمع كنسي آخر : "أن أي مسيحي يقوم بقتل مسيحي آخر فإنه بذلك يريق دم المسيح". ولكن الدعوة إلى رفض العنف سببت العديد من المشاكل في عالم مليء بالشر، لدرجة أن البابا جريجوري السابع غالبًا ما كان يقتبس من أقوال أرميا Jeremiah قوله : "**ملعون ذلك الذي ينأى بسيفه عن إراقة الدماء**". ولم يمض وقت طويل حتى أخذت الكنيسة تحرض على الحروب السياسية، وكان أعداؤها هم الذين طالبوا بالسلام.

لقد كان قادة حركة الإصلاح هم الرهبان بطبيعة الحال، والذين كانوا مرتبطين بتنظيم جماعاتهم، والتي كانت مرتبطة بالكنيسة أيضًا، وذلك في جهودهم لمحاربة المفاسد. كما تم إنشاء العديد من المنظمات الديرية الجديدة على أمل العودة بالحياة إلى الحياة الديرية الحقة التي لم تفسدها الماديات والتي كانت أحد الملامح الرئيسة للمسيحية الأولى. وعلى رأس طوائف الرهبان الديريين تأتي الكلونية، والتي استمدت اسمها من الدير الأم في كلوني Cluny في برجنديا التي تم تأسيسها سنة ٩١٠م،

وكانت مسئولة فقط أمام البابا. وفى ظل سلسلة من الرهبان المشهورين، تفرع عن دير كلونى العديد من الأديرة التى امتلأت بالراهبات، اللاتى بلغ عددهن ألف وخمسمائة، اتخذت هذه الأديرة نظام القديس بندكت قاعدة لها، بل كانت أشد قسوة منه.

بما أن الجهود البشرية يمكن أن تطأ أى نصر، فإن الشر أحيانًا ما يكون مفيداً، ذلك أن دير كلونى قد كرس نفسه لخدمة الرب، بالتركيز على الصلوات والعبادة. وحتى فى أيام العطلات، فإن ساعات العبادة كانت تستمر من منتصف الليل وحتى ظهيرة اليوم التالى، أو من الغسق حتى الشروق، بما لايدع مجالاً للرهبان أن يقترفوا شيئًا من الآثام، باستثناء ما قد يدور بأذهانهم منها. ولكن بمرور الوقت أخذت هذه الصرامة عند الكلونيين تخف حدتها مثل غيرهم من جماعات الرهبان، مما أدى إلى ازدياد النزعة التقشفية وعملية النقد الذاتى لدى جماعة الرهبان.

وفى سنة ١٠٨٤م فإن القديس برونو St. Bruno وهو ألمانى، أنشأ جماعة ديرية فى جبال الألب الفرنسية، ومن هذا الدير الأم والمسمى "دير أصحاب البراءة الكبرى" La Grande Chartreuse استمد الرهبان اسمهم وهو جماعة الكارتسيان Carthusians.

وكان كل دير من أديرتهم ليس به سوى كنيسة، وخلاوى للرهبان، ينزلون بها فى عزلة تامة عن بعضهم البعض، ويتم إمدادهم فيها بطبق من الخضروات كريهة الرائحة، ويلتقون مرة كل أسبوع فى اجتماع عام لرجال الدير. وكانت القاعدة التى يسيرون عليها هى "مادام هناك صلاح فلن تكون هناك أخطاء" هذه القاعدة قد تغيرت بعض الشيء خلال تسعمائة سنة، على الرغم من أن أهل الخير واليسار منحوهم الكثير من الكنائس الفاخرة، وبعض الأحياء المتواضعة.

وفى سنة ١٠٩٨م قامت جماعة من الرهبان البندكتيين مدفوعين بالرغبة فى العزلة والقيام بمغامرة روحية فى الصحراء، فعثروا على مكان مناسب يبعد حوالى اثنى عشر ميلاً جنوب Dijon فى إقليم سيتو Siteaux، ومنها استمدوا اسمهم وهو جماعة السيسترشيان الذين عقدوا العزم على أن يتبعوا قاعدة القديس بندكت حرفيًا، رافضين كل شيء يتناقض معها. ذلك لأنهم لم يقرؤوا أن القديس بندكت كان يسيطر على بعض الكنائس، والمذابح، والقرابين، وضريبة العشور التى يجمعها من الآخرين، والأفران،

والطواحين، والقرى بمن فيها من فلاحين، وأنه لم يقم بدفن واحدة من الراهبات باستثناء أخته، فلقد رفض هؤلاء الرهبان كل هذه الأشياء. لذا كان عليهم أن يقوموا بتسوية الأرض وزراعتها، وأن يبنوا مساكنهم بأنفسهم، لقد نفذوا كثيراً من الأعمال الرائعة، من إقامة مصارف المياه، وحراثة الأرض البور، واستصلاح مساحات من الأرض التى تغمرها مياه البحر. ولقد قامت شهرتهم على أنهم من كبار رعاة الأغنام والماشية، وبيع الصوف والجبن لسكان المدن الجديدة. ولم يمر وقت طويل حتى امتلكوا بعض الأفران، والطواحين، والقرى، وحتى الفلاحين.

وسرعان ما انتشرت جماعات السيسترشيان ؛ ففى القرن الثالث عشر للميلاد كان لديهم ما يقرب من سبعمائة دير، ينزل بها الرهبان والراهبات. إن أديرة وكنائس السيسترشيان التى مازالت باقية، ولها جمال واضح المعالم. واضح فيها الزهد فى خلوها من أعمال الزينة والزجاج الرائع، بل وحتى فى عدم استخدام القناديل (المصابيح) فى الأحرام المقدسة وكذلك الأردية الكنسية. كما كانت صلبانهم مصنوعة من الخشب، وشمعداناتهم من الحديد، ومباخرهم من النحاس. أما مهاجعهم فقد كانت خشنة وتبدو وكأنها عبارة عن صناديق خشبية. أما طعامهم فقد كان عبارة عن الخبز المصنوع من الشعير أو الدخن، أو البيقة (نبات علف) مع بعض الجذور المسلوقة أو أوراق نبات شوكى. ومع هذا فإن صرامتهم هذه وإن كانت ناجحة إلا أنها لم تمنحهم شعبية كبيرة.

ومن أعظم الرهبان السسترشيان يأتى القديس برنارد من كليرفو St. Bernard of Clarvaiux (١٠٩٠ - ١١٥٣م) وهو أحد الزهاد، وأحد رجال الدولة، والذى يرجع إليه الفضل فى إنشاء ما يقرب من اثنى عشر ديراً. ولقد كان برنارد فى ورعه وفى حماسته مثالاً لمسيحى العصور الوسطى. لقد كان كل اهتمامه موجهاً للعالم الآخر - فنراه هنا يقول : "الناس هنا ليسوا إلا غرباء وحجاج"، ولكنه كان يعيش دنياه تماماً فى هذا العالم باذلاً جهداً سياسياً مؤثراً، يستنكر الصراع بين الكنيسة والسلطة الزمنية، يميل إلى انتخاب البابوية، يقدم نصحه للبابوات وملوك فرنسا. ولقد اجتهد برنارد لإخماد الاختلافات العقائدية، وألقى مواعظ عديدة ضد الهرطقة فى كثير من الاحتفالات الكنسية حيث ذاعت شهرته. وبسبب تأثيره القوى، فإن طائفة

السسترشيان انتشرت بسرعة وعلى هذا الأساس فقد اعتبر برنارد واحداً من القديسين المناضلين الخالدين، المتمسكين بإيمانهم، المعادين بشدة للهرطقة أو عدم الإيمان، لقد كان مثالاً خالداً حقاً، ولكنه كان من العصور الوسطى.

ماذا نقصد بالعصور الوسطى؟ إن هذه الكلمة فى التعبير الرسمى لا تعنى مطلقاً العودة إلى الوراء أى إلى الزمن الماضى، لأن العصور الوسطى العالية لم تكن أبداً عودة إلى الوراء ؛ ولكنها تعنى التقدمية. فقد كانت العصور الوسطى العالية بمثابة فترة تعنى الإفراط أو التزايد، أو روعة الإيمان المتمثلة فى القديس برنارد، وفترة الضرر الخاصة بالمحاربين. كما كانت تمثل عصر الطموحات النبيلة، والخسة التى لا مثيل لها، وكانت عصر التقدم، والاكتشاف والابتكار، كذلك كانت عصر التطور.

ولو قمنا بمقارنة الوضع فى أوربا فى القرن السابق على وفاة القديس برنارد والقرن التالى للوفاة، فإنه فى استطاعة أى منا أن يرى عالمين مختلفين، على الرغم من أننا نطلق عليهما العصور الوسطى. وفيما يخص الريف، فلقد تحول من ريف بدائى إلى ريف مُنْتِج زراعياً، وإن كان بالطبع ليس مثل ريف أيامنا هذه. كما انتشرت القلاع فى كل مكان فى الريف، وأصبحت القرى والبلدان ظاهرة للعيان، تحت الأبراج ذات الخصائص القوطية. وهيمنت البنوك على أعمال التجارة التى تم تنظيمها تحت إشراف النقابات، وازدهرت الجامعات، وسجل العلماء كثيراً من أفكارهم، كما دوّن الشعراء والقصاصون كثيراً من إنتاجهم الشعرى والقصصى. إن العصور الوسطى العالية هى التى انبثقت منها الحضارة الأوربية التى وصلت إلينا.

الفصل الثالث

الفرسان فى ميدان القتال

كتب الفيلسوف الإنجليزى چون السالزبورى John of Salisbury فى القرن الثانى عشر للميلاد يقرر أن وظيفة نظام الفروسية هى : "حماية الكنيسة، ولمحاربة الغدر والخيانة، ولتوقير جماعة الكهنة، وصيانة الحقوق العادلة للفقراء، وتحقيق السلام فى بلدك، ولبذل الدماء والتضحية فى سبيل إخوتك، وإذا دعت الضرورة، فلخمد أنفاسك". لقد كان هذا هو التصور المثالى الرائع الذى تم وضعه موضع التنفيذ فى العصور الوسطى، وبرغم تلاشيه التدريجى فقد ظلت آثاره قائمة ومتوارثة لدى ضباط الجيش الفرنسى والألمانى، وفى النظام المتبع فى المدرسة الثانوية الأهلية الداخلية فى إنجلترا، وبالنسبة لرجال العصور الوسطى كانت الفروسية أكثر من مجرد مهنة، بل أساسًا روحيًا وعاطفيًا لطريقة مهمة فى الحياة.

فالفارس، أى الخيَّال هو الشخص الذى يمتلك فرسًا، ويخدم فى ظل نظام الفروسية، ويقيم حياته وفق هذا النظام ويصونها، كما كان واجبه الأول أن يحارب أعداء سيده الإقطاعى، وفى ذلك يقول مؤرخ القرن الرابع عشر للميلاد، الفرنسى چين فرواسارت Jean Froisart: "إن الفرسان نبيلى المحتد ولدوا كى يحاربوا، وإن الحرب ترفع كل من يشارك فيها بلا خوف أو جبن إلى درجة النبالة".

لقد كانت الحرب هى حرفة الرجل النبيل، ينشأ عليها منذ نعومة أظفاره، كما أن كل تعليمه كان موجهًا لإكسابه صلابة العود، ونوعًا من الخشونة الجسدية والروحية، كما كانت مدرسته عبارة عن غرفة للحراسة فى أحد المراكز الحربية، ومسكنه هو

القلعة المعدة باستمرار لمواجهة أى هجوم مفاجئ. وكأحد الأفصال، فقد كان يتم استدعاؤه باستمرار للمشاركة فى الحروب التى يخوضها سيده اللورد ضد اللوردات الآخرين، والذى يكافئه على خدماته بنصيب من المغانم التى يتم الحصول عليها عند الاستيلاء على قلعة أحد الأعداء، أو ببعض السلع التى يتم نهبها من التجار عبر الطرق، وربما تلقى بعض الاستدعاءات من الملك المثول لديه، هذا الملك كان غالباً ما يحقق بعض المكاسب من شن الحرب. "فالحرب الناجحة فقط هى التى تملأ الخزانة الملكية بالكاد، وتمد نفوذه إلى حدود وأراض جديدة"، هكذا كتب العالم دينيس هاى Denys Hay، "ففى كل ربيع يحاول الملك القدير أن يقود محاربيه فى حملات هجومية، لأن السلام عادة ما ينجم عنه الفقر".

كما كانت الحرب أيضاً هى متعة الرجل النبيل، فالحياة فى قلعة مثيرة للاشمئزاز فى وقت السلم كانت كئيبة جداً، لأن النبيل المثالى لم يكن تقريباً لديه سوى القليل من وسائل شغل الفراغ باستثناء عمليات الصيد والقنص، فالمعركة هى ذروة الانهماك فى العمل، وقد تكون فيها نهايته، فشاعر التروبادور برتراند دى بورن Bertrand de Born وهو يتحدث مع أبناء جنسه، يقول : "**أقول لكم الحق إننى لا أجد مثل تلك المتعة فى الأكل، أو الشرب، أو النوم، وهى التى أجد فيها نفسى أسمع الصرخات تتعالى من كل جانب، أو عندما أسمع صهيل الخيول تحت الأشجار، وقد تساقط من كانوا يمتطون صهوتها، أو أن أسمع أحدهم وهو يئن قائلاً : النجدة، النجدة، أو عندما أرى كلاً من الكبار والصغار وهم يتساقطون فى الخنادق أو على الأعشاب، أو أرى الموتى وقد طرحوا أرضاً وبهم أقصاب الرماح ظاهرة، والبارونات وهم يرهنون قلاعهم، أو ممتلكاتهم ومدنهم، ولكنهم لا يتوقفون عن الحرب**"، "لقد كان دانتى محقاً فى قصته عن الجحيم، عندما صور برتراند دى بورن الميال للقتال، وهو فى النار حاملاً رأسه أمامه بعد فصلها عن جسده كفانوس يسترشد به".

وعندما أصبحت أوربا أكثر استقراراً، غدت الحكومات المركزية أكثر كفاءة، وتزايد الاهتمام بالتجارة، وتلاشت النزعة القتالية، كما أن المؤسسة العسكرية فى المجتمع أمست أكثر ميولاً لتحقيق البناء الاجتماعى على أساس من الشرعية. وفى العصور

الوسطى المتأخرة وجد الفرسان أنفسهم وقد عفا عليهم الزمن، حيث أصبحت الحرب هى حرفة المرتزقة المتوحشين، والمخططين العسكريين، والنهاب، وعمال المناجم، ورجال المدفعية، ومع هذا بقيت فكرة الفارس النبيل المتوارثة، والتى تم التعبير عنها فيما نقرؤه عند فروا سارت ؛ من أن التجارة قد استحوذت على كل اهتمامات الطبقة النبيلة، وأنه فى سنة ١٣٠٠م تقريبًا قام ملك فرنسا فيليب الأشقر ببيع لقب الفروسية علنًا لمواطنى المدن الأغنياء، والذين استفادوا من ذلك بحصولهم على إعفاء من الضرائب جنبًا إلى جنب سمو منزلتهم الاجتماعية.

والفارس أصلاً كان هو الرفيق لسيده اللورد أو الملك، ويسمح له أساسًا بمصاحبته، وحوالى سنة ١٢٠٠م أخذت الكنيسة على عاتقها، وبدون سابق خبرة عملية تنصيب الفارس، وفرضت بعض طقوسها وشروطها على طريقة التنصيب هذه، بحيث أصبحت شيئًا مقدسًا تقريبًا. فكان على المرشح لهذا المنصب أن يأخذ حمامًا رمزيًا، ثم يرتدى ملابس بيضاء نظيفة، ومعطفًا أحمر اللون، وعليه أن يقف أو يركع لمدة عشر ساعات بالليل ساكنًا أمام المذبح، وبجانبه وعلى الأرض توضع أسلحته وعند الفجر تتم قراءة بعض الصلوات أمام حشد من الفرسان والسيدات، ثم يقوم بعض الفرسان بتقديمه إلى السيد الإقطاعى، ويناولونه أسلحته بعد قراءة تلك الصلوات وعملية التبريك على كل قطعة من معداته الحربية، يلى ذلك أهم جزء فى الاحتفال، وهو تثبيت المهاميز التى يستخدمها فى تحريك فرسه، وبحسب تعبيرنا الموجز، نقول : "لقد حصل على مهاميزه"، وهى لحظة لا يمكن أن تنمحى من الذاكرة، وعندها يقوم فارس أكبر منه بتوجيه ضربة شديدة إلى عنق أو خد هذا المرشح سواء بيده أو بقبضة سيفه، وكانت هذه هى الضربة الوحيدة التى يجب عليه أن يتحملها ولا يرد عليها.

وعلى هذا العضو الجديد أن يقسم بأن يكرس سيفه للأعمال النبيلة، ولحماية الكنيسة من أعدائها، وأن يحمى الأرامل، والأيتام، والفقراء، وأن يلاحق الخطاة. وعادة ما ينتهى الاحتفال بعرض لبعض ألعاب الفروسية، والاستعراضات الحربية، إلى جانب بعض العروض الساخرة المضحكة، وهذه كلها أشياء مثيرة للخيال، ولا يستطيع فارس من الفرسان أن ينساها، كما أنها مكلفة جداً فى نفس الوقت، لدرجة أن الكثيرين

من أبنـاء طبقـة النبـلاء المؤهلـين لهـذه المرحلـة كثـيراً مـا كانـوا يفضـلون أن يبقـوا أتباعًا للفرسان.

وكان الفارس مضطراً لخدمة سيده الإقطاعي في حروبه، على الرغم من أنه في الفترة المبكرة من النظام الإقطاعي تم تحديد هذه الخدمة بأربعين يومًا في السنة فقط، إلا أن الحرب كانت في ذلك الوقت ضرورة حتمية، وهي في جملتها إغارات أكثر منها حروبًا حقيقية ؛ وقليل من تلك الحرب تم شنها لأسباب ملحة أو عنيفة، والكثير منها ما كان يتم عن طريق إرسال جماعة من الجماعات تطلب تحديًا، وتحديداً للزمان والمكان لهذا التحدي، وكان كل هدف من يطلب الدخول في قتال ليس هزيمة العدو بقدر ما هو إلحاق بعض الأضرار به عن طريق إحراق قراه، وقتل فلاحيه، وتدمير مصادر دخله، بينما يقبع هو واهنًا بل وآمنا في قلعته. فقد كتب أحد المعاصرين في ذلك يقول : عندما يتشاجر اثنان من النبلاء "فإن الفقراء هم الذين يصطلون بنار الحرب" كما أن الأنشودة المسماة بأنشودة الأعمال البطولية Chanson de geste المعاصرة لتلك الفترة تصف لنا طريقة الغزو بقولها : "إنهم يبدأون المسير، بحيث تسير فرق الاستطلاع أو الكشافة ومن يقومون بإحراق كل شيء عمداً في المقدمة. يليها الطوافون الباحثون عن الغنائم، حيث يقومون بحملها ووضعها في مجموعة كبيرة من الأكياس أو الحقائب، ثم تبدأ أعمال الشغب والاضطراب، فالفلاحون الذين يكونون قد خرجوا لتوهم إلى الحقول يسارعون بالعودة، وهم يطلقون صرخات الاستغاثة المدوية، بينما يقوم الرعاة بجمع قطعانهم ويتوجهون بها إلى مناطق الغابات المجاورة على أمل إنقاذها.

ويقوم فريق الإحراق بإشعال النيران في القرى، بينما يقوم فريق النهاب بزيارة تلك القرى ونهبها، أما السكان المذهولون فيتم حرقهم، أو إخراجهم مقيدي الأيادي لمبادلتهم بالفدية المطلوبة. وهنا وهناك يتم قرع النواقيس محذرة بالخطر، حيث ينتشر الرعب من جانب لآخر بحيث يشمل الجميع. وفي كل اتجاه ترى الخوذ وهي تلمع، والرايات الطويلة ترفرف، والخيالة يغطون السهول، والأيدي تستولي على الأموال، ويتم جمع الماشية والحمير والطيور، والدخان ينتشر في كل مكان، والنيران تلتهم كل شيء، والفلاحين والرعاة يهربون في فزع في كل اتجاه. في المدن، والقرى وحتى في المزارع

الصغيرة، سرعان ما تتوقف الطواحين، والمداخن، حتى الكلاب تتوقف عن النباح ؛ وتنمو الأعشاب فى المنازل وبين الكتل الصخرية فى الكنائس، لأن رجال الدين هجروا خدمة الرب، فالصلبان ملقاة على الأرض بعد أن تم تكسيرها. وربما يمر الحجاج لمدة ستة أيام فلا يجدون أحداً ليقدم لهم رغيف خبز، أو قطرة نبيذ، كما لا يجد الأحرار أى عمل يقومون به مع جيرانهم، وتنمو الورود والأشواك البرية، وتغطى المزارع فى القرى، بحيث تصبح تلك القرى وكأنه لم يكن لها وجود.

ومع انتشار سلسلة الحروب واسعة النطاق، مثل حروب وليام الفاتح ملك إنجلترا، والحملات الصليبية، ظهرت أهمية استخدام بعض المبادئ الاستراتيجية، وأخذ المنظمون العسكريون يفكرون ملياً فى دور أسلحة الفروسية والمشاة، وعملية اختيار أرض المعركة، والاستخدام الأمثل لرماة السهام، وتعبئة قوات الاحتياط، والقوات المساعدة.

وكان الهدف الأسمى من استخدام سلاح الفرسان هو الالتحام السريع الموجه ضد المواقع الحصينة، ذلك لأن الفلاحين المذعورين سيندفعون ويهربون قبل ظهور خطر الفرسان المسلحين الذين يمتطون خيولاً تثير الرعب والفزع فى كل مكان، ومع هذا فإن الالتحام كانت له مخاطره بالنسبة للمهاجرين، وخصوصاً فى المناطق ذات التضاريس الوعرة، أو المليئة بالمستنقعات، ففى هذه الحالة فإن هجوم الفرسان سيكون بلا فائدة، فضلاً عن أنه فى حالة وجود خندق مخفى فإن ذلك سينتج عنه دمار هؤلاء الفرسان ؛ كما أن المدافعين الشجعان يستطيعون حماية موقعهم بغرس قطع من الأخشاب الطويلة الحادة بشكل مائل بينهم وبين الأعداء، وأمام مثل تلك العقبة، فإن الخيول الأكثر جرأة سوف تحجم عن الاستمرار فى التقدم، كما أنه فى حالة امتلاك العدو فيالق حسنة التدريب من رماة السهام فإن هذا سيزيد من مشاكل المهاجمين، الذين سوف يواجهون سيلاً منهمراً من السهام، وليس لديهم إلا لحظات قليلة، ذلك لأن الحد المؤثر للسهم كان حوالى مائة وخمسين ياردة، كما أن الرامى الجيد يمكن أن يخطئ إلا فى حالة التصويب المباشر، والرامى الموفق هو الذى يصوب نحو الفرس، ذلك لأن الفارس بمجرد أن يترجل عن فرسه فهو معرض لكثير من الأخطار.

وبمجرد أن ينتهي هجوم الفرسان، فإن المعركة تصبح سلسلة من الاشتباكات يداً بيد، وفي الوقت الذي تلتحم فيه الجيوش، فإن دور الرماة ينتهي، تاركين المعركة للفرسان، ويتقرر الموقف بناء على عدد القتلى والجرحى لدى كل طرف من الطرفين المتحاربين، فالطرف الذي يقل فيه عدد القتلى والجرحى هو الذي يكتب له الفوز، ومن الملاحظ أن عدد الفرسان الذين يلقون حتفهم غالبًا ما يكون قليلاً، وعلى أية حال فإن أسرى الحرب بمراتبهم وأسلحتهم المختلفة يتم القبض عليهم من أجل الحصول على فدية مناسبة ؛ كما كانت هناك تجارة واسعة في أسرى الحرب، والذين كان يتم بيعهم وشراؤهم على يد كثير من التجار المتخصصين في ذلك ؛ والأسرى الذين لا يتم الحصول منهم على فداء، فقد كان يتم الاستيلاء على ما معهم من أسلحة غالية، ثم يتم القضاء على الواحد منهم غالبًا بطعنة خنجر لتوفير نفقات إعاشتهم.

وحتى القرن الثالث عشر للميلاد، فإن جيوش العصور الوسطى الأوربية ظلت تتكون غالبًا وفي معظمها من المقاتلين، وقليل من الرجال الذين يتم استخدامهم في الخدمات المساعدة وعمليات الإمداد والتموين، كما أنه قَلّ أن تجد خدمة طبية، إذ كان على الجنود أن يقوموا بذلك بأنفسهم وأن يبحثوا عنها بطريقتهم الخاصة، ذلك لأن المفروض في الجيش أن يعيش باستمرار خارج البلد. وفي أحيان كثيرة كان ما يقرب من ثلث فرق الجيش تتكون من الفرسان، على الرغم من أن النسبة اختلفت كثيراً باختلاف الظروف، كما أن بعض جنود المشاة كانوا من محترفي الجندية (المرتزقة)، ولكن الغالبية كانوا من الفلاحين الذين يُكْرَهون على الخدمة العسكرية، وكانوا يحملون ما يتم توزيعه عليهم من أسلحة، وغالبًا ما كانوا يرتدون سترات طويلة ضيقة وثقيلة، مثبت فيها حلقات معدنية، ويحملون الدروع، والنبال، والسهام، والسيوف، والرماح، والهراوات.

أما معدات الفارس فقد كانت ملائمة لمتطلبات الدفاع أو الهجوم، أو تختلف باختلاف الحاجة إلى الحركة، ومتطلبات الدفاع عن النفس. ففي الأغراض الهجومية كان السيف هو ملك الأسلحة، فالفارس الذي تسلم ذلك السيف عند المذبح بعد الليلة التي قضاها في الصلاة، كان ينظر لهذا السيف نظرة كلها خشية ورهبة، وكرمز لحياته وكرامته. ولقد تم تخليد ذكر كثير من السيوف في الأساطير : مثل السيوف

الخاصة بآرثر Arthur، ورولاند Roland، أما عن مقابض السيوف فكانت غالبًا مدورة ومجوفة، بحيث يتم وضع بعض الذخائر المقدسة فيها، ويقوم الشخص القابض عليها بحلف اليمين ويُشهِدُ على ذلك الرب.

ولكى تناسب السيوف الذوق العام لكثير من الأشخاص، فقد كان هناك كثير من التنوع فى نصال تلك السيوف، وفى مقابضها، وأغمادها. فالنموذج الأكثر شيوعًا هو ذلك النوع مستدق الطرف تدريجيًا، بحيث بلغ عرضه عند المقبض ثلاث بوصات، بينما بلغ طوله ما بين اثنتين وثلاثين، أو ثلاث وثلاثين بوصة، وبهذا كان السيف منها على درجة من الكفاءة فى القطع أو الطعن. وكانت النصال الصلبة عادة ما يتم صنعها من عدة رقائق من الحديد ملتصقة ببعضها البعض، ويتم شحذها بحيث تكون حادة جداً. وهناك كثير من النقاش الذى دار حول السيوف والمميزات الخاصة بها، والتى تم الحصول عليها من توليدو، وسراقوسا، ودمشق، وسولنجن، وميلان. وهناك نوعان لقيا كثيراً من التفضيل، ولكن الجندى الذى كان يستخدم أحدهما يتحتم عليه أن يكون قوى البنية جداً، ذلك لأن ذراعه الآخر كان عليه أن يحمل درعًا، ومن المفترض فى هذا الجندى وهو يواجه عدواً رشيقًا ألا يعوقه شىء وهو يستعد لتوجيه ضربته بالسيف، كما كانت تلك السيوف مفضلة الاستعمال فى تنفيذ الحكم بالإعدام بقطع الرأس.

كذلك كانت الحربة أو الرمح من الأسلحة التقليدية للفارس، وظلت باقية حتى أيامنا كرمز للفارس الخيَّال. وفى سنة ١٩٣٩م فإن الفرسان البولنديين ببسالتهم المعهودة حملوا الرماح فى معركتهم ضد الدبابات الألمانية، وبرمح بلغ طوله عشرة أقدام له رأس حديدية مدببة استطاع أحد هؤلاء الفرسان أن يهاجم عدوه الراكب، وأن يخترق دفاعاته الحصينة، ويصيب أعداءه بأضرار بالغة، لكن رمحه بعد الهجمة الأولى أصبح بلا فائدة، فكان على الفارس أن يلقى به جانبًا، ويأخذ سيفًا أو بلطة، واستطاع أن يكيل بهما عدة ضربات شديدة حتى مع وجود درع، لأن ضرباتهما كانت تخترق الحلقات المعدنية لملابس الزرد، وتسبب كثيراً من الجروح التى سرعان ما تتقيح وتسبب الغنغرينا.

كما أن بعض الفرسان كان يحمل قضيبًا شائكًا، وتم استخدامه على نطاق كبير فى العصور الوسطى لكسر الدروع، أو هراوة، وهى من أكثر الأسلحة البدائية

والمزودة بمسامير ضخمة، كانت تسبب كثيراً من الإصابات القاتلة والمخيفة. كما أن القضيب الشائك والذى استخدم لكسر الدروع، كان هو السلاح المميز فى المعارك التى خاضها كل من وليام الفاتح، وريتشارد قلب الأسد فى معاركهما، كما كان أيضًا - وحسبما يشير وليام ستيرنز ديفيز William Stearns Davis- "هو السلاح المفضل الذى استخدمه الأساقفة والقساوسة وغيرهم من رجال الدين فى حروبهم، والذين تحاشوا، وإلى أبعد حد ممكن، القانون الكنسى الذى ينص على منع رجال الدين من استخدام نصال السيوف أو فى إراقة الدماء". فضلاً عن أن القضيب الشائك غالبًا ما كان يفقد العدو الوعى، أو يحطم رأسه دونما إصابته بطعنة نافذه إلى قلبه أو صدره، وفى إحدى الأساطير التاريخية الجميلة فإن القضيب الشائك كان يرمز إليه كأحد الذخائر المقدسة، حيث قام بحمله أول الطلاب فى الحفل الذى شهده مدير الكلية فى بداية حفل التخرج.

وبمرور الوقت، شهدت عملية تسليح الفارس تطوراً بطيئًا، من حيث ثقل المعدات، وازدياد تعقيداتها، إذ لم يعد الفارس قادراً على تجهيز نفسه للحرب دون مساعدة من أحد إذ كان عليه أن يجلس بعض الوقت لكى يقوم أحد الأتباع أو بعضهم بإلباسه الجورب المزود بحلقات الزرد المعدنية، وأن يقف بعض الوقت لكى يقوموا بتثبيت قطع الأسلحة المختلفة بواسطة الأحزمة ذات الإبزيم. وفى البداية كان عليه أن يرتدى قميصاً مصنوعاً من اللباد، أو تم حشوه بالقطن، وكان يرتدى فوقه معطف الزرد، وهو عبارة عن معطف يصل إلى منتصف الفخذ أو إلى أسفل الركبة ويتكون من حلقات معدنية مثبتة معًا بإحكام شديد. وإذا تم صنعه بطريقة جيدة، فإنه يكون مرنًا جداً ويمكن قصه أو خياطته تمامًا مثل القماش، وهناك نموذج لهذا المعطف محفوظ فى متحف متروبوليتان للفنون فى نيويورك، تم صنعه من مائتى ألف حلقة معدنية، ويصل وزنه إلى حوالى تسعين رطلاً.

أما معاطف الزرد البسيطة فيمكن أن يصل وزن الواحد منها إلى ضعف، أو ثلاثة أمثال ذلك، وعلى الرغم من قوتها فإن المعطف منها لا يستطيع أن يوفر لمن يرتديه الحماية التامة من الضربات القوية، لأن ذلك كان مرهونًا بعملية الصدأ الذى كان له

أثره فى ألا يصلنا سوى القليل من تلك المعاطف، والتى لم يقدر لها البقاء طويلاً. كما أنهم لم يعرفوا سوى وسيلة واحدة لمقاومة الصدأ، حيث كانوا يضعون معطف الزرد مع الرمل والخل فى قربة من الجلد، ويتم رجها كما ترج زجاجة الدواء ست مرات، ولقد قامت متاحفنا بتنفيذ تلك الوسيلة لتنظيف معاطف الزرد، ولكن بوضعها فى صناديق دوارة بغية تلميعها والتخلص من ذلك الصدأ.

كما أن الدروع الواقية أصبحت شيئًا فشيئًا أكثر إحكامًا وتطوراً، حيث تم استخدام القلانس لتغطية العنق والرأس، وبعض القطع الواقية لتغطية المرفقين، والدروع الواقية لحماية الركبة والسيقان، ولأن الوجه كان عرضة دائمًا للإصابة، فقد تمت زيادة أحجام الخوذ وبخاصة من حيث الوزن بحيث غطت مساحات كبيرة من الوجه، لدرجة أنها أصبحت تشبه الوعاء الأسطوانى الشكل وبها فتحات طولية تظهر منها العينان، وكالعادة فإن الأمر تطلب كثيراً من النفقات. فقد تحتم على الفارس أن يضمد رأسه برباط خاص حتى لا تتأثر رأسه إذا وقع من فوق حصانه، وحتى لا يصاب بارتجاج في المخ. من ذلك أن وليام مارشال وهو أحد الأبطال الإنجليز ذائعى الصيت فى القرن الثانى عشر الميلاد، كان قد دخل فى مبارزة، وبعد أن كسب المباراة، تم البحث عنه ليتسلم جائزته فلم يعثر عليه، وأخيراً اكتشفوا أنه كان قد توجه إلى حدّاد ووضع رأسه على سندان الحداد لكى يقوم الحداد بالطرق على خوذته لاستعدالها دون أن يصيب رأسه بأذى.

كذلك كان المحاربون يعانون أشد المعاناة من حرارة الجو أثناء عمليات القتال الشديدة، فالشمس تسلط أشعتها الحارقة على الخوذة، لدرجة أنه كان يصعب على المحارب منهم التنفس، كما لم يكن فى مقدور المحارب منهم أن يسمع وبوضوح الأوامر الصادرة إليه، أو أن يتلفظ بالكلام بطريقة مفهومة، وإذا حدث أن لحق بالخوذة إصابة شديدة وأدت إلى انبعاجها مثلاً فكان معنى هذا العمى بالنسبة لمن يرتديها. وهناك الكثير من الأمثلة على حالات للموت من شدة الحر، أو للغرق بعد سقطة فى أحد الخنادق الموحلة، بل وحتى السقوط فى مجرى مائى. ففى معركة أجينكورت Agincourt سقط كثير من الفرسان الفرنسيين فى كمين عبارة عن خندق ملىء بالأوحال فاختنقوا.

هذا إلى جانب أن تلك الخوذة التى على شكل قِدْر كانت تخفى شخصية مرتديها، لذلك فقد قام الفرسان برسم بعض الشارات على خوذهم ودروعهم، وهكذا كانت البداية لظهور الشارات والرنوك.

وشهد القرن الرابع عشر للميلاد تحولاً فى استخدام الدرع ذى الحلقات المعدنية، وإحلال البدلة ذات الصفائح المعدنية محله، والتى كانت تتناسب مع جسم من يرتديها، ويتم تزيينها بكثير من أنواع الزخارف الثمينة، وبلغ وزن تلك البدلة حوالى ستين رطلاً أو يزيد، كما بلغ وزن خوذة ودرع أحد الفرسان الفرنسيين فى معركة أجينكورت تسعين رطلاً، وكانت هذه البدلة تمنح من يرتديها سهولة فى الحركة أكثر فى حالة ما إذا كانت مزودة بمفاصل جيدة ويتم تزييتها بشكل منتظم، حيث نسمع أن أحد الأبطال من فرنسا والمشهورين فى القرن الخامس عشر للميلاد، استطاع أن يتشقلب فى حركات بهلوانية، مرتدياً تلك البدلة والملابس الواقية الأخرى باستثناء الخوذة، وأنه استطاع أن يتسلق المرقاة أى السلم المعد لتسلق أسوار المدن المحصنة مستخدماً يديه فقط.

ومهما قيل عن الاحتياطات التى تم اتخاذها لتجهيز الفارس المدرع، فقد كان عرضة للإصابة، إذ كان فى مقدور أى فلاح حقير أن يطعن فرسه، وأى رام من رماة السهام كان فى مقدوره أن يصيبه تحت إبطه ويطيح به أرضاً، وبمجرد أن يقع من على فرسه فى حالة يرثى لها، فهو لا يستطيع الحركة بسهولة، كما أن ردفيه وفخذيه كانوا معرضين لأية إصابة، بحيث لا يستطيع أن يمتطى فرسه فى أمان، وإذا حدث وسقط على ظهره، فقد كان عليه أن يكافح وكما تفعل السلحفاة حتى يعدل من وضع نفسه. كما كان بمقدور أى جندى من جنود المشاة خفيفى التسليح أن يرفع مقدم خوذة ذلك الفارس، أى الجزء الأمامى المتحرك والمغطى للوجه، ويطعنه فى عينيه وبذلك يقضى عليه تماماً.

أما عن الدرع فقد جرت العادة بصنعه من ألواح خشبية متينة، ويتم تسميرها معًا بعد لصقها بمادة لاصقة، وتغطيتها بجلد سميك، وعمل إطار معدنى مستدير، وغالبًا ما يتم وضع عدة أزرار بارزة فى منتصف الدرع لكى تحد من تأثير نصال سيوف الأعداء فى الدرع، وكان جنود المشاة يحملون دروعًا مستديرة الشكل، أما الفرسان الخيالة فقد كانوا يفضلون حمل دروع مثلثة الشكل يحمون بها أرجلهم.

وظهرت الحاجة ماسة إلى الخيول القوية الضخمة، لتستطيع حمل الفارس ثقيل التسليح سواء فى ميدان المعركة، أو فى حلبات المبارزة، ومثل تلك الخيول كانت تتطلب تكلفة عالية فى تلك العصور بسبب ندرة العلف التى أثرت فى حجم وقوة الحيوانات بوجه عام، وقام بتربية تلك الخيول ورعايتها بعض الفلاحين، وشاعت السلالات العربية من الخيول كثيراً، وكان الفرس الأبيض هو أفضلها جميعاً، كما أن ركوب الإناث من الخيول كان ينظر إليه على أنه عمل مشين بالنسبة للفرسان، واحتاجت تلك الخيول إلى مران كثير وتدريبات لخوض المعارك، ولأن الخيّال الذى يمتطيه كان مثقلاً بحمل السيف، والدرع، والرمح، فغالبًا ما يسقط منه لجام الفرس، لذا كان على الفارس أن يدرب حصانه على التحرك وفقًا لنخزه بالمهاميز، والاستجابة لحركة الأقدام وخصوصاً عند المراوغة.

أما عن السلاح الأساسى لفرق المشاة – ولدى فرق الفرسان المغولية والتركية – فقد كان هو السهم والقوس، فالقوس القصير قديم جداً، وقد كان شائعًا لدى كثير من الشعوب البدائية فى كل أنحاء العالم. وكان يتم جذبه إلى الصدر وليس إلى الأذن، وكما نرى ذلك على قطع القماش المطرز فى بايو Bayeux، وكان تأثيره مميتًا وخصوصًا إذا تم إطلاقه إلى مسافات قصيرة. أما القوس البالغ طوله ستة أقدام، ويطلق سهامًا يبلغ طول قبضتها ثلاثة أقدام، فهو على ما يبدو من ابتكار الولشيين The Welsh فى القرن الثانى عشر للميلاد، وأصبح السلاح المفضل بالنسبة للإنجليز، إلا أنه لم يكن فى مقدور الجميع استخدامه، فهو يحتاج إلى أن يكون الرامى طويلاً وعلى دربة كبيرة حتى يستطيع استخدامه بكفاءة. ويتطلب براعة، بحيث يتم شد وتر القوس باليد اليمنى، وأن يتم الضغط بكل ثقل الجسم على القوس، وتكون اليد اليسرى قابضة على القوس، ويقوم الرامى بالدفع بدلاً من الجذب مستخدمًا قوة الجسم أكثر من قوة الذراع، وبذلك يستطيع السهم ذو الرأس الحديدية أن يخترق أى درع عادى على المدى القصير، ويستطيع الرامى الجيد أن يصوب ويقذف - قذائف فى الدقيقة.

وفى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد، ومع الاستخدام العادى للقوس كسلاح، بدأ عصر الميكنة فى الفنون الحربية، فالقوس أداة صغيرة من الصلب أو من رقائق الخشب المضغوطة، أصبح يحمله الفرسان الخيالة، ويقوم الرامى بجذب الوتر ومعه السهم وهو يصوبه إلى أسفل أولاً، ثم يحرك نراع السهم إلى أن يتم جذبه وتثبيته فى منتصف الوتر، ويتم التصويب ثم إطلاق السهم، والذى غالبًا ما يكون له تأثيره الفعال إذا أطلق إلى مسافات قصيرة. ولقد استنكرت الكنيسة استخدام ذلك السلاح غير الآدمى، واعتبره الكثيرون سلاحًا لا يليق بالفرسان استخدامه، وفى الوقت الذى كان فيه فى مقدور الرامى الذى يستخدم القوس الطويل أن يهزم رامى القوس ذى الوتر الذى يقع فى مجال تصويبه وبسرعة باستخدامه للسهام النارية، ومع هذا السلاح الجديد أصبح فى مقدور الرامى قليل التدريب، وضعيف البنية أن يكون مساويًا إن لم يكن متفوقًا على الرامى قوى البنية.

ولقد تركز فن الحرب فى العصور الوسطى حول القلعة أو الحصن، وهما نواة التحكم وإدارة المناطق المحيطة، جنبًا إلى جنب أنهما كانا مركزًا للعمليات الهجومية، ففى داخل جدرانهما يمكن لجيش صغير أن يتم حشده وتدريبه لحرب صغيرة، كما تم تصميمهما لصد أى هجوم معادٍ، وكمأوى للفلاحين المجاورين الهاربين بقطعانهم قبل أى عمليات للسلب والنهب. ولقد كانت القلاع الأولى فى العصور الوسطى مثل تلك التى شيدها وليام الفاتح فى انجلترا ذات الطراز المشتمل على فناء ويحيط بها سور، وكانت مجرد مبانى خشبية لها أبراج للمراقبة، تقام عادة فى مكان مرتفع، ويحيط بها خندق وأوتاد خشبية مستدقة يتم غرسها داخل الخندق كخطوط دفاعية، وعادة ما كانت فسيحة بدرجة تكفى لإيواء الأيدى العاملة فى الضيعة، من حدادين، وخبازين، وعمال آخرين، وبحيث تكون مأوى يلجأ إليه الفلاحون فى أوقات الشدة، هذه النوعية من القلاع حلت محلها القلاع المبنية من الحجارة والتى مازلنا نزورها. وأول برج محصن تم بناؤه من الحجر تم تشييده فى فرنسا فى لانجيا Langeais يطل على اللوار سنة ٩٩٤م.

ولقد كان من المتوقع أن تساير المبانى الحجرية التقدم التكنولوجي، والتطور الذى حدث فى الآلات القاطعة للأحجار، والآلات الرافعة، وما إن تمت السيطرة على تلك التقنية حتى انتشرت عمليات بناء القلاع بسرعة فى كل مكان. وفى إحصاء تم سنة ١٩٠٤م، تم حصر أكثر من عشرة آلاف قلعة ما زالت شاخصة للأبصار فى فرنسا.

ويستطيع أى شخص أن يرى القلعة من بعد رابضة فوق التل الذى شيدت فوقه، أما إذا كانت مشيدة فى مكان مستو، فيمكن النزول إليها من خلال هضبة صناعية، وفى بعض الأحيان كان المبنى يومض عن بعد لطلائه بالجير. وعلى الزائر أن يعبر فضاء متسعًا إلى أن يصل إلى البوابة الرئيسية، والتى تحمى المدخل، وبعد أن يحصل على تصريح بالدخول، فكان يقوم بتسليم ما لديه من سلاح للبواب ويعبر الجسر المتحرك فوق الخندق الرطب والذى تسكنه الضفادع وكذلك الناموس. وفيما وراء الجسر المتحرك كانت توجد بوابة حديدية لحماية الحصن أو القلعة، وهى التى يتم إنزالها فى لمح البصر، وكان يطلق عليها اسم الشعرية الحديدية، مثل تلك الشعرية التى تم اكتشافها حديثًا فى أنجرز Angers، وعلى الرغم من أنها لم تستعمل لمدة خمسمائة عام، فإن سلاسلها وبكراتها لا تزال تعمل بعد تنظيفها وتزييتها. وكان مدخل القلعة ملتويًا لكى يعوق تقدم المهاجمين، كما كانت فى جدرانه فتحات طولية يقف فيها رماة السهام، وهى التى عرفت باسم "فتحات الموت"، وغالبًا ما كانت فى أعلى الجدران، وفى قلعة كايرنارفون Caernarvon فى مقاطعة ويلز، كان على الزائر أن يعبر أولاً الجسر المتحرك، ثم يمر من خلال خمسة أبواب، وست شعريات، ثم يتجه يمينًا ليعبر جسرًا متحركًا آخر.

ولا شك فى أن ضخامة الأسوار وعلوها لما يشد الانتباه حقًا، إذ يصل سمك بعضها إلى خمسة عشر قدمًا أو عشرين قدمًا، يتوصل منها إلى الفناء الداخلى المسور، تلك الأسوار كان فى أعلاها ممرات، مزودة بشرفات هى عبارة عن فتحات صغيرة يحتمى فيها المدافعون من رماة السهام، من أية سهام أو قذائف توجه إليهم، كذلك يستخدمونها فى إلقاء الزيت المغلى والمواد الحارقة على المهاجمين، وتضخمت تلك الأسوار شيئًا فشيئًا بمرور الزمن، وازداد عددها بحيث غدت كالفواصل يعزل كل منها داخل القلعة تمامًا عن خارجها، فإذا نجح مهاجم فى الاختراق إلى داخل القلعة فى إحدى الفرص المواتية له، فإنه لا يستطيع أن يثق بتحقيقه النصر، فالأجزاء المختلفة

للمتاريس كانت تفصلها عن بعضها البعض جسور خشبية يمكن تحطيمها فى لحظة لعزل هذا العدو، أما السلالم الدائرية الموجودة داخل الأسوار، فبدلاً من الدرج المصنوع من الحجارة كانت هناك سلالم متحركة بديلة يمكن إزالتها بسهولة لدرجة أن أى مهاجم متهور يسرع فى الظلام سوف يسقط أسفل البرج المحصن فجأة.

كما كان قلب النظام الدفاعي هو الحصن، وهو عبارة عن برج يصل ارتفاعه أحيانًا إلى حوالى مائتى قدم، وله أسوار يبلغ سمكها اثنى عشر قدمًا، وفى أسفل الحصن وعلى عمق كبير جداً كانت هناك الزنازين، مفتوحة من أعلاها فقط، وتستخدم لحبس الأسرى أو لحفظ المؤن اللازمة للحصار، وغالبًا ما تشتمل على بئر إذا كان ذلك ممكنًا. وفى أعلى الحصن هناك غرف سكنية يعيش فيها النبيل وحرسه، وفى قمة الحصن كان هناك برج للمراقبة ترفرف عليه راية كبيرة عليها شعار النبيل.

والدليل على متانة تلك القلاع والحصون هو بقاؤها إلى الآن فوق كثير من التلال والروابى فى أوربا وفى بلاد الشام متحدية عوادى الزمن، ففى أثناء الحرب العالمية الثانية تعرضت بعض هذه القلاع والحصون لضربات مباشرة بالقنابل شديدة الانفجار التى لم تترك سوى آثار قليلة.

وفى النرويج، وفى سوثهامبتن Norwich and Southampton لم تصب أسوار العصور الوسطى من جراء القذف بالمدافع القديمة إلا بأضرار ضئيلة، بينما تم تدمير معظم المنازل المواجهة لها والقريبة منها تماماً.

ومع هذا فلم تكن القلعة منيعة على طول الخط، وخصوصاً أمام معدات الحصار التى تم ابتكارها، بواسطة البيزنطيين، وخصوصاً الكباش(*)، والمنجنيقات التى كانت تقذف الكتل الصخرية البالغ وزنها حوالى مائة وخمسين رطلاً، وقاذفات السهام والحجارة العملاقة. كذلك كان فى مقدور عمال المناجم أن يحفروا نفقًا بعد جهد كبير وصبر على تحمل الأخطار، تحت الخندق المائى فى أسفل أحد الأسوار، ويتم حشو ذلك النفق بالكتل الخشبية والمواد القابلة للاحتراق، ويتم إشعال الجميع، فتنهار الدعامات، فيسقط جزء من السور على الخندق، وفى نفس اللحظة يمطر رماة السهام المدافعين

(*) الكباش : جمع كبش، وهى آلة حربية كانت تستخدم لدك أسوار المدن المحاصرة. (المترجم)

بوابل من سهامهم؛ فيبتعدون قليلاً عن الشرفات الموجودة فوق الأسوار، فيجرى الجنود ومعهم بالات القش، والسلال المليئة بالتراب، أو بعض المواد الأخرى لردم الخندق، ويتبعهم جنود آخرون على ذلك الممر أو الطريق الذى تم ردمه، ويلقون بالسلالم المتحركة فوق الأسوار، فى حماية الدروع التى يضعونها فوق رؤوسهم من السهام الموجهة إليهم وغيرها من القذائف، ولتسلق السلم المتحرك يضع كل متسلق درعه فى ذراعه ويجعل إحدى يديه مستعدة لجذب السيف الذى يتدلى، وهو إنجاز صعب. لذلك تم ابتكار أسلوب جديد وبديل، عن طريق تشييد برج خشبى للحصار، تجره عجلات يكون عادة فى مثل ارتفاع الأسوار، ويتم إخفاء عدد من المقاتلين فى الجزء الأخير من البرج، ويتم دفع ذلك البرج إلى الأسوار، ثم يتم إنزال جسر متحرك، ومنه تقوم مجموعة المهاجمين الشجعان بمهاجمة شرفات الأسوار، وبهذا الأسلوب استطاع الصليبيون الاستيلاء على مدينة بيت المقدس.

وكانت الخسائر الناجمة عن مهاجمة إحدى القلاع هائلة عادة، وخصوصًا الخسائر فى الأرواح، وهناك العديد من الأمثلة للهجوم الناجح على بعض القلاع المفترض أنها منيعة، وكذلك على بعض المدن. من ذلك استيلاء الملك ريتشارد قلب الأسد على مدينة عكا سنة ١١٩١م، ومنها أيضًا استيلاء إدوارد أمير ويلز "الأمير الأسود" على ليموج Limoges سنة ١٣٧٠م عن طريق حفر نفق والهجوم المباشر، ولشدة مقاومة الأهالى، فإنه أمر بقتل أكثر من ثلاثمائة من الرجال، والنساء، والأطفال **"وإنه لشىء يثير الشفقة فعلاً أن تراهم راكعين أمام الأمير، يطلبون منه الصفح والرحمة، إلا أنه لم تأخذه بهم أية شفقة"** هكذا يقول فرواسارت، وبلا أى تأنيب للضمير.

وعلى أية حال، فإن دفاعات القلاع والمدن المسورة كانت أقوى من الهجوم. ومع هذا فإن أفضل وسيلة لتقليل عدد القلاع أو الحصون كانت هى البحث عن أحد الخونة داخل الأسوار أو داخل صفوف الأعداء، فإذا لم يكتشف أمره فكان معنى هذا هو القضاء على الحامية. كما كان يتحتم على صاحب القلعة إذا كان حصينًا أن يدخر فيها دائمًا مؤونة سنة من الطعام والشراب والوقود، ذلك لأن الحصار قد يستمر طويلاً، وربما استمر سنتين، وغالبًا ما كان فى مثل هذه الحالة مُرهِقًا سواء للمحاصرين أو المحصورين.

كما أن تدهور النظام الإقطاعى، وتضاؤل طبقة النبلاء، وظهور البارود ومدافع الحصار فى القرن الرابع عشر للميلاد، كل ذلك أدى إلى إهمال القلاع، كما أن النبلاء هجروا الحياة الصعبة داخل تلك القلاع التى كانت بمثابة سجون حربية بلا أى ندم، وفضلوا عليها الإقامة فى منزل ريفى رحب، أو فى سكن فى المدينة بين أناس من طبقتهم.

واشتعلت الحرب فى أعالى البحار كما اشتعلت على الأرض، وفى أوقات الحاجة كان الملك ببساطة يجبر المراكب التجارية الخاصة بشعبه على أداء الخدمة العسكرية، والمركب منها تحمل حوالى مائتى طن أو أكثر، وفى القرن الخامس عشر نجد سفناً تبلغ حمولتها حوالى ألف طن، فالسفن الصليبية كان فى مقدورها نقل ألف من الجنود بخيولهم ومعداتهم، فهذا هو فردريك الثانى البارع وقد شيد لحملته الصليبية خمسين سفينة، تشبه إلى حد ما ناقلات الجنود الحديثة، ولها أبواب يتم فتحها وهى راسية، بحيث يستطيع الفارس أن يهبط منها وهو راكب فرسه. وفى البحر الأبيض المتوسط كان البيزنطيون، والبنادقة، والجنوية يفضلون السفن الشراعية الطويلة الضيقة ذات المجاديف، سريعة المناورة، ولها مقدمة هائلة مدببة معدة لاختراق سفن الأعداء، ومحاولة إغراقها.

وجرت العادة أن يبنى قائد الأسطول على سفينته التجارية جزءاً يبيت فيه النوتية فى مقدمتها وكذلك فى مؤخرتها، وبحيث يستطيع رماة السهام الاستفادة منه فى إطلاق قذائفهم على من يجدونه على ظهر أية سفينة معادية، وكان الغرض من ذلك هو إغراق السفن المعادية، وإذا لم تنفع تلك الطريقة، فكان يتم سحب أى سفينة معادية بالخطاطيف، وتقطيع ما عليها من أشرعة وحبال الصوارى، ثم النزول عليها. وفى حالة الاشتباك يداً ليد، فقد كان من المحتمل أن يحمل المهاجمون معهم بعض الجير الحى لرشه فى وجوه الأعداء فيسبب لهم العمى، وبعض الصابون الطرى المخلوط ببعض قطع من الحديد أو المسامير التى تعيق حركة أقدامهم، كما قام البيزنطيون بتركيب عدد من المنجنيقات فوق سفنهم، كذلك عرّفوا الغرب الأوربى بالنار الإغريقية، وهى تقريباً خليط من البترول، والجير الحى، مع الكبريت، فالجير الحى بوضع الماء عليه يساعد على اشتعال تلك المواد، منتجاً النابالم البدائى.

ولقد وجد الفن الحربى للعصور الوسطى الفرصة سانحة للتجريب والاختبار على نطاق كبير فى الحروب الصليبية، وحيث تطلبت تلك الحروب ممارسة عمليات نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم، كما أن بعد مسافة تلك الحروب تطلبت استراتيجيات وتكتيكات جديدة، كما أن المعارك مع أعداء غرباء وفى أراضىَ بعيدة أدت إلى استخدام أسلحة جديدة وأساليب قتالية جديدة. فتعلم الصليبيون كثيراً من البيزنطيين، سواء فى التدريبات العسكرية، أم فى حشد المشاة المحترفين، وفى تسليحهم المتقدم والهندسة الحربية. فقلاع الصليبيين التى تم تشييدها فى الشرق وبسرعة، لهى أكبر دليل على الشجاعة، وعلى الكارثة، حيث تم بناؤها وفق تقاليد وأساليب الدفاع البيزنطية.

كانت الحرب الصليبية شيئًا جديداً وغير مسبوق تاريخيًا، فهى أول حرب تم شنها من أجل مَثَل أعلى، ومن الطبيعى أن يتم تحريف هذا المثل الأعلى وبشكل سريع، بل وإفساده، ولكن تبقى الحقيقة وهى أن الحروب الصليبية قد تم تصويرها على أنها خدمة للمسيحية، كما أن الصليبيين اعتقدوا أنفسهم على الأقل أنهم قد كرسوا أنفسهم لهدف مقدس، كما كانت الحروب الصليبية أشياء كثيرة، إلا أنها فى الأصل كانت هدفًا نبيلاً وجميلاً.

وتدين فكرة الحرب الصليبية بعض الشىء إلى العهد القديم، وإلى حد ما إلى فكرة الجهاد عند المسلمين أو الحرب المقدسة، كما أنها تدين بعض الشئ إلى فكرة التبشير المتحمسة التى قام بها الرهبان، وإلى حد كبير إلى بداية حركة استرداد المسيحية لأراضيها من أيدى المسلمين فى أسبانيا، كل هذه العوامل انصهرت فى بوتقة واحدة وهى خروج المسيحية منتصرة مع الرغبة فى الاستحواز على ممتلكات جديدة غنية، وإن كان الحافز الأساسى لهذا المثل الأعلى قد جاء مصاحبًا لما تم فى الشرق من أحداث.

ففى نهاية الألفية الأولى، كان الشرق الأدنى قد وصل إلى نوع من الاستقرار فى العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية، والمسلمين، وإلى تجميد الأوضاع على مناطق الحدود على ما أصبحت عليه بين الطرفين، كما أن طريق الحجاج المسيحيين إلى بيت

المقدس ظل مفتوحًا وآمنًا، وأن المدينة المقدسة نفسها وهى فى أيدى المسلمين كانت تدار على أنها مكان مقدس يجذب إليه السياح من الطرفين الإسلامى والمسيحى، إلا أن هذا التوازن المريح سرعان ما انقلب رأسًا على عقب على أيدى الأتراك السلاجقة الذين قاموا بالاستيلاء على بيت المقدس، وهزموا الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى عام ١٠٧١م، وألحقوا بعض الأضرار بالحجاج المسيحيين. وأمام ضغط الأتراك، فإن الإمبراطور الشرقى ألكسيوس كومنين ناشد البابا والغرب طالبًا العون الحربى ضد الأعداء، فطلب إرسال جيش من المرتزقة يستطيع به استعادة ما فقده من مناطق فى آسيا الصغرى، ويحصل على مكافأته مما يحققه من مغانم، ولم يكن لديه اهتمام يذكر بالأرض المقدسة.

أما البابا الذى روج للحرب الصليبية، فقد كان إيربان الثانى أحد النبلاء الفرنسيين، ممن انخرطوا فى سلك الرهبانية فى الأديرة الكلونية، ثم اعتلى عرش البابوية، وممن اتصفوا بالحماسة الدينية، والحكمة فى نظر معاصريه. ولقد حركت فيه استغاثة الإمبراطور ألكسيوس آمال المسيحية الغربية فى استعادة القبر المقدس، كما أنه رأى بثاقب بصره أن سيطرة البابوية على العناصر الحربية، وتوحيدها فى ظل البابوية سوف ينهى مسلسل الحروب الدامية بين أمراء الغرب الأوربى، وسوف يحقق للغرب نوعًا من السلام، كما أن توجيه هذه الطاقات إلى الشرق سيعمل على وحدة الكنيسة، وتحقيق أهدافها الروحية، تحت قيادة البابوية، حيث عانت كنيستا الشرق والغرب لانفصالهما الطويل واختلافهما ؛ وكان الوقت مناسبًا لإنجاز مثل هذا الحلم. العقيدة المسيحية كانت متقدة، ولم تتعرض للنقد بعد، كما أن سكان أوربا كانوا قد تزايدوا، والرجال منهم يعيشون فى حالة من القلق، ويتطلعون لامتلاك أراضىَ جديدة، كما كانوا يتطلعون إلى متنفس جديد يستغلون فيه طاقاتهم، وكأنهم كانوا يتحرقون شوقًا للبحث عن مجال جديد يستخدمون فيه سيوفهم.

وفى المؤتمر الذى عقد فى كليرمونت فى وسط جنوبى فرنسا فى شهر نوفمبر عام ١٠٩٥م، فإن البابا إيربان، طويل القامة الوسيم الملتحى، ألقى واحدة من أهم الخطب فى التاريخ، حيث ناشد الشعب الفرنسى تخليص القبر المقدس من قبضة الأتراك

الشريرة. قائلاً : "**إن فرنسا قد غدت أكثر من مزدحمة بسكانها فعلاً، وبدرجة يصعب معها أن توفر لأبنائها القوت الضروري، بينما أرض كنعان وحسبما جاء في قول الرب هي الأرض التي تفيض عسلاً ولبناً**". ثم رجع إلى نقطة سابقة وهي وضع بيت المقدس الذي يرثي له، فقال : «**أيها الفرنسيون، دعوا منازعاتكم جانباً، وحوّلوا سيوفكم لخدمة الرب، كونوا على يقين بأنكم ستحصلون على مكافأة ثمينة على الأرض، مجدٍ خالد وأبدي في السماء !**»، ثم حنى البابا رأسه فصاحت جموع الحاضرين قائلة : "هكذا يريدها الرب". وقاموا بعمل قطع من القماش الأحمر على شكل الصليب وثبتوها على صدورهم بعد أن أقسموا على حمل الصليب، لقد كان منظراً يأخذ بمجامع القلوب.

وبكل ذكاء استطاع البابا إيربان أن يثير الحماس العاطفي من أجل الإيمان، كما لو كان قد داعب جشعهم وحبهم للمال، كما أن كل سامعيه كانوا قد تربوا على قصص الإنجيل التي تتحدث عن الخيرات، والقطعان المحتشدة في مراعي كنعان، ولقد اختلطت في أذهانهم الصورة الحقيقية لمدينة بيت المقدس بالصورة السماوية لها، المحاطة بأسوار من اللآلئ، والتي يشع فيها نور الرب، والأنهار العذبة التي تتدفق في شوارعها الفضية. ولقد تم إغراء الصليبي الفقير بحصوله على إقطاع في الأرض المقدسة، فإذا مات، فقد حصل على تأكيد ووعد بابوي بحصوله على مكان في الجنة. كذلك قدم البابا لكل صليبي غفراناً، أو خلاصاً من بقائه لعدة سنوات في المطهر، بعد مماته.

وأخيراً، فإن إيربان اتجه إلى جماعة النبلاء، ودغدغ أحاسيسهم قائلاً : إنها لحرب جديدة سيتم شنها على عدو شديد البشاعة، هو مجموعة من المردة والأشخاص المعروفين بالعنف، فهي إذن مباراة بين الجنة والجحيم. وباختصار، وكما قال المؤرخ فردريك هير Friedrich Heer : **إن الدعوة للحرب قد تم تدعيمها بكل وسائل الدعاية، وقصص الوحشية، والأكاذيب المختلقة، والخطب الملتهبة.**

لقد فاقت الاستجابة إلى الدعوة البابوية كل التوقعات، لدرجة أنه يقال إن البابا قد أُخذ على حين غرة، فلم يكن قد تم وضع أية خطة لمواصلة الحرب الصليبية. وقد

تصادف أن عدداً من ملوك الغرب المسيحى كانت قد صدرت ضدهم قرارات الحرمان فى تلك الآونة، كما جعل البابا أسقف لوبوى Le Puy مسئولاً عن العمليات، بينما زعم بعض النبلاء الفرنسيين أحقيتهم فى القيادة الحربية. وأصبح عمل الإدارة الكنسية هو الحصول على متطوعين، وتدبير الأموال اللازمة، والمؤن، ووسائل المواصلات. وفى بعض المناطق، وتحت وطأة الدعاية المغرضة كانت الحماسة زائدة عن الحد، حيث يذكر المؤرخ وليام المالميسبورى أن "**الرجل الواشى قد ترك الصيد، كما أن الأسكتلندى هجر رفاقه، والدانى ترك رفاقه فى الشراب، كما ترك النرويجى أسماكه، وهجر المزارعون الأرض الزراعية، وخلت المنازل من ساكنيها، بل خلت مدن بأكملها لهجرة أهلها**" وهذه بلا شك مبالغة، ولكنها مبالغة لتصوير الحقيقة. وبكل اعتزاز ارتدى الذين كرسوا أنفسهم للحرب الصليبية الصلبان الحمراء، أو طبعوا على صدورهم وشمًا على شكل الصليب.

وبدأت الحروب الصليبية ببعض الأحداث الغريبة والمثيرة للضحك والسخرية والفظيعة فى نفس الوقت، فقامت جماعة من الألمان باقتفاء أثر أوزة على أنها تتلقى وحيًا من السماء، بينما بطرس الناسك، وهو راهب فرنسى متعصب، قذر، حافى القدمين، قصير القامة، داكن اللون أو البشرة، ذو وجه طويل هزيل لا يختلف كثيراً عن وجه حماره، وقد خرج فى حرب صليبية خاصة عرفت باسم حرب الفلاحين الصليبية، ووعد أتباعه بأن الرب سوف يقود مسيرتهم إلى المدينة المقدسة. وفى ألمانيا فإن والتر المفلس وقد حاكى بطرس، خرج فى جموع متنافرة من المفعمين بالحماسة، وتبعوا حماره المسكين بعد أن اقتلعوا كل شعرة فى جسده، فعبروا ألمانيا وأراضى البلقان، وهم يقتلون اليهود بالآلاف فى طريقهم، ويخربون ويسلبون كل ما يصادفهم. لذلك فقد نقلهم الإمبراطور البيزنطى على وجه السرعة إلى آسيا الصغرى، حيث هاجموا الكثير من القرى المسيحية ونهبوا ما فيها، فوقعوا فى كمينين أعدهما لهم الأتراك الذين أعطوا الفرصة لمن وقعوا فى الكمين الأول للنجاة من الموت إذا اعتنقوا الدين الإسلامى، أما المجموعة الثانية فقد أبادوها عن آخرها، أما بطرس الناسك، فقد كان فى القسطنطينية لقضاء بعض الأشغال، وبذا كان واحداً من القلائل الذين نجوا من القدر المحتوم.

أما الحملة الصليبية الأولى المميزة حقًا، والتى أخذت طريقها إلى الشرق، فقد خرجت فى خريف عام ١٠٩٦م، وتكونت من عدة جيوش، شقت طريقها عبر عدة طرق برية وبحرية، على أن يكون الملتقى فى القسطنطينية . ولا شك أن عدد المشاركين فى الحملة الصليبية غير واضح تمامًا، فربما وصلت جموعهم إلى حوالى ٣٠,٠٠٠ على أقل تقدير، وإلى ١٠٠,٠٠٠ على أكثر تقدير. وعلى أية حال، فإن الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين انتابته الدهشة عندما رأى تلك الجموع الكبيرة التى كان من الصعب عليه تدبير الأطعمة اللازمة لها، كذلك ساءه كثيراً سوء سلوكها، ذلك لأنه كان قد طلب بعض الجنود من محترفى الجندية، إلا أنه تلقى أعداداً غفيرة من المتحمسين قليلى الخبرة بمن انضم إليهم من رجال الدين، والنساء والأطفال، والقليل النادر من الفرسان الخيالة الذين كانوا يتصرفون بغطرسة الفرنج المعهودة، حيث جلس أحدهم وهو يلهو على كرسى عرش الإمبراطور، واستطاع ألكسيوس أن يكظم غيظه، وقدم لهم الأموال، والطعام، وفرق الكشافة التى تولت حراستهم وإرشادهم عبر آسيا الصغرى، وفى المقابل فإنه طلب منهم أن يُقسموا على إرجاع المناطق البيزنطية التى استولى عليها الأتراك السلاجقة فى حالة استعادتهم لها، وهذه النقطة أثارت حولها كثيراً من الشكوى والتذمر المتبادل بين الطرفين، والكثير من السخرية والازدراء، فكثير من الفرنجة قد أقسموا على أن القوات البيزنطية المتحالفة كانت على قدر من العداء أكبر من الأتراك.

وفى ربيع عام ١٠٩٧م حث ألكسيوس ضيوفه المشاكسين على ترك العاصمة، وفى التاسع عشر من شهر يونيو، وبعد حصار دام شهراً استسلمت نيقية العاصمة السلطانية، واستمر الصليبيون فى زحفهم صوب أرض الميعاد، وكانت رحلة محفوفة بكل المخاطر، فالأراضى المرتفعة الآسيوية كانت جافة وقاحلة، وهجر الفلاحون – وهم قلة – قراهم قبل وصول الغزاة، مصطحبين ما لديهم من أغنام وماعز وحبوب، فهاجم الجوع والعطش الصليبيين، وهم الذين اعتادوا وفرة المياه فى مواطنهم، فلم يعد فى مقدور الكثيرين منهم العثور على شربة ماء، فترجل الفرسان عن خيولهم، وطرحوا دروعهم أرضًا، وماتت خيولهم من شدة العطش، ونَقْصِ العلف، والمرض ؛ وعبرت جماعة من الجيش سلسلة جبال طوروس وسط فيضان من الأمطار، وعبر طريق ضيق

موحل، فكانوا بذلك على شفا كارثة محققة، وتم ربط الخيول ودواب الحمل كلها بالحبال معًا لتسير في قافلة ؛ إلا أنها سقطت في الهاوية، في الوقت الذي استمر فيه الأتراك في مهاجمة الصليبيين الذين يسيرون في صف واحد، فرماة السهام الأتراك كانوا يمتطون جيادًا صغيرة خفيفة الحركة، فأمطروا الصليبيين بوابل من سهامهم، وارتدُّوا مسرعين قبل أن ينظم الصليبيون أى هجوم مضاد، وكان أسلوب الأتراك يعتمد على إعداد الكمائن، ثم التظاهر بالارتداد السريع، وإبادة جماعات الأعداء الباحثة عن العشب، ومثل هذا التكتيك الذى يعتمد على الكر والفر كان جديدًا تمامًا بالنسبة للغربيين، وأحدث صدمة كبيرة فى خططهم القتالية.

وقدر لمن بقى منهم على قيد الحياة أن يهبطوا إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط فى ركنه الشمال الشرقى، ليجدوا بعض التعزيزات العسكرية التى وصلت بحرًا، وقرر من اتصفوا بالجبن والجشع النجاة بأنفسهم، فها هو ستيفن أوف بلوا Stephen of Blois، زوج أخت أحد الملوك الإنجليز، وأبو ملك آخر، قرر العودة إلى الوطن، وعقب عودته، فإنه اضطر إلى الرجوع مرة ثانية تحت ضغط من زوجته، كما أن بطرس الناسك قد هرب هو الآخر؛ واستطاع بلدوين البولونى أن يجعل من نفسه ملكًا على كونتية الرها، ولم يشارك فى مسيرة الصليبيين إلى بيت المقدس.

وعسكر الجيش الأساسى أمام تحصينات أنطاكية الهائلة، ولم يستطع التحرك صوب الجنوب فى اتجاه بيت المقدس، وخلال حصار طويل استمر ثمانية أشهر، شهد بعض الأعمال البطولية، والفترات المليئة بالنشاط والحيوية العجيبة، مثل ظهور البطريرك البيزنطى متدليًا من شرفات السور فى قفص، وبسبب خيانة أحد المسئولين عن الأسوار، تم الاستيلاء مؤخرًا على إنطاكية فى يونيو عام ١٠٩٨م، وبعدها اتخذ الجيش الصليبى طريقه فى حذر صوب بيت المقدس. وبكل المقاييس الحديثة، فقد كان هذا الجيش صغيرًا جدًا، وصل عدده إلى حوالى اثنى عشر ألفًا، منهم حوالى ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من الفرسان، ولقد صدم الغزاة عندما وجدوا أن أرض كنعان أرضًا صخرية قاحلة. وهناك قصة شرقية قديمة تقول بأنه عند بداية الخليقة كان الملائكة يحملون جميع صخور العالم فى كيس، هذا الكيس انفجر بينما هم يطيرون فوق فلسطين،

ولم يكن هناك لبن أو عسل يتدفق فى الأخدود الرمادى، بل ولا حتى المياه، كذلك كانت أشعة الشمس الحارقة فوق السهل عديم الأشجار من أكبر المفاجآت، وعانى الرجال والخيول كثيراً من نقص الظل، فقد كانت الشمس تسقط أشعتها الحارقة فوق الخوذ المعدنية، وكأنها تشوى رءوس الجنود المترنحة، كما أن معاطف الزرد ساعدت على تقيح الأصابع وظهور بثرات فيها إلى أن تعلم الصليبيون كيفية تغطيتها بأربطة من الكتان. كما كانت أجسامهم فى حاجة للعرق وبخاصة وهى مغطاة فى معظمها بالدروع، ولكن هذا كان مستحيلاً لعدم وجود الماء الكافى والمسبب للعرق، كما أصيب الجنود بكثير من الأمراض الجلدية، والسحجات الناجمة عن ارتداء الدروع، ولدغ كثير من الحشرات الغريبة عليهم.

ولحسن الحظ، أو ربما بتوجيه من العناية الإلهية ، فإن الإتراك كانوا على خلاف مع الخليفة العباسى العربى فى بغداد، وكانت البلاد سيئة الدفاع، فشق الصليبيون طريقهم إلى الجنوب بكل شجاعة، وقاموا بتهديد الحاميات الإسلامية أو استمالتها إليهم، وأخيراً، وفى السابع من شهر يونيو عام ١٠٩٩م عسكر الجيش الصليبى أمام أسوار بيت المقدس، ولندع أحد شهود العيان وهو فولشر الشارترى Foucher de Chartres يروى لنا قصة الهجوم:

"لقد صدرت الأوامر للمهندسين ببناء الآلات التى يمكن تحريكها إلى الأسوار، وبمساعدة الرب تم إنجاز هذه المهمة، وهى منتهى آمالهم.. وبمجرد أن أصبحت الآلات جاهزة للاستعمال، وهى الكباش، وأدوات الحفر، فإنهم أصبحوا مستعدين للهجوم . ومن بين الوسائل الجديدة التى تم استخدامها، أنهم قاموا بتجميع برج مكون من عدة أجزاء صغيرة من الخشب، بسبب نقص الأخشاب الطويلة، وفى الليل، صدرت إليهم الأوامر بحمل تلك الأجزاء الصغيرة التى تم تجهيزها إلى موقع مفضل عند أحد أسوار المدينة، وفى الصباح، وبعد تجهيز المنجنيقات وبعض الأدوات الأخرى غريبة الشكل، أقاموا ذلك البرج سريعاً، وضموا أجزاءه بعضها إلى بعض وثبتوها بالقرب من السور. ومع صوت النفير قام جماعة من الجنود الشجعان بتسلق ذلك

البرج، ومن موقعهم أخذوا يقذفون المدافعين بالحجارة والسهام فى سرعة فائقة. وفى مقابلة الأذى بمثله، فإن المسلمين أخذوا يدافعون عن أنفسهم بإلقاء العديد من القذائف وهى عبارة عن كرات مغموسة فى الزيت والدهن تم إشعالها وإلقاؤها على البرج المذكور وعلى الجنود الموجودين فيه، لهذا فإن كثيراً من الجنود من الطرفين قد لقوا حتفهم.. وفى اليوم التالى دخل الفرنجة المدينة فى منتصف النهار، فى اليوم المخصص للإله فينوس، ومعهم الأبواق ينفخون فيها، والكل فى صخب واضطراب يهاجمون بشجاعة وهم يصرخون بأعلى أصواتهم، ساعدنا يارب ! ».

وبمجرد أن سيطر الصليبيون على المدينة، أخذوا فى ذبح ساكنيها، وفى ذلك يقول مؤرخ القرن الثانى عشر للميلاد ريموند الأجيليرى :

"بعض من رجالنا قاموا بقطع رءوس أعدائهم، والبعض الآخر أطلق عليهم السهام ؛ لدرجة أنهم كانوا يتساقطون من فوق الأبراج ؛ والبعض الآخر قاموا بسحبهم على الأرض لمسافات بعيدة إلى أن ألقوا بهم فى النيران المشتعلة، بحيث كان فى مقدورك أن ترى أكواماً من الجماجم، والأيدى، والأرجل فى شوارع المدينة، بحيث أصبح من المشقة بمكان أن يشق الواحد منا طريقه على جثث الرجال والخيول، ولكن هذا كان شيئًا بسيطًا بالنسبة لما حدث فى معبد سليمان، وهو مكان مخصص لإقامة شعائرهم الدينية، فما الذى حدث هناك؟ لو قلت الحقيقة، فإنها ستفوق قدرتك على الاحتمال والتصديق، لذلك يكفى أن أقول ما يلى على سبيل الإجمال : إنه فى المعبد وفى الرواق الموجود عند مدخل المبنى، فإن رجالنا كانوا يخوضون فى الدماء إلى ركبهم ويكل شموخ حتى الجزء الأدنى من ظهورهم، حقًا إنه حكم عادل ورائع للرب، إن هذا المكان كان يجب أن يمتلئ بدماء غير المؤمنين، لأنه عانى طويلاً من سلوكياتهم التى تنم عن عدم احترامهم للمقدسات".

"الآن وقد تم الاستيلاء على المدينة، فإنه عمل يستحق كل ما قمنا به من جهود سابقة، وما تحملناه من مصاعب، لكى نرى تقوى الحجاج وإخلاصهم نحو القبر

المقدس. كيف أنهم ابتهجوا وتهللوا، وتغنوا بالترنيمة التاسعة للسيد : لقد كان اليوم التاسع.. والموعظة التاسعة، والترنيمة التاسعة، وهى مطلوبة للجميع. هذا اليوم، وكما أقول، سيظل يومًا خالدًا على مر العصور، فهو اليوم الذى تحولت فيه جهودنا وآلامنا إلى فرح وابتهاج.هذا اليوم - وحسبما أقول - علامة فارقة على البراءة الإلهية المسيحية من كل إثم، وإذلال الوثنية ؛ فيه تم تجديد عقيدتنا. لقد أوجد الرب هذا اليوم، وفيه ابتهجنا وتهللنا، وفى هذا اليوم تجلى الرب لشعبه وباركهم ".

وبعد الاستيلاء على المدينة مباشرة، فإن معظم الجيش عاد إلى أوطانه، بعد أن بروا بقسمهم، أما جودفرى البوايونى الذى تم اختياره حاكمًا لبيت المقدس، فقد بقى ومعه حوالى ألف أو ألفين من المشاة، وعدة مئات من الفرسان الخيالة للتحكم فى أرض معادية يقطنها العديد من المسلمين، واليهود، والمسيحيين الهراطقة، وبعض جماعات من أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، كذلك كانت هناك لا تزال بعض الضغائن المكبوتة ونيران الحسد الداخنة من غير لهب. ووفقًا لما قاله المؤرخ الكبير ستيفن رنسيمان من مؤرخى الحروب الصليبية: إن المذبحة التى حدثت فى بيت المقدس شىء لا ينُسى، " **فقد كانت الدليل والبرهان على تعطش المسيحى لسفك الدماء، والتى سببت التعصب الإسلامى".**

ولكى يحكم الصليبيون قبضتهم على تلك البقاع، فقد قاموا بتشييد العديد من القلاع العملاقة الحصينة، والتى لا تزال تملأ نفوسنا بكثير من الرهبة، وشيئًا فشيئًا استطاعوا أن يؤقلموا أنفسهم، فتعلموا اللغة العربية، وارتدوا الثياب الشرقية المريحة، مثل البُرنس، والعباءة، واقتبسوا بعض أنماط السلوك الاجتماعى راسخة الجذور، مثل تخصيص جناح للنساء فى قصورهم "الحريم"، وتزوج بعضهم من زوجات أرمينيات أو من بعض المسيحيات المحليات، وقام على تربية أطفالهم عدد من المربيات العربيات والمعلمون العرب.

وفى بيت المقدس والمدن الساحلية عاش النبلاء فى منازل فخمة، مزودة بالسجاجيد، والستائر دمشقية الصنع، والمناضد المطعمة بالعاج، وأدوات الطعام المصنوعة من الذهب والفضة ؛ وعرفت زوجاتهم استخدام الحجاب بسبب شدة أشعة

الشمس، وقمن باستخدام مساحيق التجميل فى وجوههن، وتعلمن التبختر فى مشيتهن فى موطنهن الجديد فى الشرق. وقبل أن يظهر جيل جديد من المولدين بزمن طويل، وببراعة مثل براعة أهل الصين القديمة والتى ما زالت قائمة، فإنهم أقاموا كثيراً من الصداقات مع أبناء الطبقة الأرستقراطية العربية، وشاركوهم فى رحلات صيدهم، وحضروا مآتبهم ودعوهم إلى حضور احتفالاتهم وأعيادهم، ونظروا إلى الأمور الدينية نظرة كلها بساطة، فيها شىء من التسامح، بل كانوا أكثر تساهلاً وتسامحاً من غيرهم من المسيحيين الغربيين حديثى العهد بالبلاد، فخصصوا أماكن فى كنائسهم ليصلى فيها بعض المسلمين، كما أن المسلمين سمحوا لبعضهم بالتردد على مساجدهم، وقبل كل شىء، فإذا قدر لأحدنا أن يرى الأماكن المقدسة فى أى يوم من تلك الأيام فإنه سوف لا يشعر بأنها غريبة بالنسبة له.

والحفاظ على التمايز الطبقى لدى الصليبيين، فإن عدداً كبيراً من المحاربين الأتقياء من أصول نبيلة ظلوا يتدفقون من أوربا جنبًا إلى جنب بعض القادمين الجدد، وقد كان على الشاب النبيل أيًا كان دافعه لحمل الصليب، أن يجهز أولاً أجرة السفر، غالبًا عن طريق رهن أرضه، أو بالتخلى عن بعض حقوقه الإقطاعية نظير مبلغ من المال، ثم يحضر احتفالاً لوداعه فى الكنيسة الخاصة ببلدته، وأن يودع أصدقاءه وأقاربه وربما إلى الأبد، ذلك لأن الطريق عبر آسيا الصغرى كان قد أصبح محفوفًا بالأخطار، فكان عليه أن يركب إلى مرسيليا أو جنوه، لكى يحصل على مكان على ظهر إحدى السفن، هذا المكان عبارة عن مساحة صغيرة عرضها قدمين وطولها خمسة أقدام على ظهر السفينة، وبذلك كان يضع رأسه عند النوم بين قدمى أحد الحجاج الآخرين، كما كان عليه أن يساوم المسئول عن الطعام فى السفينة لكى يحصل على بعض الطعام، وإن كان عادة يأخذ معه طعامه نزولاً على نصيحة الآخرين، فكان يحمل معه بعض اللحم المملح، والجبن، والبسكويت، وبعض الفواكه المجففة، وبعض مشروب ماء الورد لمنع حدوث الإسهال أو معالجته.

وفى سبيل التقوى والورع، فإن المحاربين الشبان كانوا راغبين فى تقبل حياة العزوبة، وهو سلوك ظهر واضحًا فى فرق الرهبان الفرسان التى شكلت قوة الدفاع

الأساسية فى المملكة فى مواجهة هجوم المسلمين، وقبل الغزو كانت فرقة الرهبان الاسبتارية قد تم تأسيسها، كجماعة متطوعة لخدمة المرضى من الحجاج فى مدينة بيت المقدس، فأقسموا يمين الرهبان، واتخذوا من النظام البندكتى أسلوبًا لحياتهم، متخذين لهم شعاراً وهو صليب مالطة الأبيض، وبعد الغزو غيروا من اسمهم فأصبحوا فرسان القديس يوحنا فى بيت المقدس، ودانوا بالطاعة للبابا وحده، وكان نزلهم يتسع لحوالى ألف من الحجاج، ولأنهم قاموا بحراسة طرق الحجيج، فإن اهتمامهم أصبح حربيًا أكثر فأكثر، وفى القرون المتأخرة غيروا من مسرح عملياتهم، لذلك عرفوا باسم فرسان رودس، وفرسان مالطة. وفى أيامنا الحالية، فإن أخلافهم يشكلون طائفة رومانية كاثوليكية مميزة من الرجال، وفى إنجلترا فرعٌ من البروتستانت، ما زال له مستشفى فى مدينة بيت المقدس.

أما فرسان المعبد أو الداوية، وهم فرسان الصليب الأحمر البواسل، فقد تم تأسيس طائفتهم سنة ١١١٨م، وكان مقرهم الرئيسى فى قبة الصخرة التى اعتقد الصليبيون أنها كانت معبد سليمان، وكان واجبهم الأول هو حماية الطريق إلى بيت المقدس ؛ وسرعان ما انغمس كل من الإسبتارية والداوية فى كل المنازعات التى نشبت بين الصليبيين والعرب، وأصبح دورهم مثل دور الشرطة المتطوعة للخدمة العسكرية، ولم يكن لحكام الإمارات المسيحية أى سلطان عليهم، فكانت لهم قلاعهم الخاصة بهم، ولهم سياستهم الخاصة، بل إنهم وقّعوا كثيراً من المعاهدات الخاصة بهم ؛ وكانوا على خلاف دائم مع غيرهم من الصليبيين، وهكذا كان حالهم مع المسلمين. بل إن بعضهم دخل فى الإسلام، وبعضهم درس الإسلام، والبعض منهم تأثر بنظام التصوف الإسلامى وممارساته، وفى القرن الرابع عشر للميلاد قام فيليب الرابع بالقضاء على طائفة الداوية فى فرنسا طمعًا فى ثرواتها، واليوم فإن الماسونيين الأحرار قد ورثوا اسمهم وطقوسهم الدينية السرية القديمة.

كذلك كانت فرقة التيوتون من فرق الرهبان الفرسان، وكانت عضوية الفرقة قاصرة على النبلاء من الألمان، وهم الذين هجروا الأرض المقدسة سنة ١٢٩١م، وحولوا نشاطهم إلى الأراضى الواقعة شرقى بحر البلطيق، وهناك نشروا المسيحية على نطاق واسع، عن طريق إبادة السلاف الوثنيين، وإحلال الألمان محلهم ممن يخشون الله، أى من المسيحيين.

وبحلول سنة ١١٤٤م كانت الفترة النشطة للغزو الصليبى قد توقفت باستعادة الأتراك كونتية الرها الصليبية، ومن ذلك الحين فصاعداً كان الغربيون فى حالة دفاع عن النفس، فلقد صدمت أوربا أنباء سقوط الرها، وسرعان ما أخذ القديس برنارد الكليرفوى على عاتقة القيام بحملة صليبية جديدة، وهى الحملة الثانية - ففى عيد الفصح سنة ١١٤٦م تجمع عدد من الحجاج فى مدينة ڤيزيلى Vezelay لسماع خطبة برنارد، فأقسم نصف الحاضرين على حمل الصليب، وقاموا بعمل الصلبان من القماش، كما قام القديس بتقديم عباءته وقلنسوته لتقطيعهما وعمل المزيد من الصلبان.

وقرر الملك الفرنسى لويس السابع أن يقود جيشه إلى الأرض المقدسة متأثراً بالقديس برنارد، كما قررت زوجة لويس الملكة إليانور الأكويتانية التوجه معه، وتوجه برنارد إلى ألمانيا ليحث الملك كونراد الثالث على الخروج مع الحملة. وفى طريقهم إلى القسطنطينية، فإن كلاً من الفرنسيين والألمان وجدوا أنفسهم يلقون ترحيباً فاتراً وكأنهم جراد ملعون، فقد أغلقت كل المدن التى مروا بها فى الطريق بواباتها، ولم يقدموا لهم الطعام اللازم إلا عن طريق السلال التى تم إنزالها من فوق الأسوار، وبعد أن دفع رجال الحملة ثمنه نقداً، ولهذا فإن الصليبيين وبوجه خاص الألمان أحرقوا ونهبوا المزارع والقرى غير المحصنة، بل قاموا بمهاجمة الأديرة ؛ وفى القسطنطينية استقبل الإمبراطور الألمان بطريقة شديدة الفتور، ذلك لأنه قد توصل إلى قناعة بأن الحروب الصليبية ما هى إلا مجرد خدعة استعمارية غربية.

وبطريقة أو بأخرى شق الصليبيون طريقهم عبر آسيا الصغرى، متكبدين خسائر جسيمة، على الرغم من أن الجيوش وملوكها كانوا معادين لبعضهم البعض، إلا أنهم اتحدوا لمهاجمة دمشق، إلا أن الهجوم لم يقدر له النجاح، وأثناء الانسحاب تم تدمير معظم الجيوش الصليبية، فترك الملوك الأرض المقدسة فى حالة تثير الاشمئزاز، معترفين بأن الحرب الصليبية ما هى إلا إخفاق تام. والوحيدة التى أقدمت على عمل أفضل شيء أثناء الرحلة هى الملكة إليانور، فقد أقامت علاقة مريبة مع عمها الشاب، ريموند الثانى، أمير أنطاكية.

واستمر المسلمون في تقليص الكيان الصليبي، إلى أن كانت سنة ١١٨٧م فاستعادوا مدينة بيت المقدس، ورفض قائدهم العام "صلاح الدين" أن يرد على ما سبق واقترفه الصليبيون من مذابح في سكان المدينة، بل أطلق سراح أسراهم بعد دفعهم الفدية، وأوصلهم مخفرين إلى الأماكن التي كانت في حوزة الصليبيين، كما أن أخبار سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين ألهبت حماس الناس في أوربا لشن حملة صليبية جديدة، وهي الحملة الثالثة بقيادة فيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا الذي لقي حتفه أثناء عبوره أحد الأنهار في طريقه إلى الأرض المقدسة.

ومن المعروف أن الشعوب التي تكون في حالة حرب عادة ما يكون لها خصم نبيل، ففي الحرب العالمية الأولى، كان هو الكونت فون لكنر Count von Luckner، وفي الحرب العالمية الثانية كان هو الجنرال روميل General Rommel، أما بالنسبة للصليبيين فقد كان صلاح الدين هو العدو النبيل : فعندما هاجم حصن الكرك أثناء حفل زواج وريثة إقطاع ما وراء نهر الأردن، فإن أم العروس أرسلت له بعض الحلوى ورسالة تذكره فيها أنه كان قد حملها بين ذراعيه وهي طفلة. فسأل صلاح الدين عن البرج الذي سوف يعيش فيه العروسان، وقام بتأمينه عندما هاجم بقية القلعة. لقد كان صلاح الدين مغرماً بالدعابة، فغرس قطعة من خشب صليب الصلبوت عند عتبة خيمته، بحيث يطأها كل من يأتي لرؤيته ؛ وذات يوم قبض على بعض الرهبان السكارى من الحجاج المسيحيين، فأمر بأن يناموا في غرفة بها بعض النساء الداعرات، وبذلك دفعوا ثمناً غالياً لغوايتهم ووقوعهم في شباك الشيطان.

وفي إحدى معاركه ضد ريتشارد قلب الأسد رأى صلاح الدين حصان ريتشارد وهو يسقط ميتاً، فأرسل له سائس خيل ومعه فرَسَان، وخسر المعركة، وعندما أصيب ريتشارد بالحمى، كان صلاح الدين يرسل له الخوخ والثلج من جبل الجليل، وأراد ريتشارد أن يتفوق عليه في الكرم بعرض زواج أخته من أخي صلاح الدين، على أن يتسلم الزوجان مدينة بيت المقدس كهدية زواج لهما، وربما كان هذا حلاً سعيداً لو قدر له النجاح.

وعلى الرغم من أن ريتشارد استطاع الاستيلاء على عكا سنة ١١٩١م باستخدامه لمنجنيق عملاق يدعى "جار السوء"، وهو إحدى قانفات الكتل الحجرية، أو إحدى القاذفات الإلهية، وباستخدام كذلك السلم ذى الكلابات المسمى بالقط"، فإنه لم يستطع استعادة مدينة بيت المقدس، لذا كان عليه أن يقنع بالمفاوضات والاتفاق على الصلح الذى فتح الطريق لزيارة الحجاج المسيحيين لبيت المقدس. كما أن الحملة الصليبية الثالثة تعتبر علامة بارزة للفشل الأخلاقى، فقد انتهت بالتفاهم مع المسلمين، والشقاق بين صفوف الصليبية. كما أن البابوات فقدوا هيمنتهم على مغامراتهم ومشاريعهم، لدرجة أنهم لم يستطيعوا أن ينقذوا بطلهم وهو ريتشارد قلب الأسد من السجن، عندما وقع أسيراً فى أيدى دوق النمسا الذى رد له الإهانة التى لحقت به من ريتشارد أثناء حملته الصليبية. كما أن المثالية والتضحية بالنفس من أجل هدف نبيل أصبحت نادرة، وأن معظم من تم تجنيدهم للذهاب إلى الأرض المقدسة كانوا قبل أى شىء يبحثون عن مغانم سريعة، واتهم الناس جامعى الضرائب من أجل حملة صليبية جديدة، والبابا نفسه، بإنفاق تلك الأموال فى أغراض أخرى.

وفى سنة ١١٩٨ اعتلى إنوسنت الثالث العرش البابوى ووافق على قيام حملة صليبية وهى الحملة الرابعة التى تبعث على الأسى، حيث تعاقد ممثلوها مع البنادقة على نقل الحملة إلى الأرض المقدسة والمكونة من حوالى ٣٠,٠٠٠ من الرجال، و ٤,٥٠٠ من الخيول و على أية حال، فإنه فى اليوم المحدد للتحميل دفع المشاركون حوالى نصف أجرة الحمولة فقط، ولأن البنادقة كانوا دائمًا رجال مال وتجارة. فقد تقدموا بحل للصليبيين، وهو لو أن الصليبيين استطاعوا الاستيلاء على مدينة زارا Zara المنافسة لهم تجارياً فى إقليم دالماشيا التى وصفها البنادقة بأنها وكر للقراصنة، فإن البنادقة بدورهم سيقومون بنقلهم إلى الأرض المقدسة بمبلغ أقل..

وتم لهم الاستيلاء على زارا بكل جدارة، مما أفزع البابا إنوسنت، ذلك لأن زارا هى إحدى المدن الكاثوليكية، كما أن حاكمها الأعلى هو أحد أفصال الكرسى الرسولى أو البابوى. وهذه أول سابقة لشن حرب صليبية ضد قوة مسيحية، واقتنع القادة بتشجيع من البنادقة، على خلع الإمبراطور البيزنطى اسحق أنجيلوس، وسجنه وسمل عينيه. لأنهم لو فكروا فى إعادته إلى العرش، فسوف يرتكبون خطأ جسيمًا، لأنهم

سيعيدون الكنيسة الشرقية إلى أحضان الكنيسة الرومانية، وحتى يتلقوا من البيزنطيين - ممن هم تحت حمايتهم - الأموال والرجال للغزو المرتقب لمصر، وتم إقناع البابا بأن ينظر للموضوع بنوع من التعاطف، وتوجهت سفن الحملة الرابعة إلى القسطنطينية.

وتم الاستيلاء على المدينة بالقوة فى ١٢ أبريل سنة ١٢٠٤م، وتعد الأيام الثلاثة التالية للاستيلاء عليها من الأيام التى لا تنسى فى تاريخ السلب والنهب، فتحت تأثير النبيذ البيزنطى القوى قام الفرنجة والفلمنكيون بكثير من عمليات السلب والنهب، لدرجة أن ما دمروه فاق كثيراً ما استطاعوا حمله، كما أنهم لم يستثنوا من إغاراتهم حتى الأديرة، أو الكنائس، أو المكتبات. وفى كنيسة القديسة صوفيا شربوا فى الآنية المخصصة للمذبح، بينما قام أحد الداعرين بالجلوس على كرسى البطريرك، وأخذ يتغنى بإحدى أغانى جنود الجيش الفرنسى البذيئة، ونظروا إلى الإمبراطور على أنه مغتصب للعرش، وتم أخذه إلى قمة أحد الأعمدة الرخامية، حيث تم دفعه ليلقى حتفه على مرأى من الناس.

بعد ذلك تم تقسيم الغنيمة الفعلية، وهى الإمبراطورية الشرقية، فحصلت البندقية إلى حد ما على معظم أجزائها، وهى بعض الجزر الواقعة فى البحر الإيجى، والمدن الساحلية فى بلاد اليونان، وفى البلدان الآسيوية. وأصبح الفرنجة دوقات وأمراء مناطق شاسعة فى بلاد اليونان ومقدونيا، حيث فى إمكان أى واحد منا أن يرى قلاعهم الضخمة شامخة تتحدى الزمن. كما قام المندوب البابوى الذى صاحب الحملة بإحلال كل من حمل الصليب من تبعة القسم على مواصلة السير إلى الأرض المقدسة. وعلى هذا فإن الحملة الصليبية الرابعة لم تقدم أى عون للصليبيين فى فلسطين، بل على العكس، إن كثيراً من الفرسان غادروا الأرض المقدسة إلى القسطنطينية ليحصلوا على نصيب من توزيع الأرض والشهرة. **"ولم يحدث أن كانت هناك جريمة ضد البشرية أكبر مما حدث فى الحملة الصليبية الرابعة"**، هكذا يقول ستيفن رانسيمان. فلقد حطمت كنوز الماضى، وأطاحت بحضارة أوربا الأكثر تقدماً، وبعيداً عن توحيد العالمين الشرقى والغربى المسيحيين، فقد زرعت فى نفوس الإغريق الحقد الدفين نحو الغرب، والذى لم يقدر له أبداً أن يختفى، كما أنها أضعفت وسائل الدفاع البيزنطية فى مواجهة قوة الأتراك العثمانيين المتنامية، بحيث إنها استسلمت لهم صاغرة فى النهاية.

وبعد عدة سنوات قليلة أخذت الروح الصليبية تطفو على سطح الأحداث على نحو ساخر، حيث قام بالدعوة اثنان من الأطفال فى سن الثانية عشرة، أحدهما يدعى ستيفن فى فرنسا، والآخر يدعى نيقولا من ألمانيا للقيام بحملة صليبية للأطفال، مبشرين من يتبعهم بأن الملائكة سوف تقود ركبهم، وأن البحر سوف ينشق أمامهم، فانضم آلاف من الصبية والبنات لتلك الحملة، ومعهم بعض رجال الدين، وبعض المتشردين، وبعض الداعرين، وانتشرت كثير من المزاعم بأن أسرابًا من الطيور والفراشات صاحبت تلك الجماعات فى انطلاقها نحو الجنوب عبر الجبال نحو البحر، هذا البحر الذى لم ينشق أبدًا ليسمح لهم بالعبور، وأمر إنوسنت الثالث الوفد المفوض منهم بالرجوع إلى أوطانهم حتى يكبروا.

ويبدو أن بعض الألمان قد أفلحوا فى الوصول إلى فلسطين حيث اختفوا، أما المجموعة الفرنسية فقد وقعت فى أيدى اثنين ليسا من الملائكة، ولكنهما من أقذر الأوغاد فى التاريخ، وهما هيو الحديدى Hugh the Iron، ووليام الكبير William the big، وهما من أصحاب السفن فى مرسيليا، واللذين عرضا على هؤلاء الصغار أن يقوما بنقلهم إلى الأرض المقدسة مجانًا، ولكنهما حملاهم إلى مدينة بواجيه Bougie فى شمال أفريقيا وباعوهم كعبيد للتجار المسلمين.

أما القصة المحزنة للحروب الصليبية المتأخرة فيمكن روايتها بشيء من الاختصار. فلعدم القدرة على استعادة مدينة بيت المقدس، فإن مخططى الحروب الصليبية حاولوا الاستيلاء على مصر، كإحدى أكبر وأهم القواعد للقوة الإسلامية، وفى سنة ١٢١٩م، وبعد حصار دام سنة ونصف السنة استطاعت الحملة أن تستولى على مدينة دمياط الواقعة على أحد مصبىّ نهر النيل، إلا أن الصليبيين لم يستطيعوا المحافظة على تلك المدينة، ومرة أخرى فى سنة ١٢٤٩م، فإن القديس لويس قام بغزو مصر، على أمل الاستيلاء عليها مرة ثانية، إلا أنه لم يقدر له النجاح.

كذلك كانت هناك عدة محاولات للاستيلاء على مدينة بيت المقدس بعد أن استعادها المسلمون، فالإمبراطور فردريك الثانى قاد حملة مضحكة سنة ١٢٢٨، والتى تعتبر نزهة حربية أكثر منها حملة صليبية. فطبيعة العصر قد تغيرت بحيث أصبحت

ملائمة لكل شخص لأن يستغل الوضع الراهن، فالمسلمون كانوا مهددين من المغول شرقًا تحت زعامة جنكيزخان ومَنْ خلفه منْ سلالته، ولم يعودوا يريدون أية حرب - ولو كانت بسيطة - في فلسطين. وبالنسبة للمستوطنين من الصليبيين فقد انغمسوا في تجارة الاستيراد والتصدير المزدهرة في البضائع الشرقية، والبضائع التي تحضرها قوافل الجمال إلى الموانئ الساحلية ليتم نقلها إلى أوربا بالسفن، وكان لديهم ما يكفيهم من معاناة ممن حضروا حديثًا من الغرب ليشنوا بعض المعارك غير المجدية، أو يرتكبوا كثيراً من الحماقات، ويفسدون السلام القائم، ثم يعودون إلى أوطانهم، ويتركون المستوطنين القدامى ليحملوا تبعة أعمالهم تلك.

لقد تضاءلت الممتلكات الصليبية في الشرق على الرغم من وجود الرغبة في البقاء، والحماس الشديد لذلك، والرغبة في وصول متطوعين جدد، والرغبة في أن يكون لهم هدف نبيل، فسقطت أنطاكية سنة ١٢٦٨م، وسقط حصن الكرك الخاص بجماعة الاسبتارية سنة ١٢٧١م، وفي سنة ١٢٩١م سقط أكبر معقل للصليبيين وهو مدينة عكا، واستعاد المسلمون كل ممتلكاتهم، وكان مصير الحروب الصليبية هو الفشل الذريع.

فلماذا كانت هذه النهاية، وما الأخطاء ؟ لقد كان هناك فشل أخلاقي واضح، كما كان هناك فشل لدى المؤسسة العسكرية وتوجهاتها، فلم يكن البابوات هم القادة العسكريون، كما أن الجيوش المتحالفة كانت منقسمة على نفسها بسبب النزاعات، ولم تكن هناك وحدة في القيادة أو وحدة في الاستراتيجية الخاصة بالإمارات الصليبية المتنافسة فيما بينها في فلسطين وسورية. كما أن الإمكانات العسكرية المتاحة لم تكن على درجة من الكفاءة للاحتفاظ بما تحقق من الغزو، إلى جانب البعد الكبير عن القواعد الأوربية، فضلاً عن أن مشكلات التموين والإمداد كانت رهيبة، كما أن الجيوش عانت من كثرة قوادها، ذلك لأن الحروب الصليبية كانت لعبة النبلاء، أما الناس البسطاء فقد توقفوا عن التطوع، كذلك كانت هناك خسائر هائلة سببتها الأمراض، مثل الملاريا، والدوسنتريا، وغيرها من أمراض الشرق غير المعروفة.

وكما ذكر المؤرخ هنري بيرن، فإن الحروب الصليبية لم تتوافق مع أي هدف دنيوي، فلم تكن أوربا في حاجة إلى بيت المقدس وسورية، وكل ما كانت تحتاجه أكثر إمبراطورية شرقية قوية تقف كالحصن في مواجهة المعتدين من الأتراك والمغول، وهذه

الإمبراطورية قد دمرها الصليبيون بسيوفهم، أما فى أسبانيا، فإن الروح الصليبية كانت ناجحة، لأنها تواءمت مع حاجة سياسية.

وإنه لسهل حقًا علينا أن نرى أن الحماس الباكر للصليبيين كان مبنيًا على الخداع، فمنذ وقت مبكر كانت قد تمت صياغة أسلوب مميز، أو لغة مميزة للحروب الصليبية كنوع من الضمان لاستمرارية الحماس لهذه الحروب، هذا إلى جانب أن سلوك المتطوعين المتأخرين قد تغير تمامًا، فكثير من الناس ذهبوا إلى الشرق للهروب مما عليهم من ديون، هذا فضلاً عن أن القضاة منحوا المجرمين فرصة الاختيار ما بين السجن أو حمل الصليب. وبعد هزيمة القديس لويس سنة ١٢٥٠م، فإن دعاة الحروب الصليبية لقوا الكثير من الإهانات، وعندما كان الرهبان الفقراء أو الجوالون يسألون الناس دفع الزكاة، فإن الناس كانوا يعتبرونهم مجرد شحاذين يدفعون لهم القليل من المال ليس تحت اسم المسيح، الذى لم يحمِ شعبه، ولكن باسم محمد الذى أثبت أنه هو الأقوى..

وحوالى سنة ١٢٧٠م كتب أحد رؤساء طائفة الدومينيكان سابقًا يقول : إن القليلين جداً من الناس هم الذين مازالوا يؤمنون بالمكافأة الروحية التى أعدت لمن يشارك فى الحروب الصليبية. كذلك قام أحد الرهبان الفرنسيين بمخاطبة الرب مباشرة قائلاً : "**إنه لأحمق حقًا من يتبعك فى المعركة** ". كما أن شعراء التروبادور والمنيسنجرز سخروا من الكنيسة، وهذا هو والتر دير فوجل وايد Walter von der Vogelweide يسمِّى البابا يهوذا الإسخريوطى الجديد، كما كانت هناك حركة مضادة للحروب الصليبية فى كل من فرنسا وألمانيا، حيث دعا رئيس كاتدرائية باسو Passau وجماعة رجال الدين الملحقين بها إلى شن حرب صليبية ضد المندوب البابوى، وفى مدينة رينسبورج Regensburg فإن أى شخص كان يرى وهو يرتدى صليب الحرب الصليبية تتم إدانته ويحكم عليه بالموت . كما ظهرت جماعة تدعو للسلام كان على رأسها الفرانسيسكان الروحانيون، وكانوا يصرخون قائلين : "لا تقتلوا الوثنيين، ولكن حولوهم إلى المسيحية". وفى البداية فإن الحروب الصليبية أدت إلى تقوية الكنيسة، ولكن فى النهاية، فإن رعاية البابوية لتلك الحروب أدت إلى تقويض نفوذها الدينى.

وعن آثار الحروب الصليبية بالنسبة للعلمانيين فإنها كانت متنوعة، من ذلك أن الشباب المشاغب كان يتم شحنه إلى الأرض المقدسة، حتى لا يفسدوا الأمن والسلام فى مواطنهم، كذلك استفادت الطبقة الوسطى الصاعدة عن طريق إقراضها الأموال للصليبيين، وبيع السلع الضرورية لهم، واستطاع كثيرون من الفلاحين والعبيد الحصول على حرياتهم من أسيادهم نظير دفعهم بعض المبالغ، وهم الذين كانوا فى حاجة إلى سيولة نقدية للسفر، وانخرط كثير من هؤلاء الفلاحين والعبيد فى عديد من الحرف فى المدن الجديدة.

ومما لا شك فيه أن الحروب الصليبية تزامنت نوعًا ما مع اكتشاف الغرب للشرق، فالتجار، ومن أشهرهم ماركو بولو، شقوا طريقهم إلى الإمبراطورية المغولية فى الشرق الأقصى، وأقاموا علاقات تجارية كبيرة شهدت تدفق المتاجر بين الطرفين براً وبحراً، بحيث غدت منتجات الشرق مألوفة أكثر فى الغرب الأوربى، مثل الأرز، والسكر، والسمسم، والليمون، والبطيخ، والمشمش، والسبانخ، والخرشوف. كذلك ازدهرت تجارة التوابل، وعرف الغرب أهمية القرنفل، والزنجبيل، وتم استيراد كثير من أنواع العطور الفاخرة. كما لقيت الأقمشة الشرقية قبولاً هائلاً وسوقًا رائجة، مثل قماش الموسلين، والقطن، والستان، والحرير الدمشقى، وكذلك الأكلمة والسجاجيد، هذا إلى جانب أن الغرب الأوربى تعرف على كثير من الألوان والصبغات الجديدة، مثل صبغ النيلة، واللون القرمزى، واللون الأرجوانى الفاتح، واستخدام الغرب الأرقام العربية بدلاً من الأرقام الرومانية، وحتى المسبحة يقال إنها جاءت إلى أوربا المسيحية عن طريق بلاد الشام.

لقد بعثت الحروب الصليبية روحًا جديدة فى الاقتصاد الأوربى، وأصبحت التجارة من أهم الأعمال، وتطورت الأعمال المصرفية والبنوك، ووسائل الاقتراض أثناء تلك الفترة، واتسع أفق الخيال الأوربى، مما أعطى دفعة قوية للأدب الشعبى، والشعر الملحمى، والقصص التاريخى، والسير الذاتية، كما أن المثل العليا للبطولة وإن كان قد أسىء استعمالها، فقد استحوذت على خيال الغرب الأوربى، ولا تزال، مثل التضحية بالنفس من أجل هدف مقدس.

الفصل الرابع

حيـــاة النبـــــلاء

إن مـصطلح "الإقطاع "يعد واحـداً من المصطلحـات التى أخـذت كـثـيـراً من التفسيرات، لدرجة أن المعنى الأصلى أصبح غامضًا . وفى أيامنا هذه فإن أية حكومة مستبدة، كما أن أصحاب الأملاك الجشعين، بل وحتى المستغلين من أصحاب الأعمال عادة ما يطلق على الواحد منهم لفظ "إقطاعى" كطريقة لعدم استحسان سلوكه، وهذا يعد نوعًا من الظلم بالنسبة للإقطاع. كذلك فإن كلمة " إقطاع " غالبًا ما تتعارض مع مصطلح « نظام الضيعة » الذى يربط الفلاحين بالأرض التى يعملون عليها، وفى بعض الأحيان فإنه يستخدم للدلالة على كل نظم الحكم الأوربية فى العصور الوسطى. وهذا غـيـر حـقـيـقى، إذ أن هناك أجـزاء من أوربا لم تعـرف النظام الإقطاعى، أمـثـال اسكندنافيا، وأيرلندا، وفى إيطاليا فقد كان النظام الإقطاعى متداخلاً مع عدة نظم سياسية أخرى. ومن جهة أخرى فإن اليابان قامت بتطوير نظام يمكن أن يطلق عليه النظام الإقطاعى.

فالإقطاع هو نظام شامل لعدة أنظمة تحكم المجتمع، وهو يوضح أو يحدد موقف الفرد وعلاقته بمن هو أعلى منه، وبمن هو أدنى منه، ويتضمن نظامًا اقتصاديًا يعتمد أساسًا على الأرض الزراعية. وبوجه عام فإن حقوق الإنسان أو امتيازاته هى استجابة لامتيازاته الاجتماعية، أو هو مشروع لمؤسسة سياسية، تعتمد من الناحية القانونية على التمايز الموجود داخل المؤسسة الاجتماعية والاقتصادية. وفى إقطاع العصور الوسطى فإن السيد الأعلى كان – من الناحية النظرية – اجتماعيًا، واقتصاديًا،

وسياسياً هو صاحب المكانة الرفيعة، ثم إنه قام بتوزيع جزء من حقوقه على أفصاله، وعلى رفاقه من النبلاء، ومن يخدمونه. هذه الحقوق التى منحها لهم أخذت شكل قاعدة فى كل وحدة من الأرض، وهى الإقطاع. وحدث نوع من تبادل المنفعة، فقد قدم اللورد الحماية وسبل الإعاشة، فى الوقت الذى قدم الفصل وعداً بالمساعدات العسكرية لسيده اللورد.

وعلى هذا، فإن الإقطاع كان نظامًا حربيًا، وسياسيًا، واجتماعيًا، واقتصاديًا، ونظامًا قضائيًا انبثق منذ أيام المجتمع الكارولنجى. هذا النظام كان مناسبًا لعصر كانت فيه وسائل الاتصال صعبة للغاية، وعندما كان المجتمع يدار من خلال العلاقات الشخصية أكثر منه من خلال التوافق وندرة النقود التى تحول دون دفع رواتب للموظفين فى الحكومة. كما أن نظام الإقطاع هو نظام للحقوق والواجبات، وأكثر من ذلك، فقد كان طريقة للحياة لها نظمها.

وكنظام للحكم، فإن الاقطاع كان بسيطًا ومعقولاً. حيث احتفظ الملك بجزء من ممتلكاته على شكل مساحة من الأرض الزراعية، تزرع لحسابه ويعتمد عليها فى إعالته، وما يتبقى بعد ذلك فإنه يقوم بتوزيعه على رفاقه المخلصين على هيئة إقطاعات، وبذلك يدينون له بالولاء والتبعية. ومن الناحية النظرية فإن هذه الاقطاعات يمكن إلغاؤها أو إبطالها، كما يمكن للملك أن يستعيدها فى حالة وفاة الحائز عليها، ولكن من الناحية الواقعية فلم يكن الملك من القوة بحيث يستعيد تلك الهبة التى منحها فى يوم من الأيام، وبذلك أصبحت الإقطاعات وراثية فى أيدى الحائزين عليها. وفى مقابل قطعة الأرض الزراعية غدا النبيل أحد أفصال سيده اللورد، يقدم له بعض الخدمات، وبوجه خاص تقديم عدد من الفرسان المسلحين فى الحروب التى يخوضها هذا السيد. كما أن النبيل، كان بدوره فصلاً للملك، والذى كان بدوره يمنح قطعًا من الأرض لأفصاله الأصغر نظير ما يقدمونه من خدمات، وهكذا كان النظام الإقطاعى.

واللورد الإقطاعى عادة ما كان مسئولاً عن تحقيق العدالة فى إقطاعه، باستثناء الحالات التى كان من حق الملك التدخل فيها. كما كان يقوم بجمع ضريبة الرأس وغيرها من الضرائب، وكان عليه أن يهتم بالطرق وتمهيدها، وإقامة الجسور والقناطر،

ووسـائل الدفـاع، وحـماية الفقـراء، والأيتام، والأرامل. وكـان اللورد وأفـصـاله يشكلون الطبقة النبيلة في المجتمع، وهي الطبقة المميزة عن جموع الفلاحين وطبقة رجال الدين وسكان المدن، هذا على الرغم من أن هذا التمـايز لم يقـدر له أن يصـبح تامًـا إلا في القرن الثاني عشر للميلاد. وكـان النبـلاء هم رجـال الحرب الذين انحدروا من سلالة المحاربين كذلك، وكانوا فخورين بأنهم أفصال، وكلمة " فصل " عادة ما ينظر إليها على أنها مشوبة بنوع من الانتقاص. وإن كان معظمنا اليوم من الموظفين أو سيكون منهم، ومع هذا ليس من حق أي واحد من الموظفين أن ينظر لنفسه على أنه فصل لأحد.

إن التعـاقد الإقطاعي كان مـعتمداً كلية على الأرض الزراعـية، ذلك لأن الأرض الزراعية كانت في الأزمنة الماضية هي الأسـاس الوحيد للدخل أو رأس المال. وفي ذلك يقول القانون الفرنسي : "لا يوجد لورد بلا أرض، ولا توجد أرض بلا أحد اللوردات"، ومع هذا فالإقطاع كان أكثر من الأرض الزراعية، فهو يعبر عن حقوق الفصل وواجباته الكاملة ؛ كمـا أن الرابطة التي تجمع بين اللورد والفـصل كان يتم التـأكيـد عليهـا في الاحتفالية الخاصـة بالبيـعة(*) فيركع الفصل أمـام سيده ويمد إليه يديه بحيث تلمسان يدى السيد، ويقول بصوت مسموع : "سيدى اللورد، إنني من الآن أحد رجالك ثم يقسم يمين الولاء، ويقـوم اللورد بمسـاعـدة الفـصل على النـهـوض، ثم يمنحـه قـبلة في ذلك الاحتفـال، ومنذ هـذه اللحظة فإن على الفصل أن يحب مـا يحب سيـده اللورد، ويكره ما يكرهه، وألا يسيء إلى سيده بالقول أو بالفعل".

وعلى الفصل أن يقدم لسيده اللورد عدة التزامات بالإضافة إلى تقديمه عدداً من الفرسان المسلحين. فعليه أن يحضر إلى محكمـة السيد عندما يطلب إليه الحضـور، وبخاصة في حالة رفع قضية على أحد الأفصال، ذلك لأن كل واحد من الأفصال كان له الحق في أن يرفع شكواه إلى مـحكمـة من رفـاقـه الأفـصـال، وفي حـالة تعذر وصـول القضـاة إلى قرار، فإنه كان يتم اللجوء إلى حكم الرب عن طريق القتـال. ووفقًا لتقاليد القرن الثالث عشـر الرومـانيـة فـإن المدعِي والمدعَى عليه، أو أنصـارهمـا يلتـقيـان عند

(*) البيعة : حفلة يعلن فيها المرء أنه من أتباع أمير إقطاعي، أو تعلن فيه العلاقة بين الأمير الإقطاعي وتابعه. [المترجم].

الظهيرة، عما يرتديان سترات طويلة مبطنة بلا أكمام، والخوذ الحديدية، ويحملان الهراوات، ويقسم كل منهما بأنه لا يحمل تعويذة، أو أنه شرب جرعة سحرية، وأنه لن يستعين بالجان. ويتقاتل المتنافسان طوال فترة ما بعد الظهيرة، فإذا حدث أن المدعى عليه لم يهزم بحلول الليل، فتتم تبرئته، أما إذا خارت قواه، أو أجبر على أن يصرخ بأعلى صوته قائلاً : "أنا جبان" فعندئذ يتم شنقه. "وكما حدث مؤخراً سنة ١٨١٨م، فإن شاباً إنجليزياً توسل طالباً المبارزة القانونية، إلا أنه سرعان ما تم تنفيذ القانون بعد ذلك بسنة".

كما كان على الفصل أن يستضيف سيده اللورد وحاشيته الكبيرة، ويقدم لهم الطعام المناسب، إلى جانب أنه كان مطالبًا بتقديم بعض المساعدات أو الإعانات. فعند تولى أحد الأمراء إقطاع أبيه، فقد كان مطلوباً من الفصل أن يقدم لهذا اللورد جزءاً من عائداته عن أول سنة يتولاها هذا السيد الجديد. ومن حق اللورد أن يختار زوجاً جديداً لأرملة الفصل، كما كان يعتبر الوصى، والمشرف على القاصر الذى يرث إقطاعاً. كذلك كان يحصل على بعض المساعدات المالية من أفصاله عند قيامه بتزويج إحدى بناته، وعند تدشين ابنه الأكبر فارساً، أو عندما يقع أسيراً فعليهم جمع المال لاطلاق سراح سيدهم. والحقيقة إن بعض الالتزامات الإقطاعية كانت غريبة – فقد كان مطلوبا من أحد الأفصال فى مدينة "كنت " أن يحافظ على رأس الملك عندما يعبر بحر الشمال، والأكثر من ذلك غرابة هو حالة أحد الأفصال والذى كان عليه فى كل عيد من أعياد الميلاد Christmas أن يقدم عدة قفزات، ويصفّر، وأن يقوم ببعض الألعاب النارية ذات الأصوات المسموعة بوضوح.

ولقد تم إجراء تفرقة بين النظام الإقطاعى بما فيه تحديد العلاقة بين اللورد والفصل، والنظام السنيورى أو نظام الضيعة، بما فيه من علاقات بين الأفصال وغير الأفصال، والمستأجرين لأرض الضيعة. وبوجه عام فإن الضيعة كانت تشتمل على القرية والأراضى التى تحيط بها، هذه الوحدة الزراعية أقدم من الوحدة العسكرية، أو الإقطاعية. ومن الناحية النظرية هى وحدة مكتفية بذاتها، ولكنها فى أحلك الأوقات فى العصور الوسطى المظلمة كانت تحتاج لبعض الواردات، مثل الملح، وأحجار الرحى

أو بعض المعادن لاستخدامها في صناعة بعض الأدوات والأسلحة. وكان من يعملون فيها من عمال مرتبطين بالأرض كأتباع للسنيور، أو اللورد صاحب الضيعة، كما كانوا يحصلون على حصة من الأرض الزراعية يزرعونها لحسابهم نظير تقديم جزء من الإنتاج. ومثل هذا النظام من المقاسمة مازال قائماً في الجنوب الأمريكي.

واحتفظ السنيور لنفسه بأهم جزء من الأراضي في الضيعة، وكان مطلوباً من الفلاحين أن يعملوا في هذه الأرض الخاصة به عادةً يومين أو ثلاثة في الأسبوع، أما بقية أيام الأسبوع فكانوا يفلحون الأراضي التي كانت في حوزتهم، نظير تقديمهم لعدد لا يحصى من الالتزامات، حسبما جرت العادة بذلك منذ القدم، وفي ذلك يقول المؤرخ مارك بلوخ Marc Bloch :

"وفي أيام بعينها كان على المستأجر أن يقدم إلى كاتب السيد بعض القطع النقدية من الفضة، والكثير من حزم القمح التي جمعها من حقوله، والدجاج من الحظائر الموجودة في أرضه، وأقراص الشمع وبها العسل من مناحله أو من بيوت النحل الموجودة في الغابات المجاورة ؛ وفي الأوقات الأخرى كان عليه أن يعمل في البساتين الخاصة بالسيد أو المراعي التابعة له. وفي بعض الأوقات نراه يقوم بتحميل براميل النبيذ المصنوعة من الخشب، أو أجولة القمح لحساب سيده إلى مسكن السيد البعيد. كذلك كان من ضمن عمله ترميم وإصلاح أسوار القلعة، وإعادة حفر الخندق المائي الذي يحيط بالقلعة. وإذا حدث وأتى إلى السيد بعض الضيوف، فقد كان يتحتم على الفلاح أن يقوم بتقطيع فراشه ليقدم الملاءات الزائدة والضرورية لضيوف سيده، وعندما يحين موسم الصيد، فإنه يصبح في مقدوره أن يتناول بعض ما يتبقى على مائدة السيد من لحوم الصيد، وعندما تندلع الحرب، فإنه يقدم خدماته كجندي من المشاة، أو كأحد الجنود النظاميين، تحت قيادة الموظف الإداري للقرية".

كذلك استحوذ اللورد على بعض الاحتكارات ذات الأهمية، فهو وحده الذي يملك طاحونة القمح، ومعصرة النبيذ، والفرن الذي يتم فيه إعداد الخبز، وبرج الحمام. وعادة ما قد كانت امتيازاته متعددة وبشكل يثير الغضب، مثل فرضه ضريبة كبيرة على

النساء غير الأحرار لمارستهن الفجور والفسق. "إذ يعتبرها ملكًا له، وكل من يمارس الفسق معها فعليه أن يدفع له مبلغًا نظير ذلك". كما كان هناك مكان لحفظ جثث الموتى ريثما يتم دفنها، وعندما يموت أحد العبيد، فإن اللورد صاحب الضيعة لكي يصرح بدفنه كان يحصل على أفضل حيوان لدى هذا العبد، وإن لم يكن لديه حيوانات، فإنه يحصل على أفضل ملابسه، أو مرجل من النحاس، أو الفراش الذى مات عليه. وفى هذا الصدد يسجل لنا العالم الموسوعى ج.ج كولتون G.G. Coulton تقريرًا غريبًا عن إحدى الحالات لمكان معد لحفظ جثث الموتى، فيقول :

"فى أواخر القرن التاسع عشر الميلاد قام اللورد روتشيلد بشراء ضيعة من ضمن أراضيها قطعة أرض تم امتلاكها عن طريق نظام الالتزام الكلية الجديدة فى أوكسفورد Oxford. لذلك فإن المراقب ورفاقه، كانوا يعتبرون أسياده، وكان عليه أن يحرر الإقطاعية بكل السرعة الممكنة، خشية أنه فى حالة موته، أن يقوم هؤلاء الأسياد بادعاء حقهم فى أفضل حيوان لديه، وهو ادعاء يساوى أكثر من عشرين ألفًا من الجنيهات أو أكثر".

وإن كانت بعض المواصفات التى أوردها العالم الشهير كولتون مثيرة للدهشة، حيث يذكر أن "الدجاجة التى كان يحصل عليها اللورد نظير ضريبة العُشر عن الدجاج، كان اللورد يرفضها ويعتبرها مريضة إذا لم تستطع أن تجرى فى كل أنحاء الحديقة وهى فى حالة ذعر، أو أن تقفز أعلى الحمامة التى تستخدم لجر غيرها إلى شرك. وأن الطحان يجب ألا يملأ خزان المياه لآخره حتى لا يمنع أية نحلة من أن تقف على حافة الخزان لتشرب دون أن تبتل أجنحتها".

"كما أن الأشجار المتساقطة فى الغابات الخاصة بأحد الكونتات الألمان يجب أن يتم تخزينها بشكل يسهل معه على أى أرنب برى أن يجرى من خلالها وأذناه مرفوعتين، وأن أى عبد يرغب فى الزواج من إحدى النساء من الرقيق فى ضيعة محددة، يجب عليه أن يقدم للورد تعويضًا عبارة عن قِدر كبير من النحاس، هذا القدر يجب أن يكون ذا سعة كبيرة بحيث تستطيع العروس أن تجلس فيه دون أن تضطر إلى الانحناء".

لقد كان النظام الإقطاعى عبارة عن توازن بين الاحتياجات والقوة النابعة من حاجة الإنسان القوى الملحة إلى السلطة وحب التملك، وحاجة الإنسان الضعيف إلى الحماية والبقاء. كما كان نظامًا طبقيًا، يؤكد أن كلاً من النبلاء والفلاحين قد ولدوا مناسبين تمامًا لأوضاعهم، وأنهم يجب أن يبقوا هكذا إلى الأبد على ما خلقوا له. كذلك كان هناك اعتقاد بأن دماء النبلاء تختلف تمامًا عن دماء غيرهم من العوام حتى فى تركيبة تلك الدماء.

كما كانت الكنيسة، باعتبارها أكبر حائزى الأرض، شيئًا ضروريًا داخل النظام الإقطاعى. ففى كل الغرب الأوربى كانت الكنيسة تستحوذ على ثلث الأرض الزراعية، فالأساقفة ورهبان الأديرة الكبيرة دخلوا التسلسل الهرمى الإقطاعى، واستفادوا بما فيه من نظام للحقوق والواجبات، بل إن البعض منهم كان مكلفًا ببعض الالتزامات الحربية. فنسمع عن ثلاثة من الأساقفة قد حاربوا الإنجليز فى بواتييه Poitiers سنة ١٣٥٦م، وأن كبير أساقفة سين Sens مات فى معركة أجن كورت Agincourt، وأنه حتى قيام الثورة الفرنسية كان من حق أسقف كاهور Cahors أن يضع خوذته الحربية، ودرعه، وسيفه على المذبح عندما يقرأ القداس فى بلدته.

لقد بدأ النظام الإقطاعى أولاً كنظام عندما تخلى ضعاف الملوك عن واجباتهم لوكلائهم الأقوياء، وكذلك عندما تنازلوا عن سلطاتهم لهم، وعن واجباتهم الدفاعية. وبذلك ظهر حشد من الحكام المحليين، المتمردين والقساة. ولم تكن عملية الولاء الإقطاعى واضحة منذ البداية، بل تأثرت بالدعوة إلى الإخلاص والوفاء، أما إقامة العدالة فى ظل النظام الإقطاعى فى بدايته فكانت شيئًا يخضع لنزوات الحكام، كما كان النظام المالى غير كفؤ، وكانت القاعدة التى اعتمد عليها هى منح الأراضى الزراعية وتبادلها فى مقابل الحصول على خدمات حربية، ولكن بحلول القرن الرابع عشر للميلاد أصبح الجيش الإقطاعى غير صالح، وحل محله جيش من محترفى الجندية أو المرتزقة. هذا إلى جانب أن ازدهار التجارة القائمة على التعامل النقدى قد أضعف نظام الأرض الإقطاعى. ففى أواخر العصور الوسطى تأثرت طبقة النبلاء كثيراً بارتفاع الأسعار، مما جعلهم مضطرين لبيع الأراضى الزراعية، وإيقاف الورش

الموجـودة فى ضياعهـم لعجزهـا عن مواجهة المنافسة القادمة من المدن، وأن يحرروا ما لديهم من عبيد نظير حصولهم على قدر من المال منهم. ففى إنجلترا فإن عملية تحرير العبيد أتاحت لهم فرصة جديدة للعيش عن طريق استئجارهم لبعض المزارع والورش. حيث عقد اللوردات كثيراً من عقـود العمل مع عمالهم، وتم تحرير هذه العقـود من نسختين فى يد كل طرف من المتعاقدين نسخة كوثيقة فى مواجهة احتمالات التزوير مستقبلاً.

وكما ذكر المؤرخ باجلى J.J Bagley فإن القرن الرابع عشر للميلاد: " **كان علامة بارزة على نهاية عصر الإقطاع، وأنه مهّد الطريق للملكية القوية، وقيام الدولة المؤلفة من قومية واحدة لا من قوميات متعددة، والحروب الأهلية فى القرن السادس عشر للميلاد. كما أن الكثير من صفات القروسطية فى القرن الرابع عشر الميلاد قد أصبحت زائفة أو متكلفة، وواعيـة لذاتهـا، وأن النـاس فعـلاً قد أدركوا أنها لم تعد ملائمة، وأنها فى طريقهـا لتصبـح حدثًا تاريخيًا، كمـا أنهـا لم تعد تنتمى للعالم الواقعى والحياة المعاصرة** ".

لقد بدأ النظام الإقطاعى كنوع من المقايضة عن طريق تبادل الخدمات فى مقابل الحماية، هذه المقايضة لم يتم الحفاظ عليها، ففى الوقت الذى استمر فيه طرف من الطرفين المتقايضين يقدم خدماته، فشل الطرف الآخر فى تقديم الحماية المطلوبة منه فى المقابل. كما اختلف تحديد من هو الشخص النبيل وأسلوب حياته من وقت لآخر، ومن مكان لآخر. ففى البندقية، بل وفى كل إيطاليا فإن الشخص الأرستقراطى كان هو التاجر الغنى أو رجل المال، وفى كثير من المدن الإيطالية كان يعيش داخل الأسوار فى قلعة شامخة، وفى فلورنسا كان هناك حوالى ٢٧٥ قلعة أو برجًا من هذا النوع، بعضها بلغ ارتفاعه حوالى ٢٠٠ قدم. ومع هذا فقد جرت العادة بأن يكون النبيل هو أحد المحاربين الإقطاعيين، أو أن يكون سليل محاربين إقطاعيين، يعيش فى إحدى القلاع المنتشرة فى الريف.

ومن الطبيعى أن يكون هناك حراك اجتماعى لأعلى أو لأسفل، فهنا وهناك كان هنـاك بعض الأشخـاص الذين ارتفعت مكانتهم إما بسبب شجاعتهم، أو جسارتهم،

أو بسبب بعض الإنعامات الملكية. فالمقاتلون الشجعان كانوا هم الفرسان فى ميادين المعارك؛ كذلك قام التجار الأغنياء بشراء الضياع فى الريف، وتزوجوا من طبقة النبلاء. ومن جهة أخرى، فإن الفرسان الألمان هبطوا إلى طبقة الفلاحين، أو عاشوا كلصوص، وفى القرن الثالث عشر فإن بعض أبناء الطبقة الأرستقراطية فى ساينا Siena شوهدوا وهم يتسولون رغيف الخبز؛ إلا أنه وبوجه عام فإن الفروق الطبقية ظلت قائمة وموجودة بل ومحددة إلى ما لانهاية. فالسيدة جوليانا بيرنرز من القرن الخامس عشر للميلاد، وهى مؤلفة لإحدى الرسائل عن الصيد، تسجل لنا الإدانة المعروفة لما حدث بين سات Seth وأبل Abl وَلَدَىّ آدم وحواء، فتقول : **إنهما كانا نبيلين، إلا أن كائن Cain كان فظًا غليظ القلب، وهو جد لكل من هو فظ فى العالم، كما تقول أن المسيح كان نبيلاً من جهة أمه.**

وفى المجتمع الإقطاعى فإن النبلاء والنبيلات كانوا يشكلون نوعًا من الأندية، يعرف فيها الأعضاء بملابسهم وطريقة تخاطبهم مع بعضهم البعض، فضلاً عن أن انتماءهم الطبقى كان يفوق حبهم لأوطانهم، ففى فرنسا ظل الوضع كذلك إلى القرن السابع عشر للميلاد. وقاموا بتقديم كثير من الخدمات للملك، مثل الإشراف على كلاب صيده، وخزانة ثيابه، وتقديم الشراب فى كأسه الفضية فى أيام الأعياد، ثم الحصول على تلك الكأس كهدية منه. كما أن تواضعهم هذا كان محل استحسان كثيرين ممن هم أدنى منهم منزلة.

وكانت حياتهم محفوفة بالمخاطر، وعليهم أن يعيشوها بشكل أو بآخر. وفى مواجهة ارتفاع معدل وفيات الأطفال ولإحداث نوع من التوازن، كان على النساء أن يتزوجن بمجرد وصولهن إلى سن البلوغ، وأن يلدن من الأطفال على الأقل ثلاثة وكما يفعلن فى هذه الأيام. كما أن التأثيرات الناجمة عن الزواج المبكر فى سن الثانية عشرة يمكن تخمينها أو الوقوف عليها عند إلقاء نظرة على المياه الملوثة، والطعام الفاسد، والرطوبة الناجمة عن استخدام الأحجار فى بناء حوائط الغرف، وسوء معالجة الجروح، والأوبئة الناجمة عن التيفود، والدوسنتريا، والجدرى، والأنفلونزا، والطاعون وكلها أمراض فتاكة. وعن طبقة النبلاء فإنهم كانوا يستهلكون مقادير كبيرة من اللحوم

وكثيراً من الكحوليات، وفى الشتاء لم يكن هناك فيتامين ج، وبسبب نقصه وكما يقول ألدوس هكسلى Aldous Huxley : كانوا عرضة لانتشار كثير من الخرافات والتخيلات، سواء كانت تخيلات روحية أو شيطانية.

واعتمدت حياة النبلاء على الأسرة وارتبطت بها أشد الارتباط. فكان الفرد منهم يدور فى نطاق اهتمامات الأسرة، حيث نسمع أن كثيراً من الأسر الكبيرة خاضت العديد من الحروب الخاصة بها، بينما الأسر الصغيرة كانت تنضوى تحت ظل الأسر الكبيرة الإقطاعية. وجرت العادة بأن كل عروسين حديثى الزواج، كان عليهما أن يعيشا فى منزل والدى العريس، وأن مجموعة الأقارب كانوا يلتفون حول رئيس العشيرة، وأن الزواج كان عبارة عن تحالف أسرى، وأن الرغبات الشخصية لم يكن لها تأثير فى ظل هذا النظام. فقد كان هذا التحالف أو التعاون الأسرى عبارة عن وحدة للممتلكات الإقطاعية ؛ ووريثات الإقطاع كن يتميزين على غيرهن من النساء. وغالبا ما نسمع أن وريثة الإقطاع كانت تتم خطوبتها بل وربما تتزوج وهى لا تزال طفلة لطمع والدىّ العريس، وغالبًا ما تستسلم لقدرها أو مصيرها.

ويبدأ احتفال أسرتى العريس والعروس، بأن يرسل العريس خاتمًا للعروس، وعادة ما يقوم المدعوون بالارتطام بعضهم ببعض للتعبير عن ابتهاجهم بهذه المناسبة وحتى لا يتم نسيانها، وذلك بسبب عدم معرفتهم بوسائل تسجيل مثل هذه المناسبات، وربما يتم استدعاؤهم كشهود على هذا الزواج. ويتم تغطية العروسين بكرة تسمى كرة الزواج، وإذا حدث وتصادف أن أيًا من الفريقين كان قد رزق ببعض الأطفال، فإنه يتم جمعهم تحت هذه الكرة، ويتم الاعتراف بهم كأبناء شرعيين. وفى أثناء القداس الذى يقام بهذه المناسبة، فإن العريس والعروس يشتركان فى تناول قطعة من الخبز وبعض النبيذ، وبعدها ربما تأخذ العروس المغزل وتبرهن على مهارتها فى الغزل. وبعد برهة يصيح الأصدقاء بصوت عال، قائلين : بالرفاء والبنين. وينثرون على الزوجين كثيراً من الحبوب، كرمز للخصب، منها الأرز، أو بعض قصاصات من الورق الملون غير الضار. ويأخذون فى الرقص إلى أن يأتى القس ومعه الماء المقدس والمعطر، ويبارك أريكة الزواج وكذلك فراش الزوجية .

ويعيش العروسان في جو صاخب يتعارض تمامًا مع ما نعيشه في أيامنا الحالية من هـدوء مقبول. وقليل من أبناء الطبقة النبيلة من كان لديه حجرتان أو ثلاث، وعادة ما تكون مكتظة بأفراد أسرته أو ضيوفه، لدرجة أن الملك الإنجليزي كان مشهورًا عنه أنه كان يعقد جلسات بلاطه الملكي في غرفة نومه، وزوجته الملكة جالسة على السرير، بسبب ضيق المكان. وغالبًا ما يتناول الجميع طعامهم في الصالة. وتحت السلالم كان يعيش بعض الأشخاص والحيوانات الضالة، وعند وقت الغداء يقفون في صفوف كالشحاذين يناضلون من أجل الحصول على الكفاف الذي تنافسهم فيه الكلاب. وكان الأطفال ينامون مع والديهم أو مع الخدم على الأرض في الصالة. لذا فإن الخصوصية التي نتمتع بها اليوم هي من أهم ابتكارات العصر الحديث.

وكانت زوجة السيد النبيل لها أهمية في كل شيء، لأنها كان لها بعض الحقوق الإقطاعية على الأرض التي تحصل عليها من إرث زوجها، وكان في مقدورها أن تمارس كل سلطاتها، أو أن ترأس أحد الأديرة. وعند غياب زوجها اللورد فهي تعتبر سيدة القلعة، تقوم بالدفاع عنها عند الحاجة، وتخرج على فرسها في مواكب الصيد بصحبة الرجال. وكانت الواجبات الملقاة عليها معروفة حيث تم التخطيط لكل شيء مسبقًا. ولم تكن في حاجة لأن تخرج للتسوق في عجالة، ومع هذا فقد كانت تعتبر قاصرًا وتخضع لوصاية زوجها عليها. وكان مسموحًا له بأن يضربها ما دام ذلك في صالحها، ليس هذا فحسب، بل كان بإمكانه أن يكون له بعض الحظايا، وأن يحضر أبناءه غير الشرعيين إلى القلعة لتعليمهم. ووفقًا للعرف السائد، فقد كانت الزوجة النبيلة تقوم بتوزيع بعض الهدايا على رفاقها وغيرهن ممن هن دونها مستوى. وفي غالب الأحوال كانت امرأة سليطة اللسان أو مشاكسة، وأحيانًا كانت تحب زوجها، ومحبوبة لديه.

وعندما تدخل هذه السيدة النبيلة إلى فراشها، فإن أجراس كنيسة القرية تدق بشكل صاخب كنوع من طلب العون والمساعدة من القديسين. وبعد أن تلد، فإنها تقوم بتحميم طفلها بالماء الدافئ وتنظف أصابعه وفمه مما يكون قد علق بها من آثار الولادة. كما تقوم بتدليكه بالملح والعسل، لتطرية جلده وتحسينه، ثم تضعه في فراش به

أوراق الورد مع الملح، وتقوم بغمس أحد أصابعها فى العسل وتقوم بتنظيف حنك الطفل ولثتيه. ثم تملأ فمها بمقدار من النبيذ وتقطر عدة قطرات منه فى فم الطفل. بعد ذلك تقوم بلف المولود الجديد فى أنعم الأقمشة وأكثرها دفئًا فى الدولاب الموجود فى القلعة، سواء من الحرير، أو الفراء، أم فرو القاقم(*) وسرعان ما يتم تغيير هذه الأنواع بملابس مصنوعة من الكتان.

وعادة ما تحدث عملية العماد أو التنصير فى سن مبكرة جداً وبأسرع ما يمكن، خشية أن يؤذى الشيطان ذلك الطفل الصغير، وروحه التى لا تجيد الدفاع عن نفسها. وفى جرن المعمودية فإن رجل الدين المختص بالمعمودية يحمل الطفل، بينما يقوم شخصان آخران كل منهما بالإمساك بإحدى رجليه، ويقوم القس بتغطيس الطفل كلية فى الماء ليحميه من الشيطان. ويأخذ هؤلاء الرجال المختصون بالمعمودية عهداً على أنفسهم بحماية الطفل لمدة سبع سنوات من الماء، ومن النار، ومن ركلة أى فرس، ومن عضة أى كلب.

وقامت نساء الطبقة النبيلة بإرضاع الأطفال بأنفسهن، ذلك لأنه كان هناك اعتقاد بأن لبن المرضعة سيفسد الدماء النبيلة، وفى ذلك نسمع أن أم القديس لويس وهى بلانش القشتالية Blanche of Castile وجدت امرأة فى البلاط تعطى أحد أطفال الأسرة الملكية رضعة، فأمسكت الطفل من قدميه وهزته إلى أن أفرغ كل ما فى بطنه.

كما كانت حياة أطفال النبلاء مثل حياة كل الأطفال منذ بداية الخليقة. حيث كان يقوم الوالدان بمعاملتهم بلطف، ويؤنبانهم على أخطائهم، ويعلمانهم، ويرعانهم. وكانت لهم وسائلهم الخاصة بالتسلية، مثل لعبة المطاردة، والاستغماية، والمبارزة، كما كانت لديهم بعض العرائس، والعساكر الخشبية، والطواحين الهوائية المصنوعة من الخشب، والدمى الوثابة(**) وعندما يكبرون قليلاً، فقد كانت لديهم أقواس صغيرة يصطادون بها

(*) القاقم : حيوان من فصيلة بنات عرس، فروه ناعم جداً. (المترجم).

(**) كل دمية تمثل رجلاً له عدة مفصلات، إذا جذب المرء سلكاً مشدوداً إلى أوصاله أخذ فى الوثب والرقص. (المترجم).

الطيور والفئران. كذلك كانوا يقضون بعضاً من الوقت فى اللعب مع الحيوانات الأليفة الموجودة فى القلعة، من كلاب صغيرة، وحيوانات السنجاب الأليفة، وكذلك طائر العقعق(*) أو الببغاء (أما القطط فقد كان ينظر لها شذراً على أنها من عشيرة الجان). وربما تعلم هؤلاء الأطفال كتابة بعض الأحرف من القسيس الموجود بالقصر، والذى كان من مهامه قراءة الرسائل، والرد عليها بلغة لاتينية جيدة. أما البنات وصغار الصبية فقد عشن تحت رعاية نساء القلعة، يتدربن على بعض الأعمال المنزلية، مثل ترتيب الأسرة، وتقديم المساعدة عند إقامة الولائم، وبعد ذلك مباشرة تعلم آداب السلوك.

وبسبب الخشية من أن يشب الأطفال مدللين نظراً للرعاية الأنثوية التى يحصلون عليها، فقد كان يتم إرسالهم فى سن الثامنة من عمرهم إلى قلاع أخرى، ربما تكون قلاع بعض اللوردات، أو قلاع أقاربهم مثل أعمامهم، وهناك يتدربون على ممارسة الحياة الاجتماعية واكتساب الفضائل، مثل تقطيع اللحوم، والانحناء عند تقديم كئووس النبيذ، والرقص، ولعب الشطرنج، والنرد. وبعدها يبدأ تدريبهم الحربى، فيتدربون على المبارزة بسيوف غير حادة، وطعن الهياكل الخشبية بالرماح، والصيد باستخدام الجوارح، والخروج للصيد على ظهور الخيل ومهاجمة الحيوانات وقتلها.

وبالمثل فإن البنات كان يتم إرسالهن إلى قلعة أخرى، تعتبر بمثابة مدرسة لتلقى آخر دروسهن. وهناك يلتحقن بجماعة العذراوات الجميلات اللاتى يظهرن على شكل الكورس فى الاحتفالات الخاصة بالفروسية. وتتعلم البنت كل الأعمال الأنثوية، مثل التطريز، والغزل، والموسيقا، فإذا كانت تميل إلى تعلم الشئون المنزلية، فإنها ربما تتدرب على الطهى والحياكة. كما يتم إعدادها لكى تكون مسئولة عن النواحى المالية فى القلعة، واختيار الخدم والإشراف عليهم، والإشراف على الطهى، ونظافة المسكن، وعمل صيانة الملابس، واختيار نوع النبيذ وعصره، وربما زراعة الحديقة التى تمد المطبخ باحتياجاته. كذلك كان عليها أن تتعلم بعض المبادئ الصحية العامة،

(*) العقعق : هو نوع من الغربان، طويل الذيل. (المترجم).

وإسعاف المرضى، واستخدام بعض أنواع العلاج المنزلي، لأن من المحتمل أن تكون هي طبيبة القلعة والمشرفة على الصيدلية الموجودة بها، وكما هو الحال في مزارع الجنوب الأمريكي. وإذا كان نوقها رفيعًا فتتعلم القراءة والكتابة، مما كان له أثره في تطوير الشعر الرومانسي المعبر عن ضجر النساء لابتعاد أزواجهن عنهن، وخروجهن للحرب، أو ربما لقربهن منهن، ولكنهم مشغولون عنهن بمطاردة النساء الجميلات والبغايا في قراهم.

ولقد عبر الأدب عن قيم وكياسة القصور، والحب داخلها، وهي قيم غالبًا غريبة ومختلفة، تلك الكياسة لها عدة معان، فقد كانت نوعًا من الأساليب لتبجيل وإرضاء سيدات القصور بشكل عادي أو مبالغ فيه، كما كانت عبارة عن تصرفات جيدة طبيعية، كذلك كانت أسلوبًا للسلوك في مجال الحرب وفي المعارك الخاصة. لقد اقتبس البروفيسور سيدني بينتر Proffessor Sidney Painter مثالاً من قصيدة الأعمال، حيث قام أحد النبلاء بقطع رأس عدو له في إحدى المبارزات، ثم قام بكل تبجيل واحترام فوضع سيف الضحية على جثمانه بشكل متصالب. وبسبب ذلك فإن الإمبراطور شارلمان صاح بأعلى صوته قائلاً : ها ! يا ربي، كم هو كيِّس ذلك اللورد! ويستمر البروفيسور بينتر في سرده، فيقول : "**عندما يقوم بطل إحدى القصص بالإطاحة بفارس خسيس، ففي الواقع أول ما يفعله هو الإبقاء على حياته ويطلق سراحه مقابل وعد شرف منه(*). ولم يقم أحد بمهاجمة الشخص الأعزل، كما لم يحدث أن فارسين تكالبا على شخص واحد. وحتى عصابات اللصوص، عندما تواجه فارسًا متجولاً فقد كانت حريصة على أن يهاجمه أفرادها الواحد تلو الآخر**" . هذا النمط كان معمولاً به وبإصرار، حتى في القتال بالأيدي. فلا تجد شخصًا رياضيًا يقوم بضرب خصمه تحت الحزام، أو أن يضربه وهو على الأرض. إلا أن عصابات قُطاع الطرق الحديثة، وأبطال روايات الجاسوسية ليسوا على شيء من الكياسة.

كما أن الحب كان من علاقات الكياسة البارزة، وإن كانت أصوله الأولى غير واضحة فصور الحب الرومانسي والمحبوب ليس لها أثر في التراث الروماني

(*) أي أن المنتصر كان يطلق سراح المنهزم لقاء عهد يقطعه على نفسه . (المترجم)

أو الجرمانى. ومن الواضح أنه جاء من التأثير الإسلامى فى أسبانيا، حيث تمتعت المرأة بقدر كبير من الحرية، وكانت محوراً لكثير من أغراض الشعر التى تطورت بشكل كبير. فالأدب العربى ملىء بالمحبين والمحبوبات، وقصص الحب النادرة التى تحكى لنا الكثير من شعر الحب، مما ألقى بكثير من الظلال على شعراء التروبادور الفرنسيين.

إن الحب الذى شاع فى بلاط العصور الوسطى قد عوض المرأة عن قسوة الزواج، وعبر عن وجودها، فالعاشق، وهو بالتحديد لم يكن زوجها، قد خاطبها بنفس عبارات التقديس والتبجيل التى خاطب بها القديسين. كما كان يأمل، وبالطبع، فيما هو أفضل، وهو ما يطلق عليه هبة الرحمة، حتى ولو كانت هذه الهبة لا تمنح، فإنه كان يحب بحماسة. ومن أجل خاطر محبوبته فإنه كان يبحث عن كيف يكون جديراً بحبها أو عطفها، وكيف يسمو بروحه، ومن أجلها كان قوياً فى المعارك، وفى حضرتها يكون مبتهجاً، ظريفاً، مرتدياً أفخر الثياب، نظيفاً، نقياً من كل رائحة عكرة. كما كان يؤلف أغانى الحب، ويتغنى بها من أجلها، كما كان مستعداً دائماً لأن يدافع عن شرفها. وفى تكريمه لها، كان يحترم جميع السيدات ويبجلهن، وفى لغة الإقطاع فإنه كان فصلاً لسيدته، ويقسم لها يمين الولاء.

ومن الطبيعى، أن يكشف علماء النفس المحدثون فى حب البلاط الكثير مما لم تره عيون المؤرخين، فمن المفترض أن المحب به نزعة أنثوية صريحة منذ طفولته تدفعه إلى اختلاس النظر فى المرأة، هذه النزعة تزداد معه بازدياد سن الطفولة، وتظهر حسبما يقول أحد علماء النفس "لدرجة أن ملامح تلك المرأة المثالية تكون فى صورة الأم، وهو طفل ناشئ، وبحيث تكون علاقة المحب بمحبوبته بنفس درجة علاقته بأمه وهو فى سن الطفولة، مع نوع من التخيلات الجامحة ".

كانت بواتييه Poitiers هى موطن ومدرسة ذلك الحب، ففى بلاط إليانور الأكويتانية المشهورة، زوجة هنرى الثانى ملك إنجلترا، وفى حوالى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد كانت إليانور تتربع على عرش بلاط الحب، حيث كانت السيدات النبيلات والسادة النبلاء يصدرون استفسارات عن السلوكيات، ويتخذون القرارات، ويتحايلون على نواميس الأخلاق، من أجل مساعدة الآخرين. وقام القسيس الخاص بابنتها

ويدعى أندرياس كابيلانوس Andreas Capellanus بتسجيل نتائج اجتماعاتهم فى رسالة لـه تسمى فن حب البلاط De Arte Honeste Amandi. جاء فيها :

"إن الحب الحقيقى، يجب أن يكون منزهًا، ويجب أن يكون متبادلاً أو مشتركًا ؛ ويجب أن يكون نبيلاً، ذلك لأن العامة من الناس لا يستطيعون أن يمارسوه، كذلك يجب أن يظل هذا الحب سرًا، فإذا رأى المحب محبوبته فى مكان عام، فعليه أن يعاملها على أنها غريبة كلية، وأن يتفاهم معها من خلال الإشارات المختلفة. ولكن عندما يلمحها ببصره، فإن قلبه ينبض بسرعة، ويظهر الشحوب على وجهه، وهكذا فإن المخاطر تغشى سره الدفين. وعادة ما يأكل أو ينام قليلاً. ومما لاشك فيه أن هذا الحب يتعارض تمامًا مع الزواج، وكل إنسان يعلم تمامًا أنه لا مكان للحب بين الزوج وزوجته".

ومن الواضح أن هذا الحب من الناحية الجسدية راسخ فى الإيمان، وأن الهائم المتواضع ربما تصل به الحال إلى درجة الاهتياج، تمامًا مثل الغريزة الجنسية، وإلى أى حد يمكن أن تؤدى حالة الحب هذه إلى الزنا، فهذه مشكلة لا يمكن حلها. وهناك العديد من شعراء التروبادور الذين خلدوا أمجاد حبهم، إلا أن شعراء التروبادور هؤلاء هم شهود لا يعتد بشهادتهم. وعلى أية حال، فإن الزنا كان صعبًا فى ظل الجموع المحتشدة فى القلعة، إن لم يكن مستحيلاً، ومعظم الأعمال الآثمة كانت تتم بعيداً عن القلاع أو خارجها، وربما كان للمناخ أثر فيها. وربما وجد البعض الفرصة سانحة لذلك فى عمليات الصيد المتعددة، وعمليات الخروج لزيارة الأماكن المقدسة. وبوجه عام فإن ذلك الحب كان يبدو فى معظم الأحيان وكأنه لعبة عقلية مسلية، لها بعض التأثير على السلوك الأخلاقى والروحى للمحبين.

وكلعبة كان لعملية الحب هذه بعض النتائج المسلية. ففى مدينة تريفيزو Treviso وفى سنة ١٢١٤م تم عقد مجلس للطرب والمرح. وتم بناء قلعة للحب، تقوم النساء النبيلات على حراستها والدفاع عنها ضد أى اعتداء، وتولت ذلك فرقتان من النبيلات من بادوا Padua والبندقية Venice، واستخدمت سيدات الفرقتين أقراص الحلوى، والفواكه، والزهور كنوع من القذائف. إلا أن العملية الهزلية هذه تحولت إلى نوع من المعارك الحقيقية بين أهل بادوا، والبنادقة، مما اضطر الشرطة للتدخل لوقف القتال بينهما. وفى فلورنسا كانت هناك جماعات من الشباب المتوددين للنساء، يرتدون الملابس البيضاء، تحت قيادة زعيمهم وهو « لورد الحب ».

كما أن عبارات «الحب الكيِّس»، و«حب البلاط» هما تعبيران عن شيء فضفاض هو ما نسميه نظام الفروسية في العصور الوسطى الذي ينظم تصرفات وسلوكيات أبناء الطبقة النبيلة وفق قواعد أخلاقية محددة، تتضمن القواعد المعمول بها في كل بلاط، ومُثُل وقيم الفرسان المستمدة من النظام الإقطاعي والتعاليم الدينية للكنيسة. ولعل أفضل ما تمثله تلك القواعد هو العفة أو الطهارة، وإخلاص المحاربين للدين، والدفاع عن كرامة المرأة النبيلة. هذه المثل العليا لقيت آذانًا صاغية في الأدب لدى شعراء التروبادور، والشعراء الجوالين، وأساطير الملك آرثر وفرسانه، والأساطير الخاصة بأبطال الفولكلور الجرماني. ومن الطبيعي أن يتبع ذلك ظهور حركة معادية لروح الفروسية، وبوجه خاص بين أبناء الطبقة البورجوازية، حيث قاموا بتمثيل العديد من الروايات التي يسخرون فيها من الفرسان بشكل قاس، مثل رواية «الخرافة الشعبية» وغيرها من روايات القرن الثالث عشر الميلادي.

وبمرور الوقت خفت حدة نظام الفروسية، إلا أنه لم يختف كلية، لم يمت، لأنه خلّف نظامًا للطبقات العليا وسلوكياتها، وبوجه خاص في العصر الفيكتوري(*) Victorian era كما أن تقديرنا للحب العاطفي هو أثر من تراث العصور الوسطى، "فالنساء والأطفال أولاً" هو شعار من شعارات عصر الفروسية. فعندما غرقت السفينة تايتنك Titanic تفانى الرجال في وضع النساء في قوارب النجاة، وبذلك برهنوا على أنهم أكثر نبلاً من فرسان نبلاء. وربما مازلنا نرى على بعض الشاشات صورًا للفارس، مع تغيير في الملابس والأماكن. ومع أنه رحل إلى الغرب فإنه لا يزال فارسًا بارعًا، يجلس شامخًا على فرسه، وهو المحارب القوي من أجل كل فضيلة، وربما كان بسيطًا في تعليمه، إلا أنه يمتلك حكمة بالغة، مبجل، ومخلص، معقود اللسان حياءً أمام النساء الوقورات.

لقد تميز الفرد النبيل في العصور الوسطى بكثير من الفضائل، فعادة ما كان مخلصًا ووفيًا بكل التزاماته الإقطاعية، ومتزنًا عند تنفيذه العدالة، كما كان كريمًا،

(*) نسبة إلى الملكة الإنجليزية فيكتوريا (١٨٣٧ - ١٩٠١) . (المترجم)

خصوصًا عند تقديمه الأرض والمال للكنيسة، ومتدينًا حقًا، محترمًا للسلطات الكنسية، وأمينًا في أدائه واجباته. كما كان يأخذ يمين الولاء مأخذ الجد، ونادرًا ما يحنث في قسمه أو يمينه، ونادرًا ما يخلف وعده، مدركًا أن تلك الأيمان مسجلة في السماء، وأن الحنث بها يستوجب نقمة الرب، وربما كان عطوفًا على من يستحق العطف ممن هم أدنى مرتبة منه. "شفوقًا على الفقراء" رحيم القلب، متواضعًا" لا كما يقول أحد كتاب القرن الثالث عشر للميلاد – وهو أحد الفرسان من تور لاندرى . Tour Landry – مخبرًا كيف أن إحدى السيدات النبيلات كانت تحيّي الحائك بانحناءة (فالبعض وجه لها اللوم على ذلك، بينما البعض الآخر امتدحها).

وعلى أية حال، فإن مساوئ الرجل النبيل تبدو أكثر عند استعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها، ذلك أن التفاخر بالمولد والانتماء الطبقي تحول إلى نوع من الغطرسة، كما تحولت الشجاعة إلى نوع من التهور الطائش؛ فكثير من المعارك تمت خسارتها بسبب عدم طاعة الفرسان للأوامر، ورفضهم عدم الانتظار لتلقي الأوامر من القائد بالالتحام. فقصة الحروب الصليبية مليئة بمثل هذه الحماقات. فالداوية بوجه خاص كانوا شغوفين دائمًا لأن يكونوا في المقدمة، وكثير منهم لقي حتفه لا لشيء سوى السمعة الحسنة.

أما عن سماحة النفس، فنسمع كثيرًا عنها لدى المغنين ممن أطروا ذلك بإفراط، والذين استفادوا من ذلك، بحيث أصبحت شيئًا منافيًا للعقل. فعندما زار توماس أ. بيكيت Thomas a Becket باريس سنة ١١٥٧م، فإن قافلته كانت أشبه بعرض السيرك. فقد اشتملت على كنيسة متنقلة صغيرة، وعربات الملابس، وسجاجيد، وأغطية، واثنى عشر حصانًا تحمل مائدة مستطيلة، وعدد من سائسي الخيول، ومدربي الصقور ومعهم كلاب الصيد والصقور، وعلى ظهر كل فرس قرد طويل الذيل، ويقوم بحراسة القافلة رجال مسلحون معهم كلاب ضارية لكل منها مقود.

كما تطورت عملية التباهي بشكل واضح، انعكست آثارها فيما جرى من عمليات تدمير وخراب، فهذا هو أحد الفرسان قد كان لديه قطعة من الأرض الزراعية، قام

بحرثها وغرسها بقطع صغيرة من الفضة. بينما قام فارس آخر باستخدام الشموع الغالية فى طهى طعامه عليها، وفارس ثالث قام "وكنوعٍ من التبجح الواضح" بإحراق ثلاثين فرساً من خيوله وهى على قيد الحياة. وكانت النتيجة الحتمية لمثل هذه المنافسات أن الكثير، أو معظم النبلاء، أصبحوا غارقين فى الديون للمرابين وبشكل دائم وعندما كانت تزداد الأمور سوءًا فإنهم يقومون بقتل مُقرضيهم.

لقد كانت جماعة النبلاء عبارة عن جماعة مسلحة من النُّهاب، يعيشون دائمًا غير واعين بالضرورات الاقتصادية. وهذا أحد النبلاء من شعراء التروبادور، وهو برتراند دى بورن Pertrand de Born يوجه كلامه لأبناء طبقته، ويبتهج ابتهاجا عظيما بحلول الحرب بما فيها من انتهاك للقانون والنظام، فيقول : **"سوف نستولى حالاً على ذهب المرابين ، ولن يكون هناك من يرتحل على ظهر جواد فى الطريق ، ولن يستطيع أى فرد من أبناء المدن "الطبقة البورجوازية" أن يسير بلا خوف، ولن يستطيع أى تاجر أن يقصد إلى فرنسا. فإذا أردت أن تصبح غنيًا فكل ما عليك هو أن تنهب وتسلب فقط !".**

وفى الوقت الذى كان من المفترض فيه أن التجار يتمتعون بحماية الملك، فإن الحزازات العائلية الإقطاعية كانت شيئًا لا يمكن السيطرة عليه، فعملية الأخذ بالثأر كان ينظر إليها باعتبارها نوعًا من العدالة الخاصة أكثر من كونها جريمة، كما أن جميع أبناء العشيرة من أدناهم إلى أقصاهم كانوا مطالبين بتنفيذ عملية الثأر هذه، وكانت إيطاليا بوجه خاص من أهم المناطق التى توطنت فيها هذه الظاهرة، فتاريخها كله فى العصور الوسطى كان عامراً بالحزازات العائلية الإقطاعية التى عبرت عن نفسها فى شكل كثير من الحروب، تلك الحروب عادة ما كانت تؤدى إلى فناء أحد الفريقين المتنازعين، أو بتدخل الإمبراطور أو الكنيسة لفرض السلام وإذعان أحد الأطراف المتصارعة لقبول تعويض عن الخسائر.

هذا إلى جانب أن الفرسان من طبقة النبلاء يمكن اعتبارهم فعلاً أصحاب براعة فى وحشيتهم، فقصيدة الأعمال الخارقة مليئة بكثير من الرؤوس التى تم اجتزازها، والجماجم المبعثرة، والأحشاء التى تم بقرها، والأطفال الذين تم قتلهم بالرماح، والنساء

اللاتى تم اغتصابهن. كما يعكس لنا أدب ذلك العصر الكثير من تعطشهم للدماء، مما يعد دليلاً على فساد الأخلاق، تماماً وكما هو الحال فى قصص الانحراف الجنسى الشائعة هذه الأيام، وإن كان الكثير من العمليات الوحشية تلك حقيقة لا يرقى إليها الشك. ولن أضرب أى مثال على تلك العمليات الوحشية التى لا حصر لها، كما لن أحرض أحداً على أن يدين ما أدينه.

ومن المآخذ الواضحة على سلوكيات الطبقة النبيلة ما يتعلق منها بالجنس، ذلك أنهم اكتسبوا بعض المهارات فى ممارسة الحب المفعم بالاشتياق إلى سيدات البلاط النبيلات، لدرجة أنهم كانوا يركعون على أقدامهم من كثرة التنهدات اشتياقاً إلى المرأة بعيدة المنال، مما كان له أثره عليهم فى ترحالهم، وربما وقع الواحد منهم إلى الأرض أمام إحدى راعيات الغنم، أو أمام إحدى الريفيات ذات الوجه الحسن.

وفى كل من إسبانيا وبلاد الشام كانت صدمة المسلمين كبيرة من هذا الفجور الذى كان عليه الفرنسيون، وربما كان حق النبيل فى أن يمضى الليلة الأولى مع أى عروس فلاحة نوعاً من الخرافة، ومع هذا فإن كل نبيل كان ينظر إلى خدمه من النساء على أنهن ملك له، يفعل معهن ما يطيب له. وغالباً، وبلا شك فإن ما يرغب فيه كان نفس ما ترغب الواحدة منهن فيه، ولكن إذا حدث ودافعت عن شرفها لأنه اغتصبها فلم يكن بوسعها أو وسع أسرتها أن تصلح شيئاً مما أفسده سيدها.

هذه هى بعض مثالب طبقة النبلاء، فقد كان النبيل منهم عبارة عن مجموعة من المتناقضات فى وقت واحد، فهو محب رومانسى، وفى نفس الوقت إنسان خليع، وفارس مغوار، متعطش للدماء، وشهوانى، ومسيحى مخلص، وهازئ بكل القيم الروحية، إلا أنه لم يكن منفرداً بكل هذه التناقضات، حيث شاركه فيها بقية البشر.

وكان بهو القلعة هو مركز حياة النبلاء، ففيها يستطيع النبيل أن يعقد جلساته مع رجال حاشيته، ويتناقشون فيما يعن لهم من أمور، يتسلون، ويتناولون طعامهم للعشاء على الموائد التى يتم إعدادها لكل وجبة. وعندما يكون لديه بعض الأعمال الخاصة، فإنه يصطحب زائريه إلى غرفة نومه.

وفى الشـتـاء عـادة مـا تكون القلعـة شـديدة البرودة، وفى الفـتـرات البـاكـرة من العصـور الوسطى كـان يتم بناء المدافئ فى وسط البـهـو الخـاص بالقلعة، بحيث كـان الدخـان يأخـذ طريقـه إلى الخـارج عن طريق فتـحـات مـوجـودة فى السـقف، وتم عـمل الترتيبات التى تساعد على احتفاظ هذا البـهو بأكبر قدر من الدفء، وبحيث كان يتم الاعتقاد بأن الدخـان مفيد، فهو يشفى من القشعريرة، ويقوى أخشاب المبنى، كما أن المداخن والأمـاكن التى تم تخصـيصـها لبناء المدافئ لم تكن مـعروفة قبل القرن الرابع عشر للميلاد. فها هو بيير بلومـان Piers Plowman يحدثنا عن : "حجرة ذات مدخنة" كان يتناول فـيها الأغنياء طعامهم. كمـا اعتـاد أبناء الطبـقات النبيلة أن يسـتـمـتـعوا بالدفء إلى جوار المدافئ، بينما يتجمد أبناء الطبقات الدنيا فى الأركان البعيدة. وفى القرن الثـالث عشر للميلاد تحكي لنا القصـة الفرنسية الرومـانسية(*) L'Escoufle أن السير جيل، وهو يجلس بجوار المدفأة خلع كل مـلابسه عدا سرواله لكى يهرش جلده "بلا شك بسبب البراغيث". كمـا أن غرف النوم نادراً مـا كان بهـا مدفأة. وعندمـا يكون الطقس جيداً عادة ما كان يتم عمل مدفأة على الأرض الحجرية عند وقت النوم، أو يتم الإتيان بكانون مملوء بالفحم المشتعل من البهو.

ولقد تحمل الناس البرد القارس بلا شكوى، وربما كانوا أكثر جلدة مما نحن عليه الآن. وربما كانت أيديهم وأقدامهم قد تكيفت مع ذلك الطقس، تمامًا مثل سكان الجبال فى بلاد الشـام والذين يسـيرون حـفـاة الأقـدام على الجليد والثلوج، إلا أنهم يلفّـعـون وجـوهـهم. كمـا أن الكنائس الكبـيـرة والمبنيـة بالحـجـارة لم تعـرف التدفـئة، وإن كـانت مـلابسنا الدينية المتسعة قد تم تصـمـيـمها لكى تدفئ من يرتديها بشكل من الأشكال. وماذا يكون شعورنا تجاه الرهبان وهم ينشدون عند المذبح المعرض لتيار الهواء الشديد من منتصف الليل وحتى الفجر، أو نحو أحد النسـاخين وهو ينسخ أو يقوم بالرسم فى المرسم فى درجـة حرارة تبلغ أربعين درجـة. "فى الواقع إن العـامل المقـيم أو كـثـيـر

(*) قصة شـعرية أو نثرية من قصص العصـور الوسطى قوامها الأسطورة أو الحب الشريف أو مـغامرات الفروسية . (المترجم)

الجلوس قد كان لديه وعاء به فحم مشتعل يتدلى بجانبه"، ولحسن الحظ أنه كان هناك الكثير من الوقود وبخاصة من الأخشاب، والفحم والخث Peat (*)، والكثير من الصوف والفراء المستخدمين في الملابس الثقيلة.

واستتبع نقص التدفئة نقص في الإضاءة، حيث كانت الشبابيك صغيرة وعالية، وكان يتم تغطيتها بقطع من الرق، أو قطع من القماش المغموس في الزيت، أو الورق. ولم يكن استخدام الزجاج في النوافذ شائعًا، إذ أن أول استخدام له كان في شبابيك الكنائس، وشيئًا فشيئًا غدا استخدامه في النوافذ متاحًا، إلا أنه كان سميكًا، ومعتمًا، ومحدبًا، وبه قليل من النتوءات التي تشبه قعر الزجاجة. "ذلك لأن الزجاج الشفاف لم يعرف إلا في العصور الحديثة" . وكان الزجاج غاليًا لدرجة أن المالك كان يجعل ضلف الشباك لا تتحرك، ويقوم بتغطيتها ولفها وتخزينها عندما يغادر منزله لفترة طويلة. كذلك كانت هناك دوافع للتجديد وإلى حد ما. فالفيضان الذى حدث في فلورنسا سنة ١٣٣٣م، ووصفه رجال الدين بأنه غضب من الله، بسبب استخدام الزجاج في الشبابيك، وبسبب بعض وسائل الترف الأخرى.

وفي ظلام الشتاء في العصور الباكرة استخدم الناس مشاعل للإضاءة من الخشب المغموس في مادة راتنجية، كان ينجم عنها الكثير من الدخان، والروائح الكريهة، التي أضرت كثيراً من الأنسجة المزدانة بالرسوم والصور وكذلك الزخارف، وكانت تمثل خطورة كبيرة بسبب الشظايا المتطايرة منها. كما كان يتم عمل الشموع من الشحم الحيواني غالبا، ولها فتائل من لب القصب أو من القطن، كان يتم تقطيعها بالمقصات حتى تكون مناسبة للاستعمال. ونجم عن احتراق الشحم دخان لاذع، ورائحة بغيضة.

أما استخدام الشمع الناتج من النحل فقد كان قليلاً بسبب ارتفاع أسعاره بشكل لم يتناسب مع دخول الكثيرين، باستثناء الكنائس وبلاط الملوك. وقد حددت التعليمات الملكية الصادرة من ملك انجلترا عام ١١٣٦م حق كبار النبلاء في الحصول على بقايا

(*) الخث، نسيج نباتي نصف متفحم يتكون بتحلل النباتات تحللاً جزئيًا في الماء . (المترجم)

الشموع من القصر الملكي، بأن يحصل الواحد منهم عليها لمدة أربعة أيام متتالية مرة كل ٢٤ يوماً. كذلك كان استخدام القناديل شائعاً، هذه القناديل كانت عبارة عن فتائل من القطن الجيد يتم غمسها في زيت نباتي أو زيت السمك، وكانت تعطي إضاءة ضعيفة ورائحة نفاذة، ولكنها تستمر مدداً طويلة. كما كانت المصابيح الليلية من الأشياء المألوفة، وكذلك الفوانيس المحمولة ذات الألواح الزجاجية.

وكان على رجل العصور الوسطى أن يمارس كل ضروب حياته بالنهار، وفي الليل كان في مقدروه أن يرتحل من مكان لآخر في ضوء القمر المتقطع، وقليل من الأعمال التجارية كان يتم تأديتها بالليل عند الاستعانة بالإضاءة الصناعية. فالشتاء في الشمال هو وقت الراحة، والتسلية بجوار المدافئ، والتمتع بالغناء، وسماع القصص المسلية. كما كان أيضاً وقت المصاعب المتمثلة في البرد القارس، والقشعريرة، والملل، ونقص الفيتامينات في الطعام، والصوم الكبير. لذا فعندما يأتي الربيع، فإنه يبعث في الناس نوبة من الحماس المتدفق، فبعد صرامة الشتاء، تشرق الشمس على الكون، ويعم الخير، ويتدفق الحيوية باستمرار، ومعظم قصائد الحب تتزامن مع الربيع؛ وفي الحقيقة إن المناخ كان يعني الكثير بالنسبة للناس في تلك الأيام.

ولإعطاء صورة مبسطة عن حالة الدفء، فإن القاعات الكبرى وغرف النوم عادة ما تكتظ بقطع النسيج المزدانة بالرسوم والصور، والتطارين، التي تمثل مناظر دينية مستمدة من الإنجيل، أو مناظر الصيد، وفي القرن الرابع عشر للميلاد أخذت تظهر السجاجيد، كما تم تصوير ألوان الطيف على الأسقف بألوانها المختلفة . وكان منظر دائرة البروج هو أكثر الرسومات شيوعاً، أما الأرضيات فقد كانت تفرش بنبات الأسل أو السمار أو القش، وإن لم يعد ذلك ضرورياً في القلاع القذرة. وكان الأثاث المنزلي نادراً، فهناك الموائد التي يمكن طيها، أما الأرائك المريحة فلم يستخدمها سوى الصرافون، وكذلك الوسائد، والأقمشة المطرزة. وجرت العادة أن يتم تخصيص كرسي للسيد النبيل فقط، لذلك فإن لفظ رئيس الجلسة Chairman المعروف لدينا، غالباً ما يطلق على من يترأس أي اجتماع. كذلك كان هناك بعض الصناديق الكبيرة لحفظ المتاع، غالباً ما يتم زخرفتها ببعض المشغولات المعدنية من الحديد، في هذه الصناديق

يحتفظ اللورد بسجلاته ومقتنياته النادرة، بينما تحتفظ سيدة القصر فيها بالحلى الفضية وملابسها الفاخرة. وفى مثل تلك الصناديق فإن ملوك النورمان فى انجلترا كانوا يقومون بنقل جزء من خزانة الدولة معهم فى رحلاتهم.

وعلى الرغم من أن معظم المتواجدين فى القلعة كانوا ينامون على الأرض فوق حشايا من القش، فإن اللورد وزوجته كان لهما سرير خشبى مشدود عليه الحبال أو الجلد، وله ستارة، ومرتبة محشوة بالريش أو اللباد، ووسادة، ومسند، ومفرش من الكتان، وغطاء للسرير كنوع من الراحة، وجرت العادة بأن ينام الشخص منحنياً نصف انحناءة فى طول البلاد من بيزنطة إلى اسكندنافيا ؛ وفى أوقات الراحة كان الرجال والنساء يتجردون فى ملابسهم ويقومون بتعليقها على شماعة حماية لها من أن تتوسخ، ومن الكلاب، والفئران، والأرانب، وفى الغالب كنوع من العرف المتفق عليه، وعند تناول الشراب قبل النوم. ولقد تم رسم كثير من الملوك وزوجاتهم وهم بلا ملابس فى فراشهم، يرتدون تيجانهم. فالمؤرخ فرواسارت Froissart، فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى، يذكر لنا قميصاً للنوم كابتكار جديد.

هذه القائمة التقريبية عن محتويات القلعة تحتاج لكثير من التدقيق والتتبع الزمنى والجغرافى. إلا أن الكماليات كانت آخذة فى الزيادة باستمرار طوال العصور الوسطى، وحتى فى أحلك أيام حرب المائة عام، بسبب أن القصور البيزنطية وإن كانت بعيدة عن الغرب إلا أنها أثرت فيه، كما أن المدن الإيطالية الغنية لم تكن بعيدة. وهناك كان أبناء الطبقة النبيلة يبنون منازلهم ذات الأبراج العالية داخل المدن المسورة، ويزينون حوائطها بالفريسكو، ويعلقون عليها الرسومات والصور والزخارف التى تم تنفيذها على أقمشة الحرير أو الجلود، كذلك قاموا بتزيينها بالخزف المطلى بالمينا والمعروف باسم الميوليق Majolica، واستخدموا الأدوات المطعمة بالعاج والبرونز، والمزدانة بالصور التى تسر الناظرين. وغدت القلاع وكأنها فيلات كما وصفها بوكاشيو بما فيها من نافورات للمياه، وتماثيل، وحدائق غنّاء بما فيها من أشجار البرتقال والليمون تفوح عطراً ورائحة زكية.

وعن ملابس الطبقة النبيلة فقد كانت إلى حد ما تهدف إلى المنفعة لا إلى الجمال، وإلى حد ما للتمايز الطبقى، وإظهار المكانة الاجتماعية والثروة، وكما هى العادة فى كل الملابس. فرجل الدين كان يرتدى غفارته، بينما كان الطبيب يرتدى ثوبه الأرجوانى، وقفازين لونهما أحمر، ويرتدى الفلاح قميصًا خارجيًا فضفاضًا، ويرتدى المجنوم معطفًا رماديًا وقبعة قرمزية اللون، وترتدى بنات الهوى فساتين قرمزية اللون ؛ ويضع اليهودى دائرة من القماش الأصفر على ملابسه، ومن يتخلى عن الهرطقة فإنه كان يرتدى صليبًا مزدوجًا. وكانت شارة الرجل النبيل هى الدرع. ومن الملابس المدنية يرتدى ثوبًا محكمًا وملائمًا لأن يرتديه تحت معطف الزرد. ففارس تشوسر فى طريقه إلى كانتربورى كان يرتدى سترة ضيقة من نسيج قطنى تغير لونها بسبب ملاصقة معطف الزرد لها.

وفى الشتاء كان الأثرياء يرتدون سترة من الكتان مبطنة بالفراء، ويلبسون فوقها رداء طويلاً يشد بحزام حول الخصر وهو التونك Tunic، ويمكن أن يغطى الرأس، وفوق الجميع يرتدون عباءة أو معطفًا من الفرو، كما كانت الأثواب الخارجية مشقوقة أحيانًا لإظهار أنواع الأقمشة التى تحتها، ومن حين لآخر كانت موضة الملابس تتغير، وخصوصًا فى ملابس الشباب من حيث أطوالها أو طريقة تفصيلها. ففى القرن الرابع عشر للميلاد ازداد ولع الناس بالمعاطف القصيرة التى كانت تغطى بالكاد الردفين، وكانت البنطلونات ضيقة بدرجة كان يصعب على من يرتديها الجلوس، وإن كان التباهى بلبسها شيئًا غير مستحب، فضلاً عن أنها كانت غير مريحة على الإطلاق. كما تم استخدام البنطلونات الطويلة، أو القصيرة الضيقة مع الجوارب الطويلة، مع الأحزمة، أو ربطها برباط مع القميص. ومن الطبيعى أن تختلف أنواع الأقمشة وأسعارها وفقًا لإمكانات من يرتدونها، ومنها الأقمشة المقصبة أو المطرزة، والحريرية، والمخمل، ذات الألوان الزاهية، وكذلك الألوان الداكنة. فأبناء الطبقات الفقيرة كانوا يستخدمون فى ملابسهم الأصواف والجلد، أو الأقمشة الكتانية الخشنة.

وفيما يتعلق بالملابس التحتانية فالمعلومات المتاحة لدينا ضئيلة. كما لم يتم التعرف على القطن فى فرنسا إلا فى القرن الثانى عشر للميلاد، وظل ينظر إلى استخدامه مدة طويلة على أنه من المواد المترفة، وكان من المتعذر على الفقراء استخدامه، إلا أن الكتان

كان واسع الانتشار لدرجة أن القرن الرابع عشر للميلاد كان يطلق عليه "قرن الكتّان"، وخصوصاً عندما استخدمه الرجال والنساء فى القمصان. "ومازلنا نتحدث عن الكتّان الخاص بنا، عندما نقصد القطن، أو النيلون، أو ملابس النساء الداخلية، وإن كانت مصنوعة من النيلون". ولم يكن نبات الكتان ينمو فى كل مكان، كما أن عملية تحويله إلى أقمشة كتانية كانت بطيئة وتحتاج إلى العديد من العمليات الصناعية، لذلك كان نبات القنب يستخدم على نطاق أوسع كبديل للكتان، ساعد على ذلك الاعتقاد بأن السراويل التحتانية المصنعة منه لا تفسد الدم، ومن المرجح أن يكون لمثل هذا الاحتمال أثره فى عدم ارتداء الناس للملابس التحتانية فى أوائل العصور الوسطى. بحيث نسمع أن السسترشيان كانوا لا يرتدون أية ملابس تحتانية على الإطلاق بما يؤكد انتشار مثل هذه الدعابة البذيئة. ولا ندرى ما البدائل التى استُخدمت لدى المرضى أو الأمهات عند الولادة ؟ أو حفاضات للأطفال ؟ وبدون المناشف كيف كان يتم تجفيف الأطباق والصحون؟ ويبدو أن التاريخ ليست لديه الإجابة الشافية على ذلك. وتشير التقارير إلى أن الكتان فى القرن الرابع عشر للميلاد قد غدا شائعًا بدرجة كبيرة، وبشكل أمدّ جامعى الخرق بكميات كبيرة من تلك الخرق قاموا ببيعها لصناع الورق الذين استفادوا منها لتزويد المشتغلين بالعلم والرسم باحتياجاتهم، مما ساعد على انتشار الورق فى تلك الأزمنة وحتى عصرنا الحديث.

وكانت أغطية الرأس من أهم المؤشرات على طبقات الناس وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، فالملك كان يرتدى تاجه، والبابا يرتدى عمامته المرصعة بالجواهر، بينما يرتدى الأسقف التاج الأسقفى، ويرتدى النبيل الخوذة، أما التابع والقاضى فكانا يرتديان قبعة لها رأس حادة، ويرتدى مالك الأرض الغنى قلنسوة ضيقة، والطبيب غطاء رأس أو بيريتة هى عبارة عن قلنسوة مربعة، والصبى الذى يجر المحراث كان يرتدى قبعة مستديرة مستدقة الطرف، والشخص الريفى يرتدى قبعة، بينما يرتدى اليهودى قبعة صفراء، أما المسلم فكان يرتدى التربان Turban وهى قبعة ضيقة لا حرف لها. ولدى طبقة الموظفين اليوم لا يزال غطاء الرأس دليلاً على منصب ورتبة الواحد منهم. وحتى بين غير الموظفين فإن البولر Bowler أى القبعة السوداء المستديرة، والبيريه، وكذلك الرأس العريان كلها من الأشياء التى كانت تعبر عن الفروق الفردية.

كما أن القفازات كانت شائعة في الشمال، واستخدمها حتى الفلاحون فى أعمالهم، ولبسها النبلاء، والأساقفة، وكُبريات السيدات النبيلات استخدمنها مطرزة ومزدانة بكثير من الجواهر، بل وقام بعض الفرسان بتثبيت قفاز إحدى النبيلات فوق خوذته كدليل على إخلاصه لها؛ كذلك كانت القفازات جزءاً من معدات الفارس، كما غدت هذه القفازات أشياء رمزية واستخدمت كضمان مالى فى القضايا، بل كان يتم الإلقاء بها إلى الأرض كنوع من التحدى والاستعداد للدخول فى صراع أو قتال مرير.

وفى الوقت الذى كان يرتدى فيه عامة الناس الحذاء العالى الثقيل والذى يتخطى الكاحل، فإن أبناء الطبقة النبيلة كانوا يفضلون ارتداء الأحذية الخفيفة بلا كعب، واختلفت الموضة فى تلك الأحذية، وإن كانت السمة الغالبة عليها أن تكون محكمة وطويلة الرقبة، ولها مقدمة حادة. وفى القرن الرابع عشر للميلاد فإن مصممى الأحذية الإنجليز صمموا الأحذية بحيث يتم ربطها بسلسلة أو رباط من وسط أجسامهم بحيث كان يتعذر على الشخص أن يركع فى صلواته، وفى القرن الثالث عشر للميلاد كان محبو النمط الرومانى فى الأحذية ينصحون المحبين بشراء مثل تلك الأحذية المحكمة؛ لدرجة أن فلاحى العصور الوسطى كانوا يتعجبون كيف يتسنى لهم لبس هذا الحذاء أو خلعه من أرجلهم. وبعد قرن من الزمان فإن بترارك وهو يظهر حزنه على أيام الصبا، يذكر أن حذاءه كان السبب فيما أصيب به من عرج تام، بسبب ضغطه الشديد على عظام وأعصاب قدميه وتشوههما، لأنه قبل الأنماط الشائعة آنذاك. كما أن رجل الدين الذى صوره تشوسر وهو يزخرف نعله بأناقة مفرطة، كان يدرك أهمية التصميم الذى وضعه القديس بولس على شكل نافذة مستديرة مخرمة، بحيث يكشف عن ألوان الجورب البراقة.

كما أن الجيوب لم تكن قد عرفت بعد، ولذلك كان الرجال يحملون أكياساً صغيرة أو محافظ تتدلى من الأحزمة. كذلك كانت المناديل نادرة، وكان ريتشارد الثانى أول من أدخلها إلى إنجلترا فى نهاية القرن الرابع عشر للميلاد، ولذا كانت هناك بعض التفسيرات المغالى فيها. أما المجوهرات، فقد لقيت إقبالاً شديداً فى العصور الوسطى، وبخاصة لدى الرجال، وكذا كان الحال بالنسبة لاستخدام السلاسل والأختام الذهبية، بهدف توثيق الرسائل والوثائق وإضفاء الصبغة الشرعية عليها.

وكانت العباءات تحمل فوق الأكتاف ويتم تثبيتها بدبابيس زينة من الذهب ومشابك ذهبية أيضًا والتى كانت تؤدى الوظيفة التى تؤديها الدبابيس الإفرنجية فى وقتنا الحالى. كما أن الملابس كان يتم حفظها فى الأماكن المعدة لها وتثبيتها إما بواسطة تلك الدبابيس أو ببعض الأربطة. ولم تكن الأزرار معروفة، وإن كان قد عرف استخدامها فيما بعد، ويرجع أصلها إلى الصين تقريبًا، حيث كان يتم عمل هذه الأزرار وكذلك العراوى الخاصة بها للملابس الحريرية وقاية لها. وأول مصدر مبكر أشار إلى هذه الأزرار هو حادثة تتويج بلدوين من الفلاندرز إمبراطوراً فى القسطنطينية سنة ١٢٠٤م. "فالأزرار الذهبية فى مؤخرة ردائه ومقدمته كانت مفكوكة. وعندما كان صدره مكشوفًا كان يتم تكريسه، وعندما تم الانتهاء من عملية التكريس، تم إغلاق هذه الأزرار، وارتدى مرة أخرى الطيلسان، وتم تثبيت عباءته فوق كتفه ببعض الدبابيس".

أولى الأشخاصُ شديدو التأنق مظهرَ شعرِهم كثيراً من الرعاية، فكانوا يلفون شعورهم بشكل متقن مستخدمين مكواة الشعر بعد تسخينها، وأحيانًا كانوا يزينونه بالورود أو الحلقات المعدنية، وحتى فى القرن الحادى عشر للميلاد كان الشعر الطويل ينظر إليه على أنه نوع من التخنث، وكان الرجال لا يتركون شعورهم تطول أكثر من مستوى الأذنين. بالرغم من قصة الشعر التى يرسل فيها الشعر إلى الكتفين بحيث يلتف نحو الداخل، وتظهر كثيراً فى الأفلام التاريخية، إلا أن ذلك كان شيئًا مبالغًا فيه بشكل أكبر من الواقع.

ومن الطبيعى أن تختلف قصات الشعر كما اختلفت قصّات الملابس من مكان لآخر، فعلى قطع النسيج الموجودة فى متحف بايو BAYEUX يمكن تمييز النورمان والإنجليز من تسريحات شعورهم، فالإنجليز كانوا يفضلون الشعر الطويل. وفى فرنسا فى القرن الثانى عشر للميلاد كان هناك بعض الميل نحو جعل شعر الذقن على شكل خصلة من الشعر يتخللها بعض الشعيرات ذهبية اللون.

كذلك تنوعت الملابس الخاصة بالنساء، ولكن بمعدل أقل مما نشهده فى أيامنا الحالية. فالأثواب النسائية الفاخرة كانت عادة فضفاضة، وتبدو بشكل مفصل من خلال قائمة جهاز العروس، ومن خلال الوصايا التى كتبتها النساء فيما بعد، وفى نفس

الوقت فإن التغييرات التى حدثت فى الملابس قد صاحبها عدة تعديلات. وبوجه عام كانت ملابس النساء ذات ألوان براقة، ومصنوعة من أقمشة شرقية أو إيطالية الصنع، كما كانت طويلة ومتسعة. وفى بعض الأحيان وبعض الأماكن، وكما حدث فى القرن الرابع عشر للميلاد فى أفينون فإن الأجزاء العليا من الأثواب، أى صدور الفساتين كانت مقورة وشبه مستديرة، لدرجة أن الوعاظ قد علقوا على تلك الصدور العارية وأطلقوا عليها اسم نافذة الجحيم. ومثل تلك الملابس الطموحة نادراً ما كانت تظهر فى حياة القلاع الروتينية، حيث ارتدت سيدات القلعة المحافظات ثياباً بسيطة مصنوعة من الصوف أو الكتان فوق ثوب تحتانى له أكمام طويلة، مع تنورة "جيبة" أو أكثر، وأحياناً كانت تلك النساء يغطين وجوههن بخمار، وهو أصل الخمار الذى اتخذته النساء الراهبات.

كما كانت أغطية الرأس النسائية وتسريحات الشعر متقنة ومتطورة. ففى إيطاليا وفرنسا كُن الفتيات يتركن شعورهن بلا عصائب حتى سن الزواج، ويقمن بتمشيطه وتقسيمه إلى ضفيرتين، أو يقمن برفعه على شكل كعكة مستديرة فى موخرة الرأس وهو ما يعرف بالشينون Chignon، ويربطنه بعصابة أو تاج من الزهور. وكانت الشباك ذهبية اللون والحلى المستديرة الخاصة بالشعر شائعة الاستعمال، وكذلك نثر ذرات من مسحوق بلون الذهب على الشعر، أو استخدام بعض الحلى لزينة شعر الرأس وكذلك اللآلئ المتدلية ؛ كما يبدو أن تسريحة الشعر على شكل ذيل حصان كانت من الأمور المفضلة لدى كثير من الرسامين، والتى ظهرت فى القرن الخامس عشر للميلاد. وكانت المرأة المسئولة عن الحمام تضع على رأسها طرحة تزن حوالى عشرة أرطال، ومن المؤكد أن هذا نوع من المبالغة الشعرية "كما أنها كانت ترتدى زوجاً من الجوارب المحكمة من اللون الأحمر اللامع". وفى إيطاليا لقى الشعر الأشقر استحساناً كبيراً، لذا قضت النساء أوقاتاً طويلة بالنهار لتعريض شعورهن للشمس، كما كن يرتدين قبعات صغيرة. ومثل هذه الممارسة قيل إنها كانت تسبب كثيراً من الضرر للمخ وتعرض أرواح الناس للخطر، هذا فضلاً عن أن استخدام صبغات الشعر والمساحيق، وأحمر الشفاه كان محل استنكار من الجميع.

وكانت مشكلة تنظيف وغسل الملابس من المشكلات العويصة، ذلك لأن العالم كان مليئًا بكل أنواع القاذورات، فالثريات كانت تسقط كثيراً من الشموع، كما أن الآنية كان يتشبث بها مرق اللحم ويتساقط على من يحملها، والنبيذ يمكن سكبه على يد الخدم الذين لايتقنون عملهم بحيث يلوث ثياب الشاربين. ولم يكن قد تم اختراع التنظيف الجاف حتى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد. وقامت سيدات العصور الوسطى بتنظيف الملابس من البقع الدهنية بدعك الأقمشة بالتراب المبلل بمحلول القلى المستعمل فى صناعة الصابون، أو بنقع الملابس فى نبيذ دافئ لمدة يومين.

كما كانت النساء يقاومن عثة الملابس عن طريق نفض الملابس بانتظام وكذلك باستخدام الفرشاة، وتعريضها لأشعة الشمس، وحفظها بوضع أوراق نبات الغار معها فى صندوق من خشب السرو ؛ كما كان يتم طرد الذباب والحشرات الطائرة باستخدام منشة من القش، كذلك كان لديهن ناموسيات والكثير من الأدوات لمكافحة الباعوض، ومع هذا فإن الحشرات المنزلية والعديد من أنواع الهوام كانت كثيرة جدا بدرجة تفوق الخيال، وتتكاثر بشكل كبير كما هو الحال فى أيامنا. ومما لاشك فيه أن الحضارة الحديثة لها فضل كبير فى القضاء على كثير من الحشرات والآفات، لدرجة أن الكثيرين من شبابنا لم يعودوا يعرفون الكثير منها، بل لم يقدر لأحد منهم أن يرى مثلاً بق الفراش أو القمل.

وعلى النقيض من الأساطير الشعبية، فإن إنسان العصور الوسطى كان يعشق الحمّامات، ومن المحتمل أن الناس كانوا يستحمون أكثر مما كان عليه الحال فى القرن التاسع عشر للميلاد، حسبما يذكر عالم العصور الوسطى لين ثورندايك Lynn Thorn-dike: فبعض القلاع كان بها غرف خاصة بجوار المطبخ حيث قامت السيدات بالاستحمام فى جماعات. وكان يتم جلب المياه الساخنة المعطرة بالروائح أو بأوراق الورد إلى سيدى اللورد فى حجرة نومه، ويتم صبها فى إناء على شكل نصف برميل به كرسى بلا ذراعين، حتى يتمكن المستحم من أن يجلس فى الماء أطول مدة ممكنة. وفى المدن كانت هناك حمامات عامة أو "مواخير" للعامة.

أما عن الصابون فمن المحتمل أن يكون قد تم اختراعه فى الشرق وتم جلبه إلى الغرب فى وقت مبكر من العصور الوسطى. ولقد كان هذا الصابون من النوع الناعم،

كما لم تكن قدرته على التنظيف كبيرة. وعادة ما كان يتم صنعه فى الورش الصغيرة من دهون لحوم الضأن المتراكمة، بالإضافة إلى نشارة الخشب والبوتاس، وصودا طبيعية. وربما استخدمت النساء فى المغاسل محلولاً من القلى الذى يستخدم فى صناعة الصابون وتراب الأرض أو الصلصال الأبيض.

وعادة ما كانت هذه المغاسل تعمل بجوار مجارى المياه،حيث تقوم النساء الغسالات بضرب الأقمشة بألواح خشبية عريضة؛ فبعد فترة تجمد المياه فى الشتاء جرت العادة بأن تقوم هؤلاء النسوة بغسل أكوام الملابس فى الربيع، بعد تفريغها من السلال التى كانت تخزن فيها، وغالبًا ما تحتوى على بعض الحشرات والحيوانات القارضة من فئران وغيرها. أما الصابون الصلب فقد عرف فى القرن الثانى عشر للميلاد، وكان يعتبر من السلع الكمالية، وتم صنعه من زيت الزيتون، والصودا، وقليل من الليمون، مع بعض الأعشاب العطرية. وكان يتم تصنيعه غالبًا فى المناطق الجنوبية من القارة حيث تكثر زراعة الزيتون، وبوجه خاص فى إسبانيا، وهناك اشتهرت قشتالة بصابونها فائق .

كما كانت الحلاقة صعبة، ومؤلمة، ونادرة، وذلك لأن الصابون وأمواس الحلاقة لم تكن على درجة كبيرة من الكفاءة، وبحيث بدت أمواس الحلاقة وكأنها سكاكين للنحت، وربما استخدمت هذه السكاكين كبديل عنها عند الحاجة، ومن المحتمل أنها كانت قديمة وكئيبة المنظر. وحتى مقصات الشعر كانت فى حالة يرثى لها. فالمقصات كانت من ذلك النوع الذى يحتاج إلى ضغط شديد، تماماً مثل تلك المقصات التى كانت تستخدم فى قطع الحشائش، كما كان يتم جذب طرفيها عن بعضهما البعض بشدة. وعلى الرغم من أنه بحلول القرن الثالث عشر للميلاد كان هناك بعض أفراد من الطبقة الأرستقراطية الذين استخدموا فرشا للأسنان، إلا أنهم استخدموا إناء على شكل البندقة فى غسل الأسنان بعد دعكها وتنظيفها ثم تجفيفها بمنشفة من الصوف..

كما تم عمل مراحيض فى أماكن منعزلة فى أسوار القلعة، وهناك العديد من الأمثلة على تصريف ما بها من مخلفات مباشرة فى الخندق المائى المحيط بأسوار القلعة، إلا أن عملية التصريف هذه كانت نادرة لأسباب صحية. وحيث لم يكن هناك

ورق تواليت، فقد تم استخدام عصا معدة خصيصًا لهذا الغرض عادة ما كان يتم وضعها فى سلة.

كذلك لم يكن أحد فى القلعة يعرف على وجه اليقين كم هو الوقت، بل كان الجرس الذى يدق فى كنيسة القرية كافيًا كإشارة للتعريف بالوقت لمعظم الناس. وكان يتم تقسيم الليل والنهار كل منهما إلى اثنتى عشرة ساعة، تبدأ بشروق الشمس وغروبها، لذا فإن طول الساعة أو الدقيقة اختلف من يوم لآخر، ومن خط عرض لآخر. أما الساعات المائية فقد كانت معروفة منذ العصور القديمة، لكن يبدو أنها كانت معرضة للتجمد أو للتبخر. وفى الفترة الباكرة من العصور الوسطى كان الزجاج نادرًا لدرجة لم تسمح باستخدام الساعات الزجاجية، ولقد قام ألفريد الكبير بابتكار جهاز استخدم فيه شموعًا من حجم ثابت، لقياس الوقت، كذلك كان على الراهب المكلف بإيقاظ إخوته الرهبان لصلوات منتصف الليل، أن يحسب الوقت بعدد الصلوات التى يرددها، والصفحات التى يقرؤها، أو الشموع التى يستهلكها فى الإضاءة، وإذا أخطأ فى ساعة أو ما شابه ذلك، فلم يكن أحد يعبأ بما حدث. وفى القرن الرابع عشر أصبحت الساعة الميكانيكية شائعة الاستعمال على شكل ساعات عملاقة توضع فى أبراج المدن، وغالبًا ما كانت تأخذ مظهرًا براقًا استعراضيًا، وأشكالاً جميلة.

كان اليوم فى القلعة غالبًا ما يبدأ عند الفجر بصلوات الصباح، يلى ذلك تناول طعام الإفطار، وفى إيطاليا كانت وجبة الإفطار قليلة، أما فى انجلترا فإن أبناء الطبقة النبيلة كانوا يحتاجون إلى كمية طعام كبيرة. وكان طعام آخر الليل هو أهم شىء فى اليوم، والذى يتم تجهيزه حوالى الساعة العاشرة مساء، بعد أن يكون النبلاء قد انتهوا من أداء كل أعمالهم الضرورية. وكان يتم الإعلان عنه بواسطة أحد الأبواق، فيدخل الضيوف المميزون، وتنهض السيدات ويقدمن انحناءة احترام وأيديهن مبسوطة ثم يجلسن مرة أخرى. ويصحب السيد ضيفه ممسكًا بأحد أصابعه للحظة، ويتم تبادل القبلات الرقيقة، ويتم إحضار إبريق ماء برونزى على شكل حيوان غريب، وصينية لتكريم الضيف وليقوم بغسل يديه، أما الآخرون فإنهم يغسلون أيديهم فى حوض الماء ويجففونها بمنشفة طويلة، والتى من المحتمل أن تصبح شديدة البلل بل والسواد.

ويتم تقسيم الضيوف وفق نظام متبع، ففى المقدمة يأتى كبار الزوار من رجال الدين، ثم الفرسان الزوار، ثم عائلة اللورد. وعادة ما يأخذون مقاعدهم إلى منضدة طويلة يتم وضعها إلى جوار الحائط بشكل يعلو غيرها من المناضد، وبحيث يطلون على غيرهم من الحاضرين الذين يجلسون على مناضد متعامدة مع تلك المنضدة، وهذا هو الترتيب الذى كان معمولاً به فى قاعة أوكسفورد، أو فى أى مأدبة تقام فى كل مكان. وعادة ما تزدان المنضدة الرئيسية بأشياء من الفضة مثل الملاّحة، أو سفينة فضية بها التوابل، والسكر، وبعض الأوانى ذات الفتحات الصغيرة، وطاسة كبيرة كانت تصنع من خشب القيقب، أو الإناء الخاص بشراب الوسال (*) Wassail، وعند منضدة الملك يجب أن ينحنى كل شخص يمر بها، كما ينحنى أمام وعاء القربان المقدس aholy mon-strance، كذلك يشترك كل ضيفين فى إناء خشبى أو صينية خشبية – وكما كان يفعل طلاب جامعة هارفارد فى القرن السابع عشر للميلاد – كذلك كانت الأوانى الفخارية قليلة الاستعمال فى الشمال. فأول ذكر لها فى انجلترا جاء فى القرن الرابع عشر للميلاد، وهى التى تم جلبها من إسبانيا، تماماً مثل البرتقال الذى تم شحنه بالسفن، أما الفناجين التى كانت توضع على المناضد فكانت مصنوعة من البيوتر(**) Pewter، والخشب أو العاج.

أما الأغنياء جداً فقد كانت لديهم أكواب مصنوعة من مواد غريبة مستورة، ومن جوز الهند، والقرع، وبيض النعام أو العقيق. أو الورق تقن الصنع، كذلك كان يتم تزويد الضيوف بالملاعق، إلا أنه كان من المحتمل أن يحملوا معهم سكاكينهم الخاصة بهم، أما الشوك فقد كانت نادرة، لدرجة أنه فى القرن الرابع عشر كان البابوات فى أفينون لديهم القليل منها، على الرغم من أنها كانت من الذهب أو الكريستال.

وعادة ما يبدأ تناول الطعام بتمجيد الرب، ويتم حمل الطعام مباشرة من المطبخ إلى صالة الطعام فاتراً، حيث يقوم الخدم بالاقتراب من المنضدة الرئيسة – فى جزئها

(*) شراب إنجليزى مسكر، يُحتَسى فى عيد الميلاد . (المترجم).

(**) خليط من عدة معادن، مقومها الأساسى هو القصدير . (المترجم).

الخالى من الضيوف - وهم يحملون ما يقدرون عليه من أنواع الأطعمة. وربما قدموا اللحم المشوى الطيب والنار مضرمة فيه لأحد صغار النبلاء ليقطع قطعة من اللحم بالسكين المعد لذلك. إلا أن معظم الطعام كان مقطعًا إلى قطع صغيرة أو مفرومًا فرمًا دقيقًا، إذ كان من العسير تقطيع اللحم على مائدة الطعام دون وجود شوكة يتم بها تثبيت اللحم. كما قام الخدم بتوزيع الخبز على الحاضرين، كذلك كان السيد النبيل يقوم بالتقاط قطع صغيرة من الخبز بأصابعه ويقدمها لضيوفة بكثير من الغبطة، كما كان الطرفان الضيف والمضيف يتناولان النبيذ من كأس واحدة "**اترك لى قبلة ولكن على الكأس، ولن أطلب المزيد من النبيذ**" ولم يكن أحد فى حاجة لأن يطلب المزيد من النبيذ، لأن الكأس تكون مملوءة باستمرار. فضلاً عن أن التوابل بها كانت تغرى أى شخص بأن يشرب منها أكثر مما يريد. وكانت آداب تناول الطعام مرعية تمامًا، وهناك الكثير من الكتب التى تحث القراء على أى ينحتوا العظام بأسنانهم، أو يضعوا الزبد فى الخبز بأصابعهم، أو أن يثقبوا البيض بأصابعهم، وألا ينشفوا سكاكينهم أو أسنانهم بمفرش المائدة، أو أن يسكبوا شيئًا على المائدة.

وعقب انتهاء ذلك الطعام الطويل كان يتم جمع الخبز وإعطائه للفقراء، بينما يتم جمع العظام والمتخلفات من الطعام وإلقاؤها إلى الكلاب الضالة، على الرغم من أن مثل هذا السلوك كانت الآداب العامة وقواعد التشريعات لا تشجع عليه وتستنكره. ثم يقوم الضيوف بغسل أيديهم مرة أخرى فى الحوض، ثم يخرجون للصيد، أو يتسلون ببعض الألعاب المسلية، أو يستسلمون للنوم. وكان طعام العشاء خفيفًا ويتم تناوله عند غروب الشمس، وكان هذا هو الوقت المناسب للاستماع إلى الغناء وممارسة الرياضة، وبعدها يقوم السيد بفحص الأبواب ووسائل الدفاع، ويتأكد من أن الحارس يقظان، فيرجع ليستريح، ويصلى، ويغسل قدميه، ويخلع ملابسه ويعلقها على شماعة، ويضع قميصه بعد طيه خلف المسند ويدخل فى فراشه.

إن طعام العصور الوسطى كان يعد مؤشرًا مهمًا على التمايز الطبقى، فالنبلاء كانوا يأكلون اللحم والخبز الأبيض ويشربون النبيذ، بينما كان الفلاحون يتناولون العصيدة والثريد، واللفت، والخبز الأسمر، وفى الشمال كانوا يشربون الجعة أو البيرة،

وفى ألمانيا كانت هناك بالفعل مجموعة أصناف للطعام للطبقات المختلفة. ومثل هذا التمايز الطبقى فى الطعام لم يعد موجوداً الآن، حيث نرى السيدات وأبناء الطبقات العاملة يقومون فى محلات السوبر ماركت بدفع عربات الترولى وعليها ما يختارونه من مختلف السلع، كذلك فإن رؤساء الدول الآن يقومون بتقديم نقانق الفرنكفورتر لرؤساء الحكومات والدول، ومع هذا فمازال الكافيار، والشمبانيا، وطيور الحجل يتم تقديمها لبعض أبناء الطبقة الأرستقراطية القديمة.

كما يتم تقديم اللحوم والطيور بأشكال متنوعة جداً، بحيث يتم أكل جميع أنواع لحوم الطيور، من طيور الزرزور وحتى طيور النورس، ومالك الحزين "البلشون" واللقلق(*)، والغاق(**) بل وحتى النسور، كذلك فإن الحيوانات يتم تقطيعها وطهيها فور ذبحها أو صيدها، أو يتم تمليحها وتخزينها لوقت الحاجة، كما كان لحم الخنزير يلقى إقبالاً كبيراً باعتباره من أحسن اللحوم التى يفضلها الناس، كذلك كان يتم شوى لحوم الطيور بعد إضرام النار تحتها، إلا أن معظم اللحوم كان يتم سلقها، وذلك راجع لأن الخراف كانت قادرة على الطواف لمسافات كبيرة، وحيوان الأيل سريع العدو، والدجاج البرى، لذا كان من المتوقع أن تكون لحومها عسيرة المضغ وتحتاج لمدة طويلة لطهيها. كذلك كان يتم استخدام لحومها فى عمل بعض الأطباق بعد فرمها بحيث تكتسب طعماً طيباً بعد مزجها بالتوابل، وخصوصاً الفلفل الأسود أو المستردة والثوم. "**فلقد أثارت رائحة الثوم سكان القسطنطينية ضد الفرنسيين أثناء فترة الحروب الصليبية**".

إن الوجبات التى كانت تتكون من اللحوم والفطائر سببت الكثير من الاضطرابات الجلدية، واضطرابات وسوء الهضم، والعدوى بسبب تعفن أو فساد البروتينات، ومرض الإسقربوط، وتلف الأسنان. "إذ كان العلاج الشائع لآلام الأسنان هو اقتلاع الأسنان التالفة؛ لذلك فإن كبار السن كان لديهم القليل من الأسنان، والتى اعتبرت كنزاً كبيراً".

(*) اللقلق : طائر طويل الساقين والعنق والمنقار . (المترجم).
(**) الغاق : طائر مائى ضخم نهم، تحت منقاره جراب يضع فيه ما يصيده من الأسماك. (المترجم).

فضلاً عن أن الصوم الكبير باعتباره يحرم أكل اللحوم كان علاجًا ممتازًا بكل المقاييس، واستخدمت الأسماك كبديل عن اللحوم، فقد كان للقلاع والأديرة مصايد الأسماك الخاصة بها، وكان ممنوعًا على الفلاحين حتى أن يغطسوا فيها. وتم تناول كل أنواع الأسماك، من كلاب البحر، وخنازير البحر "الدولفين" وعجول البحر "الفقمة" والحيتان التى كان يتم استيرادها من البحر المالح.

كذلك فإن معظم ما لدينا الآن من خضراوات كانت معروفة آنذاك باستثناء البطاطس، والطماطم، والذرة الهندى، إلا أنها كان ينظر إليها بازدراء على أنها أطعمة العامة. أما العدس والخيار فكانا يعتبران من الأشياء الضارة أو الكريهة. كذلك كانت فواكهنا مألوفة، على الرغم أنها كانت أصغر حجماً، وربما كانت ألذ طعماً مما هى عليه الآن. ومن وجهة النظر الطبية كانت هذه الفاكهة لا تؤكل طازجة، إنما كان يتم تناولها بعد وضعها فى العسل أو طهيها مع المعجنات. ومثل هذا العمل كان مكلفًا بسبب نقص مواد التحلية، وإن كان السكر كان يتم استيراده كسلعة كمالية منذ القرن الثانى عشر للميلاد فصاعداً. وكان الناس يفرحون بأنواع السكر الملون القادم من الإسكندرية، ويقدرون الكعك، والبسكويت، ورقائق الحلوى المغطاة بالسكر أو الشيكولاته، وكذلك الوفل Waffle (*) وأنواع الجيلى Jellies.

وحظيت أطباق الطعام بكثير من الاهتمام من حيث مظهرها، ونسمع عن أحد الطهاة الفنانين من أنه كان يحب أن يقدم طاووساً مطبوخًا بكامل ريشه، ناشراً نيله، أو بجعة جسمها فضى اللون، ومنقارها ذهبى اللون، وهى تسبح فى بركة خضراء من المكرونة، أو فطيرة، وعند تقطيعها تخرج منها طيور صغيرة مذهلة، تنقض عليها صقور النبلاء، أو أن يقدم تمثالاً من العجين، والجيلى والسكر، يسمى "الترقة Sub-tlety" أو بعض الأشياء غير المألوفة مثل الأصلة (**)، رأسها والربع الأمامى من جسدها على شكل تمساح تم لصقه إلى جسم ديك والعكس. كما تم تقديم العديد من

(*) الوفل : نوع من الكعك يعد من دقيق وحليب وبيض، ويحمص فى أداة تحميص خاصة . "المترجم".
(**) الأصلة : حية خرافية، إذا نظرت إلى إمرئ صرعته . "المترجم".

هذه الابتكارات للبابا فى سنة ١٣٠٨ على يد اثنين من الكرادلة، منها ما هو على شكل قلعة من العجين تضم حيوان الأيل مشوياً، وشجرتين صالحتين للأكل، تحملان بعض الفاكهة والحلوى، ونافورة يخرج منها خمسة أنواع من النبيذ. وفى سنة ١٤٤٣م فإن أسقف كانتربورى الجديد استمتع بعمل قدم له يمثل الثالوث المقدس مع القديس أوغسطين والقديس توماس بيكيت.

وكان لإيطاليا دائمًا - وكما هو الحال - طابعها الخاص فى المأكولات، فالطبق الرئيسى كان المينسترون Minestrone (*) الممزوج بعديد من أنواع الجبن، واللوز، والقرفة، والقرنفل. كما أن أنواع المكرونة الحديثة كانت مستخدمة على نطاق كبير، ولها أسماء عديدة. أما فى لمبارديا فكانت أطباق الأرز المطهو مع اللحم والجبن، وأنواع أخرى من الأرز مشهورة ومعروفة على نطاق واسع قبل أن تعرف البلدان الشمالية الأرز.

وبالنسبة للمشروبات، فقد كان النبلاء يشربون النبيذ فقط. وغالبًا ما يتم تخفيفه بالماء أو يتم مزجه بالعسل، أو الخل، أو القرفة لإضفاء طعم لذيذ عليه، أما شرب الماء بمفرده فقد كان ينظر إليه بنوع من الاستهجان، ولم تكن هناك مشروبات ساخنة باستثناء تسخين النبيذ وتحليته وإضافة التوابل إليه فى الأعياد والمناسبات المختلفة. وكان الرهبان يفضلون شراب الميد Mead (**)، والعسل الذى يتم تخميره بالماء وتعطيره ببعض النباتات العطرية. أما المشروبات الكحولية المقطرة فلم تكن شائعة قبل نهاية العصور الوسطى، على الرغم من أن علم الكيمياء كان يمارس كثيراً من عمليات التقطير.

وبعد وجبة المساء، ربما اجتمع الحاضرون فى القلعة لمشاهدة أحد العروض والحفلات التى يقدمها بعض المغنين والحواة، ولاعبى البهلوانات المثيرة، أو التى يقوم بها أصحاب الملاهى باستخدام الكلاب المدربة، أو القردة، أو ربما كانوا يستمعون لأحد

(*) المينسترون : حساء كثيف من الخضر والمكرونة . "المترجم".

(**) الميد : شراب مخمر يعد من عسل وشعير وخميرة . "المترجم".

الرواة وهو يروى لهم بعض أمجاد الماضى وعجائبه. وربما توقف للحظة عند نقطة مثيرة، ليقول : من يريد الاستمتاع بالمزيد فعليه أن يفتح كيسه. وربما استمعوا إلى أحد المغنين وهو ينشد بعض أعمال البطولات الماضية، أو يردد بعض مقاطع من الشعر الرومانسى بمصاحبة أحد الألحان، أو يقص عليهم إحدى القصص المطولة، ويكرر من وقت لآخر عبارة تتكرر على نحو موصول فى قصيدة أو أغنية وهى القرار أو اللازمة، حيث يشارك فى ترديدها المستمعون فى بهجة وسرور.

وعندما لا يجد السادة والسيدات من الطبقة النبيلة أحد محترفى التسلية، فإنهم يقومون بتسلية أنفسهم بأنفسهم. فقد كان لديهم البلياردو، وكذلك لعبة التسع بنسات التى يحاول فيها أن يلمس البنسات بعصا ملتوية، كما كان لديهم لعبة بدائية تشبه لعبة التنس ولها كرة مصنوعة من الجلد. كذلك كانوا يلعبون بعض الألعاب التى أصبحت الآن هى ألعاب الأطفال، مثل لعبة الاستغماية، ولعبة الكوكل Cockle (*)، ولعبة دقى الجرس دقة أيتها الورود. فيرقصون بشكل متقن، كما فى رقصة المشعل والتى يقوم كل مشارك فيها بحمل فتيل طويل ويحاول جاهداً ألا يجعل الآخرين ينفخون فيه لإطفائه. كذلك كانوا من الراسخين فى لعبة الشطرنج، وللأسف ليس لدينا أية معلومات عن أبطالهم فى هذه اللعبة، كذلك كانوا يقامرون بالنرد، لكى يرضوا أنفسهم ويقلدوا الرسل عندما يلقون بالكثيرين ليختاروا خليفة ليهوذا الإسخريوطى الذى خان المسيح. ولأن العناية الإلهية هى التى تقرر كل شىء، فإنهم كانوا يطلقون على لعبة النرد: لعبة الرب. وفيها يقامر المغامرون حتى بملابسهم. وفى إيطاليا فقد رخصت القومونات بفتح محلات خاصة للمقامرة بالنرد، والتى غالبا ما كان أصحابها عدداً من المقامرين، وطاولة يقذفون عليها مكعبات الزهر. هذه اللعبة أثارت الكثيرين مما ساعد على انتشار العنف، وعمليات الانتحار، ومحالفة الشيطان. وجرت عادة من يخسر أن يقذف صورة العذراء بالحجارة، لأنها لم تساعده على الكسب. ويقال إن أحد الخاسرين أطلق سهمًا عاليًا إلى الرب، فعاد السهم ملطخًا بالدماء. أما لعب الورق فربما لم يتم التعرف عليه حتى القرن الثالث عشر للميلاد، ولم يصبح شائعًا إلا عندما

(*) حيوان من الرخويات ذو صدفتين على هيئة قلب . "المترجم".

تقدمت الطباعة، وتمت طباعة العديد من الرسومات والصور على ظهور الكروت المستخدمة فى اللعب. **«فصورة الملكة "البنت" والشايب مستمدة من النماذج التى شاعت أواخر القرن الخامس عشر الميلاد».**

كما كان الصيد أهم أنواع رياضات طبقة النبلاء، وفى الفترة الباكرة من العصور الوسطى كان الصيد ضرورياً كمورد للطعام ولم يكن وقفًا على طبقة بعينها أو احتكاراً لها، وشيئًا فشيئًا أصبح وقفا على طبقة النبلاء، وتطورت النظم الخاصة به إلى ما نعرفه عنها، وكانت الغزلان هى أهم الفرائس التى يسعى إليها النبلاء، ففى كل سنة كان يتم ذبح ثمانية ذكور من الظباء فى غابة وندسور، وتوضع فوق مذبح كنيسة ويست منستر كهبة من موسم الصيد. وشاركت نساء الطبقة النبيلة الرجال بالخروج معهم، حيث كن يمتطين الجياد بمفردهن ويمشين بجوارهم، كما كانت قوانين الصيد شديدة الوطأة على الفلاحين، من ذلك أن هنرى الثانى ملك انجلترا كان يعاقب كل فلاح يقوم بقتل أحد الغزلان وكأنه قتل إنسانًا، فكان يعاقبه بالشنق أو بتر أحد أعضائه. وكانت الغزلان تلتهم محاصيل الفلاح بلا خوف، وربما أتى الصيادون النبلاء على ما يتبقى، وعلى الرغم من أننا نتعاطف مع الفلاحين، إلا أنه يجب أن نوضح أن القيود التى وضعت على حقوق الصيد قد وفرت الحماية لأنواع كثيرة من المخلوقات البرية.

كذلك كان القنص من أهم مباهج طبقة النبلاء، فمدربو الصقور كانوا على درجة كبيرة من الخبرة فى رعايتهم لتلك الصقور، وفى تغذيتهم لها وتدريبهم إياها.. فالملك جون، ملك انجلترا يؤكد أن الصقورالخاصة به كانت تتغذى على الحمام، والدجاج والخنازير، فضلاً عن أن أى شخص يعثر على صقر ضائع ويفشل فى إعادته إلى صاحبه، فقد كان يعاقب بشدة، وكان مسموحًا لكل صقر بأن يتناول ست أوقيات من لحم صدر طريدته، كما اعتاد الفرسان والسيدات النبيلات أن يضعوا على أكفهم أفضل صقورهم وعلى رؤسها الغماء، أو يضعونها خلفهم عند تناولهم الطعام . وهناك الكثير من القصص عن الأساقفة والقساوسة الذين كانوا يحضرون معهم إلى الكنيسة صقورهم، ويتركونها تلتهم ما فوق المذبح بعد ربطها فى سياج المذبح. وبعض النبلاء كانوا يعمّدون صقورهم برشها بالماء المقدس قبل قيامها بالصيد، سائلين العذراء

التوفيق، وبعضهم قام بزيارة بعض الأماكن المقدسة سائلين الشفاء لبعض صقورهم المريضة.

وحيث إن عمل الفارس الأساسي هو القتال، فإنه كان يمارس عمله هذا سواء في الرياضة أو في ألعابه، فقد كان كثيراً ما يتدرب على أعمال الفروسية والدفاع، حيث يمتطي فرسه ومعه رمحه، موجهًا ضرباته إلى عمود أو هدف، أو تمثال يرتدي بدلة الزرد ويحمل درعًا، ويوجه له طعناته، وأحيانًا كان هذا التمثال يمسك سيفًا في يده، ويدور في مدار أو محور بحيث يصيب المهاجم في ظهره، أو يحاول الفارس وهو على جواده أن يلتقط حلقة مستديرة صغيرة برمحه، ويقال إن هذا هو الأصل في لعبة الحلقة الحديثة، والتي يحاول فيها الخيّال التقاط الحلقة على أمل أن تكون من النحاس الأصفر، وبذلك يصبح من حقه ركوب الفرس مجانًا.

وكانت المبارزة هي أفضل أنواع الألعاب لديهم، وفيها يؤدون حركات تقليدية متفق عليها، وكأنهم في شبه معركة. على الرغم من أن أصولها تعود إلى أزمنة غابرة، إلا أنها انتشرت بشكل واسع النطاق، عندما تم وضع بعض القيود على الحروب الإقطاعية في القرن الثاني عشر للميلاد، وكبديل عن حالة السأم والضجر التي عمت الفرسان من عدم خوض المعارك الدامية التي كانوا يعيشون عليها، حيث كانت الحشود تجتمع، وتنقسم إلى أقسام كل قسم منها يشجع أحد المتبارزين، وعندما يعطي حكم المباراة إشارته يلتحم الطرفان برماحهما منكّسةً، وكان على من يسقطون عن جيادهم أن يستمروا في الكفاح وهم على الأقدام، كما كان مسموحًا بأي شكل من أشكال الاستراتيجية التي تحقق الفوز، وكان المنتصر يطارد المنهزم إلى خارج الحلبة حتى يتم له أسره. ومما يحكى أن أحد الفرسان استسلم فأعطى الفائز عليه وعداً بعدم الهرب وألا يحمل السلاح في وجهه، ثم قام بتسليم فرسه وسلاحه، أو فدية من المال نظير فك أسره. كما كان الأتباع يقومون بجر من يسقط من فوق فرسه، وهم كثيرون، ففي إحدى المباريات بالقرب من كولون Cologne قتل أكثر من ستين فارساً.

ولقد عارضت الكنيسة حلقات المبارزة هذه، ولم تكتف بالطعن في التدريبات الخاصة بها، بل قدمت بديلاً نشطاً عنها وهو الحروب الصليبية، ومع هذا فلم تكن

تعاليم البابوية والملكية التى تحرِّمها مؤثرة، وكل ما استطاعت أن تفعله هو أنها خففت من معاركها الدامية وجعلتها نوعًا من استعراض القوة، مما ساعد فيما بعد على تقليل عدد المتبارزين، بل إنهم غدوا يتبارزون بسيوف ورماح غير حادة، وأصبح كل هدفهم هو الاستيلاء على رايات وشارات خصومهم. كما أصبحت الأسلحة أكثر ثقلاً ووقاية عن ذى قبل، وكانت السيدات النبيلات يحضرن هذه المباريات ويشجعن فرسانهن ذوى البسالة ويغدقن عليهم الكثير من الجوائز.

وتحولت مباريات المبارزة هذه إلى استعراض للمثاقفة أو الالتحام بين الفرسان، وكانت بذلك عبارة عن لعبة لإبراز المهارة، وليس القتل. وقام المتبارزون بحمل الرماح التى بلغ طولها اثنى عشر قدمًا، وبلغ وزنها حوالى العشرين أوقية، ووضعت تلك الرماح إلى الجهة اليمنى من الصدر، وكان الفارسان المتبارزان يلتقيان فى حركة بطيئة، وكانت الفكرة أن يتمكن كل منهما من أن يلمس صدر أو رأس الخصم بشكل قوى، فى الوقت الذى يحمى فيه كل منهما صدره بدرع، كما يحاول أن يطرح خصمه من فوق فرسه، ولأن الأسلحة كانت رقيقة ومستديرة، ولأن يدى الفارس منهما لم تكن حرة لأن يقود فرسه، فلم تكن عملية الإطاحة بالخصم من على فرسه عملاً بطوليًا أو فذًا، كما كانت الفرص متساوية، بل لعلها كانت أكبر لدى من يتدرب أكثر، أو الأكثر رشاقة والذى كان فى مقدوره إظهار براعته فى الصراع. ونسمع أن وليام مارشال الشهير قد ربح اثنى عشر فرسًا فى مناسبة واحدة، كما أنه استطاع مع رفيق له أن يأسر ثلاثمائة من الفرسان فى موسم واحد.

وبمرور الوقت تحولت مباريات الفروسية إلى نوع من الاحتفالات التى تقام فى الأعياد، يتخللها الرقص، يشارك فيها المشتغلون بتربية الخيول، وصناع الأسلحة، وصناع عدة الفرس، كما شارك فيها أيضًا المرابون، ورواة القصص والداعرون. وتجنب الاشتراك فيها كثير من النبلاء بسبب ارتفاع التكاليف، أو بسبب نقص الثقة والشجاعة. أما المشاركون فيها فكانوا يصنعون رماحهم بحيث تكون من النوع الردىء الذى يتحطم عند أول لمسة، كما أن المبارزة نفسها أصبحت تؤدَّى بطريقة هزلية

وساخرة تؤدى إلى الضحك، كما حدث فى مدينة عكا سنة ١٢٨٦م، عندما أخذ الفرسان يتبارزون وهم يرتدون ملابس نساء الطبقة النبيلة أو ملابس الراهبات.

وعندما يجد الفارس نفسه وقد تشبع من كل الألعاب، فإنه يجلس فى سكينة ووقار، ويطيل التفكير فى خطاياه، وعندها يتقرب إلى الرب فيبنى إحدى الكنائس ويزينها، ويغدق الأموال لإقامة الصلوات على روحه لإنقاذها، وغالبًا ما يقدم إقطاعًا لهذه الكنيسة أو تلك من أجل أن يتم تكفينه فى رداء أحد الرهبان. وفى ذلك يقول المؤرخ جنيفيف دى هوكورت : "إن الكبار كانوا يحبون أن يدفنوا فى إحدى الكنائس أو فى مدفن تحت الأرض تحت أحد عقودها، أو تحت سلم المذبح، وكنوع من الندم والتوبة بعد وفاة المرء، فإنهم كانوا يحبون أن يدفنوا تحت أقدام الكهنة. وإذا فشل المسيحى فى الحصول على تصريح بالدفن فى الكنيسة نفسها، فإنه يطلب أن يسمح له بالدفن تحت أسوارها، حتى تقوم مياه الأمطار المتساقطة على سقف الكنيسة وصرحها بمباركة جسده عندما تنحدر إلى قبره".

هؤلاء النبلاء هم المتواضعون، أما السواد الأعظم منهم فلم يتخلوا عن اعتدادهم بالنفس، حيث نرى فى آلاف الكنائس صورهم أو تماثيلهم الشخصية وهم يرتدون أفخر أسلحتهم، وسيوفهم متدلية من خصورهم، وزوجاتهم تقف إلى جوارهم، وكلابهم تحت أرجلهم، مستعدة لأن تنهض، وهم مستعدون ليوم الحساب.

الفصل الخامس

عصــر الإيمــان

كتب أحد الأساقفة الفرنسيين يقول : "إن بيت الرب مخصص لثلاث فرق، الأولى تصلى فيه، الثانية تحارب فيه، الثالثة تعمل فيه". هكذا كان العالم المسيحى فى العصور الوسطى الباكرة مقسمًا إلى ثلاث طبقات اجتماعية، هى : رجال الدين، والنبلاء، وعامة الناس. "إذ لم تكن الطبقة البورجوازية قد وجدت بعد"، ويحب الوعاظ أن يقارنوا ما بين طبقات المجتمع والجسم البشرى، فيقولون إن رجال الدين هـم بمثابة الرأس والعينين للجسم، والنبلاء بمثابة الذراعين واليدين، أما العامة فهم بمثابة الرجلين والقدمين، وبما أن الرأس هى المحركة لكل الجسم البشرى، فإن الكنيسة زعمت لنفسها الحق فى إدارة المجتمع والتحكم به، وكما تحاول أن تفعل فى أيامنا هذه باستثناء بعض الأمور الدينية والسياسية، مثل حالات المورمون Mormons (*) وغيرهم من المنشقين عن الكنيسة.

وقامت الكنيسة بكثير من الوظائف التى تقوم بها الدول الحديثة، حيث شهدت المحاكم الكنسية كثيراً من القضايا المدنية والجنائية بما فيها القضايا الخاصة برجال الدين، وأصدرت أحكامها فى كثير من الأمور مثل حالات الزواج والطلاق، والميراث، وكانت قراراتها ملزمة ونافذة، وأشرف على تنفيذها كثير من كبار الحكام والموظفين. كما كانت الكنيسة وحدها هى المؤسسة المشرفة على التعليم والمواد الدراسية وإصدار

(*) المورمون : أعضاء فى طوائف دينية أميركية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠م، وقد أباحت تعدد الزوجات فترة ثم حظرته. "المترجم".

الكتب، وهى وحدها التى كانت ترعى الفقراء، والمرضى، والمسنين، كما كانت لها سلطة مطلقة على طلاب العلم، جنبًا إلى جنب سلطتها على رجال الدين، والرهبان، وجماعات الكتبة والنساخ داخل الطوائف الدينية، والذين استفادوا من الانتماء إلى الجماعات الدينية والرهبانية، ولم يكن عليهم التزامات كثيرة. كذلك كانت النسبة بين رجال الدين إلى مجموع السكان على الأقل تعدل عشر مرات ما هى عليه الآن، وباختصار فإن الكنيسة كانت أكثر من نصير ومدافع عن ثقافة وحضارة العصور الوسطى، بل هى تراث العصور الوسطى نفسه.

كان البابا يسيطر على هذه المؤسسة الضخمة باعتباره نائبًا عن الرب فى الأرض، وله السيادة على كل الأمور الروحية، وقام بعض البابوات بتأكيد سيادتهم على أجسام البشر، وعلى الأرض التى خلقت منها تلك الأجسام. وكانوا يحلمون بمدينة الرب، حيث يكون البابا خادمًا للرب، يكرس الملوك كأفصال أو خدم له، ويصدر إليهم أوامره بأن يدافعوا عن العقيدة.

هذه المزاعم البابوية تم التأكيد عليها وتدعيمها بامتلاك البابوية لإرث القديس بطرس، وهو مدينة روما وما حولها، والممتلكات البابوية التى امتدت عبر إيطاليا، واعتبر البابوات هذه المناطق نوعًا من الأراضى الإقطاعية الخاصة، يدفعون من ريعها جزءًا من نفقات حكومتهم، ومع هذا فإن الأراضى البابوية كانت تدار بطريقة سيئة، ولم تدر من المال ما يكفى لسد نفقات الإدارة البابوية، مما جعل البابوات شغوفين دائمًا للاستحواذ على ممتلكات أخرى، ومحاولين دائمًا التأكيد على أفضليتهم فى العالم، لذلك لعبوا دورًا مهمًا للظهور بمظهر أصحاب السيادة فى إيطاليا، مستخدمين أسلحتهم الروحية، من قرارات الحرمان، وإنزال لعناتهم على كل خصومهم من الحكام، وإعلان الحرب الصليبية عليهم، ولذلك فإنهم لطخوا أسلحة الكنيسة وجعلوها أسلحة فظة، كما استباحوا لأنفسهم كل ما من شأنه أن يشوه سمعتهم، وأن يجعلوا من أنفسهم محل سخرية واستهزاء من الجميع، وما حصلت عليه البابوية من أراضىَ كانت باهظة الثمن وعلى حساب سلطتها الروحية.

فى العصور الوسطى شيدت الكنيسة المؤسسة التى ما زالت تحتفظ بها الآن بشكل أو بآخر على رأسها البابا، الذى يتم اختياره بواسطة الكرادلة، ويحظى بعون من السماء هذا البابا يقوم بدوره بتعيين الكرادلة، وهم جميعًا يشكلون السلطة الحاكمة فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وعادة ما يختار الكرادلة واحداً منهم ليكون هو البابا، وفى الأصل فإن الكرادلة كانوا عادة هم كبار رجال الدين فى مدينة روما والمناطق المحيطة بها. وحتى سنة ١٢٤٥ لم يكونوا قد استخدموا قُبّعاتهم الحمراء المميزة، وبعد فترة قصيرة اتخذوا لأنفسهم أردية حمراء، وبالتنسيق بينهم شكّل هؤلاء الكرادلة الإدارة البابوية، حيث كانوا يجتمعون مع البابا فى مجلس كنسى، يشبه أحد مجالس الإدارة، وفى غالب الأحيان كانوا يعملون فى جماعات، أو مستشارين لسلطة تنفيذية، هذا التوافق الهائل ظهر بوضوح فى المحكمة العليا التى استخدمت وإلى حد كبير كل القرارات البابوية، متخذة كل الاحتياطات الدقيقة ضد محاولات التزوير، "ومع هذا فقد انتشرت كثير من القرارات الزائفة المنسوبة للبابوية، وهى قرارات عمل على ترويجها بعض عديمى الضمير من الأساقفة الذين استغلوا بعض الكتبة المجردين من المبادئ الخلقية". أما الشئون المالية البابوية فقد قام على إدارتها مكتب أو غرفة أدارت الكثير من شئون المال والأعمال، تلك الأموال التى كان يتحصل عليها من الضرائب التى تم فرضها على كل الأسقفيات والرسوم التى تم تحصيلها عن طريق الإدارة البابوية. وحيث إن عملية نقل الذهب من أماكن بعيدة كانت متعذرة ومحفوفة بالمخاطر، فإن غرفة المال هذه وضعت نظاماً للائتمان بالتعاون مع الصيارفة الإيطاليين.

وصحب بناء المؤسسة الكنسية تأصيل للعقيدة المسيحية وتنظيمها. فكثير من مجموعة العقائد والممارسات الخاصة بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية قد تم إرساؤها فى العصور الوسطى، فعملية تحول خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه غدت عقيدة ثابتة سنة ١٢١٥م، وتم تحديد عدد الأسرار المقدسة بسبعة أسرار، كما أن التعاليم الخاصة بالذخائر المقدسة تم اقتراحها فى القرن الثالث عشر للميلاد، وتم التأكيد عليها فى القرن الرابع عشر للميلاد. وأصبح فى مقدور أى شخص من خلال صلواته، وأعماله الطيبة، وزيارته للأماكن المقدسة المسيحية، ومساهماته المالية أن يحصل على الخلاص لروحه، وأن يصل إلى ما وصل إليه المسيح والقديسون

من فضائل، والتى يمكنهم بها التطهر من الآثام، كما أن الندم الدال على التوبة كان كفيلا بتخفيف وخز الضمير، ولقد قام جماعة من الذين تم اختيارهم من إقليم سكسونيا بعمل كومة من مليونين من النقود كنوع من التطهر مما اقترفوه فى أيامهم من آثام.

كما أن العذراء وهى الشخصية الثانوية فى «العهد الجديد» قد غدت ذات إجلال وتقدير كبيرين، والشفيع الرئيسى مع طفلها، كما أن عقيدة فهم وإدراك طهارتها وعفتها قد تم تقريرها بشكل واضح على يد القديس برنارد من كليرفو فى القرن الثانى عشر للميلاد، وغدت عبادتها أكثر قوة عندما تم استيراد المسبحة من الشرق، ومعها صلاة الابتهال (*) الخاصة بها. كما تطورت عبادة القديسين بشكل كبير، لأنهم رحماء، ولأن الله عادل، وأن العدالة ليس معناها العطف على الآثمين، وتم تحديد أهم أعياد القديسين باللون الأحمر فى التقويم وبحروف حمراء، ومنها جاءت الحروف الحمراء التى نستخدمها للدلالة على أيام العطلات والاحتفالات والمناسبات. كما تمت مراجعة طقوس القربان، لكى يتم ترديدها على المذابح وكما هو الحال فى أيامنا هذه، كذلك تم جمع وتنظيم التعاليم الكنسية فى القرن الثالث عشر للميلاد على يد توماس الأكوينى، الراهب الدومنيكى، والعالم والقديس.

وفى عصر الإيمان كثرت قصص المعجزات، وكان يتم ترديدها على يد الوعاظ بشكل فيه وقار، وتداولها الناس وهم يجلسون بجوار المدافئ، وكانوا متلهفين لأن تحدث مثل تلك العجائب فى حياتهم اليومية، مثل التماثيل التى تقطر دمًا، ومعجزات الشفاء من الأمراض، بشكل خارق لقوانين الطبيعة. ولم يكن الرجال وحدهم هم المستفيدون من شفاعة القديسين. حيث يقال إن أحد الببغاوات استغاث من أحد الطيور المفترسة، مردداً الكلمات التى كانت ترددها صاحبته ولكن بطريقته الخاصة، فقال : "أغثنى يا قديس توماس "Sancte Thoma adjuva me. وفى الحال أنقذه القديس توماس.

(*) وهى صلاة مكونة من سلسلة من الابتهالات يرفعها الكاهن ويرددها المصلون من بعده "المترجم".

هذه القوى الإعجازية أو الخارقة لقيت دائماً منافسة ومعارضة من القوى الروحية الشريرة، فالحياة كانت عبارة عن معركة دائمة مع الشيطان وأعوانه من الجان الذين كانوا باستمرار قريبين من البشر ومستعدين لأن ينقضّوا عليهم، وكانت مساكنهم دائماً فى الأرض تحت أقدام البشر، ولا يستغرق حضورهم سوى لحظات، وهم أيضاً كانت لهم حقوقهم والتزاماتهم. وفى ذلك يقول القديس فرنسيس : "إن الشياطين جنود الرب، يرسلهم ليتمرسوا على البشر، والشيطان بمقدوره أن يغوى البشر بأن يتجسد لهم فى صورة المسيح أو العذراء». كذلك كان من المعتقد أن الجنون ناجم عن مس من أحد الأرواح الشريرة، لذلك كان يتم ضرب الضحية بالسياط، أو تعذيبه، أو إحراقه لإجبار الروح الشريرة الساكنة فى جسده على الخروج، كذلك يقال إن أحد رجال الدين من ذوى المرتبة البسيطة كان معروفاً بمقدرته على طرد الأرواح الشريرة.

ولم يكن الرجال والنساء ضحايا للشيطان وأعوانه فحسب، بل كان يفترض فيهم أنهم من أنشط مساعديهم، فإذا حدث وعقد أحدهم ميثاقاً مع الشر، فإنهم يطيرون ليلاً إلى الاجتماعات البغيضة، حيث ينكبّون مع الشياطين على غواية الحاضرين بشكل مثير، وعند عودتهم فإنهم يثيرون الفتنة فى جيرانهم، سالبين منهم كل إرادة، وربما سببوا لهم أو لبعض حيواناتهم الأذى أو الموت. وحيث إن معظم ما وصلنا من معلومات عن أعمال السحر والعرافة جاء من خلال الاعترافات التى تمت تحت التعذيب، لذلك فإننا لا نستطيع الوثوق بها كل الثقة. ومما لاشك فيه أن بعض تراث الوثنية الذى ظل باقيا كان له أكبر الأثر فى شيوع تلك المعتقدات الدينية، وأن بعض كبار السن، والمصابين بالهستيريا من النساء اعتقدوا فى أنفسهم أنهم سحرة وشياطين، مما زاد الأمر مرارة. وعلى أية حال، فإن الكنيسة وكذلك القديس توماس الأكوينى قد قبلوا وبلا جدال فكرة وجود السحر، وأن جون العكاوى تمت إدانته لقيامه باستحضار الأرواح وتم حرقه سنة ١٤١٣ كأحد السحرة.

كذلك تم اعتبار اليهود ضمن أعداء المسيحيين الطيبين، فانتشرت كثير من القصص على قيام اليهود بقتل الأطفال المسيحيين، عقب قيامهم ببعض طقوسهم الدينية الشيطانية. وربما تركزت هذه الأحداث أثناء فترة اشتغال اليهود بتجارة العبيد

فى العصور الوسطى الباكرة، وهى الفترة التى ربما قام فيها تجار اليهود بشراء الأطفال من أهاليهم الفقراء، تم شحنهم على ظهور السفن إلى العالم الإسلامى.(فالأطفال غير المرغوب فيهم كان غالبًا ما يتم إرسالهم إلى الغابات ليلقوا حتفهم، وكما تروى ذلك قصة كل من هانسيل Hansel وجريتل Gretel، وعادة ما يوضح أهاليهم أن السبب فى اختفائهم هم اليهود). ففى الكاتدرائية النرويجية فى إنجلترا يمكن لأى منا أن يرى لوحة تذكارية لطفل نرويجى يدعى وليام النرويجى، يقال إن اليهود قد سرقوه فى القرن الثانى عشر للميلاد وصلبوه، لذا فقد تم اعتباره واحداً من القديسين.

ومن الملاحظ أيضًا أنه شاعت فى المؤسسات الكنسية عبادة الذخائر المقدسة، والأساس فى هذه العبادة طبيعى وواقعى، فعندما تصعد روح أحد الأشخاص المقدسين، فإن جسده يبقى معنا كرمز أبدى لوجوده على الأرض، كذلك فإن ملابسه، وممتلكاته الشخصية تعد أشياء تذكرنا به، وهى التى عاشت فيها روحه. ألا نقوم دائمًا بالاحتفاظ بالأشياء التى تخص أو لمسها بعض من نحبهم؟ فكل متحف تاريخى ما هو إلا مكان لعرض الآثار ؛ فكثير من الناس يقفون فى إجلال أمام أسنان جورج واشنطن الصناعية، أو أمام قبعة إبراهام لنكولن الحريرية العالية. لذا فإن الإعجاب بالذخائر المقدسة يعد شيئًا شرعيًا وسيكولوجيًا ومعترفًا به.

هذه الذخائر المقدسة كانت ولا تزال مطلوبة لإضفاء نوع من القداسة على كل كنيسة رومانية كاثوليكية، وكثيراً ما يتم توقيع المواثيق وحلف الأيمان عند تلك الذخائر، كما يحملها الفارس فى مقبض سيفه، والتاجر فى حقيبة يضعها حول عنقه، بحيث أصبحت هذه الذخائر لها مفعول السحر، فمجرد لمس إحداها يسبب الشفاء من مرض عضال.

كما أن امتلاك الكنيسة لبعض هذه الذخائر كان مفيداً، لأنها بذلك أصبحت مزاراً من أهم المزارات المسيحية، ومقصدًا لكثير من الحجاج المسيحيين، مما زاد من حدة المنافسة على امتلاك الذخائر المقدسة رفيعة المنزلة، فالإمبراطور بلدوين الثانى إمبراطور القسطنطينية باع للقديس لويس واحدة من أهم الذخائر المقدسة بالنسبة

للعالم المسيحى، وهى إكليل الغاز نظير مبلغ ضخم من المال، وقام القديس لويس ببناء الكنيسة المقدسة فى باريس لوضعه فيها. كما أن الكثيرين من الأتقياء الذين لم يكن فى مقدورهم الحصول على أثر مقدس رفيع، تمنوا أن يحصلوا على أثر مقدس يرتبط بقصة المسيح، مثل قماطه، أو إحدى أسنانه، أو إحدى قطرات دمه المبللة بعرقه، أو قطعة خبز مضغها، أو قطعة الإسفنج التى قدمت إليه وهو على الصليب، أو السلة التى استخدمت فى معجزة الخبز والسمك.

وكان من المتعذر اجتناب حيل بعض رجال الدين وتفننهم فى السرقة، فرهبان دير كونكوى Conques قاموا برشوة أحد زملائهم الرهبان، لكى يسرق جثمان أحد القديسين من آجن Agen. فقام الراهب اللص بالانخراط فى جماعة ذلك الدير، وبعد عشر سنوات من الصبر، نجح فى أن يصبح المسئول عن حفظ تلك الذخيرة المقدسة، والتى قام بنقلها إلى كونكوى. وفى وقت آخر قام اثنان من الرهبان بشراء جثمان القديس سبسطيان St. Sebastian كاملاً فى روما، إلا أنهما خدعا، لأن الجثمان كان لأحد أباطرة الرومان. وبعد أن تم الاحتفال بشكل مهيب بوضعه فى المذبح فى كنيستهم، سرعان ما انتفخ وتعفن مثل بيضة فاسدة، وعندما سقط القديس توماس الأكوينى مريضًا ثم توفى فى دير فوسانوڤا Fossanouva، حيث توقف أثناء رحلته، فإن الرهبان هناك قطعوا رأسه، وقاموا بغلى جسده ليتأكدوا من الاحتفاظ بعظام. كما أن القديس روموالد – من رافنا – عند زيارته لفرنسا، سمع أن الناس يعتزمون قتله، لأنه فى هذه الحالة سيكون أغلى ثمنًا من بقائه على قيد الحياة، فعند ذلك هرب متظاهرًا بالجنون.

وقام الرهبان الجوالون والدجالون المتزيون بزى رجال الدين ببيع عظام الخنازير على أنها عظام بعض القديسين، وبعض قطع من صليب الصلبوت، وبعض قطرات من لبن العذراء فى الأسواق الريفية. وفى ذلك يقول القديس برناردينو من سانيا : "إن كل أبقار لمبارديا لم يعد لديها من اللبن ما يكفى لعرضه فى كل أنحاء ذلك العالم". ولأن أسنان القديسة أبولونيا اعتُبرت ذات أثر فى معالجة آلام الأسنان، فقد غمرت أسنان

هذه القديسة كل مكان، لدرجة أن هنرى السادس ملك إنجلترا قيل إنه كان لديه حوالى طن من تلك الأسنان. كما قال توماس فوللر وهو أحد علماء اللاهوت فى القرن السابع عشر للميلاد : "لو أن معدتها كانت تتناسب مع عدد أسنانها، لعجزت أى بلدة عن إمدادها بوجبة واحدة". وإن تضخم عدد الأشخاص المقدسين تم اعتباره على أنه معجزة من المعجزات، ذات الصلة بقدرة هؤلاء القديسين الخارقة. كما أن فولتير وهو كاتب يشك فى كل شىء، قد أحصى ست غرلات [*] للسيد المسيح، والتى كانت تحج إليها النساء العاقرات.

ولقد تنبه بعض كبار رجال الدين، بمن فيهم البابا إنوسنت الثالث إلى خطورة عبادة الذخائر المقدسة، وحاولوا وضع كثير من الضوابط لها. وفى البداية لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا فى مواجهة الاعتقاد الراسخ الذى اكتسبته بعض المزارات المسيحية الشهيرة، وحاجة الناس البسطاء إلى ما يخفف عنهم آلامهم أو يسبب لهم الراحة. إلا أنه بمرور الوقت تزايدت الريبة والشك، حتى بين الأتباع المخلصين لتلك الأماكن، وعندما جاءت حركة الإصلاح الدينى، فإن أطنانًا من العظام تم حرقها فى كثير من النيران المشتعلة فى كل مكان.

وكانت هذه الذخائر المقدسة قد حظيت باهتمام خاص من الحجاج المسيحيين فى العصور الوسطى، فالرغبة فى زيارة أحد الأماكن أو المزارات المقدسة كانت كامنة فى أعماق النفس البشرية، وكثيراً ما كانت تعبر عن نفسها فى أوقات الربيع : "**عندما يحل شهر أبريل بإطلالته البراقة، يكون شهر مارس قد وصلت رطوبته إلى الأوصال**"، ويشتاق الإنسان إلى أن يرى مكانًا أو شيئًا ظل يحلم به طويلاً، شيئًا ظل يهيم به كثيراً. وربما شعر الإنسان بغريزة البدو القدامى والمهاجرين. فالوثنيون البدائيون كانوا يحجون إلى الآبار والأشجار المقدسة، كما كان الإغريق يرحبون لزيارة وسيط الوحى[**] فى دلفى Delphi ودودونا Dodona، وعند المسلمين فإن الحج إلى مكة يعد

(*) الغرلة، أو القلفة : هى جلدة الذكر التى تُقطع فى الختان. "المترجم".

(**) هو كاهن أو كاهنة يعتقدان أن الإله يجيب بواسطته عن سؤال حول أمر من أمور الغيب، أو الهيكل الذى يهبط فيه الوحى الإلهى عن هذا السؤال "المترجم".

أحد أركان الإسلام الخمسة الأساسية، والأتقياء من البروتستانت يذهبون إلى الأرض المقدسة ليقتفوا أثر المسيح ؛ كما أن حشوداً ضخمة من الكاثوليك الحجاج يستمرون فى زياراتهم لمقدساتهم.

وعندما أصبح السفر مأمونًا إلى حد ما فى أوربا، فإن الكنيسة شجعت الحج لفوائده الروحية، وأحيانًا كنوع من التكفير عن الذنوب والخطايا، فالرحلة إلى الأرض المقدسة كان معناها غياب مثيرى الشغب مدة عام أو عامين، بل ومن المحتمل جدًا إلى الأبد. وكانت أهم المناطق التى يقصدها الحجاج المسيحيون ثلاثًا، هى : مزار القديس يعقوب فى كومب ستيلا شمال غربى إسبانيا Santiago de Compostela، وروما، وبيت المقدس. وعلى طول الطريق إلى مزار القديس يعقوب أقام رهبان الأديرة الكلونية كثيرًا من الاستراحات، تبعد الواحدة عن الأخرى مسيرة يوم، ويقيم فيها كثير من الحلاقين والإسكافيين لخدمة النزلاء، وعلى الأقل فهناك من حانات العصور الوسطى اثنتان باقيتان فى انجلترا، وتؤدى خدماتها باستمرار عبر حوالى ستمائة عام، وهى حانة جورج فى جلاستون بيرى Glastonbury، ومثيلتها فى شمال شرقى إنجلترا فى نورتون.

وكان على كل حاج أن يحصل على موافقة ومباركة الكنيسة قبل أن يشرع فى رحلته، وأن يرتدى ثوبًا من الصوف الخشن، وقبعة مستديرة مصنوعة من اللباد، وأحيانا كان يخرج حافى القدمين ويقسم على ألا يحلق شعر رأسه ولحيته إلا عند عودته، ويحمل عصا فى يده يبلغ طولها ستة أقدام، لها خطاف يعلق عليه قربة الماء وبعض الأشياء الأخرى الضرورية فى رحلته. وإذا كان متجهًا رأسًا إلى الأرض المقدسة فإنه يضع صليبًا من قماش على ثوبه، وبعض الحجاج كانوا يرسمون صليبا بطريقة الكى أو الوشم على أجسادهم، أما هؤلاء العائدون من مزار القديس يعقوب فقد كانوا يخيطون رسماً على شكل حيوان الكوكل(*) على قبعاتهم، أما العائدون من روما فقد كانوا يرسمون شكلًا على هيئة مفتاحين متعامدين أو مائلين، كنسخة مماثلة

(*) حيوان من الرخويات ذو صدفتين على شكل القلب "المترجم".

لمنديل القديسة فيرونيكا، بينما قام العائدون من بيت المقدس بحمل سعف النخيل ولهذا أطلق عليهم لقب « حاملو السعف»· كما كان العائدون من كانتر بورى يحملون دوارق بكل منها قطرة من دماء القديس توماس. أ· بيكيت المخففة بالماء.

وربما كانت عملية الحج شيئًا مبهجًا جدًا، فعند دخول الحجاج إحدى المدن، تتشكل فرقة موسيقية بجميع رتبها خلف عازف بمزمار القربة وتطوف كل شوارع المدينة مع تصفيق المتفرجين، والكل يغنى ويدقون أجراسهم الصغيرة التى تسمى فى انجلترا أجراس كانتر بورى· وفى الصباح وكما تفعل الطيور المهاجرة، فإنهم يطلقون صيحة للتجمع، أو إشارة التجمع، ويأخذون فى الرحيل، وعلى طول الطريق فإنهم يرددون الترانيم الدينية والأناشيد المقدسة، ويروون القصص، كما يفعل حجاج كانتر بورى عند تشوسر· وفى المساء وفى الاستراحات المخصصة للحجاج فإن الرهبان يقدمون لهم الكثير، فيسردون كثيراً من الأساطير الخاصة بالأماكن المقدسة والغرائب التى ستصادفهم فى الطريق، فى مقابل أن يقوم هؤلاء الحجاج بإطلاع مضيفيهم على أخبار العالم الذين أتوا منه.

وفى بعض الأحيان تحلق الشياطين فوق هؤلاء الحجاج وهم فى طريقهم للحج، ويحببون إليهم بعض الأغانى المفعمة بالمرح والتى يرددونها بمصاحبة القرب، أو الرقص فى فناء الكنيسة، وارتكاب كثير من الأعمال الفاسقة أثناء عمليات الهرج والمرج سواء فى الحانات أو فى الهواء الطلق، بالليل وعلى ضوء النجوم·

إن الكنيسة وتعاليمها تخللت كل حياة البشر، فلم يكن فى استطاعة أحد من الناس أن ينقض اتفاقًا على صفقة ما، أو أن يقطع أمراً ما، أو أن يتخلى عن أداة من أدوات الزراعة دون استشارة أحد رجال الدين، كما كان من النادر أن يبتعد أحد الأشخاص ببصره عن برج الكنيسة، أو ألا يسمع صوت جرس الكنيسة وهو يدق، وحسب أحد الإحصاءات فإنه فى انجلترا كانت هناك كنيسة لكل أربعين أو خمسين منزلاً، بحيث يعجب الزائر اليوم عندما يرى العديد من الكنائس العجيبة والرائعة، وهى غالبًا ما تكون خالية، ويا للحسرة، فى قرى الشرق الإنجلزى (*) وحسبما يروى أحد

(*) أى المجموعة الشمالية والشرقية التى تتكلم باللهجات الإنجليزية القديمة - المترجم.

مؤرخى القرن الحادى عشر الميلاد، **"فإن العالم كانت تلتف حوله الظلال البيضاء لعبادة الكنيسة"**، كما أن الحب والتفاخر هما اللذان شيّدا الكنائس المشهورة، غيّرا من مظهر الكاتدرائيات، حيث ساهم الجميع فى بنائها، سواء بالمال أو بالمشاركة، بل وحتى تسخير أنفسهم فى جر العربات. بل إن جامعى الضرائب الكنسية كانوا على درجة عالية من الذكاء، فقد أدركوا أنهم بتقديمهم القليل يمكنهم الحصول على الكثير، لذلك كافئوا هؤلاء الذين يساهمون فى البناء إما بصكوك الغفران، أو استثنائهم من بعض القيود الكنسية الصارمة. من ذلك أن "برج الزبد" The Butter Tower فى كاتدرائية روين Rouen قد تم بناؤه وبشكل أساسى من المبالغ التى تم تحصيلها نظير السماح بأكل الزبد أثناء الصوم الكبير.

كما أن الخدمات الاجتماعية التى كانت تؤديها الكنيسة كانت متعددة وعلى مستوى طيب، ويتم تقديمها من خلال المحبة والإيمان، وهى التى لم تستطع الدول الحديثة باعتبارها مسئولة عن تلك الخدمات أن تسن التشريعات التى تحض عليها. ووفقًا لما يقوله أحد المحامين القانونيين فإن المحبة هى التزام روحى قبل أى شىء، وهى العدالة بكل مفهومها. فقد كان من حق الفقراء أن يحصلوا على احتياجاتهم من الملكية العامة للمجتمع. كذلك شيدت الكنيسة العديد من المستشفيات وأمدتها بما تحتاج إليه، كما شيدت الأماكن الخاصة لعلاج مرضى الجذام، وبيوت جمع الصدقات، والأيتام، والنزل الخاصة لاستضافة المسافرين على امتداد ممرات جبال الألب.

كذلك حاربت نظم الرق والعبودية التى تفشت فى كل مكان فى الغرب الأوربى، وتم عقد مجمع خاص فى لندن سنة ١١٠٢م والذى أصدر قراره "بتحريم تجارة الرقيق، حيث كان يتم بيع البشر كما تباع الحيوانات". كذلك قامت الكنيسة بافتداء الأسرى، واستعادة من كان منهم فى بعض البلدان الإسلامية، وقام أعضاء جماعات رهبان الثالوث المقدس، وجماعة المخلص بتقديم أنفسهم فداء لمن كان خلاصهم عسيراً، كذلك قامت بعض راهبات الأخوات فى جماعة القديسة مريم المجدلية بإصلاح حال كثير من النساء الداعرات، وكنوع من المساعدة الاجتماعية التى تقدم للمسافرين، فقد كرس كثير من الرهبان أنفسهم لتقديم خدماتهم للحجاج المسيحيين. ومن أجل

التخفيف عن الفقراء، فقد ازدادت أوجه المساعدات التى تقدم لهؤلاء الفقراء والمعدمين، حيث تم تخصيص ربع العشور التى تحصل عليها الكنيسة لمساعدة الفقراء، وكذلك نصف الهبات التى تقدم للكنيسة، إلا أن هذه العائدات كانت مخيبة للآمال.

كذلك كان للكنيسة دور مهم فى مجال الحياة الاقتصادية، حيث ساعدت على تمهيد كثير من الطرق، وبناء العديد من الجسور والقناطر، فقد أمر أسقف ميتز Metz سنة ١٢٣٣ بأن تباع أفضل ملابس لمن يموت فى الدوقية، ويخصص ثمنها لبناء قنطرة على نهر الموزل The Moselle، وهى التى مازلت باقية إلى الآن. كما أن الكثير من الأديرة أنتجت العديد من المحاصيل الجديدة وكذلك الأساليب الزراعية، بما فيها تحسين سلالات الماشية بأسلوب علمى.

وازدهرت المستشفيات، ففى فترة العصور الوسطى العالية، كان هناك حوالى أربعمائه مستشفى فى انجلترا، وفى فترة الإصلاح الكنسى كان هناك حوالى سبعمائة وخمسين مستشفى، أما باريس القرن الثالث عشر للميلاد فقد كان بها اثنتا عشرة مستشفى، ذات عنابر متخصصة، ومكان خاص بمرضى الجذام، وعيادة للعميان. وبوجه عام فإنها كانت تخضع لإشراف جماعات رهبان وراهبات القديس أوغسطين، وحيث قامت الراهبات الرهبان بعمليات تمريض المرضى، وهم الذين زهدوا الحياة الدنيا وكرسوا أنفسهم لخدمة الرب، ومعظم هذه المستشفيات كانت ذات أقسام متخصصة وعنابر واسعة، مثل نزل الرب فى برجنديا، هذه المستشفيات كانت مزدانة بكل أنواع الورود والزهور، غرفها أكثر من مبهجة أكثر من معظم ما عليه الحال الآن فى كثير من المستشفيات.

ومن المفترض أنه لم يمنع أحد من الدخول إلى تلك المستشفيات، إلا إذا كان فى صحبته بعض كلاب الصيد، أو الطيور المفترسة المستخدمة فى القنص. فقد كان مدوناً على مستشفى الرب فى باريس : **"يجب أن تستقبل المرضى وكأنك المسيح نفسه. ويجب أن يتم علاج كل مريض كما لو كان هو نفسه صاحب المكان"**. وعند السماح للمريض بالدخول، فقد كان يتم تحميمه، واستبدال ملابسه بملابس من المستشفى، وأن

توضع تلك الملابس فى الغرفة الخاصة بتفليتها من القمل، كما يتحتم عليه الاستحمام كل صباح، ويتم تغيير أغطية سريره باستمرار. وفى أوقات الازدحام فقد كان من المتوقع أى ينام المريض مع مريض أو مريضين آخرين فى السرير، وعندما يتم شفاؤه، تعاد إليه ملابسه بعد غسلها وترقيعها أو إصلاحها. وباختصار، فإن النظام المتبع فى المستشفيات كان تقريبًا هو نفس النظام المتبع فى أيامنا الحالية، مع وجود الحب والإحسان.

وكانت الكنيسة وحدها المسئولة عن التعليم، كما شاركت كثير من الأديرة فى إدارة العديد من المدارس، وبخاصة المهنية منها، حيث كان يتم تعليم الملتحقين بها بعض الحرف، مثل التطريز والحدادة من أجل تصنيع الملابس الكنسية وأنواع الزخرفة التى تحتاجها الكنيسة، كما كان يتم تعليم مبادئ القراءة، والكتابة، ومبادئ اللغة اللاتينية للشباب الذين يتدربون على مهنة تؤهلهم لأن يكونوا كتبة أو رجال دين، أو موظفين حكوميين.

أما التعليم الثانوى فقد كان يتم داخل المدارس الديرية والكاتدرائية، حيث يتم إعداد الطلبة للالتحاق بالجامعات، وعلى الرغم من أن العلماء المحدثين يسخرون من استعمال لاتينية العصور الوسطى، فإن عملية التدريب نجم عنها تخريج عدد كبير من الكتاب والذين كان فى مقدورهم أن يتحدثوا اللاتينية ببساطة، وأن يكتبوا بها بكفاءة ليست فى مقدور خريجى الدراسات الكلاسيكية الآن، كما أن التدريب أوجد عدداً كبيراً من المعلمين كذلك، ولقد التقى بترارك بواحد منهم كان يدين فرجيل على طول الخط لاستخدامه كثيراً من حروف العطف. وعندما وصل أحد علماء القرن العاشر ويدعى جونزو النوفارى إلى دير القديس جال فى سويسرا وهو شبه متجمد، فإن أسنانه المرتجفة لم تكن تمكنه من نطق الكلام بطريقة صحيحة ومفهومة، لدرجة أن أحد مضيفيه، وهو الراهب إيكهارد قد انتابته الدهشة. وقد حاول جونزو أن يبرر ما حدث منه فى خطاب مطول، سُجِّل فيه ثمانية وعشرون خطأً من تلك الأخطاء التى يقع فيها أفضل المؤلفين، ومن الأشياء المثيرة للدهشة، أن نقرأ أنه بعد حوالى مائة سنة قام أحد العلماء بتصحيح لاتينية إيكهارد المعابة.

ويجدر بنا أن نذكر أن طبقة رجال الدين كانت قد أصبحت ومنذ وقت مبكر طبقة اجتماعية مغلقة على نفسها، فالأساقفة، وكبار رجال الدين عادة ما كانوا من أصل نبيل؛ أما قساوسة الأبرشيات فقد كانوا من طبقة الفلاحين. أما الرهبان فقد كانوا خارج التقسيم الطبقي، ولكن فى العصور الوسطى الباكرة فقد كان غالبية رؤساء أديرة الرهبان من طبقة النبلاء، أما جمهور الجماعات الديرية فقد كانوا من العامة. وكان كبار الأساقفة من اللوردات، ومازالوا فى انجلترا على هذا النحو، واحتفظوا بأصولهم النبيلة وافتخروا بذلك، كما أنهم أصروا على حقهم فى التصدر والتقدم على الآخرين. فعندما زار المندوب البابوى كنيسة وست منستر سنة ١١٧٦م، فإن رئيس أساقفة كانتر بورى أعد مقعداً له إلى اليمين منه تكريماً له. أما رئيس أساقفة يورك المنافس له، وهو محارب قديم فقد زاحمه نفس المقعد، ويذكر أحد المؤرخين **"أنه دفع بكل قوته بمعظم جسده لدرجة أنه جلس على ذلك الجزء من ملابسه الذى يغطى الركبتين والفخذين. فقام كبير أساقفة يورك بدفع كبير أساقفة كانتر بورى بمقبض سيفه، إلا أن بعض الأساقفة قاموا وبطريقة مُخزية بالإمساك به، وكذلك بعض رجال الدين والعلمانيين الذين مزقوا ذلك الجزء من ملابسه، وألقوا به أرضاً"**.

وكان هناك أساقفة طيبون، وآخرون على العكس منهم، والكثير منهم تعلموا اللاهوت، وكانوا مدركين لأهمية وظيفتهم، وتمتعوا بقدر كبير من الشفقة، بل ومنهم من وصل إلى درجة القداسة. ولقد كان عملهم قاسياً، بل وكثير المطالب، حيث تشابكت تلك المطالب، ما بين مطالب روحية، وسياسية، وقضائية وإقطاعية. والبعض منهم كان جاهلاً. حيث نسمع أن أسقف دورهام Durham والذى تولى منصبه سنة ١٣١٦م كان يقرأ بصعوبة شديدة، فعند الاحتفال الذى أقيم لتنصيبه، وعندما وصل بعد جهد كبير إلى كلمة المطران، فإنه تنفس الصعداء. وبعضهم كان ساخراً، أو لا يؤمن بطيبة الدوافع البشرية، لا يفكر إلا فى نفسه.

من ذلك أن أسقف بارما Parma فى القرن الثالث عشر للميلاد، رفض وهو على فراش الموت تناول العشاء الربانى، قائلا إنه لا يؤمن بشىء من العقيدة المسيحية. وعندما سئل : لم قَبِلَ منصب الأسقفية ؟ أجاب قائلاً : **"بسبب ثروته وما له من مكانة**

رفيعة ، ومات دون أن يغفر له. وبعضهم كان نذلاً وبشكل صريح، مثل الأسقف متى التولى Matthew of Toul في فرنسا الذى تحدى قرار الحرمان لمدة ثمان سنوات، وقتل رجال الدين الذين أرسلوا لكى يحلوا مكانه، وسرق المعدات الكنسية الخاصة بالأسقفية والميْرون المقدس(*)، وشيد قلعة كان يشن منها غارات السلب والنهب على دوقيته.

وتكون الجهاز الإدارى للأسقفية من كاهن كبير مسئول عن الأسقفية ورجال الدين فى الكاتدرائيـة، وهؤلاء كـانوا مسـئولين عن الطقوس والاحتفـالات بالأعيـاد، وعن المحافظة على مبنى الكاتدرائية، وعن الخدمات التى تؤديها وكذلك الصلوات العامة والطقوس وعددها خمس طوال أيام الأسبوع، وسبع أيام الآحاد. أما عن واجباتهم الأخرى فقد كان رئيس الشمـاسة، وكبير الكهنة، وجماعة رجال الدين الملحقين بالكاتدرائية يشرفون على الشئون المالية للدوقية، والتى كانت متعددة، وتضمنت العديد من الواجبات، مثل إثبات صحة وصايا الموتى، والتى أصبحت الآن من اختصاص الحكومات الحديثة.

وكان أعضاء جماعة رجال الدين الملحقين بالكاتدرائية هم القساوسة من أبناء الأسقفية، وخصوصًا القساوسة الأغنياء وهم فى الغالب من أبناء طبقة النبلاء. وإن كان معظم رجال الدين فى الأسقفية يتوارثون مناصبهم. فكثير من الآباء الأتقياء كانوا يكرسون أبناءهم لخدمة الرب، ولخدمة الكنيسة، ويدفعون الضريبة التى يفرضها اللورد المحلى من أجل انخراط أبنائهم فى هذا السلك وحلق رءوسهم. وهؤلاء الرجال كانوا يتلقون تعليمهم فى المدارس، وغالبًا ما يكون هذا التعليم على يد أحد القساوسة والذين يخدمون تحت إشرافه فى موطنهم. وبالنسبة لهم فإن منصب راعى الأبرشية أو عمله كان يعنى الفرصة لاكتساب مكانة فى القرية، والإعفاء من بعض الأعباء التى يتحملها بقية الفلاحين، كما كانت لهم أرضهم الخاصة وهى غالبًا أرض الكنيسة، ويعملون مع الفلاحين الآخرين فى الحقول. وكانوا فقراء فى الغالب، وبوجه خاص إذا كان رؤساؤهم يحصلون منهم على ضريبة العشور. وبعضهم كانت لديه الحانات الخاصة بهم، فهذا

(*) زيت مقدس يمسح به عند التعميد "المترجم".

هو دون جيانى دى بارولو Don Gianni di Barolo يظهر فى رواية بوكاشيو وهو ينادى على بضاعته متجولاً فى أسواق الريف لكى يعول نفسه.

ومن الطبيعى أن يحصل هؤلاء القساوسة على أجر عن خدماتهم التى يقدمونها، بل وحتى عن تقديم الأسرار المقدسة. فهناك أحد القساوسة الذى طلب الملابس التى تم تعميد بعض الأطفال حديثى الولادة فيها، وآخر أخذ أغطية الفراش لرجل مات كان قد مسح جسده بالزيت المقدس، وغالبًا ما كانوا لا يبالون بنظافة أجسامهم ولا ملابسهم، وعلى درجة من الفحش مثل غيرهم من الفلاحين. إذ يحكى لنا المؤرخ الفرنسيسكانى من القرن الثالث عشر للميلاد وهو سالمبين Salimbene الكثير عن الذباب المتراكم فى أماكن إقامتهم، وملابسهم الكهنوتية المرقعة، كما يروى قصة أحد أصدقائه من الفرنسيسكان وقد دعى لأداء أحد الطقوس الدينية فى كنيسة إحدى القرى، وكان عليه أن يستعير البطرشيل(*) الخاصة بمن يؤدى هذا الطقس، وهى التى تحولت لتصبح الحزام الذى تلبسه المحظيات، وبه مجموعة من المفاتيح المثبتة فيه. هذه المفاتيح كانت تجلجل بشكل مضحك عندما بدأ فى أداء الطقس الدينى. كما أن هناك الكثير والكثير من القصص الدالة على جهل هؤلاء القساوسة، فلقد سمع القديس برناردينو من ساينا أحد رجال الدين يوبخ آخر ويقول له: "**هذا جسدى**"، والذى قال إنه لم يحدث منه مطلقًا أنه اهتم بتلك العبارة الخاصة بهذا القداس، وكل ما قاله هو : **ليكن سلام لك يا مريم فى العلياء.**

أما عن الزيارات التى كان يقوم بها أصحاب السلطات الدينية العليا لهؤلاء فقد كانت نادرة، لذا فإن أمثال هؤلاء القساوسة فى شبه عزلتهم كانوا يفعلون ما يحلوا لهم، وغالبًا ما كانوا يكتفون بترديد الصلوات أو قيادة فرق الإنشاد الدينى، وإنزال اللعنات وقرارات الطرد والحرمان، وإعلان أهم الأنباء، وقوائم بالأشخاص الضالين، أو العقوبات التى أصدرتها محكمة الضيعة. أما الذين يختارون منهم الوعظ، فإنهم كانوا يرددون القصص الواردة فى الإنجيل، وقصص المعجزات، والحكايات النادرة ذات الدروس الأخلاقية، كل ذلك والمستمعون يضحكون، أو يبكون أو يعترضون.

(*) قطعة من النسيج طويلة يجعلها الكاهن فى عنقه وعلى صدره عند الخدمة "المترجم".

ولقد استفاد القساوسة كثيراً من التعذيب الذى كان يلحق بالخطاة، فبعضهم كانوا ممثلين مسرحيين بارعين، ففى المتحف الكلونى فى باريس يوجد صليب من الخشب يمثل المسيح مصلوباً، يرجع إلى القرن الثانى عشر للميلاد خاص بكنيسة إحدى القرى، يشتمل على عجلة مثبتة بقضيب من الحديد إلى بدال عند قاعدتها، والتى يقوم الواعظ بتشغيلها بقدمين، بحيث يحرك بها رأس المسيح، وعينيه، ولسانه. كما أن إعجاب الكنيسة بالخوارق والمعجزات شجع أبناء الريف على الإيمان بالقوى الخارقة، وربما نظر الفلاحون إلى خبز القربان المقدس على أنه تعويذة أو رقية، فقد قام أحد الفلاحين بتفتيته ووضعه فى الكرنب لكى يحفظه من يرقات الفراش.

كذلك كان الناس يتعاملون مع كنائسهم بشكل ودى، فيتجولون فيها، ويدخلون إليها ويخرجون منها وكأنهم فى أحد الأسواق، أو يدخلون إليها فجأة لكى يوثقوا اتفاقاً على صفقة من صفقاتهم، ولأن هذا الصرح أو المبنى الضخم هو القاعة الكبيرة التى يتجمع فيها الناس فى القرية، فقد استخدمت الكنيسة للاجتماعات، وللانتخابات، وكقاعات للمحكمة، بل وحتى للأغراض النافعة مثل تخزين التبن الفائض عن الحاجة. وكثير من الشباب كانوا يحضرون القداسات كى يلقوا بنظراتهم الغرامية للفتيات، وفى الكنيسة وقع بترارك فى غرام محبوبته لورا Laura.

وكان فناء الكنيسة أحيانا هو الموقع الذى تتم فيه الاحتفالات الصاخبة، مثل الاحتفالات الخاصة بالأعياد والمناسبات المختلفة، وهى تراث للوثنية ومباهجها، كما أنها ما تركناه لمن يأتى بعدنا من موروث اجتماعى، وأسواق شرقية، ومدارس أيام الآحاد باعتبارها نزهة. وفى انجلترا فإن شراب المزر وهو نوع من الجعة، أو المزر الاسكتلندى كان يتم تناوله فى فناء الكنيسة، حيث يدفع المشتركون ثمن ما يتناولونه فى اليوم المخصص له، وحيث تغلق الحانات، وتقام السقائف عند المقبرة لبيع الخبز والمزر، ومن المحتمل أن تنتهى عملية تناول المزر فى الكنيسة هذه بنوع من الشجار.

وفى العصور الوسطى الباكرة كان رجال الدين فى الأسقفية عادة يتزوجون، ولقد خاضت الكنيسة معارك لا نهاية لها من أجل إجبار رجال الدين على العزوبة لسببين

رئيسيين، السبب الأول روحي والثاني واقعي. فالسبب الروحي هو أن القسيس بزهده في الحياة الدنيا والذرية، فإنه يعطي البرهان القاطع على تكريس نفسه كلية لهدف الكنيسة الروحي الأمثل، وبذلك يصبح أكثر من مجرد إنسان. أما السبب الواقعي فهو أن القسيس الأعزب ليس عليه أي إلتزام سوى الالتزامات الخاصة نحو جماعة القساوسة، ومن حيث التأثير فإنه يتزوج الكنيسة وعليه أن يعطي حبه الأبوي لأتباع كنيسته. فمعظم المجتمعات المتحررة تقدس الطهارة والعفة، وفوق تلك الطهارة قدسوا العذرية، **"ذلك لأن العذرية وحدها كفيلة بأن تجعل الإنسان مساوياً للملائكة"** حسبما يقول القديس توماس الأكويني. **كما أن تقديس العذرية دفع كثيراً من رجال العصـــور الوسطى إلى كثير من التطرف في علم الأمراض، بل وإلى بتر الأعضاء التناسلية**، وهو ما لم يذكره الإنجيل **"بل إن البعض خصوا أنفسهم من أجل نعيم الفردوس"**.

ولقد حاربت البابوية بكل ضراوة زواج رجال الدين، وتم اعتبار زوجات القساوسة محظيات، وفي نهاية القرن الثالث عشر للميلاد أصبح من النادر أن ترى محظيات لرجال الدين في الغرب الأوربي، كما أن الجرائم الجنسية بين طبقة رجال الدين لم يمكن تجاهلها، وكما تشير إلى ذلك كثير من الدلائل. من ذلك أن سالمبين Salimbene يذكر أنه سمع مئات المرات القساوسة الإيطاليين وهم يرددون عن ظهر قلب كلمات القديس بطرس : **"إذا لم تستطع أن تكون تقياً، فكن حذراً"**.

ولأن الرهبان قد أقسموا على العفة، فقد كانوا فريسة للشياطين الذين يقال إنهم كانوا يأتون إليهم ليلاً على شكل إناث زعم أنهن تجامعن الرجال أثناء نومهم، لذلك راعى نظام القديس بندكت والذي سارت عليه معظم الأديرة، وكوسيلة لمقاومة هؤلاء الشياطين، أن يؤدي الرهبان كثيراً من الأعمال الشاقة خارج الدير، وأن يتناولوا وجبة خفيفة من الخضروات على ألا يكثروا منها، قبل توجههم للنوم، وأن يظل الواحد منهم ينشد ترنيمة دينية حتى ينام، يقول فيها:

اللهم احفظ عيوننا من كل الأحلام الرديئة

ومن كل مخاوف الليل، والخيالات الجامحة

واجعلنا نطأ بأقدامنا أعداء أرواحنا ونسحقهم

حتى لا نعرف الخطأ أو نقع فى أى دنس.

ومع هذا فهناك بعض الرهبان التعساء الذين كانوا يستيقظون ليكتشفوا أن تلك الشياطين التى زعم أنها تجامع الرجال أثناء نومهم قد زارتهم، وأفضل ما كان الواحد منهم يفعله هو صب اللعنات عليهم، والإنهماك فى العمل وفق النظام الديرى المتبع لدى طائفته. وهناك بعض المعلومات عن الطوائف الديرية، جاء فيها أن أحد الشباب من ذوى الميول الطيبة فعلاً استطاع أن يجد مجالاً واسعًا للتعبير عن تصرفاته الحميدة. وأن بعض الطوائف، وبوجه خاص طائفة الكارثوزيان Carthusians كانت صارمة جدًا فى نظمها، والبعض الآخر كان يميل إلى الخمول والانحلال، وأنه كان فى مقدور أى شخص أن يختار طائفة زاهدة، أو طائفة تميل للتأمل الروحى، أو طائفة تكرس نفسها للتعليم أو الوعظ والتبشير، أو الإحسان والمحبة، بعض هذه الطوائف كانت تغرى الشباب أصحاب المشاكل بالخلاص من كل ما لديهم من أنانية. والبعض الآخر قدمت لهم فرص العمل وكنوع من ترويض النفس والعمل فى خدمة مرضى الجذام والمسجونين والأسرى؛ والكثير من تلك الطوائف كانت تغرى من يلتحق بها بأنها ستوفر له حماية أبدية من عالم ملىء بالمخاطر والشرور.

وبعض الرهبان كانوا بمثابة "أطفال الدير" تم تكريسهم للرب وهم فى سن الطفولة عن طريق والديهم، بسبب ما يعانون من كثرة الذرية، والبعض الآخر تم اختيارهم بواسطة الرهبان الذين رأوا فيهم بعض الدلائل التى تبشر بنبوغ مرتقب فى المستقبل، فتم إيواؤهم وتعليمهم داخل أسوار الدير. ولأنهم لم يعرفوا شيئًا عن الحياة خارج الأديرة، فقد تمرسوا الحياة داخل الأديرة، وعندما وصلوا إلى سن الرشد أقسموا اليمين الخاص بالدير. والبعض الآخر الذين كانوا يدركون أن الحياة ككل كانت شيئًا جيدًا، فإنهم رضوا بالحياة داخل الدير – بما فيها من قيود – بديلاً عن الحياة

الخارجية، لأن الحياة الديرية حققت لهم هدوءاً نسبياً وتأكيداً لخلاصهم. وبعض الأديرة الخاصة بالرهبان والراهبات حاولت المحافظة على الخيط الذى يربطها بالطبقة الأرستقراطية فسمحت لأبناء الطبقة النبيلة فقط بالانضمام لها. كذلك فإن معظم الأديرة سمحت لأبناء الأحرار والطبقة البورجوازية، وللشباب الذين يشعرون بالرغبة فى العزلة عن العالم المليء بالآثام والشرور بأن ينضموا إليها.

وكما أن أهل الخير واليسار منحوا تلك الأديرة العديد من العقارات والأراضى الشاسعة لكى يستفيدوا من ريعها، ذلك فإن الأديرة امتلكت معظم الثروة فى أوربا، ونتيجة لهذا فإنها انغمست فى كثير من المنازعات الخاصة بالحدود، والعائدات، والحقوق، وضريبة الرأس، والمكوس، وعمليات اغتصاب الأرض التى قام بها بعض اللوردات الإقطاعيين، والتجار، والمرابين. كذلك دخلت هذه الطوائف فى صراع ومنافسة بعضها مع البعض بسبب ما كانت تمتلكه من ثروات، ولأن كلا منها كانت تشكل نوعا من التجمع له طابعة الخاص. ولعل هذا ما دفع الراهب الكلونى جايوت دى بروفنس للقول بأن المنافسة ليست فى صالح تلك المجتمعات. كما أنه يرى أن الطعام لدى طائفة الكارثوزيان شيء مروع، واشتكى من أن السسترشيان لا يفكرون إلا فى الاستحواذ على الأرض والمال، وأن جماعة رهبان الجبل الكبير Grandmont كانوا شديدى التأنق فى ملبسهم ومظهرهم، وأنهم كانوا يمشطون شعور لحاهم بشكل جميل، كما أنه اعتبر الإسبتارية شحاذين على درجة كبيرة من الوقاحة، واحتقر الداوية لأنهم باستمرار يلقون حتفهم. **"إننى لا أهتم مطلقًا بأن ألقى حتفى"** هكذا قال جايوت : **"وإننى لأفضل أن أبقى حيًا ولو كنت جبانًا على أن أكون أعظم المنتصرين على الأرض وأنا ميت".**

والدير النموذجى كان يتم تشييده فى الريف الفسيح أو فى المدينة الصغيرة. وغالبًا ما يختار المؤسسون موقع الدير بأن يكون قريباً من أحد مجارى الأنهار، لكى يمد أهل الدير باحتياجاتهم من الماء المستخدم فى الشرب أو النظافة، أو بالقرب من بركة ماء بها سمك، أو عند منحدر مائى يصلح لإدارة إحدى الطواحين، أو يستخدم فى تصريف فضلات الدير، وغالبًا ما يكون هذا الدير دالاً على براعة البناء والإتقان،

فالكنيسة الخاصة بالدير بصحنها الطويل عادة ما تقع فى الجزء الشمالى من الدير، بينما الحرم المقدس منها يقع إلى الشرق متجهًا إلى بيت المقدس. وإلى الجنوب من الكنيسة، كان يوجد الرواق المستطيل الشكل المحمى من الرياح العاصفة، والمسمى خطأ بالجنة. وهنا يتجول الرهبان طلبا للتدريب، أو للعمل على المقاعد الخشبية الطويلة المثبتة فى صفوف بين الأعمدة، حيث يقومون بنسخ أو تصوير الوثائق. كما كان المبنى الذى يعقد فيه الرهبان اجتماعاتهم يطل على الرواق، كذلك حجرة الطعام، وحجرات نوم الرهبان، وحجرات النوم المخصصة للإخوة العلمانيين، وربما كذلك المكتبة والمرسم أو حجرة النسخ. كذلك كانت توجد قاعة لمناقشات بعد العشاء، وعلى مقربة منها كانت غرفة رئيس الدير، والمشفى وهو عبارة عن حجرة أو بناية مخصصة لرعاية المرضى، ثم المرحاض.

وعادة ما يستهل الرهبان يومهم بصلاة الصبح، يعقبها مباشرة تسبيحة الضحى(*) ومن الناحية النظرية فإن تلك الصلوات والتسبيحات عادة ما يتم إقامتها أيضا عند الظهر، إلا أنها غالبا ما كانت تؤدى الساعة الثانية أو الثالثة ظهراً. هذه الصلوات من الممكن أن تمتد طويلا بحيث تستمر حتى الفجر. ففى كانتربورى فى القرن الحادى عشر كانت هذه الصلوات تشتمل على خمسة وخمسين ترنيمة مقدسة، يقوم بإنشادها الرهبان وهم وقوف وهو عمل بطولى بالنسبة لقدرة الإنسان على التحمل. فالصلوات الصباحية العادية كانت تتكون من ترنيمة وثلاثة أناشيد دينية، وثلاث ترانيم مقدسة، وثلاثة دروس، إلى جانب الاحتفالات بأعياد القديسين المحليين، والذكرى السنوية للمتبرعين والمحسنين وغيرها، بحيث لا يتبقى سوى القليل من الوقت غير كاف للنوم قبل القيام بصلوات اليوم الجديد التى تبدأ عند الفجر.

ولا بد أن تكون صلوات المساء فى الجزء المخصص للمرتلين على درجة كبيرة من الإثارة، حيث كانت تقام على ضوء قليل من الشموع المرتعشة، التى كانت تضئ الكتاب المستخدم فى قراءة تلك الصلوات، وتزيح ظلام ذلك الجزء المخصص للمرتلين، وتكشف بعض ملامح المنشدين بقلانسهم، وصور القديسين المنحوته على الحائط.

(*) صلاة تقام فى الأديرة عند الضحى "المترجم".

وفى الأيام الأولى لم يكن لدى الرهبان أى نوع من الإضاءة يستعان بها عند القراءة، حيث كان مطلوبا منهم أن يحفظوا عن ظهر قلب الكلمات والموسيقى الخاصة بالترانيم، والأناشيد، والتسبيحات، وكذلك الجواب وهو عبارة عن كلمة ينشدها أو ينطق بها جمهور المصلين أو جوقة المرتلين بعد الكاهن. كما كانت قدرتهم على التذكر خارقة بالنسبة لنا، وقبل أن تصبح القراءة شائعة، فقد كان يتم التدريب الذهنى منذ الطفولة، كما أن الأمية كانت شائعة بكل المقاييس. وفى القرن الرابع عشر للميلاد انتشر استخدام الشمع بشكل كبير، وكذلك كتب الصلوات، وازدهرت عملية التدوين الموسيقى فحلت القراءة محل الاعتماد على الذاكرة. فكثير من رسوم مخطوطات العصور الوسطى تصور مجموعة المنشدين وهم يقفون ملتفين حول أحد كتب التراتيل العملاقة، وتم تثبيت الشموع فوق الأعمدة الموجودة فى مكان المنشدين أو المرتلين، وكانت قطرات الشمع الساخن المتساقطة على رأس أحدهم تمثل نوعًا من المزاح المحبب لدى الرهبان.

وعندما يذهب الرهبان إلى مهاجعهم لينالوا قسطًا بسيطًا من الراحة بعد صلوات الصباح والتسبيحات، فيتم إيقاظهم عند الفجر بواسطة أحد الرهبان المسئول عن إيقاظهم. فيسارعون إلى الحمام للاغتسال، ثم إلى الكنيسة لتأدية الصلوات الأولى، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى قاعة الاجتماعات لتلقى التعليمات اليومية، وللاستماع إلى التقارير، والمشاركة فى المناقشات، وأحيانًا سماع بعض الاتهامات والاعترافات، أو العقوبات التى كان منها الجلد بقسوة. ثم يلى ذلك الصلوات الخاصة، أو القراءة، أو العمل فى المكان المخصص لجوقة المرتلين لمدة ثلاث ساعات بعد الشروق، حيث تتم الصلوات الكبرى. وفى منتصف النهار يأتى وقت الراحة والاستجمام، ثم يليه الغذاء. وبعد فترة قصيرة يمضيها الرهبان فى التجديد، يستطيع الرهبان الاستراحة فى مضاجعهم إلى أن تقوم الراهبات ببعض الخدمات والصلوات لفترة بسيطة، يتبع ذلك قيام الرهبان بالعمل فى المكان المخصص لجوقة المرتلين أو فى البستان الخاص بالدير، وأداء الصلوات المسائية، وصلوات الشفق والغروب، ثم صلوات السكون التام وهكذا، ثم الحمد، يلى ذلك التوجه إلى الفراش.

تلك كانت الحياة فى أحد الأديرة الصارمة والمكرسة لعبادة الرب، عن طريق التقرب إليه من خلال الانكباب على الصلوات والحمد والشكر. ومن الملاحظ أن الجدول اليومى قد وضع على أساس نظام الأديرة البندكتية، والذى تم وضعه فى القرن السادس للميلاد كنظام للحياة الديرية. إلا أن معظم الأديرة أدخلت بعضا من التعديلات على هذا النظام البندكتى وللتخفيف من حدته وصرامته، والسبب فى هذا راجع لأنه فى ظل هذا النظام لم يكن هناك وقت كاف للعمل اليدوى الذى تتطلبه الحياة الديرية. على الرغم من أن الرهبان فى المؤسسات الديرية الفقيرة كانوا مطالبين بتأدية بعض المساعدات فى المطبخ، وفى معظم متطلبات الواجبات المطلوبة فى الدير والتى كانت تقع على كاهل الإخوة العلمانيين والخدم، أمثال الطباخين، والخبازين، والحلاقين، والخياطين، والإسكافيين.

أما إدارة الأعمال الزراعية والحسابات فقد كانت فى أيدى بعض المتخصصين، والذين قاموا بالإشراف على العمال، من طحانين، وحدادين، ورعاة الأغنام، وصيادين، وسائقى العربات، ممن كانوا يؤدون أعمالهم فى ممتلكات الدير وأراضيه. وبعض هؤلاء العمال كانوا فى الأصل من العبيد المارقين، والذين احتفظت بهم الأديرة كحماية لهم من بعض اللوردات، وكان يتم تعليق أجراس حول أعناقهم، كما قام وكيل الصدقات بتوزيع الصدقات الخاصة بالدير على المستحقين، وكان لكل دير صندوق توضع فيه تلك الصدقات إلى أن يتم توزيعها على الفقراء. وفى هيسترباخ فى ألمانيا كان يتم ذبح وعل يوميًا، ويتم توزيع لحمه كنوع من الصدقة، كما كانت الأعباء المفروضة على ممتلكات الدير يتم تخفيفها حسب الضرورة، ففى رامر شايم فى ألمانيا، كان يتم السماح للنساء الحوامل بالصيد من البركة الخاصة بالرهبان، إلا أنه كان يسمح لهن أن يفعلن ذلك فى حالة وضع إحدى أرجلهن فقط فى الماء بينما تكون الأخرى خارجه.

كذلك كان مفروضًا على الدير أن يستقبل ويستضيف الملوك والنبلاء ومن فى صحبتهم. وكان مجرد ظهور أحد السادة، مع حاشيته، ومع خيوله، وكلابه، وخدمه يعتبر كارثة إقتصادية بالنسبة للدير. فالملكة إيزابيلا زوجة ملك انجلترا إدوارد الثانى

تركت وراءها كلاب صيدها فى كانتربورى لمدة عامين ؛ كما أن الملك جون، بعد إقامته الطويلة هو وأتباعه فى دير القديس إدموند، ترك ثلاثة عشر بنساً كهدية عند رحيله.

وكان الراهب يقضى عدة ساعات فى كتابة أو زخرفة أحد الكتب المقدسة بكل جدارة، وكان يسعده كثيراً أن يرسم الصور الجميلة بيديه، وفى نفس الوقت لاكتساب الكثير من الفوائد الروحية، وفى ذلك يقول القديس برنارد : **"إن كل كلمة تكتبها تعد صفعة موجهة للشيطان"** وبمرور الوقت قام على نسخ الكتب ورسم ما بها من صور عدد من النساخ والرسامين المحترفين، كما أخذت الأديرة على عاتقها إنتاج العديد من الكتب الدينية.

وعن ملابس الرهبان، فإن عباءات هؤلاء الرهبان تنوعت تنوعاً كبيراً من حيث الألوان والتفصيل، واتخذت كل طائفة لوناً مغايراً لغيرها من الطوائف، ومع هذا فإن معظم الرهبان كانوا مولعين بالملابس الخشنة. فكانوا ينامون وفق عاداتهم وهم مرتدو الجوارب، مستعدين للنهوض فى أى وقت، فيرتدى الواحد منهم خفًا فى قدميه، ويشق طريقه إلى القداس الليلى. ولدى بعض الطوائف نلاحظ رفض أعضاء هذه الطوائف لكل ما فيه راحة للجسم، لذا تراهم يمشون حفاة الأقدام. فالراهب سامسون من دير القديس إدموند كان يرتدى زوجًا من السراويل التحتانية المصنوعة من نسيج من وبر الجمل أو نحوه.

وغالبًا ما يتناول الراهب وجبة واحدة فقط فى اليوم، على الرغم من السماح لهم بوجبة عشاء خفيفة فى الصيف، كما أن الرهبان الإنجليز كانوا دائمًا يطلبون أن تكون وجبة الإفطار من الخبز والمزر أو النبيذ ؛ أما العشاء عند الطوائف الأقل تزمتًا أو صرامة كان أساسيا ؛ وكان فى انجلترا يتكون من الخبز، والجبن، وأطباق البيض، والفول، والخضروات، والحبوب والسمك سواء فى الصيام أو الأعياد. كما أن الرخويات مثل المحار وغيره كانت من الأشياء الأساسية أيام الصوم، ولم تكن من الكماليات كما يذكر تشوسر ذلك. أما الدواجن فكانت تعتبر من الأطعمة السريعة لأصلها المائى منذ الخليقة **"فالمياه تجلب الكثير منها، وبأنواع مختلفة، وكل نوع منها يأتى مع أبناء جنسه"**.

وكثير من الأديرة فشلت فى التقيد بتلك الوجبة المحدودة، فالعالم جيرالد كامبرينز عندما كان فى زيارة لرهبان كانتربورى سنة ١١٧٩م، شد انتباهه وفرة كميات الأطعمة التى تم إعدادها لهم، فقد شاهد ستة عشر طبقًا مزدانة بكل أنواع الصلصات، ومرفق معها البيرة، والمزر، وخمرة بوردو الفرنسية الحمراء، والنبيذ الطازج، والميد المصنوع من العسل والشعير والخميرة، ونبيذ التوت المعتق. كما أنه نظر بازدراء إلى رهبان دير القديس سويزن فى ونشستر، والذين عفروا وجوههم بالتراب وانبطحوا أرضًا أمام الملك هنرى الثانى، لأن الأسقف قام بتخفيض ثلاثة أطباق من أطباقهم الثلاثة عشر، ورد عليهم الملك بأنه فى قصره يتناول ثلاثة أطباق فقط وهو قانع بها، ويجب أن يكون الرهبان كذلك. وفى نظام القديس بندكت فإنه يحرم على الرهبان تناول اللحم باستثناء المرضى منهم، ومع هذا فإن هذا التحريم لم يستمر طويلاً. إذ أحيانًا ما نسمع أن نصف جماعة الرهبان مرضى، وأنهم يستمتعون بتناول اللحوم فى وجبة الغداء فى المشفى الخاص بهم. لقد كان جلوتونى على العكس تمامًا من الرهبان، ولم لا ؟ إنهم يأتون إلى موائد الطعام ليفترسوا ما عليها فى أعقاب أربع وعشرين ساعة من الصيام.

وعند الغداء يقوم شخص بمهمة تلاوة فصول من الكتاب المقدس، أو بعض المختارات من قصص حياة القديسين أو بعض كتب الصلوات القصيرة التى يفتتح بها اجتماع دينى، على الرغم من أن اهتمام الرهبان ربما يكون فى اتجاه آخر، ولأنه كان محرمًا على الإخوة الرهبان أن يتحدثوا مع بعضهم البعض عند تناولهم الطعام، لذلك فإنهم ابتكروا وسيلة للتفاهم عن طريق العديد من الإشارات، فقد تم رصد ما لا يقل عن مائة إشارة من تلك الإشارات ؛ حيث وصف لنا جيرالد الكامبرينزى وهو يحضر العشاء فى كانتربورى أنه من كثرة هذه الإشارات اعتقد أنه كما لو كان يشاهد تمثيلية يتم عرضها على خشبة المسرح، بما فيها من حركات وصفارات، وهناك عالم آخر ذكر أنه نتيجة منع الرهبان من التخاطب أو التفاهم بإشارات الأيدى، فإنهم كانوا يتفاهمون بأرجلهم.

نجم عن قلة الحركة، والوجبات المليئة بالمواد النشوية، مع كثرة المزر والبيرة، السمنة وأمراض القلب، كذلك كانت تتم عمليات فصد دم الرهبان خمس أو ست مرات في السنة لمنع انتشار كثير من الأمراض، ولتقليل الشهوة الجنسية لديهم، حيث يقضى الرجال عدة أيام في المشفى معافين من كل الالتزامات، وحيث ينامون ويتناولون اللحوم. في ذلك الوقت كتب أحد مؤرخي الحركة الديرية يقول : "**إن الرهبان الذين يعملون في جوقة المرتلين كانوا ميالين لإفشاء أسرارهم الخاصة**". كما أن الكثير من الأديرة كان لديها استراحات في الريف أو الكثير من النزل، حيث يسمح لرجال الدين بعمل بعض الجولات الحرة الوقورة، على الرغم من أنه لم يكن مسموحاً لهم بالصيد أو إقامة الأخصاص في تلك المناطق.

ومن أمراض المهنة التي كان يصاب بها رهبان فرقة المرتلين مرض يسمى "الأشباح" Accidia، وهو نوع من الأمراض الروحانية التي كانت تؤدى إلى الضجر، وإلى مرض السوداء أو الملانخوليا. ففى الأوقات التي كانت تخصص للعلاج، وبوجه خاص بعد وجبة غداء ثقيلة، فإن الشيطان يوسوس لهذا الراهب المتدين، وهو ما عرف باسم شيطان منتصف النهار، ويجعله يتساءل أو يتشكك فيما إذا كان على صواب باعتزاله الحياة الدنيا بمباهجها ومغرياتها أم لا. وللتخلص من هذا المرض وهو مرض الأشباح، فقد كان على الراهب أن ينتهز الفرصة بالخروج في رحلة قصيرة إلى أحد الأديرة الأخرى، أو القيام برحلة حج إلى أحد المزارات المسيحية، أو أن يقضى فترة من الوقت في إحدى الجامعات، وبعض هؤلاء الرهبان لم يعد بعدها إلى ديره، حيث تحولوا إلى رهبان شحاذين متجولين، والبعض الآخر، مثل الراهب توك Tuk انضم إلى عصابات قطاع الطرق. وفي داخل أسوار الأديرة لم يكن من المستبعد أن تأكل الغيرة الحمقاء والحسد نفوس بعض الرهبان، حيث نسمع عن أحد الرهبان في دير القديس جال St. Gall وقد قام بتمزيق إحدى المخطوطات الجميلة الخاصة بأحد منافسيه ؛ كما نسمع عن البعض الآخر من الرهبان وقد أصابتهم لوثة عقلية بفعل من الشيطان، وأنهم شنقوا أو صلبوا أنفسهم.

كما أن بعض المتعصبين دينياً، والذين لم تكن الحياة المشتركة للرهبان بالنسبة لهم غير صارمة بدرجة كافية، اعتزلوا الحياة في بعض الصوامع أو تنسكوا وزهدوا في الحياة، مستجيبين للوازع الديني الذي يدعوهم إلى الابتعاد عن الدنيا، ومنهم من

شيدوا الأكواخ فى الأماكن المنعزلة والنائية فارتدوا فرو الأغنام، وعاشوا على ما تنتجه بعض البساتين، أو ما يقدمه لهم بعض الفلاحين الفقراء، وربما استمروا فى تقديم الخدمة للبشرية بإقامتهم فى إحدى الغابات، أو عند مخاضة أحد الأنهار، أو إحدى المستنقعات لإرشاد المسافرين ورعايتهم، والقليل منهم وبخاصة من النساء من حبسن أنفسهن فى إحدى الصوامع ذات فتحة تطل على إحدى الكنائس.

وعلى أية حال فإن صوامع النساء كانت أصغر عدداً وأقل حجمًا من تلك الخاصة بالرجال، وبعض المتطوعين الجدد كان لديهم الدافع الحقيقى، مثل السيدة الإيطالية، أنجيلا الموقرة، من فوليجنو Foligno فى القرن الثالث عشر للميلاد، والتى كانت تتفجع رثاء لحال زوجها، وتوقيراً لأمها، ورعاية أطفالها، فكانت تصلى طلبًا لتخفيف تلك الالتزامات، فاستجاب الله لصلواتها، ولم تلبث أن ماتت أمها، ثم زوجها، وتلاهما أطفالها ؛ وهكذا، وبعون من الله انضمت إلى دير الفرنسيسكان.

وعلى أية حال فإن معظم الراهبات كن أرامل أو من البنات غير المتزوجات من طبقة النبلاء والطبقة البورجوازية. ولا نريد أن نرثى لحالهن لهروبهن من القدر المحتوم لزواجهن الفاشل، أو ثقل الوطأة عليهن، أو لفقدهن الأطفال، إذ يبدو أنهن كن يمضين أوقاتا سارة جداً، بلا أى تقشف أو صرامة، وسط مجتمع يمكن أن نسميه مجتمع النساء الأرستقراطيات ممن اشتغلن بالغزل. وحيث كن يمضين وقتهن فى تعليم البنات، وفى أشغال الإبرة والتطريز، وقمن بتزيين كثير من الكنائس والأديرة، وما زال كثير من أعمالهن مشهوراً فى انجلترا.

وكان فى مقدورهن الحصول على بعض الممتلكات الخاصة، كما كانت ملابسهن مميزة، وكما هى حال ملابس الأرامل وقت إنشاد طوائف الراهبات، وكان فى مقدورهن وكما يروى تشوسر أن يتحلين بالأساور ودبابيس الصدر "البروشات"، وأن يحتفظن بالكلاب المدللة، وكذلك الطيور والأرانب ؛ كما كان مسموحًا لهن بالرقص والغناء، والتمتع بإجازات طويلة قد تستمر إلى سنة من أجل التجديد، وإذا اشتكين من حظهن فى الحياة، فإنهن يكن بذلك قد وضعن أنفسهم ضمن الغالبية العظمى من الناس.

وكان نظام جماعة الرهبان المتسولين مماثلاً للنظم الديرية فى هدفها الأمثل، مختلفًا عنها فى طريقة أدائها، كما يعتبر فرانسيس الأسيزى هو المؤسس الحقيقى لهذه الجماعة، وهو أحد الرجال القلائل الذين أحدثوا تحولاً فى الفكر والسلوك البشرى فى تلك الأيام، وما تلاها من أيام. فالكتب التى تتحدث عن القديس فرانسيس ما هى إلا صرخة كبيرة للامتنان والحب، فالقليل النادر من الفلاسفة الكلبيين(*) Cynics هم الذين تجرأوا على السخرية منه، مدعين أنه لديه نزعة مرضية مسيطرة عليه يدل عليها تحقيره لكل البشر، وأنه كان مصابا بجنون العظمة عندما قال وهو فى السجن : "**سوف ترون فى يوم من الأيام أن العالم كله سوف يوقرنى**". هؤلاء الفلاسفة ما هم إلا كمثل الصوت الناشز فى مجموعة من المغنين أو المنشدين، فكل من عرف فرانسيس استسلم لسحر كلماته، ولتأثيره الذى يشبه تأثير المسيح، والذى لا يزال له مفعوله فى العالم.

وهو كابن لأحد أثرياء التجار، ولد عام ١١٨١م أو ١١٨٢م فى مدينة أسيزى الإيطالية، وعندما كان فى ريعان شبابه، فإنه ناضل من أجل أن يتغلب على ما كان فيه غيره من شباب أسيزى من فساد واضح، وفى حوالى الحادية والعشرين من عمره، وبعد سجنه سياسيًا لمدة عام، ومرضه الطويل، سمع نداء سماويًا، فقام بالحج إلى روما، وغير ملابسه الثمينة بملابس فقيرة عبارة عن خرق يرتديها أحد المتسولين، ووقف يومًا بكامله أمام القديس بطرس طالبًا الإحسان والرفق. وذات يوم وبينما كان يتجول فى الريف، التقى بأحد مرضى الجذام، فابتعد عنه مشمئزًا، إلا أنه سرعان ما رجع مرتعبًا وبكل تواضع ركع إلى الأرض وقام بتقبيل أيدى هذا المريض، واعتقد أهل مدينة أسيزى أنه قد خبل، وقام والده بتحذيره من ذلك الإسراف فى الإحسان والمحبة، وأخذه إلى محكمة رجال الدين، فأمره الأسقف بأن يتخلى عن كل ممتلكاته. وقام فرانسيس بما لديه من حاسة المرح بخلع كل ملابسه بحيث أصبح عريانًا، وسلم تلك الملابس إلى والده، معلنًا أنه منذ ذلك الحين سوف لا يعرف أبًا آخر سوى الله، فأخذ الأسقف فرانسيس مَنْ كان يرتعش من شدة البرد تحت عباءته.

(*) مجموعة فلاسفة آمنوا بأن الفضيلة هى الخير الأوحد، وبأن جوهرها ضبط النفس "المترجم".

هكذا تزوج فرانسيس الفقر، وكان زواجًا سعيدًا جدًا . وكان شعار فرانسيس وكذلك شعار الفرانسيسكان هو المرح، كما كان فرانسيس مغنيًا ممتأزا عشق الأغانى الفرنسية المرحة، ولأنـه لـم يـكن يمتلك أيـة أداة مـوسيقية، لـذا فقـد كان يعزف بطـرُق قطعة من الخشب مع أخرى، وأطلق على أتباعه اسم "جماعة الرب المرحون" Joculatores Dei وسرعان ما التف حوله الأتباع، واتخذوا من الحوارى الثانى عشر مثلاً يُحتذى به فى زهد كل مباهج الحياة الدنيا. وقاموا بتشييد عدة أكواخ من فروع الأشجار، واتخذوا لعباءاتهم المصنوعة من الأقمشة الخشنة اللون الرمادى البنى، وهو اللون الذى يسميه الإيطاليون اللون البهيمى Beast Colour، ومارسوا بعض الأعمال فى الحقول مع الفلاحين، واعتادوا أن يدخلوا أى مدينة وهم يغنون، ثم يلقون دروس الوعظ والإرشاد التى تدعو إلى التوبة والندم، وطلب العفو عن الذنوب والآثام. فغضب منهم بعض السامعين، وألقوا بهم فى الطين، أو مزقوا ملابسهم، والبعض الآخر سخر منهم ووضعوا فى أيديهم زهر النرد وطلبوا أن يلعبوا به، والبعض الآخر تأثر بهم تأثرًا شديدًا. وبوجه عام فإن رجال الدين كانوا دومًا محل سوء ظن، كما كان الحال بالنسبة لكنائسنا المشيدة والتى لقيت على أيدى جيش الخلاص قلة الاحتشام. وفى عام ١٢١٠م قابل البابا إنوسنت الثالث فرانسيس وأتباعه فى روما، وأدرك ما يتمتع به فرانسيس من قوة تتسم بالحب والسعادة، وأصدر تعليماته له ولأتباعه بأن يستمروا فى عملهم، إلا أنـه جعلهم يحلقون شعر رءوسهم ضد رغبتهم لكى يخضعهم لسيطرة الكنيسة.

كان هذا مما شجعهم على أن يحملوا رسالة التنصير بعيدًا، وبوجه خاص إلى إنجلترا وألمانيا كما كان فرانسيس واثقًا من أنه لو استطاع أن يشرح للمسلمين العقيدة المسيحية الحقة وكذلك للوثنيين، فإنهم سرعان ما يقتنعون بها وبصحتها. كذلك رافق إحدى الحملات الصليبية ضد مصر، واستطاع أن يتوغل فى صفوف الأعداء، وطلب من الحراس المسلمين أن يوصلوه للسلطان. وكان الجنود قد أصيبوا بحالة من الارتباك، إلا أنهم فى النهاية وصلوا إلى نتيجة وهى أن شخصًا بهذه البساطة وتلك القذارة لابد وأن يكون مجنونًا، وأن الله قد أوصى الناس باحترامه، فقادوا فرانسيس إلى السلطان، الذى استمع إليه فى دهشة، وأعاده باحترام إلى صفوف المسيحيين "الصليبيين".

وقامت السلطات الكنسية - بعد قناعتها التامة - بإقناع فرانسيس لأن يؤسس نظاماً رهبانياً يسير عليه أتباعه، وعلى الرغم من كراهية فرانسيس للنظم الديرية، فقد قنع بأن يجعل أهم ما يعتمد عليه هو الصلاة، والوعظ والتبشير، والغناء، لذا كان نظامه من هذه الناحية غريباً، وكان فى مقدور أى شخص أن يلتحق به، وبلا ترهبن(*) والشرط الوحيد الذى يطالب به من يلتحق بهذه الجماعة هو أن يتخلى تماماً عن كل ما يمتلك للفقراء. ولقد أطلق على أعضاء هذه الطائفة اسم « الإخوة القصَّر»، ذلك لأن فرانسيس قال : **"فليكن الأبناء أقل أهمية من الآخرين"**. ونحن نطلق عليهم اسم **"الرهبان الشحاذون"** لأنهم كانوا يعيشون معظم حياتهم يشحذون، ولكن الحقيقة أن فرانسيس توقع من رفاقه أن يشتغلوا بأى عمل يدوى يقدرون عليه، قبل أن يسألوا الناس الصدقات. ولم يحرم الملكية فى حد ذاتها، إلا أنه اعتبرها إحدى الروابط التى يجب على الحوارىّ أن يتحرر منها، كذلك قبل المساعدات التى قدمها العلمانيون رجالاً ونساء، والذين دعاهم لكى يلتحقوا بمجموعة من الإخوة المفلسين، ولم يكن لهم أى نظام آخر سوى الإنجيل.

إن كل إدارى سوف يدرك أن مثل هذا الخلل يفتح الطريق أمام مزيد من البؤس، وأن الحب لا يمكن أن يكون مطلقاً، بل يجب أن يكون موجهاً ومتشعباً. وأن المغامرة السريعة لابد وأن تكون محسوبة، ولها سند تعتمد عليه، ولها مجموعة منفذين أكفاء، ولها قوانينها المشروعة داخلياً وخارجياً. فلقد أخذ الكهنة على عاتقهم دور القديسين، كما أن شياطين حب التملك هددوا الفقر، وقام المواطنون فى مدينة أسيزى بتشييد مقر لهؤلاء الرهبان، وصعد فرانسيس إلى السطح وألقى إلى الأرض القرميد. وبعد سنوات قليلة، وعندما كان يتم تشييد كنيسة تخليداً لذكرى فرانسيس، فإن أحد أتباعه، ويدعى الراهب لين، قام بتحطيم صندوق الذبيحة الإلهية، لذلك تم جلده علانية أمام الجمهور.

لقد أحس فرانسيس باليأس والقنوط عند رؤيته لجماعته المثالية وهى تتجه إلى ما يشبه الاشتغال بالمال والأعمال، فانسحب إلى الجبال حيث أمضى عمره فى خدمة

(*) أى بلا مدة يقضيها الراهب حتى يثبت أنه جدير بأن ينضم لإحدى الطوائف الخاصة بالرهبان "المترجم".

الرب وتأمل الطبيعة. ولقد كان عشقه للجمال الطبيعى يعد واحداً من الروابط التى تربطه بالروح الجديدة، لقد كانت المناظر الجبلية تبهره، لدرجة أنه كان كثيراً ما يحملق لساعات فى مياه البرك، ولقد نادى بضرورة إقامة ركن خاص بالزهور فى حديقة كل دير من أديرة الفرانسيسكان، وأن أخواته الصغار وهن من الطيور، وإخوته الصغار وهم الوحوش سوف يأتون بكل الثقة ملبين دعوته، وأنه سوف يغنى لهم أو يقدم لهم "موعظة حسنة، هذا القول بوحدة الوجود، أو دمج المرء نفسه فى جماعة دمجًا ينشأ عنه ارتباط عاطفى عبر عنه فرانسيس فى أنشودته : **"أنشودة المخلوقات"** أو **"ترتيلة الشمس"**، وهى إحدى أعظم الأشعار التى قرضها.

وفى السنوات الأخيرة من حياته، وبعد فترة قضاها فى صلوات الزهد فى الجبال، رأى فرانسيس فى منامه ملاكًا مطروحًا على الصليب، عند ذلك لاحظ فرانسيس على جسده علامات مميزة أخذت فى الظهور، هى عبارة عن بقع جلدية بارزة على يديه ورجليه، وكأنها من أثر بعض المسامير النافذة، كما لاحظ جرحا فى جنبه ينزف دما فى بعض الأحيان، هذه المظاهر الحقيقية لم تترك مجالاً للشك أو للتساؤل، والسؤال الوحيد الذى كان يمكن طرحه هو السبب فيها. وإن كان بترارك فى القرن الرابع عشر للميلاد قد رجح أن السبب فى ذلك راجع لاضطراب الجروح، على الرغم من أنه لم يستخدم نفس العبارة، وكثير من الناس يفسرون ذلك ببساطة فى ضوء حدوث المعجزات أكثر من اضطراب الجروح.

مات فرانسيس عام ١٢٢٦م، وبعد سنتين من وفاته تم تشييد البازيليكا العملاقة فى أسيزى لتضم عظام الرجل، الذى رفض فى حياته أن يسكن أحد الأكواخ لأنه سمع شخصًا ما يقول أنه "ملكه" ، ولأن طائفة الرهبان الفرانسيسكان كانت تنمو بسرعة مذهلة، فإن الكنيسة كانت مضطرة لإيجاد أحياء سكنية للإخوة الرهبان، ولأن تتغلب بالحيلة على تحريم فرانسيس للملكية، فقد عقدت مؤتمرًا لمناقشة الموضوع، وفى سنة ١٢٣٠م أصدر البابا قراراً أعلن فيه **"لا يمكن اعتبار أى شخص يمتلك شيئًا يستحوذ عليه كلية ولمدة طويلة، كما أنه يجب عليه ألا يعتبر نفسه مالكًا."** لذا أمكن للإخوة عندئذ أن يستحوذوا على أى شيء دون أن يمتلكوه، وأصبح فى مقدور أصدقاء

الطائفة أن يقبلوا الأموال، وأن يعتبروا أنفسهم ملاكًا، وعلى هذا السؤال الخاص بفقر العذراء، لم يستطع أحد من العلماء أن يجد جوابًا. واستمتع الإخوة الرهبان بكل مزايا الثروة ولم يكونوا مطالبين بتحمل أية تبعة من تبعات تلك الثروة.

وفى نفس الوقت أصبحت الطائفة مؤسسة ثقافية، واهتم أعضاؤها أكثر فأكثر بالتأمل اللاهوتى، وإن كان فرانسيس يرتاب فى التعليم عن طريق الكتب، وهاجم أحد الأتباع لأنه أقام مدرسة : **"إنك تريد أن تحطم طائفتى، إننى تمنيت كثيراً أن يقوم الإخوة الرهبان تأسيًا فى ذلك بالسيد المسيح، بأن يصلوا أكثر مما يقرءون"**. وكان أن سقط هذا الراهب مريضًا ولازم فراشه، فسقطت قطرات حارقة من مادة الكبريت من السماء فأحرقته هو وفراشه، وحمل الشيطان روحه، أو هكذا تقول الرواية.

وانقسمت الطائفة إلى عدة جماعات منها الفرانسيسكان الكنسيون، والمؤمنون بمذهب العصمة(*)، والمتمسكون بالمثل العليا الأساسية للطائفة، وقبلت الغالبية العظمى من أبناء الطائفة فكرة جعل الطائفة نظامية، وملاءمتها مع ما يقتضيه التعليم، والمنح الدراسية، وطاعة البابوية، فبقوا رهبانًا متسولين يعيشون على جمع الصدقات، على الرغم من أن الأخ منهم وهو المفترض فيه ألا يلمس النقود، كان يتبعه خادم يخشخش بالصندوق باستمرار، لدرجة أنه قيل أن الناس كانوا يخشون من مقابلة هؤلاء الإخوة وكأنهم يقابلون قطاع الطرق والسارقين، ومع هذا كان من الضرورة بمكان لهؤلاء الإخوة أن يأكلوا، فانتشروا فى كثير من أنحاء العالم لإنقاذ أرواح الآخرين، بدلاً من اعتزال الحياة الدنيا، وكما يفعل الرهبان الزهاد لإنقاذ أرواحهم فحسب، وأخذوا على عاتقهم القيام بالعديد من المهام الاجتماعية، والبعثات التبشيرية، وكانوا أهم أعوان حركة الإصلاح الدينى التى عمت أوربا منذ القرن الثالث عشر للميلاد، وأكثرهم نشاطًا وحيوية.

(*) حركة تؤكد على أن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ، لا فى قضايا العقيدة والأخلاق فحسب، بل فى كل ما يتعلق بالتاريخ، ومسائل الغيب كقصة الخلق، وولادة المسيح من مريم العذراء، ومجيئه ثانية إلى العالم، ويوم الحشر " المترجم" .

كان أعضاء طائفة الدومينيكان زملاء في العمل للفرانسيسكان ومنافسين لهم، وهم الذين استمدوا اسمهم من مؤسس الطائفة دومنيك الكليروجي الإسباني Dominic of Caleroege in Spain، وعلى الرغم من اختلافه عن القديس فرانسيس في سلوكه، إلا أنه كان صديقًا مخلصًا وحليفًا له، كما كان عالمًا مستنيرًا ومؤسسًا قديرًا، عمل لعدة سنوات جاهدًا لكي يحول الهراطقة الألبيجنسيين إلى الإيمان المسيحي الحق، وسطع نجمه في نفس الفترة في جنوب فرنسا، وكان يدرك تمامًا أن المبشر يجب أن يكون مستنيرًا ومثقفًا أكثر من خصومه، لذلك قضى عدة سنوات لكي يحصل على تصريح بإنشاء طائفة تبشيرية من الإخوة المتسولين الذين يعيشون على الصدقات، والمتعلمين بدرجة كافية تؤهلهم لمجادلة الهراطقة، وكان حصوله على هذا التصريح بعد القديس فرانسيس بزمن وجيز.

هؤلاء الإخوة الدومينيكان هم الذين أطلق عليهم اسم التورية "كلاب السيد" Domin canes، وكانوا يرتدون عباءات صوفية بيضاء مثل عباءات هيئة الكهنة النظاميين، وعلى رؤوسهم القبعات السوداء التي يرتديها القساوسة الإسبان أثناء ترحالهم، لذا فهم يظهرون في الفن المعاصر على هيئة كلاب سوداء منقطعة بالأبيض.

واقترح دومنيك أن تكون هناك مدرسة في كل مركز دومينيكي، وأكاديمية عليا في الأديرة الكبرى، ومدرسة لتخريج الطلاب الذين سيلتحقون بالدراسات الجامعية في المدن الكبرى، حيث كانت الجامعات قد أنشئت فعلاً. فأنشئت مدرسة باريس حوالي سنة ١٢٢٠م، ومدرسة أكسفورد بعدها بقليل، هذه المدارس هي التي أصبحت مراكز الحياة الثقافية في الغرب الأوربي، كما أنها أوجدت بعض المشاريع التعاونية، مثل موسوعة "كل المعارف"، وقامت بتعليم وكفالة معظم النابهين من فلاسفة ذلك العصر أمثال القديس توماس الأكويني الدومينيكاني.

وظل أبناء طائفتي الدومينيكان والفرانسيسكان يحملون على عاتقهم تنفيذ وصايا مؤسسي الطائفتين، فخرج من الدومينيكان مبشرون، وعلماء، وكتاب متحررون نادوا بالإصلاح الاقتصادي والدستوري والإداري، رغم كونهم من المتمسكين بدينهم بشدة. أما الفرانسيسكان فهم من أنشط العناصر العاملة في العالم، وأكثرهم ديمقراطية،

وشاعرية، ونزوعًا إلى إحداث تغييرات جذرية فى الفكر، والعادات السائدة وفى الأموال والمؤسسات القائمة، واكتساب مرح القديس فرانسيس الممتع.

ومثل الرهبان، فإن الإخوة الفرانسيسكان، والدومينيكان، والأوغسطينيين، والكرمليين عاشوا فى ظل نظمهم الخاصة بهم، وتحملوا صرامة تلك النظم، هدفهم الرئيسى هو إنقاذ أرواح الآخرين، وبالتالى أرواح أنفسهم، وكانوا دعاة عاملين من أجل الإنجيل بين جموع العامة فى المدن والريف، يعيشون على الصدقات، وعادة ما يعودون إلى مقارهم فى المدن والقرى من أجل الراحة والتجديد، وهم فى غالبيتهم من الطبقات الدنيا، وبسبب تواضعهم الشديد كانوا موضع ترحاب شديد من الفقراء. وتم اتهامهم ظلماً بتعاليمهم الشيوعية، وإن كانت كتاباتهم ومواعظهم بها بعض النقد الاجتماعى، ولكن ذلك كان أمرا عارضا بالنسبة لهدفهم الدينى وهو إنقاذ الأرواح. ولقد طور هؤلاء الإخوة فى نظمهم التبشيرية بحيث لامت الواقع الملموس لإحياء الروح الدينية فى النفوس لدى العامة، ولربما قاموا بعمليات غسيل مخ لدى المبشرين الهدف منها تخويف الخطاة ودق ناقوس الخطر.

وعلى الرغم من ترحيب الرهبان فى البداية بهؤلاء الإخوة، إلا أنهم سرعان ما انقلبوا عليهم، ذلك لأن حماسة هؤلاء الإخوة شدت إليها الكثيرين من أعضاء طوائف الرهبان القديمة، كما أن ولعهم بالفقر كان لابد وأن يتعارض بشدة مع الثروات الكبيرة التى حازتها الأديرة، كما أن الأتقياء من الأغنياء كانوا يفضلون أن يدلوا باعترافاتهم لهم، فضلا عن أنهم أكتسبوا كثيراً من محبة الناس لهم إلى جانب الكثير من الهبات ووصايا الإرث، مما نكد عيشة الطوائف الأخرى، كما أنهم فتحوا الكثير من مجالات الاتصالات مع البابوية، والتى كانت راغبة فى إظهار عطفها عليهم.

كذلك لم يلقوا أى ترحيب من قبل رجال الدين فى الأبرشيات، فهم بفصاحتهم وبلاغتهم استطاعوا أن يقلصوا موارد الكنائس المالية، وبخاصة من الصدقات والتى كان من المتوقع استخدامها فى مصالح الأسقفيات ؛ مع الشكوى المريرة منهم بأنهم يتلقون الاعترافات داخل نطاق مناطق نفوذ القساوسة، ذلك لأن أهل الريف كانوا يفضلون الإدلاء باعترافاتهم لشخص غريب عن أن يدلوا بها لرفيق معهم فى القرية، والذى ربما حاول الاستفادة من المعلومات التى يدلون بها فى اعترافاتهم لصالحه،

أو أن يثرثر بها بحماقة فى حالة من حالات سكره. هذا فى الوقت الذى قام فيه هؤلاء الإخوة بدورهم باتهام رجال الدين فى الأبرشيات بالجهل، وانهماكهم فى الشئون الدنيوية على حساب الشئون الروحية، وإهمال واجباتهم. تلك العداوة نجم عنها بعض أعمال الشغب التى قادها بعض قساوسة الأسقفيات، وكذلك بعض أنواع الشجار البذيئة، ومنها الشجار حول بعض جثث الموتى عند القبور، والنزاع حول تحصيل الضريبة المفروضة على دفن الموتى.

وأخيراً يمكن القول إن الأخوة قد لحقهم بعض الضرر الناجم عما حققوه من نجاحات، فقد منحهم أهل الخير واليسار منازل فخمة، وكنائس نبيلة، وزخارف رائعة، وكان الاحتفاظ بهذه الممتلكات مكلفًا، كما كان يتم جلد جامعى الصدقات لبذل جهود أكبر، مما أدى بهم إلى البحث عن الأموال بدلاً من التسول من أجلها، مما دفعهم إلى الاحتفاظ بأية مبالغ يجمعونها فى جيوبهم الخاصة بعد تحصيلهم حصة معينة، كما أن بعض الأعضاء الجدد غير الجديرين بالاحترام قد انضموا لتلك الجماعات من أجل مصالحهم الشخصية، وشيئًا فشيئًا فقدَ هؤلاء الإخوة ما كانوا يتمتعون به من شعبية وقبول لدى العامة، ومعها فقدوا حماسهم وأسباب رخائهم المادى.

ولم يكن الإخوة الجوالون وحدهم هم المتحمسون دينياً، وفى حركة ترحال مستمر عبر الطرق، فقد كانت هناك مواكب طويلة من ضاربى أنفسهم بالسياط تقرباً إلى الله تجوب تلك الطرق باستمرار، فضرب النفس وتعذيبها بالسوط لقهرها وقهر الجسم البشرى، كان إحدى الممارسات لدى الرهبان والزهاد، وفى القرن الثالث عشر للميلاد كانت عملية ضرب النفس بالسياط وتعذيبها قد شاعت شيوعًا كبيراً وتميزت بالانفعال الشديد، حيث تخرج جماعات كثيرة سواء من الرجال أو من النساء فى رحلات طويلة، قد تبلغ الواحدة منها شهراً، فى مواكب شبه عرايا تطوف القرى والمدن، وهم يضربون أنفسهم كما يضربون ظهور بعضهم البعض، ويبدو أن عملية إظهارهم للتوبة والندم حتمت عليهم أن يفعلوا ذلك أمام الجماهير لكى ينالوا الاستحسان والتصفيق، وفى ذلك يقول الراهب الفرانسيسكانى سالمبين : **"فكل الرجال صغارًا وكباراً، والفرسان من طبقة النبلاء والرجال من العامة، كانوا يجلدون أنفسهم بالسياط وهم عرايا فى مواكب تطوف المدن، ومعهم الأساقفة يتقدمونهم ورجال الدين. وكان الرجال يدلون**

باعترافاتهم عما ارتكبوه من آثام بشكل منقطع النظير، لدرجة أن القساوسة لم يكن لديهم متسع من الوقت لتناول طعامهم. وإذا لم يقم أحد الأشخاص بضرب نفسه بالسياط فإنه ينظر إليه على أنه أسوأ من الشيطان نفسه، والكل يشيرون إليه بأصابعهم كإنسان سيئ السمعة، وأنه أحد تلامذة إبليس، والأكثر من هذا أنه خلال فترة قصيرة من الوقت سوف تحل به نكبة، إما الموت أو مرض خطير".

وفى القرن التالى فإن فواجع طاعون الموت الأسود فاقت كل التوقعات، وطغت على كل نشاط لضاربى أنفسهم بالسياط، لدرجة أنهم ارتدوا زيًا هو عبارة عن سروال أبيض طويل، ومعطف فضفاض أزرق، وجعلوا لهم عقيدة من عند أنفسهم، حيث حلت عملية ضرب النفس وتعذيبها بالسياط محل الندم والتوبة. أما القربان المقدس فكان يتم تقديمه بلا داع، وكما تتم عملية التأمل أو التفكير التى يقوم بها القساوسة كشيء بين الناس والله، ومثل هذه الأعمال الباطلة كانت السبب فى إنزال الكنيسة اللعنة على هؤلاء الناس من الضاربين بالسياط.

كما سادت الناس نزعة من الهرطقة، حيث أخذوا يتجادلون حول الديانة المسيحية، ويتحدون المؤسسات الكنسية. وفى بدايات القرن الحادى عشر للميلاد بدأت فكرة إحراق المنشقين على الكنيسة، سواء كانوا من الفلاحين، أو رجال الدين، أو طبقة النبلاء فى كل من فرنسا وإيطاليا، والتى كان لها كثير من الضحايا فى القرون التالية. فقصة الجحيم لدانتى تزخر بالعديد من الهراطقة، وببسالتهم التى صورها الشاعر على أنها نوع من المعارضة تستحق الإعجاب. ففى عام ١١٦٦م فى انجلترا ظهرت جماعة من الاشخاص الذين يرفضون الأسرار المقدسة وتم تقديمهم للمحاكمة، وفى ذلك يقول المؤرخ وليام النيوبرجى William of Newburgh: **" لقد تم ضربهم بالسياط علانية وهم يرتدون ملابس قد تم قصها إلى أوساطهم، وتم طردهم من المدينة بينما تكال لهم اللكمات والضربات فى البرد القارس، لأن الدنيا كانت شتاء، ولم يُظهر أى شخص أدنى شفقة نحوهم، وتم إهلاكهم بشكل بائس".**

وحوالى عام ١١٧٠م فإن أحد التجار الأثرياء ويدعى بطرس والدو Peter Waldo فى مدينة ليون Lyons، قد تأثرًا شديدًا بقراءته للإنجيل، وبعض قصص القديسين، فقرر أن يبيع كل ما يمتلكه ويعطى ثمنه للفقراء، كان هذا تقريبًا قبل أن

يعلن فرانسيس الأسيزى اعتناقه مذهب فقر العذراء بأربعين سنة، وقام بطرس والدو بتنظيم جماعة عرفت باسم فقراء ليون الذين كرسوا أنفسهم للتبشير بالإنجيل باللهجة المحلية، فطلب البابا من والدو أن يخضع لنظام الكنيسة، إلا أنه رفض قائلاً إن من واجبه أن يطيع الرب أكثر من طاعة البشر. فصدر ضده قرار الحرمان ؛ إلا أنه ظل هو ورجاله يقومون بمهمة التبشير غير قانعين إلا بما وجدوه فى الإنجيل. ولأنهم كانوا مضطهَدين، بحثوا عن ملجأ لهم فى أودية جبال الألب فى سافوى Savoy وبيدمونت Piedmont، والشيء المثير حقًا عن أتباع والدو هو بقاء مذهبهم، فهناك كنيسة خاصة بهم فى نيويورك، وبعض المستوطنات فى كارولينا الشمالية، والأرجنتين، وأرجواى.

ولقد كان أتباع والدو من المسيحيين الإنجيليين، أما معاصروهم من الكاثارى Cathari أو المتطهرين The Pure فقد كانوا من الهراطقة بشكل واضح، فعقائدهم مستمدة أصلاً من الديانة المانوية الفارسية[1]، والتى امتزجت بتعاليم مذهب العرفان[2] تلك العقيدة الخاصة بهم كانت تقول بالثنوية[3] فالكاثارى أو المتطهرين يعتقدون أن هناك حرباً دائمة ولا نهائية بين الخير والشر فى عالمنا، ومع أعدائهم أو خصومهم، وهى حرب لا هوادة فيها. فالخير هو الروح ويمثله المسيح، والشر هو المادة، والجسد، وممتلكات الشيطان، وأن سلاح الشيطان الأساسى هو الرغبة الجنسية، وأن الزواج ما هو إلا إثم منظم، وأن كل ما هو ناتج عن كائن حى يجب تجنبه، بما فى ذلك اللحم والبيض. وأن إراقة الدم شيء سيئ سواء قام به أحد الجنود، أو أمر به أحد القضاة، وحيث إنه لا يوجد شيء على الإطلاق أسوأ من عالمنا الذى نعيش فيه، لذا فلن يكون هناك مطهر[4] ولا جهنم، وأن الجسد لن يبعث حيًا، وأن الروح النقية سوف تتحد بالجسد السامى، أما الروح الشريرة فسوف تتقمص فى شكل حيوانات.

(١) نسبة إلى مانى الفارسى (٢١٦-٢٧٦ م) الذى دعا إلى الإيمان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام "المترجم".

(٢) مذهب العرفان، مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شر، وبأن الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية "المترجم".

(٣) مذهب يقول بأن الكون خاضع لمبدءين متعارضين، أحدهما خير والآخر شر "المترجم".

(٤) حاجز بين الجنة والنار، يدخله بعض الناس ليتطهروا من ذنوبهم تمهيداً لدخولهم الجنة "المترجم".

كمـــا أن هلع المتطهـرين من الجنس أعطـــى أصحـاب الإيمان القـويم وسيلة ممتازة لتفنيد آرائهم وتعرية معتقداتهم، فالراهب الإنجليزى جيرفاس Gervase من تلبرى Tilbury حاول أن يغتصب إحدى الفتيـات فى حقل للكروم بالقرب من ريمس Reims، فدفعته بكل قواها قائلة : **"معنى أننى أفقد عذريتى أننى سوف أبقى إلى الأبد ملعونة. ففهم من هذه العبارة أنها تنتمى إلى ذلك الجنس العاق، فاتهمها بالهرطقة، وتم القبض عليها وتمت محاكمتها، فرفضت أن تتخلى عن عقيدتها، وتم حرقها، دون أن تظهر ألمًا، أو بكاءً، أو عويلاً أو نواحًا".**

لقد ازدهرت حركة المتطهرين فى لانجدوك تحت رعاية الدوق ريموند السادس دوق تولوز، حيث قام المتطهرون بالدعوة لمذهبهم علانية، بل إنهم تسللوا إلى المناصب العليا فى الكنيسة، ولأن مدينة ألبى Albi كانت مركزًا للهرطقة، فقد أطلق على معتنقى هذا المذهب اسم الألبيجنسيين، وخلت الكنائس الخاصة بأصحاب الإيمان القويم، ففى أحد القداسات وجد أسقف ألبى نفسه وجماعته وحيدين فى الكاتدرائية.

وكان لابد من وضع وسائل صارمة لإخماد حركات الهراطقة، ففى سنة ١٢٠٨م أعلن البابا إنوسنت الثالث حربًا صليبية ضدهم، فكان رد الفعل مفزعاً، إذ لم تعد الحروب الصليبية الموجهة للأرض المقدسة تلق إقبالاً شعبيًا، نظرًا لما يكتنفها من مشاق كثيرة وفوائد قليلة، أما الحرب الصليبية الألبيجنسية فهى فى أوربا أولاً، كما كانت تبشر بمغانم هائلة ثانيًا، فضلاً عن الحصول على الغفران، كما أنها عبرت عن العداء القديم للشمال الفرنسى نحو الجنوب.

وللبحث عن الهراطقة ومعاقبتهم، فقد أقيمت مؤخرًا محاكم للتفتيش عام ١٢٣٣م، تحت إشراف طائفة الدومينيكان. وكما يظهر من الاسم، فقد كانت هذه المحاكم تفتش عن عقيدة الناس، ولم يسلم أحد من ذلك، فمجرد أن يقوم أحد الأشخاص بتحية واحد من الهراطقة كان ذلك مدعاة للشك فيه، كما لم يقم أحد بتعريف الشخص المتهم بالهرطقة باسم من أبلغ عنه حتى ولو كان أحد خصومه، ولو كان حانثًا فى يمينه، أو أحد القتلة. وكان على ذلك المتهم أن يدافع عن نفسه، وأن يخمن ما هى التهم

الموجهة إليه. فإذا كان المتهم عنيدا فكان يتم تعذيبه بشكل قاس ومعه أي شاهد نفي، أما الأطفال الذين لم يصلوا سن البلوغ أو الحلم، والمسنين من الرجال والنساء فكانوا يعذبون بطريقة أقل قسوة من الأقوياء.

لقد نجحت الحرب الصليبية الألبيجنسية في إقصاء الهرطقة، وبمرور الأيام فإنها أثارت قرائح الشعراء الملهمين من التروبادور في بروفانس، وإن كان الناس أحياناً يقولون إن الأفكار لا يمكن إخمادها بالقوة، فلقد أثبتت الحرب الصليبية الألبيجنسية أنهم على خطأ، فإن الأفكار يمكن إخمادها بالتخلص نهائيًا من معتنقيها، إلا أن هذا عمل مكلف جداً. فمحاكم التفتيش نجحت في المناطق التي عملت فيها، إلا أنها سببت الكثير من الضرر للكنيسة.

وفي أواخر العصور الوسطى عانت الكنيسة من تضاؤل رجال الإكليروس، والانهماك المتزايد في الشئون الدنيوية، أو نقولها بصراحة : الجشع المقنن. ففي أثناء حرب المائة عام، أدى نقصان موارد الكنيسة والدولة إلى مزيد من ابتزاز الفلاحين وبشكل قاس، فقد كانت عملية جمع ضريبة العشر وحشية، حيث كان يتم دفع العشر على الإنتاج بما فيه من أدوات تستخدم في الحدائق، وكذلك جمع الألبان. فالفلاح الذي يقتطع تكاليف عمله قبل دفعه لضريبة العشور تحل على روحه اللعنة من الكنيسة، كذلك كانت ضريبة العشور ضريبة للدخل يتم فرضها على كل الأشخاص القادرين على العمل، وهؤلاء الذين يحتفظون لأنفسهم بشيء ما، كان يتم عقابهم بإنزال لعنة العشور عليهم.

"فنحن نلعنهم بالسلطة المخولة لنا من بلاط روما، خارج روما وداخلها، وتحل عليهم اللعنة في نومهم ويقظتهم، في غدوهم ورواحهم، في وقوفهم وركوبهم، في وجودهم فوق الأرض وتحت الأرض، في كلامهم وصراخهم، وفي شرابهم ؛ في الغابات، وفي المياه، وفي الحقول، في الريف والمدن. يلعنهم الأب والابن والروح القدس أو تلعنهم الملائكة والقديسون وكل طوائف السماء التسع.. ستكون آلام الجحيم هي مكافأتهم مع يهوذا الإسخريوطي الذي خان المسيح عيسى، وسوف تمحى حياتهم من كتاب الحياة إلى أن يأتوا ويصلحوا من أنفسهم ويقدموا الترضية ! ليكن ذلك، ليكن ذلك، آمين ! ".

هكذا يبدو وكأن الدخل الوطنى أو الدخل الحكومى كانت له من القوة ما يجعله يفرض على الممتنعين عن أدائه قرارات الحرمان، والعقوبات الأبدية. وهكذا فإن تحصيل الموارد الكنسية قد ألحق الضرر بالقطاع الأكبر من عامة الناس. مما عمل على انتشار نزعة من العداء ضد رجال الدين ساعد عليها فشل الحروب الصليبية، مع القناعة التامة بأن الكنيسة قد خدعت الناس، وأن الرب قد تخلى عن جنوده وتركهم فى الكنيسة، فالتراث الشعبى والقصص الكوميدية النثرية مليئة بالسخرية من رجال الدين، كما هو الحال فى أغانى طلبة العلم الرحالين، والمغنين الجوالين، كما أن طبقة رجال الدين كانوا يقدمون برامج منوعات ساخرة عن شدة تمسكهم بالشكليات. ففى كنيسة القديس ريمى فى فرنسا كان يتم تقديم عرض للجمهور فى يوم خميس العهد، بحيث يقوم كل شخص من المشتركين فى العرض بجر سمكة رنجة مربوطة فى خيط، ويحاول أن يدوس سمكة شخص آخر دون أن يدوس أحد سمكته. وفى بعض المقاطعات كان يتم الاحتفال بعيد الحمار، حيث يتم إلباس شخص ملابس تشبه الحمار على نحو مضحك، ويتم سحبه إلى مذبح الكنيسة، ويقوم أحد المتشردين بإنشاد أغنية كنوع من المديح للحمار، وعندما يتوقف لبرهة، يردد الجميع : **"إنه يقول كلاماً يحتمل معنيين أيها السيد الحمار"**. وفى عيد الحمقى، وهو أثر من عادة قديمة للاحتفال بعيد الإله ساتورن(*) يتم اختيار أحد رجال الدين على أنه الإله المحتفى به، ويتم تعميده بسكب الماء من الدلو عليه ثلاث مرات. ولقد شكت جامعة باريس إلى الملك حيث جاء فى الشكوى:

"إن الأساقفة وغيرهم من رجال الدين.. يرقصون فى المكان المخصص لجوقة المنشدين وهم مرتدون ملابس النساء أو ملابس المشعوذين، أو كمغنين. ويقومون بترديد بعض الأغانى الخليعة، ويتناولون البودنج الأسود(**) على المذبح، بينما يردد المحتفلون بعض القداسات، كذلك يلعبون النرد على المذبح، ويتبخرون بالدخان الناجم

(*) عيد الإله ساتورن فى روما القديمة، وكان يتميز بالاسترسال فى القصف والعربدة "المترجم".
(**) حلوى تعد من دقيق أو أرز ولبن وبيض وفاكهة وسكر "المترجم".

من إحراق نعالهم العفنة، كما أنهم يجرون ويتمايلون فى كل أنحاء الكنيسة، دونما أى شعور بالخجل. وفى النهاية يخرجون إلى البلدة ومسارحها فى عربات مكشوفة، ويقومون بإيقاظ الناس على صوت ضحكات رفاقهم، وعلى صوت عروضهم الضاحكة، وإيماءاتهم المبتذلة، وعباراتهم السفيهة التى تعوزها العفة.

وكان عدم احترام رجال الدين واضحًا، فأهالى بيروجيا Perugia قد قاموا بحرق عدة تماثيل للبابا والكرادلة، كما أن حاكم مدينة فورلى Forli الإيطالية الذى صدر ضده قرار الحرمان، قام بإصدار قرار حرمان ضد البابا وكبار أعوانه باعتبارهم السلطة الحاكمة فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية Curia، قائلاً: "**حسنًا، لقد أصبحنا محرومين، فمن ذا الذى سيتذوق خبزنا، ولحومنا، ونبيذنا، ويعرف مدى حلاوتها**". كذلك اقتحم اللصوص الكنائس وسلبوها أوانى الذخائر المقدسة، وصنعوا من قماش المذبح معاطف لخليلاتهم من النساء. وفى انجلترا فإن المواطنين قاموا بقتل رجال الدين، وإحراقهم وتبخروا بالدخان المتصاعد من جثثهم بسبب ابتزازهم لهم. ومن هذه الفترة المتأخرة يمكن تأريخ ظهور جماعات الرهبان ذوى الصدريات الحمر أو الضاربة للحمرة، والإخوة المرحين الذين ظهروا فى بعض الأساطير المتبقية للآن.

ولو أمعنَّا النظر فى عيوب الكنيسة، والتى هى قبل كل شىء مثيرة ومتنوعة، ولا تتفق مع طبيعة عمل الكنيسة، فإنه يمكننا أن ندرك أن الكنيسة كانت معتدة بنفسها وفى حالة من النعاس، وقانعة بدورها الروتينى فى الحياة اليومية، وغير ميالة للمخاطرة. ومع هذا فلقد استمرت الكنيسة فى أداء مهامها الروحية بحماسة. فكثير من الفقراء المغمورين، قدموا أكثر مما هو مطلوب منهم لأبرشياتهم، وكثيرون قاموا بخدمة المعرفة والحكمة فى المدارس والمراسم، والكثير منهم أيضًا قدموا العطايا والمنح والهبات، والكثيرون عاشوا حياة طاهرة وماتوا أطهارًا ضاربين بذلك المثل الأعلى للسلوك المسيحى فى التواضع، والطهارة، والطاعة، والمحبة، والتقرب إلى الله.



الفصل السادس

المدن والتجارة

إن نظام الضيعة الذى انتشر فى الغرب الأوربى منذ أيام شارلمان فصاعداً، لم يكن فى بدايته النظام المفضل لتقدم الزراعة والتجارة. ذلك لأن أهل هذه الضياع كان لديهم نزوع للاكتفاء الذاتى، وكان الاقتصاد مغلقًا. وعاش الناس فى عالمهم الصغير، فى خوف دائم من العالم المجهول الغريب البعيد عنهم، هذا العالم لم يأت منه - فى تصورهم - إلا كلُّ شر. وأفضل ما كانوا يأملون فيه هو أن يتحملوا، وفعلاً تحملوا.

وفى القرن الحادى عشر للميلاد والقرون التالية أخذت الأمور فى التحسن. فالحياة أصبحت أكثر استقراراً ؛ وتزايد عدد السكان ؛ وتمت زراعة بعض الأراضى الجديدة، أما الأراضى الزراعية القديمة فقد أخذت تغل إنتاجاً أكثر. وتم إدخال تقنيات زراعية جديدة، التعرف على تأثير بعض البقول فى تقوية التربة المنهكة وإخصابها، وتطور علم الأسمدة، بحيث تم استخدام الطمى والرماد بعد خلطهما بروث البهائم كسماد طبيعى. كما أن نوعية الإنتاج الحيوانى قد تحسنت عن طريق الانتقاء والتهجين. وتمت الاستفادة من قوة المياه المتدفقة فى إدارة طواحين الغلال والحصول على الطاقة اللازمة لسرعة دورانها. وانتشرت طواحين الهواء فى السهول والمرتفعات، ونجح بعض الأشخاص إلى حد ما فى إقامة بعض الطواحين التى تعمل بحركة المد والجزر.

كذلك تم حرث الأراضى البور وأراضى الغابات، والأراضى ذات الأشجار الخفيفة وأراضى المستنقعات. واكتسب الريف الإنجليزى والفرنسى والألمانى مظهراً يقارب قليلاً ما هو عليه الآن. وفى وادى البو The Po Valley فإن المياه المتدفقة من جبال الألب

تم تذليل الاستفادة منها عن طريق إقامة العديد من السدود الكبيرة، والخزانات، والقنوات. واستعادت إسبانيا نظامها الرومانى القديم فى الرى. وفى هولنده فإن البحر قد طغى على جزء كبير من أفضل الأراضى الزراعية فى السنوات ما بين ١٠٠٠ - ١٢٠٠م مشكلاً المنطقة التى اشتهرت بأنها على شكل حرف Z.

وفى واحد من أشهر الاحتفالات الهندسية فى التاريخ، فإن الأمراء، والرهبان، والبورجوازيين والفلاحين شاركوا فى بناء السور الذهبى الممتد من الفلاندرز إلى فريزيا، وتم شحن الحجارة المستخدمة من اسكندنافيا وألمانيا إلى هولنده. وتم حفر الخنادق، وتنقية الأرض المستصلحة من البحر بواسطة العمل اليدوى وقنوات الصرف. واستمر العمل لعدة قرون ولا يزال مستمراً حتى أيامنا هذه. بحيث يمكننا القول إن ما يقرب من نصف أراضى هولنده وجزءاً من بلجيكا قد تمت الاستفادة منها على حساب البحر.

وانتعشت التجارة، على الرغم من أنها لم تكن قد توقفت تماماً حتى العصور المظلمة. فأقامت البندقية لها تجارة بحرية ذات شأن، وقامت بإمداد القسطنطينية بالقمح، والملح، والنبيذ، والأخشاب، وعادت منها بسلع الشرق الترفيهية. كذلك استقبلت القسطنطينية الفراء، والعسل، والشمع، والكهرمان، وصقور الصيد، والعبيد، من الشمال الأوربى، والتى تم نقلها عبر أنهار روسيا وعبر البحر الأسود. كما صدّرت سكندنافيا أسماكها، وأخشابها وفراءها إلى الغرب وكذلك إلى الشرق، ووصلت المنتجات السكندنافية بحراً إلى الفلاندرز، حيث تمت مبادلتها بالأقمشة المصنعة. ومع هذا فقد لاقت التجارة مخاطر كبيرة ؛ حيث كانت الرحلات التى تقطعها محفوفة بالمخاطر ومكلفة فى نفس الوقت، إلى جانب أن العملة كانت نادرة ولا يوثق بها، كما لم تكن نظم التوزيع قد تطورت بعد. إلا أن الأرباح كانت أيضاً كبيرة، وغامر كثير من الرجال الشجعان من أجل ذلك، وبارك بعض القديسين عملهم هذا لمواجهة تلك المخاطر.

كما كانت القارة الأوربية فى حاجة ماسة إلى القصدير الإنجليزى، وكذلك الصوف ؛ وكانت انجلترا فى حاجة إلى الفضة الألمانية، والمنسوجات الفلمنكية، والسلع الكمالية الإيطالية؛ فكل شخص فى الشمال كان تواقاً للحصول على النبيذ. وهو

مشروب له اعتباره وتضاعف الطلب عليه ثلاث مرات مقارنة بمشروب الجعة المكون من الكحول أو البيرة. **"إن الكنيسة شجعت على تجارة النبيذ، لقيامها باستخدامه فى القربان المقدس، وزيت الزيتون الذى كان ضروريًا فى الطقوس المقدسة".**

وظهرت طبقة جديدة على حافة المجتمع الإقطاعى وهى طبقة التجار التى ربما يرجع أصولها إلى الرجال الذين لم يحوزوا أراضى، والعبيد الهاربين، وعمال الحصاد الموسميين، والشحاذين، والخارجين على القانون. ولقد أدت الشجاعة الظاهرة فيهم، وكذلك المكر والدهاء وسعة الحيلة، وحلاوة اللسان، ومعرفتهم باللغات إلى جعلهم سريعى الانفعال ومستعدين للقتال أو الخداع، مما ساعدهم على أن يكون الكثير منهم باعة جوالين، يحملون سلعهم إلى القرى النائية. وكانوا يحصلون على أثمان ما يبيعون بالبنسات أو أرباع البنس، أو بالمقايضة ببعض المنتجات المحلية، مثل عسل النحل، وفراء الأرانب، وريش الأوز، أو جلود الأغنام لصناعة الرق. وعندما تزدهر أحوالهم فإنهم يستقرون فى أحد المراكز ويستأجرون من يجوبون الغابات. ولقد كانت هذه هى حال الإنجليزى جودريك Godric من فاينشال Finchale الذى ارتفعت مكانته من مجرد بائع جوال إلى مالك لإحدى السفن ومغامر كبير قام بعدة رحلات إلى الدانمرك وروما، وانتهى به الحال إلى أن أصبح أحد كبار النساك المصلحين ثم قديسًا.

قام التجار ببناء المدن، وكانوا فى حاجة إلى أسوار، وإلى من يبنى لهم هذه الأسوار، وإلى المخازن والحراس، وإلى الصناع الذين يقومون بإنتاج السلع التى يقومون بالمتاجرة فيها، وإلى صناع البراميل الخشبية، وصناع العربات، والحدادين، ونجارى السفن، والبحارة، والجنود، وإلى سائقى البغال. كما احتاجوا الفلاحين ومربىّ قطعان الحيوانات خارج أسوار المدينة الذين يمدونهم بالطعام اللازم، وإلى الخبازين، وصانعى الجعة، والجزارين داخل المدن. وحصلوا على امتياز حكم أنفسهم بأنفسهم مقابل المال، ولكنهم كانوا تابعين للنظام المالى الاقتصادى القائم على الأرض الزراعية، وعلى هذا الأساس، فمن المحتمل أنهم كانوا معارضين للوردات المحليين، ويعتبرون مساعدين للنظام الملكى. لقد جذبت المدن القوى البشرية إليها عندما منحت الحرية لأى عبد يعيش داخل هذه المدن لمدة عام ويوم. **"إن هواء المدن جعل الناس أحرارًا"** هكذا قال سكان المدن، وهكذا ظهرت الطبقة البورجوازية النشطة، والغنية، والفعالة، والمزدرية للعالم الإقطاعى من حولها.

لقد تعامل التجار فى كل ما يمكن أن يدر عليهم أرباحًا، ونتيجة لعدم استحسان الرأى العام وكذلك الكنيسة فإن تجارة الرقيق قد اختفت تقريبًا من الغرب الأوربى، ومع ذلك فإن البندقية وجنوه قامتا بشراء الأطفال من روسيا وتم شحنهم إلى إسبانيا أو البلاد الإسلامية. كما كانت لهما تجارة واسعة فى الحديد المستخرج من مناجم فرنسا وإسبانيا والسويد وألمانيا، والقصدير الإنجليزى، وكذلك الرصاص والنحاس الألمانى والإيطالى، والزنك النمساوى. وأدى تزايد الطلب على الذهب والفضة إلى كثير من الجهود الجيولوجية للكشف عنهما. كما أن الفحم الإنجليزى الذى لم يتم استغلاله منذ أيام الرومان قد تم شحنه بواسطة السفن من نيوكاسل إلى لندن وإلى فرنسا وألمانيا، وهو الذى عرف من ذلك الحين باسم " الفحم البحرى ". أما الملح الذى كان يتم إنتاجه بكميات بسيطة فقد تم جلبه عبر البحر من الملاّحات الموجودة جنوب غربى فرنسا ومن أماكن أخرى، حيث يمكن احتجاز مياه المد وتعريضها لأشعة الشمس. كما أن مصايد الأسماك كانت تحتاج إلى كميات هائلة لإعداد أسماك الرنجة وسمك شمال الأطلسى القد Cod، وهو الغذاء الشعبى لكثير من الناس. **"وحيث إن السمك لم يكن يتم إخراج أحشائه قبل تمليحه حتى القرن الرابع عشر الميلاد، فإن كثيرين من الناس كانوا يفضلون السمك المقدد من غير ملح بدلاً من سمك القد المملح وسمك الحدوق وهو سمك من فصيلة القد ولكنه أصغر منه حجمًا، وغيره من الأسماك التى يتم تقطيعها إلى شرائح ثم يتم تجفيفها بتعريضها لأشعة الشمس دون تمليح. وعلى الجانب الآخر فإن عملية الطهى كانت تتطلب دق السمك بمطرقة لمدة ساعة لجعله صالحاً للأكل"**. وفى الوقت الذى كانت تصاد فيه أسماك السالمون والسردين والجلكا والحوت والدولفين فى البحار الشمالية، فإن أسماك التونة كان يتم صيدها من البحر الأبيض المتوسط. أما أسماك المياه العذبة وسمك الأنقليس اللذيذ فكان يتم إعدادها وتقديمها لطبقة النبلاء ورجال الدين.

وعندما أصبحت عمليات النقل أرخص وأكثر كفاءة، فإن الأغذية أمكن نقلها من مكان لآخر، فقد صدّرت إنجلترا الأسماك، والأجبان، والجعة، واستوردت التين المجفف، والتمور، والزبيب، وزيت الزيتون، واللوز، وفاكهة الجنوب، مثل البرتقال والليمون، والتى كانت محل تقدير كبير وينظر إليها على أنها من السلع الكمالية. كما كان لبروفانس

وإسبانيا معامل لصناعة السكر، والعصائر، والفاكهة المحفوظة، أغلبها كان للتصدير. وكانت إيطاليا تنتج فطائر البيتزا وربما بسكويت البحار الذى يتم تصديره للخارج. كما كانت صناعة النبيذ واسعة الانتشار. فقد استوردت انجلترا من بوردو كميات هائلة منه، فى براميل خشبية وفى قِرَب جلدية أو أوعية جلدية أسطوانية الشكل.

أما التجارة العالمية الكبرى فقد كانت فى المنسوجات، فأفضل الأصواف كانت تأتى من انجلترا، وكان معظمها يتجه إلى الفلاندرز حيث يتم تصنيعها. وقد حققت تجارة الصوف ازدهاراً كبيراً للإنجليز، فإن كبير المستشارين فى مجلس اللوردات لا يزال يجلس على حشية من الصوف كرمز لثروة الأمة. وفى كل من الفلاندرز وإنجلترا كان يتم غزل الصوف بالمغازل اليدوية بواسطة النساء، واعتبرت عملية الغزل عملاً مفضلاً لهن منذ بداية الخليقة. كان آدم يقوم بجمع الصوف وتقوم حواء بغزله. وربما كانت الأنوال اليدوية اختراعاً هندياً، ولم تظهر فى الغرب الأوربى حتى القرن الثالث عشر للميلاد، وبعدها تم استخدامها على نطاق واسع. وبمجرد أن يتم الغزل فإن الخيوط يتم إرسالها إلى النساجين الذين كانوا يعملون فى المنازل أو فى ورش فى المدن.

وعادة ما يجلس اثنان من النساجين جنباً إلى جنب أمام نول كبير، ويقومان بعملية نسج الأقمشة من الجوخ أو الكتان أو القطن. بعد ذلك يتم إرسال نسيج الصوف إلى القصارين الذين يقومون بنقعه وإزالة ما قد يعلق به من أوساخ باستخدام المياه والتراب. وعندما تم استخدام السواقى فى رفع المياه سهّل ذلك كثيراً من عمل هؤلاء القصارين "**إن أهمية تجارة الأقمشة قد برهن عليها العدد الكبير من الناس المشتغلين بها وهم النساجون والقصارون ؛ ولكن من الملاحظ أنه لا يتم ذكر من يشتغلون بالغزل**". بعد ذلك تذهب الأقمشة الخام إلى الصباغين، لتثبيت الألوان ولإكسابها لمعاناً، لذا كان حجر الشب مطلوباً، والذى كان يتم جلبه بشكل رئيسى من جزر بحر إيجه وقد كان ولعدة قرون احتكاراً للبندقية.

وأخيراً يتم إرسال الأقمشة إلى السوق بحراً أو على شكل بالات ضخمة ترسل على ظهور البغال، وكان لإيطاليا وكذلك الفلاندرز شهرة كبيرة فى تجارة الأقمشة. ففى فلورنسا سنة ١٣٠٦م كان هناك ثلاثمائة ورشة، بلغ مجموع دخلها حوالى مليون

فلورين وكانت أثوابها الرائعة وخاصة النسائية يتم تصديرها بحراً إلى إنجلترا، حيث مصدر الحصول على الصوف. وفى سنة ١٣٩١م فإن أحد أصحاب الورش فى بولونيا قام بتشييد آلة نسيج للحرير تدار بواسطة قوة اندفاع المياه، بحيث يقال إن ذلك تسبب فى منع أربعة آلاف عامل من العمل. وعلى الرغم من أنه يجب ألا نثق كل الثقة فى إحصائيات العصور الوسطى، فإن هذا يعد دليلاً على أن البطالة الناجمة عن استخدام التكنولوجيا ليست جديدة.

وتعتبر تجارة الزجاج المصنَّع تجارة قديمة، لايمكن تجاهلها حيث أخذ زجاج النوافذ الملون فى الظهور فى الكنائس فى بدايات القرن الثانى عشر للميلاد. وبعد قرن آخر، فإن المشتغلين بعلم الكيمياء استخدموا أوعية زجاجية، وفى القرن الرابع عشر أصبح استخدام الزجاج فى نوافذ المنازل شائعًا. كما أن العرب صنعوا عدسات زجاجية منذ القرن الحادى عشر للميلاد، وعرفت أوربا استخدام النظارات فى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد. هذا إلى جانب أن الأكواب الزجاجية وغيرها من الآنية المنزلية الزجاجية كانت نادرة إلى فترة غير بعيدة. وكانت البندقية المنتج الرئيسى للزجاج، إلا أن مخاطر عمليات النقل حدَّت من انتشاره واستخدامه إلى أن أقيمت المعامل الخاصة بإنتاج الزجاج فى كل أنحاء الغرب الأوربى.

كما أقيم العديد من الورش خلال تلك السنوات لصناعة الآجر والطوب، وأجراس الكنائس، ودباغة الجلود، والأسلحة، والصابون، والورق، والأحبار، والدهانات والورنيش. وكانت معامل الفخار كثيرة الانتشار وهى التى استخدمت كثيراً من الأدوات، والتصميمات والأساليب التى لم تتغير عبر مئات السنين وما زالت مستخدمة حتى أيامنا هذه. ولكن فى كثير من الأحوال فإن الاحتياجات المتجددة وروح المغامرة وحب العمل مكنت المشتغلين بها من تخطى الصعوبات التى فرضتها طبيعة التكنولوجيا التى كانت مستخدمة. إذ قام بعض الأشخاص بربط ذراع الإدارة المعروف قديماً بـ "الكرنك" بسير، مما مكنهم من تحويل الحركة الدائرية المحورية إلى حركة تبادلية والعكس. وتم استخدام ذلك فى إدارة كثير من الطواحين والمعامل.

وفى الأيام الباكرة فإن كثيراً من الأدوات كان يتم تصنيعها من الخشب وكانت ذات قوة وكفاءة محدودة، سريعة التآكل. ثم كان استخدام الحديد الصلب فى صناعة

كثير من الأدوات؛ مما مكن من صناعة المخارط الخشبية البسيطة والمسامير التي ساعدت في عمل البراميل ومواسير المياه من جذوع الأشجار الصلدة. وحل المثقب اللفاف محل المثقب ذي القوس والدوبارة، والذي كان مستخدمًا منذ عصور ما قبل التاريخ. وفي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي فإن أحد مهندسي كاتدرائية كانتربوري ويدعى وليام الساينى William of Sens قام بعمل بعض الآلات الجديدة التي تم استخدامها في تفريغ وشحن السفن وفي سحب الحجارة والأسمنت. كما اخترع ألبرت الكبير Albertus Magnus في القرن الثالث عشر للميلاد منفاخًا للنيران يعمل بالبخار، ولأنه كان يشبه رأس إنسان، فإنه وبعض الأشخاص الآخرين اتهموا بأن لديهم بعض الجان الذين يهمسون لهم ببعض الأسرار. ولربما فعلوا ذلك، أو ربما أنهم همسوا لهم بسر قوة البخار. دعونا لا نغفل عن رائد الملاحة الجوية أوليفر المالمسبوري الذي قام في سنة ١٠٦٥م بصناعة طائرة شراعية وانطلق بها بنفسه من فوق برج إحدى الكنائس، وكانت النتيجة أن تكسرت قدماه مما أعاقه عن الاستمرار.

ولم تلبث التكنولوجيا أن قدمت العون للتجارة البحرية حديثة العهد إذ حلت الدفة المثبتة في القائم الخلفي للسفينة محل الكتلة الخشبية المعلقة في الجانب الأيمن، مما ساعد على تشييد السفن الكبيرة ذات الأشرعة العريضة. كما غدا متاحًا استخدام الخرائط أو الرسوم البيانية للموانئ؛ أما البوصلة، والتي يرجع أصلها مثل كثير غيرها إلى الصين فقد غدت شائعة الاستعمال في القرن الثالث عشر للميلاد، وكذلك الأسطرلاب وآلة ذات الربع(*) التي تم استخدامها في مرحلة لاحقة، مما شجع ربابنة السفن على التوغل في البحار.

وهكذا كان ازدهار التجارة العالمية مرتبطًا بالظروف الاقتصادية والسياسية. فلقد قامت سفن البندقية بنقل الحجاج، والخيول، والحديد، والأخشاب إلى فلسطين وعادت محملة بكثير من السلع الكمالية الشرقية. كما أقام تجار البندقية مراكز تجارية لهم على البحر الأسود، بينما توغل بعضهم مثل " ماركو بولو " في مناطق كثيرة من الشرق حتى وصل إلى الصين عبر طريق الحرير، ووصل إلى هضبة التبت مخترقًا

(*) هي آلة كانت تستخدم في الفلك والملاحة لقياس الارتفاع، وتتألف من قوس مقسم إلى ٩٠ درجة "المترجم".

الصحارى الحارقة. والبعض الآخر وصلوا إلى الصين والهند على سفن عربية. كما كان هناك عدد لا بأس به من رجال الأعمال البنادقة الذين استقروا على الساحل الصيني. وكانوا من الشخصيات المرموقة، هؤلاء كانوا مستعدين لأن يتحملوا البرودة الشديدة وواجهوا مخاطر الموت، كما كانوا مستعدين للنضال، ولمساعدة أى بحّار فى أداء عمله، ولأن يعالجوا الخيول، وأن يتحدثوا بالعديد من اللغات، مستفيدين من معلوماتهم بطبيعة السلع المتبادلة، والأسعار، وما تحتاجه الأسواق الأوربية.

وفى البحر الأبيض المتوسط، فإن البنادقة، والجنوية، والبيازنة لم يقنعوا بدورهم فى تجارة الشرق، بل تطلعوا إلى إغراءات الأسواق الأوربية، وعند نهاية القرن الثالث عشر للميلاد كانت جنوا قد شيدت أسطولاً استطاع أن يبحر سنويًا إلى الفلاندرز وإنجلترا، وسرعان ما حذت البندقية حذوها. ومن المحتمل أن الطريق التجارى عبر الأطلنطى كان معروفًا قبل ذلك بفترة، والدليل على ذلك رئيس رهبان دير سوجير Sug-er فى وصفه لإعادة بناء كنيسة القديس دينيس St. Denis حوالى سنة ١١٤٥م، يذكر أن الأعمدة الرخامية كان يتم جلبها بحرًا من روما ثم عبر نهر السين إلى باريس.

لقد حرص ربابنة السفن المحملة بالبضائع على الإبحار دائمًا بالقرب من الشاطئ، للبحث عن المرافئ للاحتماء بها ليلاً إلا إذا كانت الرياح تهب فى اتجاه الشاطئ مما يهدد سلامة السفن، وعندها كانوا يفضلون البقاء فى عرض البحر حيث الأمان. وبالرغم من ذلك فقد تم اكتشاف جزر الكنارى، وجزر الأزور، أو أعيد اكتشافها فى القرن الرابع عشر للميلاد، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم بواسطة إحدى العواصف التى دفعت ببعض البحارة إلى الشاطئ. وفى نفس الوقت كان بحارة النورمان يتاجرون مع ساحل العاج وساحل الذهب، وفى سنة ١٤١٢م كان الإنجليز يصطادون الأسماك عند أيسلنده.

أما السفن عابرة المحيطات حاملة البضائع، فقد كانت تحمل الأخشاب، والملح أو القمح، وكانت عريضة ذات صارية واحدة، بطيئة الإبحار، والسفينة الكبيرة كانت تبلغ حمولتها حوالى ألف طن، أما السفن التى استخدمت فى نقل الصليبيين فقد كان فى إمكان الواحدة منها أن تحمل أكثر من ألف مسافر بمعداتهم. ولقد فضل البنادقة والبيزنطيون استخدام السفن ذات المجاديف، لأنها كانت سريعة، وتشق طريقها فى

هدوء وثبات، إلا أنه كان من الصعب السيطرة عليها فى أعالى البحار، كما كانت تحتاج إلى عدد كبير من البحارة ربما بلغ عددهم أكثر من مائتى بحّار. وفى القرن الرابع عشر للميلاد ظهر طراز جديد يجمع بين الأشرعة والمجاديف، وتم استخدامه فى السفن الحربية.

وربما كانت الأرباح كبيرة من رحلة بحرية، مع وجود الكثير من المهالك - وهو ما سوف يدركه تاجر البندقية - مما دفع أصحاب رءوس الأموال إلى التكتل فى مواجهة تلك المخاطر، مشكلين بعض الشركات لاقتسام الأرباح والتأمين على المراكب وحمولتها ضد أية خسائر.

كذلك كانت عمليات القرصنة منتشرة بشكل كبير، مما دفع جميع الأطراف من مسلمين ومسيحيين بل والبحارة إلى استخدام السيف والبلطة أو الفأس. فالربان تشوبسر ديفون شاير وهو على دراية كبيرة بكل مرفأ أو مصب نهر فى المنطقة الممتدة من جوتلاند وحتى إسبانيا، لم يكن ليبدى أى التزام بما يمليه عليه الضمير فى أى نزاع لا يرقى إليه الشك مع أعدائه فى البحر، إذ غالبًا ما يقوم بإغراقهم عندما يستطيع ذلك. كما أن الأخطار التى كانت تؤدى إلى غرق كثير من السفن على طول الساحل الإنجليزى أثارت كثيرًا من الجدل القانونى، إذ أن القانون الإنجليزى كان ينص على حق من يعثر على أى حطام لسفينة بملكيته التامة إلا فى حالة نجاة أحد الركاب أو إحدى القطط (حيث كان يطلب من كل التجار حمل بعض القطط معهم لقتل الفئران). ولذلك فإن سكان المناطق الساحلية كانت لديهم نزعة قوية فى ألا يدعوا إنسانًا أو قطة ينجوان بحياتهما من حطام السفينة.

وعلى أية حال، غالبًا ما كانت طرق التجارة البرية تسير فى نفس الطرق الرومانية القديمة، كانت الأحجار التى استخدمت فى تمهيدها لا تزال تخدم المسافرين هنا وهناك. أما أكثر الطرق كثافة فقد كان الطريق الشمالى الجنوبى، من فرنسا وبامتداد الريفيرا وحتى إيطاليا أو عبر الممرات الضيقة والملتوية فى جبال الألب، وبوجه خاص الطريق المؤدى إلى كنيسة القديس برنارد، وجبل Cenis، وغيره. أما طريق القديس جوثارد فقد تم افتتاحه فى بدايات القرن الثالث عشر للميلاد، وتم بناء قنطرة عظيمة معلقة، كانت الأولى من نوعها فى أوربا.

ومع بعض الاستثناءات، فإن هذه الطرق التجارية كانت فى حالة تبعث على الأسى، على الرغم من أن ملاّك الأراضى كانوا مهتمين بالمحافظة على الطرق المؤدية إلى الأسواق المحلية، وعلى جماعات التجار، كما كانت هناك جمعيات منظمة محلية لحماية هذه الطرق وكذلك هناك جهود ملكية لإصلاح الطرق الرئيسية، إلا أن الحجارة التى كانت مستخدمة فى تمهيد الطرق الرومانية ساعدت على إفساد تلك الطرق لتجمع المياه فيها على شكل برك مليئة بالقانورات والحصباء، مما صعب السير فيها على الأقدام وكذلك بالنسبة للخيول والبغال، **(فالطرق الممهدة والناعمة هى من نتاج القرن التاسع عشر للميلاد)**. وفى مواسم الأمطار فإن هذه الطرق كانت تتحول إلى ما يشبه الأنهار المليئة بالأوحال.

كما أن القناطر كانت أحيانًا يتم بناؤها بأوامر ملكية أو على يد جماعات دينية، ويتم الإنفاق عليها من الضرائب التى يتم تحصيلها - ومع هذا، فإن الإنسان كان أحيانًا يضطر إلى أن يخوّض فى أحد مجارى المياه الخطرة، ومنذ أن يبدأ المسافر فى السير فى أحد هذه الطرق فهو معرض لكثير من الأخطار. إذ لم تكن هناك علامات إرشادية ، لأن الفلاحين لم يكونوا فى حاجة إليها، والقليل من كان يستطيع قراءتها. لذلك كان ينصح باستئجار مرشد يعرف الطريق ومخاطره جيداً. إن قصص أطفالنا المتعلقة بالجن تعيد إلى الأذهان أحوال الرحالة وما تورطوا فيه عندما كان يداهمهم الليل فى الغابات المظلمة والذين ضلوا الطريق فاتجهوا إلى قلعة مهجورة يقطنها عملاق بشع رهيب تزعم القصص الشعبية أنه يأكل البشر، أو الذين أسعدهم الحظ فواصلوا سيرهم إلى أن وصلوا بسلام إلى مكان آمن حيث وقعوا أسرى فى حب إحدى الأميرات الفاتنات.

وعبر الطرق التجارية الرئيسية فإن حركة المرور كانت كثيفة جداً. حيث يؤكد بعض المؤرخين أن عمليات نزوح الأشخاص فى العصور الوسطى كانت أكثر بكثير منها فى مجتمع القرية المستقر فى القرن التاسع عشر للميلاد، فعلى الطريق تجد الكثير من الأشخاص، تجد الرهبان والراهبات فى حركة ترحال حيث يقومون بمهام كلفتهم بها جماعاتهم المختلفة : كما تجد الأساقفة المتجهين إلى روما أو يقومون ببعض

الزيارات للأبرشيات والطلاب المرتحلين فى طلب العلم، وجماعات الحجاج وهم ينشدون بعض الأناشيد خلف بعض القساوسة ويرفعون بعض الأعلام، ورجال البريد التابعين للبابوية، والرسل، كذلك تجد المشعوذين وباعة العقاقير الطبية، والباعة المتجولين، والعمال المشتغلين بالصفيح، والعمال الموسميين والعبيد المارقين، والجنود المسرحين من الخدمة، والشحاذين، ورجال الطرق، جنبًا إلى جنب الأغنام والماشية فى طريقها إلى الأسواق، يتزاحمون جميعًا فى تلك الطرق المزدحمة. بينما ترى طبقة النبلاء والميسورين وهم يركبون خيولهم، وكل ما يهمهم هو الخيل التى يركبونها أو كراء خيول جديدة بعد أن أجهدت خيولهم من المحطات المخصصة لذلك. وفيما عداهم فالكل يسير على قدميه، وقد تلوثت ملابسهم برشاش الماء الموحل الذى يتناثر من أقدام الخيول وحيوانات الحمل، وكان من النادر أن يقابل المسافر على هذه الطرق عربة تجرها الثيران محملة بالأخشاب أو الأحجار التى تستخدم فى بناء القلاع، أو بالرصاص المستخدم فى أسقف الكنائس. كما أن ارتفاع تكاليف نقل الأشياء الثقيلة كان أحد العوامل التى حدّت من نقلها، إذ كان من المعروف أن حمولة عربة من الحجارة لمسافة تصل اثنى عشر ميلاً تعادل ثمن هذه الحجارة، وعلى سبيل المثال فإن عملية نقل الأخشاب التى استخدمت فى بناء كاتدرائية بوفيه Beauvais تكلفت أربعة أمثال ثمن هذه الأخشاب. ولكن بمرور الوقت وتحسن الطرق، فإن العربات الخفيفة التى تجرها الخيول حلت محل حيوانات الحمل.

كما أصبح التجار يفضلون السفر فى مواكب أو قوافل تحرسها بعض القوات حسب الأوامر الصادرة من الإمبراطور فردريك بربروسا، وبصحبتهم مجموعة كبيرة من حيوانات الحمل، يقودها جماعة من سائسى الخيول والبغال، وعادة ما كانت القافلة المكونة من حوالى سبعين حيوانًا تحمل ما تحمله القاطرة الحديثة أى عشرة أطنان. وعندما يحين المساء فإن رجال القافلة ينالون قسطًا من الراحة على جانب الطريق، بينما تتناول الحيوانات طعامها. وعادة ما تسود روح المودة والصداقة بين من تضمهم القافلة، كما كان رئيس القافلة وإخوته يقسمون يمين المودة والصداقة، وعند عودتهم من رحلتهم فإنهم عادة ما يكوّنون فيما بينهم نقابة، ويلتقون لاستعادة ذكريات الأوقات العصيبة والمغامرات التى خاضوها فى جو صاخب.

وفى هذه الطرق كانت الحركة تتوقف تمامًا مع غروب الشمس. وعندها يبحث النبلاء عن قلعة قريبة يقضون فيها بعض الوقت فى التسلية، وإن كانوا فى بعض الأحيان يلقون بعض المعارضة عند وصولهم إليها، أما عامة الناس فقد كانوا يبحثون عن إحدى الحانات سيئة السمعة، من حيث الصخب، وسوء الطعام والازدحام الشديد. أما الفقراء فقد كانوا يجدون المأوى فى أديرة الرهبان؛ والأكثر فقراً والمنبوذون والخارجون عن القانون فكانوا ينامون فى العراء والمطر.

وعلى الرغم من أنه كانت هناك محاولات لإنشاء مراكز للخدمة البريدية، فإنه كان يتحتم الاعتماد على أحد السعاة فى توصيل الخطابات، ويذكر لنا بترارك أنه كان يحتفظ بخطاباته أحيانًا مدة تزيد على السنة فى انتظار أحد هؤلاء السعاة أو أحد التجار ليتسلم خطاباته ويقوم بتوصيلها إلى إحدى المدن الأخرى. هؤلاء الأشخاص كان الواحد منهم يحمل حقيبة صغيرة يضع فيها الرسائل مقابل أتعاب يحصل عليها. أما الأخبار فقد كان يتم تناقلها غالبًا بمحض الصدفة عن طريق الرواية الشفهية ويتم تسجيلها أيضًا بمحض الصدفة. وهذا يفسر لنا السر فى غموض كثير من أحداث العصور الوسطى وتواريخها.

وكان على المسافر سواء كان راكبًا أم راجلاً أن يقطع مسافة تتراوح ما بين عشرين وخمسة وعشرين ميلاً فى اليوم، أما المسافرون على عجل فقد كان فى استطاعتهم قطع ضعف هذه المسافة نتيجة السرعة. ففى سنة ١١٨٨م قام أحد سعاة البريد بحمل رسالة من روما إلى كانتر بورى فقطع مسافة تبلغ ١٢٠٠ ميلاً بما فيها عبور بحر الشمال فى خمسة وعشرين يومًا، وفى سنة ١٣١٦م فإن خبر اختيار يوحنا الثانى عشر لكرسى البابوية قد انتقل عبر مسافة تبلغ أكثر من ٨٠٠ ميل، من ليون إلى يورك، فى عشرة أيام.

ومن الطبيعى أن تختلف حالة الأمن على هذه الطرق اختلافًا بينًا، باختلاف شخصية وسلطة اللورد الذى تسير هذه الطرق فى أراضيه. وبوجه عام فقد اهتم كل لورد من اللوردات المحليين بحماية المسافرين، وبوجه خاص من التجار، نظير مبلغ يتم تحصيله مع الضرائب التى يقومون بدفعها. ومع هذا فهناك كثير من الحالات التى تؤكد وجود العديد من عصابات قطّاع الطرق التى تزعمها بعض البارونات وحققوا من خلالها مكاسب سريعة ودموية، يضاف إلى هذا أن الحروب الإقطاعية أثرت كثيراً فى

حالة الأمن على هذه الطرق. وفى بعض المناطق تعرض المسافرون للرعب الذى أثارته كثير من الحيوانات المفترسة. فشخصيات بوكاشيو كانت تموت فزعًا من الذئاب، والدببة المنتشرة فى الغابات، على بعد عدة أميال من روما.

وكان اهتمام التجار الأكبر هو حضور الأسواق، وبخاصة الأسواق الشهيرة التى تعقد سنويًا فى إقليم شامبنى، حيث تصلها عدة طرق قادمة من كل أنحاء أوربا. وخلال تلك الأسواق فإن كونت شامبنى كان يشمل التجار برعايته وحمايته، كذلك أصدرت الكنيسة كثيرًا من القرارات ضد المرابين، كما حددت أعلى معدلات الفائدة. وكان هناك سوق للأقمشة يستمر عشرة أيام، وآخر لمدة ثمانية أيام للجلود، والجلود المدبوغة، وآخر للفراء جنبًا إلى جنب بعض الأسواق لتبادل مختلف المنتجات حيث قام التجار من كل الأنحاء بتركيز أعمالهم التجارية، كما قام النبلاء المجاورون بإرسال مندوبين عنهم لشراء ما يحتاجون إليه ولمدة عام من الأسلحة، والأقمشة، والتوابل، والسكر. كذلك كانت هناك خانات للمقامرة، وبعض النوادى الليلية البدائية ذات البرامج البدائية للتسلية والمتعة، أما المشكلات التجارية فقد كان يتم مناقشتها أمام محاكم خاصة بالتجار وهى التى عرفت باسم محاكم متعددى الألوان Piepowder Courts، ذلك لأن التجار الرحالة كان يطلق عليهم أصحاب الأقدام الموحلة Pieds Pou-dreux. وبسبب تنوع وندرة المعاملات النقدية فقد كان التاجر يفتح له حسابًا بالعملة المحلية بالجنيه الفضى حسب الوزن الترويسى Troyes أو الوزن الشائع فى الإقليم. وعند نهاية السوق فقد كانت تتم عملية شبيهة بالمقاصة يتم فيها تحصيل بعض العمولات على المقاصة والقروض على يد مجموعة من الصرافين الذين عرفوا بأصحاب الموائد أو المناضد "bankers نسبة للموائد The banks أو المنصات benches التى يعرضون عليها نقودهم المعدنية **(كما أن اسم السمسار أو الوسيط A broker يدل على الشخص الذى يقوم بفتح برميل خشبى للنبيذ كعينة. وعلى هذا المنوال، فإن كلمة منخفض القيمة الشرائية Cheap ، وكما وردت فى Eastcheap، فإنها تدل على مكان السوق فى لندن وهى تعادل كلمة السوق Market الإنجليزية، وكلمة Bon marche الفرنسية تعادل المكان الجيد للمقايضة أو التعاقد على سلعة).**

وبمرور الوقت فإن التجار الذين يرحلون إلى تلك الأسواق غدت لهم أهمية كبرى فى المدن التجارية الكبرى، بما أصبح لديهم من مخازن وما حشدوه فيها من بضائع.

ولم يعد التاجر مجرد مغامر يتعرض لسفك الدماء، بل تحول إلى شخص مقيم ينفق معظم وقته فى الجلوس. وقام هو ورفاقه بتشكيل طبقة على خلاف دائم مع السادة الإقطاعيين أو رجال الدين المسيطرين على الريف. كما أن كبريات مدن رجال الأعمال هى التى شكلت قومونات شمال إيطاليا. أما قومونات لومباردى وتوسكانيا، مثل ميلان، وفلورنسه، وسباينا وبولونيا كانت بمثابة مدن للتجارة والتصنيع، وحيث تضافر جميع المواطنين من نبلاء وعامة، من أجل الدفاع أو الهجوم وتحقيق الثروة. وبسبب دعمهم ومؤازرتهم فإن هذه المدن توسعت باستمرار على الرغم من أنها دخلت فى حروب دائمة بعضها ضد البعض، أو ضد الأباطرة والبابوات بحيث أبهرت عظمتها كل من زارها من سكان الشمال. فجمهورية البندقية أرسلت نصف سفنها تقريبًا إلى الأدرياتيكى، وشنت كثيراً من الحروب، وجعلت من تلك المنطقة أهم هدف فى سياستها الخارجية من أجل تحقيق أكبر قدر من الأرباح، كانت من نمط دولة المدينة الحقة ذات الطابع الرومانى القديم. أما جنوا وبيزا فقد كانت من المدن البحرية الكبرى التى هيمنت على كورسيكا وسردينيا، وسيطرت على تجارة شرقى البحر المتوسط، وقامت بإرسال الأساطيل التجارية إلى الشرق الأدنى وإلى جنوبى روسيا بالإضافة إلى إنجلترا والفلاندرز.

أما فى الشمال فإن بعض المدن التجارية الشهيرة، مثل غنت Ghent، وبروجى Bruges، وآراس، وكمبراى قد ازدهرت فى الفلاندرز والمناطق المجاورة لبيكاردى ؛ بعد أن حصلت على حرياتها بقوة السلاح. وقامت جماعات التجار بالسيطرة على الحكومات الرئيسية مع قليل من التدخل من قبل الملك أو أحد الأساقفة أو اللوردات المحليين. كذلك كان لأرباب الحرف حقوقهم، واختفى نظام الرق تمامًا منها. هذه المدن كان لها نظامها القضائى الخاص بها الذى اعتمد على البيِّنة المدعمة بشهادة الشهود. وبالنسبة لرجال الأعمال فإن طرق المحاكمة الإقطاعية المعتمدة على عدالة السماء بدت غير مقبولة تمامًا، كما أن عقوبة جرائم المال العام كانت صارمة وتتم علنًا، مثل تسمير أذن السارق فى عجلة إحدى العربات ثم تركها تدور. كما أن الرخاء الكبير الذى حققته هذه المدن شجع على القيام بكثير من الأعمال العامة، مثل تمهيد الطرق، وحفر القنوات وبناء الأسواق، وبناء قاعات فخمة للنقابات مما أحدث تطوراً كبيراً فى العمارة وفن البناء.

كما ازدهرت باريس المركز التجارى الرئيسى والطبيعى لفرنسا، ولم تعد باريس مجرد مدينة حرة، تتركز فيها الأعمال التجارية فحسب، بل أصبحت مركزًا ملكيًا، وكنسيًا، بل وجامعيًا. أما فى إنجلترا فقد كانت كل الطرق تؤدى إلى لندن وتم تقدير عدد سكانها بحوالى ٣٠,٠٠٠ فى وقت بلغ فيه عدد سكان البندقية، وميلان، وباريس ١٠,٠٠٠ نسمة. وفى إسبانيا غدت برشلونة على درجة عالية من الأهمية، بحيث تتحكم فى التجارة البرية كما أرسلت أساطيلها التجارية إلى مدن البحر الأبيض المتوسط.

أما الحالة فى ألمانيا فقد كانت حالة خاصة، إذ أن معظم مدنها كانت قد أصبحت تتمتع باستقلال ذاتى وحكمت نفسها بنفسها منذ القرن الثانى عشر للميلاد، وبدلاً من المنافسة الضارية بين بعضها البعض مثل المدن الإيطالية، فإنها توحدت فيما بينها على شكل عصبة أو حلف، من أشهرها العصبة الهانزية والسوابية. وتدفق التجار الهانزيون من لوبيك وبعض المدن البحرية الأخرى على الطرق التجارية الممتدة حتى إيطاليا، وإن كان أهم أعمال الهانزيين التجارية قد تركزت فى المدن الساحلية. وحوالى سنة ١٤٠٠م كانت لهم مكاتب تجارية فى ١٦٠ مدينة، إلى جانب الورش الصناعية والبيوتات التجارية المسورة داخل دوقياتهم، كما كانت لهم مخازنهم فى كل من لندن، وبروجيز، وبرجن، ونوفجورد. كما احتكرت هذه العصبة تجارة الأسماك النرويجية، واستغلت الموارد المعدنية والزراعية للسويد، وجلبت الأخشاب، والحبوب، والقار، والزبد، والجبن، ولحم الخنزير المملح إلى الفلاندرز وانجلترا. بل وتاجرت فى كل شىء، تمامًا مثل شركة خليج هدسون أو الشركة الألمانية للتجارة الهندية مؤخرًا، وقد كانت تجارتها محدودة النطاق الجغرافى إلا أنها واسعة التعامل فى السلع التجارية، كذلك لم يحدث أن استخدمت القوة المسلحة لتحقيق نوع من التفوق. بل إنها بدلاً من ذلك فرضت حظرًا على بعض السلع التجارية، إلى جانب المقاطعة والاستفادة من الضغوط الاقتصادية، وعن طريقها استطاعت أن تجعل من المدن المتمردة وحتى الملوك خاضعين لها. كما أنها ساندت ملك الدانمرك فالديمار فى حروبه التى خاضها فى منتصف القرن الرابع عشر، واستطاعت أن تستولى على كوبنهاجن، وبذلك تم لها احتكار تجارة أسماك بحر البلطيق. وكانت مدن العصبة الهانزية تعشق الاحتكار، وخصوصًا احتكار الأقمشة الفلمنكية ونقلها إلى روسيا ومبادلتها بالفراء. هذه التجارة حققت تدفقًا مستمرًا للسلع الروسية على أيدى التجار الألمان الذين استقروا فى روسيا وتوغلوا فى أقاصيها.

أما فى الغرب فإن معظم المدن تطورت من مراكز أسقفية أو كنسية، أو من بلدان صغيرة متمتعة بحكم ذاتى، أو قلاع مسورة. ولهذا أطلق على السكان اسم "سكان البلدة" أو "البورجوازيون". بينما بعض المدن الأخرى كانت بحكم موقعها أو طبيعتها محطات تجارية، حيث تلتقى عندها الطرق التجارية، أو حيث يمكن عندها عبور الأنهار بالمراكب المحملة بالبضائع أو خوض أنهارها. هذه المدن بدأت فى الظهور حوالى نهاية القرن العاشر الميلادى، وبعد قرنين من الزمان أخذت فى الازدهار. وكان العامل الأساسى فى ازدهارها أن النظام الإقطاعى لم يقدم سوى القليل بالنسبة للتجارة والصناعة، لذا كان على هذه المدن أن تأخذ فرصتها فى المجتمع ولكون هذه المدن قامت بشراء صكوك الحرية من الحائزين على الأرض، فإنها اكتسبت حصانة إقليمية خاصة بحدودها وأصبحت بمثابة "جزر شرعية" ذات أحرام مقدسة. فمدينة أفينون Avignon فى معاهدة سنة ١٢٠٨م أعلنت أنها لا تدين بالطاعة لأحد سوى الله. وأخذت هذه المدن فى الاهتمام بقواتها المسلحة، وأنفقت حوالى ٨٠٪ من دخلها على أعمال الدفاع، من أسوار، وخنادق مائية وحصون وآلات السلاح. وفى الليل كان سكان هذه المدن يغلقون عليهم الأبواب وينامون فى أمان.

وأخذ الملوك والنبلاء يدركون ما تحققه مدن الدولة هذه، لذلك فقد ساهموا فى بناء العديد من المدن الجديدة، فى مناطق حدودهم، وبوجه خاص فى المناطق غير المأهولة بطول الحدود الشرقية لألمانيا. كما أغروا الناس على سكناها بوعودهم الخاصة بنيل الحرية، والإعفاء من الضرائب، ومنحهم الأراضى الرخيصة، والإيجارات المنخفضة. هذه الأساليب تماثل تمامًا الجهود الجبارة التى قام بها المختصون فى القرن التاسع عشر لنقل السكان البروفنساليين إلى الغرب الأوربى. هذه المدن الجديدة Villes neuves أو مناطق المدن الجديدة Bastides، جذبت إليها مخططى المدن لكونها قد تم تصميمها بشكل عقلانى، وبشبكة شوارعها متساوية الأبعاد، مثل فيلادلفيا، ومثل أى مدينة أخرى جديدة فى المنطقة من تكساس وحتى سيبيريا.

وبعيداً عن طرق المواصلات فإن العديد من مدن العصور الوسطى لاتزال موجودة الآن، ترتفع أبراج قلاعها عاليًا من فوق الأسوار الضخمة. وعلى العكس من المدن الحديثة، فإنها تمتعت بمواقعها الجميلة، وبألوانها الطبيعية الباهتة قليلاً فى تناغم طبيعى. كما أنها امتلكت كثيًرا من الأعمال الفنية من منمنمات العصور الوسطى إلى أضخم أعمال النحت التى أقيمت للدفاع عن العقيدة المسيحية ضد الأرواح الشريرة.

وعندما نتجول فى الشوارع فإننا نحملق فيما آلت إليه من شيخوخة، بكنائسها الخاوية تقريبًا، كما نحملق فى قصور التجار التى تستخدم الآن كحانات أو جراچات بعد ما آلت إليه من وهن، ونتعجب لتلك الثروات المتداعية.

والمدينة النموذجية كانت عبارة عن مجموعة من الأحياء متحدة المركز، كل منها كان مؤشرًا على النمو. ففى وسط المدينة عادة ما كان يوجد الحصن الرئيسى، بينما تركزت الأسوار الدفاعية خارج المدينة وحولها، وهناك مناطق متداخلة غالبًا ما توضح أين تم بناء الأسوار لأول مرة، قبل أن تحل محلها الطرق الرئيسية، فخريطة مدينة باريس الآن تظهر بوضوح مدى التطور الذى طرأ عليها. وعندما يقرر السكان توسيع مدينتهم وإقامة أسوار جديدة، فإنهم كانوا عادة ما يتركون فراغات كافية تقام فيها الحدائق، والبساتين ومزارع الكروم، كنوع من الاحتياط ضد أى حصار متوقع.

كما كان السوق المربع الشكل هو بمثابة وسط المدينة. وفيه تقام الكنيسة الرئيسية، والبرج العالى، والساعة والسوق المتعامد أى على شكل صليب حتى يذكر السكان أن الرب يلاحظهم وأنه سوف ينزل عقابه على كل من يسىء أو يعكر أمن السوق. كذلك كانت توجد فيه آلة التعذيب الخشبية الرئيسية فى المدينة، وقطعان الماشية، وكرسى التغطيس حيث يشدون إليه المجرمين ويغطسونهم فى الماء وبخاصة من النساء، والمشانق، وآلات التشهير، **فآلات التشهير فى باريس كانت تسع ٢٤ شخصًا ؛ وعند وصول شخص جديد، يتم إلقاء أقدم الهياكل العظمية فى حفرة المقبرة الملاصقة لها)**. وفى هذا الميدان يتم استعراض الفرق العسكرية، ويقوم الممثلون الجوالون بعرض أعمالهم، كما يلعب الشباب فيه لعبة جماعية أشبه بكرة القدم. وكان وسط المدينة هذا مركزًا للأعمال التجارية. وحوله تلتف مناطق البيع والشراء، والتى كانت مسقوفة غالبًا. وفى كثير من المدن، وبوجه خاص فى ألمانيا، فقد كان يتم تخصيص حى لليهود. هذا العزل عن بقية المجتمع كان يتم لحمايتهم ولإذلالهم ؛ وغالبًا ما كان الرابى هو مَنْ بيده مفاتيح هذا المكان.

ومن المحتمل أن كل سلعة كان لها سوقها الخاص بها، فهناك حارة للأحذية، وحارة للجلود، وكما هو الحال الآن فى أثينا وفى الشرق. كما كانت توضع علامات على الدكاكين، لم تكن عبارة عن اللافتات المكتوب عليها بالأحرف، ولكن عن طريق الرموز. فدكان الحلاقة كان يرمز إليه بحوض ماء، والحانة بحذاء مطلى بلون الذهب، والأشجار

الخمارات، على الرغم من أن النبيذ الجيد لا يحتاج لهذه الأشجار. وكانت الدكاكين ضيقة وعميقة، وعادة ما يكون لها واجهة قد يبلغ عرضها حوالى ستة أقدام، وفيها يعرض الصناع منتجاتهم، وحيث الإضاءة أفضل، وحيث يستطيع الناس فحص إنتاجهم واختيار ما يروق لهم، وحيث يمكنهم تبادل المزاح مع المارة.

(هؤلاء العمال الذين يعرضون منتجاتهم انقرضوا الآن : وآخر من شاهدناه منهم هم الذين يلفون السيجار). أما الصناع المهرة فعادة ما كانوا يتواجدون فى تجمعات ؛ ليؤدوا ما يطلب منهم من أعمال وربما صدمهم ما تم إنتاجه من أحذية جاهزة أو ملابس.

كانت الشوارع ضيقة ومتعرجة، باستثناء شوارع المدن الجديدة، ولها منحنيات استغلها الملاك فى كثير من عمليات الدفاع الناجحة ضد من يهاجم أحياءهم. أما مستوى سطح الشارع فغالبًا ما كان يرتفع عن مستوى الأدوار الأولى من المنازل، ذلك لأن إعادة تمهيد الشوارع كانت تتطلب دك كميات كثيرة من الرمال والأحجار على ما هو موجود أصلاً فيها. لذلك كان من المألوف فى كثير من المدن أن ينزل الشخص عدة درجات سلمية لكى يقوم بزيارة إحدى الكنائس القديمة. كما أن الشوارع كانت قد عملت وبشكل رئيسى للمشاة وليس من أجل حركة مرور العربات التى تسير على عجلات. كما أن أجرة رصف الشوارع كان يتم تحصيلها من الضرائب التى تفرض على العربات التى تجرها الدواب وتدخل المدينة، هذه الضرائب تم تنظيمها وفق الحمولة ونوع الحمولة ونوع العربات ومدى تأثيرها فى عملية الرصف، تمامًا مثل الضرائب التى تدفعها سياراتنا فى الوقت الحالى بأحجامها المختلفة، فأعلى معدل كانت تدفعه العربات التى تجرها الدواب ذات العجلات الحديدية أو الخشبية ولها إطار حديدى يتم تثبيته بالمسامير، كما أن نفس المشكلة التى تواجهنا فى الوقوف بسياراتنا فى الأسواق كانت قائمة.

أما المنازل فقد كانت تبنى محاذية تمامًا الشارع أو مطلة عليه مباشرة، كدليل على اهتمام صاحب المنزل بمصلحته الخاصة مهما تعارضت مع الصالح العام. وتنوعت أنماط المبانى تبعًا لتنوع المواد المحلية المستخدمة والعادات. ففى إنجلترا وفى الشمال، كانت المنازل تبنى من الخشب فى معظمها، وتسقف الأسطح بالقش وهو مادة

قابلة للاشتعال السريع. وأدت كثرة الحرائق باستمرار، ومع مرور الوقت إلى إعادة البناء مرات عديدة، وتم استخدام القرميد فى تغطية الأسقف وأحيانًا كان يتم استخدام الحوائط المبنية بالحجارة. وكان على كل سكان المدينة أن يجعلوا أنابيب المياه جاهزة دائمًا. وقامت المدينة بإمداد السكان بالخطاطيف لاستخدامها فى إزالة القش المحترق وإنزاله إلى الشوارع، لهذا قامت شركات الخطاطيف والسلالم التى نراها فى الولايات المتحدة الأمريكية اليوم. والسبب الرئيسى فى قيام الحرائق يرجع إلى النوم على مراتب محشوة بالقش بجوار المدافئ. هذا بالإضافة إلى أنه بمرور الوقت سببت بقايا السجائر والأسلاك الكهربائية الكثير من تلك الحرائق.

وفى القرون الباكرة فإن كل منزل من المنازل كان له فناء وحديقة بداخله، يكفيان لتربية بقرة وبعض الخنازير. ولكن هذا الفراغ كان ينتهك بين الحين والآخر بسبب مشكلة الازدحام، لأن المدن كان يتم إنشاؤها داخل الأسوار. كما كانت المنازل تفتقر إلى الإضاءة والتهوية، إلى جانب بعض وسائل الراحة الحديثة ؛ ومع هذا فإن الناس لم يكونوا يميلون إلى الخصوصية. فقد عاشوا معظم حياتهم فى الشوارع الصاخبة نهارًا، على دقات المطارق، وأصوات الآلات التى تنشر الأخشاب، وجلبة القباقيب الخشبية، وأصوات الباعة الجائلين ومن يقدمون بعض الخدمات وهم يخترقون الشوارع، ورنين الأجراس اليدوية التى يمسك بها بعض الأتقياء معلنين عن الصلاة على روح أحد الأموات، أما فى الليل فقد كان يسود السكون التام الذى يقطعه بين الحين والحين صوت أحد من الحراس بعصاه الحديدية صارخًا بأعلى صوته هذا شىء جيد للجميع. وكان السير ليلاً ممنوعًا بعد دق ناقوس الغروب عند حوالى الساعة التاسعة، هذا الناقوس كان يتم دقه كإعلان عن بداية الخطر، وبالطبع لم تكن هناك إضاءة فى الشوارع كما لم تكن هناك واجهات للعرض خاصة بالدكاكين يتم إنارتها.

كان الرجال يذهبون إلى الحانات ؛ بينما كانت هناك ساعة للنساء قد تم تخصيصها للقاء عندما يذهبن لجلب الماء من ينابيع المياه العامة، والتى كانت مفخرة لكل مدينة، مثلما كان الحال فى مدينة بيروجيا Perugia، وكل المدن المتطورة كان لها نظامها الخاص فى تزويد سكانها بالمياه، وإن كانت العادة قد جرت بعدم شرب تلك المياه مباشرة. كذلك كانت مياه المدينة تغذى المراخيض العامة والتى كان بها حمامات للبخار.

وبالنسبة للجهود التى بذلت للصحة العامة، فإن هذه الجهود لم يقدر لها الانتشار فى مواجهة العادات القديمة، ومنها أن الجزء المواجه لمنزل أى شخص يعتبر ملكًا خاصًا به. **(ووفقًا لهذه العادة وجدت المقاهى على الأرصفة التى كانت فى البلاد المطلة على البحر المتوسط تمتد لتشغل نصف الطريق العام)**. لقد كانت شوارع العصور الوسطى قذرة بلا جدال. حيث قام الجزارون بذبح الحيوانات أمام دكاكينهم، وكانوا يتركون الدم يتدفق إلى البالوعات. بينما قام باعة الدواجن بإلقاء رؤس وريش الطيور فى الشوارع، كذلك كان الصباغون يسكبون المياه الضارة من أوعيتهم الضخمة فى الشوارع. بينما كانت السلطات المحلية فى بعض مدن إيطاليا تقوم بإلقاء الأسماك التى لم يتم بيعها لدى السماكين فى عرض الشارع حتى يلتقطها الفقراء، وللتأكد من أن ذلك لن يجعل بعض المشترين الأمناء يتقززون. بينما كانت الخنازير ترتع باحثة عما تأكله مما يجمعه الزبالون، وفى لندن فإن الكلاب التى يتم تربيتها عند الأثرياء يسمح لها بالانطلاق فى الشوارع على حريتها، هذا إلى جانب الكلاب الضالة. وتواجد الذباب على شكل سحب كثيفة على الموائد، ومع هذا، فإن القلة باستثناء بترارك هم الذين كانوا يشتكون. وربما كان الواحد من المشاة يشق طريقه بصعوبة فى تلك الشوارع وفى يده منديل معطر يضعه على أنفه، يتنقل جيئة وذهابًا فى الشارع وسط الأوحال التى تثيرها حوافر الخيول. كما كان هناك دائما خطر يأتى من أعلى الرؤس. فالملك لويس التاسع ملك فرنسا، أو القديس لويس أثناء سيره فى أحد الشوارع سكب على عباءته الملكية ملو إناء منزلى كبير من الماء المستعمل، فنزل من على حصانه وأسرع إلى مسكن مَنْ سكِبَ عليه ذلك الماء، فوجده أحد طلاب العلم وقد نهض مبكرًا لكى يستذكر دروسه. فأعطاه الملك منحة دراسية **(فالملك كان بالطبع قديسًا)**.

أما الصرف الصحى فقد كان من أعقد المشاكل. فالمدن الكبيرة فقط هى التى كان بها مجارى للصرف الصحى، والتى تصب ما بها عند مجارى الأنهار بالقرب من منطقة المصابغ. وفى مدينة ستراسبورج فإن المجرمين كان يتم إعدامهم ومواراة أجسادهم فى المنطقة التى تصب فيها مجارى الصرف الصحى مياهها فى النهر. كما أن تلوث المجارى المائية كانت مسألة خطيرة، فكل إنسان كان تواقًا لأن يتم عمل شىء ما بهذا الخصوص. فضلاً عن أن عملية تنظيف الشوارع وإزالة ما بها من فضلات إلى مقالب الزبالة كان متروكًا للجهود الشخصية لأصحاب الأملاك الذين

كانوا ميالين للتخلص منها بإلقائها خارج أسوار المدن، أو تكديسها عند بواباتها ومن ناحية أخرى، ففى بعض المدن ذات الشرطة الجيدة مثل باريس فقد كان يتم جمع النفايات بواسطة الزبالين، فكتاب المدينة للويس ممفورد يشير إلى أنه فى العصور الوسطى، وعن طريق الظهير الموجود خلف المدينة، والمراحيض القائمة وسط الحدائق، كان بالإمكان أن تصبح المدن أكثر نظافة وكما هو الحال فى المدن المثالية فى أمريكا وفى المدن الصغيرة سنة ١٨٩٠م. فالفضلات فى معظمها مواد عضوية، وليست عبارة عن عبوات من الصفيح، أو الزجاج أو البلاستيك ؛ ويمكن تحللها والاستفادة منها فى تخصيب الأرض الزراعية. والسيد ممفورد عندما يبدى استياءه من التحديث، فإنه يتذكر رائحة روث الخيول والأبقار، فيقول : **"هل عادم الجازولين والرائحة الكريهة للمجارى، وأكوام الزبالة المتعفنة، ودخان المصانع المتصاعد الملىء بالكبريت وأجواء المراحيض العامة المشبعة تماماً بحمض الكربوليك تعد من الأشياء المنهكة للقوى ؟ لهذا السبب فإن تطهير الأوعية الزجاجية لمياه الشرب العادية بالكلور يعد شيئاً مرضياً ؟ وحتى فى حالة الروائح، فإن الجمال لم يعد كلية فى جانب المدن الحديثة ؛ ولكن لأن هذه الروائح منبعثة منا فإن أكثرنا يفشلون فى ملاحظتها".**

هذا شىء حقيقى، ولكن بالتأكيد إننا لا نحب تلك الروائح، وهناك دليل قاطع على أن الناس فى تلك الأزمنة كرهوا تلك الروائح أيضاً. فالبعض منهم استخدم الفحم المعطر فى المراحيض. فالملك إدوارد الثالث ملك انجلترا ذكر أن الرائحة الكريهة المنبعثة من مدينة يورك كانت تعد أسوأ من رائحة أى مدينة أخرى عرفها. كما أن الملكة إليانور زوجة هنرى الثالث اضطرت لترك مدينة نوتنجهام بسبب دخان الفحم لإصابتها بمرض الربو. وفى قصر وست منستر فقد كانت النفايات يتم نقلها من المطبخ الملكى خلال قاعات القصر. والتى سببت مرض رجال الحاشية ؛ ولنفس السبب فإنه فى سنة ١٢٦٠م تم تشييد فتحة فى المطبخ للتخلص من الفضلات.

والمدن، سواء كانت جميلة أم قبيحة، فقد كانت الملاذ الطبيعى لساكنيها وكان التجار أو أبناؤهم يشكلون طبقة حاكمة متنافسة، كما كانوا مضطرين لأن ينظموا ضواحى المدينة. لقد جعلوا من لا شىء نظاماً لإدارة حكومية تتمتع باستقلال ذاتى محلى لمجموعة من الرجال الأحرار تجمعوا معاً. كما اختاروا الموظفين لمدينتهم، ورئيس البلدية أو المحافظ، وأعضاء المجلس التشريعى للمدينة الذين كانوا يلتفون حول

مائدة العشاء على شكل مجلس. كما قاموا بتعليم سكان المدينة كيفية التغلغل داخل الطبقة الحاكمة العليا، مقدمين العديد من المحامين، والموثقين والمحاسبين . وقد اعترف الملوك بقوتهم وقدراتهم، و كانوا يحضرون موائد العشاء معهم، ففى سنة ١١٩٠م فإن فيليب أوغسطس ملك فرنسا كان أول من أقدم على تعيين ستة من الطبقة البورجوازية ضمن مجلس الوصاية على العرش أثناء غيابه فى حملة صليبية، وتمتع هؤلاء البورجوازيون بفكر مدنى استطاع أن ينتشر بمرور الوقت بحيث أصبح فكرًا قوميًا أو هو ما يعبر عنه "بحب الوطن". كما كان لهم نظامهم فى سلوكهم، والذى أدى إلى رفع مكانتهم الشخصية وكرجال أعمال فى نفس الوقت. وسرعان ما اكتسبت أفكارهم كثيرًا من القبول، وتم تقييم مهارتهم بما حققوه من ثروات بحيث أصبح ينظر إلى الأغنياء على أنهم أفضل وأعقل الرجال، وإلى الفقراء على أنهم أسوأ الرجال.

وكانت النقابة هى أهم مؤسسة اقتصادية فى العصور الوسطى. وإن كان هناك من يرجع نظام النقابة إلى أصول جرمانية بدائية وإلى الأخوة فى الدين وظهرت كلمة النقابة أول ما ظهرت فى مراسيم شارلمان. أما فى انجلترا الأنجلو سكسونية فإن النقابات كانت عبارة عن اتحادات دينية تضم الرجال، ولها فى نفس الوقت اهتمامات تجارية، قد تم تأسيسها لتقديم العون المتبادل، والحماية، ولقضاء أوقات طيبة.

وفى بداية الأمر كان لكل مدينة نقابة واحدة، ونتيجة لتزايد أعداد السكان ولتعدد الاهتمامات، فإن النقابات تم تقسيمها رأسيًا وأفقياً. فمن الناحية الرأسية، فإنها انقسمت إلى أصحاب المتاجر والعمال، وأصحاب العمل والموظفين والفقراء والأغنياء. وأفقياً فإن النقابة الأصلية تم تقسيمها إلى نقابات أرباب الصنائع، وكل منها تمثل عملاً خاصًا. كما أخذت النقابات المهنية فى الانقسام. ففى إنجلترا فإن نقابة واحدة كانت تضم ثلاثة أنواع من أرباب المهن الذين يعملون بصناعة السكاكين : من الحدادين الذين يصنعون النصال، وصناع السكاكين والأدوات القاطعة، وصناع الأعمدة ومقابض السكاكين والأدوات القاطعة.

وكان الهدف من نقابة أرباب المهن مثل أى اتحاد تجارى، هو تحقيق الخير لأعضائها ولضمان تشغيلهم بالكامل بأعلى الأجور عن طريق وضع شروط محددة لعضويتها. كما أدى ذلك إلى احتكار محلى فى الإنتاج، مما شجع على عدم وجود

منافسة بين أعضاء النقابة، ووضع حداً للإضرابات العمالية. وتم تنظيم إجراءات ساعات العمل. وتحديد الأجور أى الحد الأعلى لها وليس الأدنى. كما وضعت مقاييس الجودة وأسعار المنتجات. لكنها لم تشجع على الابتكار والتجديد. كما منعت تخفيض الأسعار، والأجور الإضافية، وعمل دعاية للمنتجات، والأجور الإضافية لمديرى الأعمال، واستخدام أية آلات جديدة، وكذلك تشغيل الرجل زوجته، وتشغيل الأطفال صغار السن. وكان هدف النقابة الأسمى هو التنظيم وخدمة الأعضاء. ولهذا فقد فشلت فى استخدام وتقديم التطور التكنولوچى الذى وجد سبيله خارج تلك النقابات.

كما فرضت نقابات أرباب الحرف نظاماً صارماً على أعضائها. فالنقابات كانت لها ملكيتها، ولها أماكن للعبادة خاصة بها فى الكنائس، وساهمت فى تزويد نوافذ الكاتدرائيات بالزجاج الملون. فضلاً عن أنها كانت ترعى العجزة من أعضائها وأراملهم وأطفالهم، كما قدمت التمثيليات الدينية التى تدور أحداثها حول حياة السيد المسيح، وتمثيلية اللصوص يخرجون مسرحية تابوت العهد، وبائع النبيذ، والزواج فى كانا ؛ والسماكين، ويونس والحوت، وقدرة الأسماك الإعجازية على جر الأشياء، والخبازين، والعشاء الأخير. وتقليداً للنقابات قامت جماعات اللصوص والشحاذين والمتشردين بتشكيل اتحادات خاصة بحرفهم.

أما من حيث الانقسام الرأسى داخل النقابات فقد كان ظاهراً فى النزوع إلى التقليل من الشروط الصارمة الخاصة بأرباب الحرف. هذا إلى جانب أن الأعمال التجارية الكبيرة أو الرأسمالية كانت فى جانب التقدم باستمرار، كما كانت تفضل الاختراعات التى من شأنها التقليل من عدد العمال، وكذلك التقليل من أجور العمالة، وتصدير سلع رخيصة الثمن كلما أمكن ذلك. وكان للأغنياء اهتمامات بعيدة كل البعد عن اهتمامات الفقراء، فضلاً عن نزوعهم للاستغلال الطبقى، مما ساعد على حدوث كثير من المشكلات الاجتماعية. وفى القرن الخامس عشر للميلاد كان الانشقاق واضحاً تماماً بين الذين كان فى مقدورهم تحمل الأغنياء لأنهم عاشوا كبطانة لهم، وبين الذين لم يستطيعوا ذلك، ولنفس السبب فإن هذه المشكلة مازالت قائمة. ولقد التقت جماعات النقابيين فى مدينة لندن وبشكل مهيب فى قاعة مبنى النقابة القديم لكى يختاروا الرئيس العام للنقابة، وانصب عملهم على الاحتفال والاستعراض والعشاء الرائع. لقد كانوا أهم رجال الأعمال البارزين فى المدينة، والذين ابتعدوا بعض الشىء عن التجارة حسبما ذكر ذلك أحد أعضاء جماعة صناع الأحذية والمشتغلين بتجارة الجلود.

لقد ابتكر رجال المال بعض التقنيات اللازمة للأعمال التجارية الحديثة، ومنها استخدام الدفاتر الخاصة بالمعاملات المالية مثل دفتر الأستاذ ودفتر اليومية في فلورنسا في القرن الرابع عشر للميلاد، وظلت دون تغيير حتى القرن العشرين. في الوقت الذي ركز فيه سكان المدن كل تفكيرهم في كل ما يخص مدنهم، والإفادة من اختلاف الأسعار في الأسواق العالمية رافضين النظرية السائدة والقائلة بأن كل سلعة لها سعر حقيقي يعتمد على سعر التكلفة مضافًا إليه هامش ربح معقول، وتحكموا في الأسعار بناء على نظرية العرض والطلب. كما كونوا شركات أو اتحادات من المستثمرين الذين تقاسموا فيما بينهم الأرباح وتحملوا المخاطر. كما أنهم أحدثوا ثورة في عالم المال والإقراض.

وفي الأيام الأولى كانت قاعدة المعاملات النقدية هي العملة الفضية التي كانت تستخدم في التعامل قصير الأمد، وخضعت كذلك لعملية خلطها بمعادن أقل قيمة منها. **(ففي سنة ١١٢٥م فإن هنري الأول ملك انجلترا اكتشف أن ٩٤ من أصل ٩٧ من المشتغلين لديه بسك النقود يقومون بغش العملات المعدنية ؛ فقام بقطع ٤٩ يداً وتسميرها على الأبواب الخارجية لدور السك)**. كما كانت العملات النقدية صعبة الانتقال من مكان لآخر إلى جانب ما يحف عملية النقل من مخاطر. فالجنيه الإنجليزي كان عبارة زنة رطل من الفضة. وفي سنة ١٢٤٢م فإن هنري الثالث حمل معه في إحدى غزواته التي شنها على فرنسا ثلاثين برميلاً مليئة بالعملات المعدنية هذه، كل برميل منها كان يحتوي ١٦٠٠٠ من البنسات.

(من الطبيعي أن يصبح التعامل النقدي شائعاً وبخاصة في القرن الثالث عشر للميلاد، وتطور التعامل النقدي إلى نظام الاقتصاد المعتمد على الإقراض. وهذا قد اعتمد بدوره على وجود مجموعة من المشتغلين بالصرافة، الأغنياء، والموثوق فيهم، والذين يمكنهم التعامل في الأموال والقيام بعمليات الإقراض وتغيير العملات، نظير عمولة، وإصدار خطابات الضمان التي تلقى قبولاً وتقديراً في أية مدينة تجارية. هذا النظام يرجع أصوله إلى العرب والبيزنطيين ؛ وقد وصل هذا النظام إلى درجة عالية من الكفاءة على يد الإيطاليين اللومبارديين، البنادقة والفلورنسيين).

إن عالم المال والتجارة يمكن أن ينظر الى ما يقوم به رجل المصرف الحديث على أنه شيء مألوف. أما في العصور الوسطى، فقد قام الأفراد والجماعات وبخاصة من

العائلات الإيطالية، بإقراض الأموال للملوك، ورجال الأديرة، واللوردات ولم يتم هذا وكما يحدث الآن وفق الدخل فى المستقبل. كما أن القروض الصناعية كان يتم تقديمها لأغراض إنتاجية. ونسمع أن الملك جون (يوحنا) ملك انجلترا استخدم خطابات الضمان لكى يجهز مبعوثيه إلى روما. كما كان أى شخص يشارك فى إحدى الحملات الصليبية يستطيع أن يشترى حوالة مالية فى لندن ليصرفها فى عكا، لكى يتجنب مشقة ومخاطر نقل الذهب. وبمجرد أن يهبط إلى الميناء، فعليه أن يتوجه إلى الصراف ذى العلاقات التجارية مع لندن والذى يتم إخباره بالحوالة عن طريق خطاب، فيقوم بصرف الحوالة له. كما أن العمليات التى كانت تتطلب رأس مال مشترك فقد بدأتها جنوه فى القرن الرابع عشر للميلاد. وبخصوص التأمين، وبوجه خاص التأمين البحرى، فقد كان معروفًا، وكذلك عملية إعادة التأمين أو تعويض المؤمَّن ضد المخاطر.

ومما لاشك فيه أن العمليات المالية كانت محفوفة بكثير من المخاطر. من ذلك أن الملك إدوارد الثالث ملك انجلترا قام بجمع كثير من الأموال عن طريق إصدار سندات حكومية قصيرة الأجل وقام بالتوقيع عليها. فاستدان بعد ضغط شديد مبلغًا من المال بلغ ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيهًا من آل باردى Bardi وبيروتزى Peruzzi فى فلورنسا، ثم أعلن بعد ذلك إفلاسه، مما اضطر الأسرتين إلى إعلان إفلاسهما.

كما أن معدلات الفائدة كانت رهيبة، بحيث وصلت ١٠٠٪ على أحد القروض التى حصل عليها أحد الأديرة من إحدى المؤسسات التى قدمت القروض. ومن ناحية أخرى نسمع عن فائدة وصلت حوالى ١٠٪ هذه الفائدة كانت معقولة إذا ما وضعنا فى اعتبارنا مخاطر غرق السفن، ومخاطر قطّاع الطرق، أو رفض إحدى السلطات الاعتراف بدين أو الامتناع عن دفعه، أما عن موقف الكنيسة فإنها حرمت كل عمليات إقراض المال واعتبرتها مراباة ؛ وإن كان هناك بعض رجال الدين المهرة الذين استطاعوا أن يبرهنوا على أن الفوائد المعقولة يمكن النظر إليها لا باعتبارها فوائد، بل هى أجر على خدمات مالية، فضلاً عن أن البابوات أنفسهم لم يأنفوا من اقتراض الأموال.

أما عن رجال الأعمال وقوتهم فقد كانت من الأشياء الواضحة تمامًا. فالسنة كانت تبدأ مع عيد الفصح، فى أى مكان فى المدة من ٢٢ مارس وحتى ٢٥ أبريل. وكان هذا يعنى توقيتًا لا يحتمل بالنسبة للتجار الذين كانوا يطالبون بأوقات محددة لعقد

الصفقات التجارية والقروض. وكانت بداية السنة التى اختاروها هى عيد ختان السيد المسيح فى أول يناير، وهو نفس التاريخ الذى اتخذه الرومان بداية للسنة عندهم وشهدت الأعمال التجارية نقله ملحوظة باستخدام نظام الأرقام العربية، واستخدام الصفر الذى لا يمكن تقدير ما قدمه من فوائد. هذا النظام العربى للأرقام وصل إلى الغرب الأوربى فى القرن الثانى عشر للميلاد، وسرعان ما تم تعميمه فى عالم التجارة.

وعلى المستوى الأدنى فإن الناس البسطاء كان فى مقدورهم أن يرهنوا الأدوات المنزلية فى مقابل اقتراض الأموال من الإيطاليين، والكاهورسيين فى فرنسا، واليهود. وكان على صغار المدينين أن يحصلوا على القروض بثمن غال، بحيث وصل معدل الفائدة على الإقراض ما بين ٤٣، ٥ر١ ٪، ومع هذا فقد كانت المخاطر عالية، كما كانت عملية استرداد هذه القروض عن طريق المحاكم صعبة للغاية، إن لم تكن مستحيلة. فاليهود الذين نظرت جموع العامة لعملهم هذا على أنه مشروع، قد عانوا أكثر من غيرهم. ومع هذا فإن أعمالهم ازدهرت بسبب ذكائهم ولأن السلطات وجدت فيهم عنصراً مفيداً. كما حققت لهم علاقاتهم الشخصية فى كل أنحاء أوربا ووعيهم الجماعى كثيراً من الفرص والمزايا. وفى ذلك يقول البروفيسور سمر فيلد بلدوين :

وباستمرار كان إسحق من مدينة يورك York يعتمد على أخيه يعقوب Jacob فى مرسيليا، وكلاهما كانا يعتمدان على ابن عمهما يوسف فى بيت المقدس، ولقد حقق ثلاثتهم كثيراً من الأرباح وبخاصة عندما كان يطلب رجال الدين فى يورك الإتيان ببعض الذخائر المقدسة من كنائس مريم العذراء فى الأرض المقدسة، أو عندما يخرج أحد بارونات يوركشير فى حملة صليبية. فكان إسحق من يورك يتسلم فضة رجال الدين أو أحد البارونات ؛ ويقوم يوسف فى بيت المقدس بشراء الذخائر المقدسة، أو يقوم بدفع نفقات البارون عندما يصل إلى الأرض المقدسة. بينما يرتب يعقوب فى مرسيليا عملية نقل الذخائر المقدسة عبر البحار حتى تصل إلى يورك، وكذلك كل أسباب الراحة للبارون على ظهر إحدى السفن المتجهة من مرسيليا إلى أحد موانئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية.

وكان على اليهود أن يدفعوا كثيراً من المبالغ وبشكل مخز من أجل حصولهم على على حق الاشتغال بالأعمال المالية. كما كان عليهم أن يعلقوا على ملابسهم علامة مميزة لهم عن غيرهم، هى عبارة عن قطعة صغيرة من القماش صفراء اللون أو نجمة

داوود، وأن يرتدوا غطاءً للرأس مدبب الشكل. وفى مدينة تولوز كانوا يرغمون على إرسال من يمثلهم إلى الكاتدرائية فى يوم الجمعة الحزينة الذى يسبق عادة عيد الفصح ليتسلم صندوقًا كدليل على مساندة الكنيسة لهم. وفى مدينة بيزيير Bezier فقد كان من حق الرعاع أن يقذفوا منازل اليهود بالحجارة طوال أيام أسبوع الآلام الذى يسبق الفصح، إلى أن استطاع رجال الدين اليهود فى سنة ١١٦٠م دفع مبلغ كبير من المال لاستبدال ذلك الفعل نظير مبالغ سنوية. كما كان على كل يهودى يمر أمام برج قلعة مونتيلرى Montlhery (والذى لا يزال قائمًا، تقريبًا، فى جنوب باريس) أن يدفع نصف فارنتج وهى قطعة نقد بريطانية تساوى ربع بنس، وإذا كان يحمل كتابًا مقدسًا بالعبرية فعليه أن يدفع ٤ فارنتج. وأثناء عيد المرفع Carnival فى روما، فإن يهود المدينة كان عليهم أن يدونوا أسماءهم فى قوائم العامة. ولا عجب فى أن روح التعالى اليهودية كتمت من المرارة الكثير ولعدة قرون.

ومما لا شك فيه أن كل المشاريع التجارية والصناعية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد كانت تعمل على تعرية النظام الإقطاعى، وإعلاء قوة النظام النقدى، ومجىء الرأسمالية. وإن كان من الصعب تعريف رأسمالية العصور الوسطى؛ لأن بداياتها غامضة جدًا وربما يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر للميلاد فى غربى أوربا، ومتى بدأ تفضيل النقود على الأرض الزراعية، وكيفية إحلال النقود محل الأرض. كذلك فإن وسائل الإنتاج أصبحت فى أيدى الملتزمين أو المقاولين الذين كانوا فى الفلاندرز يقومون بإحضار المواد الخام، ويشرفون على عمليات التصنيع، ويبيعون المنتج النهائى. كما أن العمال كانوا قد بدأوا يعانون من نقص الأجور، ويعتمدون على دورة العمل، ومن الناحية النظرية فإنهم كانوا أحرارًا ولكنهم فى الواقع يعيشون فى حالة من التبعية الاقتصادية الفعلية وكما يقول أحد الشعراء المعاصرين:

لكى تكون أحد البورجوازيين الأحرار يجب عليك أن تكون فى أفضل حال من الجميع ؛ فإنهم كانوا يعيشون حياة نبيلة، يرتدون ملابس اللوردات، ولديهم الطيور الجارحة والصقور، وعندهم الخيول الصغيرة التى تمتطيها نساؤهم، إلى جانب مواردهم المالية الهائلة . وفى الوقت الذى يكون فيه الأتباع مضطرين للانضمام إلى سيدهم، فإن البورجوازيين كانوا مستريحين فى فراشهم، وفى الوقت الذى يخرج فيه الأتباع ليلقوا حتفهم فى المعارك، فإن البورجوازيين يخرجون للتنزه على شاطئ أحد الأنهار.

ومن جهة أخرى، فإن أدب عصر الفروسية نظر إلى البورجوازيين على أنهم جشعون، ضعفاء العقل، على النقيض من النبلاء، الذين كانوا مبذرين لثرواتهم بشكل عظيم. بينما نظر كثير من الكتاب إلى النبلاء والبورجوازيين على أنهم مولعون بالكسب.

لقد شكل البورجوازيون طبقة منفصلة فى فرنسا، وهى "الطبقة الثالثة رفيعة المنزلة". وكان لهم تقاليدهم الخاصة ونظامهم فى سلوكياتهم وتفاخرهم. ولقد عاملوا طبقة النبلاء معاملة فيها مزيج من الاحتقار والغيرة والمنفعة. وبوجه خاص فى المدن الإيطالية فقد كانوا سعداء بأن يزوجوا بناتهم ذات المهور العالية إلى فقراء النبلاء ليضمنوا لأحفادهم نبالة المحتد. والنبلاء، بدورهم، احتقروا وحسدوا البورجوازيين الذين كان فى مقدورهم أن يحيوا حياة أفضل من حياة هؤلاء النبلاء الذين عرفوا كيف يضاعفون من ثرواتهم وأموالهم.

وبالنسبة للكنيسة، فقد كان البورجوازيون هم الطبقة الثانية، وكانوا محل احترام وتقدير من رجال الكنيسة، وحصلوا على مناصرتهم لهم. ذلك لأنهم كانوا مخلصين فى بعض الأشياء، فى ترصيع ملابسهم بالصلبان، ووضع الشعارات المقدسة فى دفاترهم وفى صلواتهم التى يسجلونها فيها. كذلك كان رجال الأعمال يخصصون جزءاً من حساباتهم فى دفاترهم يقدمونها للمحتاجين أو من أجل القربى والمثوبة من الله. وحتى فى حالات فشل بعض الأعمال التجارية، فإن هذا الجزء كان يتم دفعه أولاً. وعند عقد الصفقات، فقد كان يتم ذكر الله ليكون شاهداً، ويتم دفع مبلغ من المال تقرباً إليه.

كما كان رجال الطبقة الثانية وهم رجال المال والأعمال مسرفين فى إغداقهم الأموال والهدايا على الكنيسة، وفى حبس الأوقاف على فرقة المنشدين والمرتلين الدينية، لإنشاد التراتيل الدينية عليهم ولخلاص أرواحهم. كما كانوا يقدمون الكثير من الطعام والخدمات لصغار المدينين فى السجون، ولمرضى الجذام فى الأماكن المخصصة لهم، وللمجانين، وللنساء الراهبات فى بيت لحم، وكذلك قدموا كثيراً من العون فى كل ما من شأنه الإسهام فى تطوير وتحسين مدنهم المتمتعة باستقلالها الذاتى، مثل ذلك توصيل مياه الشرب إلى سجون لندن. كذلك من المتوقع منهم أن يترك كل واحد منهم ما بين ثلث وربع ممتلكاته ليستفيد منها الجميع وتستفيد منها دولته بعد رحيله إلى العالم

الآخر. أما الآن فإن مكانة هؤلاء رجال المال والأعمال أوجبت عليهم القيام بعدة مهام يتم تنفيذها عن طريق ضريبة الميراث وإن كانت الدولة قد حلت محل أولئك المتطوعين للعمل الخيرى الذين قاموا بذلك العمل بجدارة.

وعن علاقة الكنيسة بالطبقة البورجوازية، فقد كانت علاقة متكافئة من الانبساط والانطواء، فعدم استحسان الكنيسة للتجارة والحصول على الأموال، أدى إلى انصراف كثير من الناس عن هدفهم الأسمى والاتجاه إلى الربا، وبعض الأخطاء الأخرى، وفى ذلك يقول توماس الأكوينى Thomas Aquinas: " **إن الاشتغال بالمال والتجارة كان له سمة فخرية** "، ويعلق على ذلك رجل القانون الكبير جراتيان Gratian بقوله : "إن التاجر لن يستطيع بحال من الأحوال أن يرضى الله مهما حاول، ومع هذا، فإن الكنيسة عادة ما كانت تشمل التاجر بحمايتها، فى مقابل التزامه بدفع الكثير من الهبات والهدايا".

وبالنسبة لعلاقتهم بالفقراء، فإن سلوك الطبقة البورجوازية كان مزيجًا من عدة مشاعر. فالرجال الناجحون من الممكن أن يكونوا قساة تجاه غير الناجحين الذين اعتبروهم غير قابلين للتغيير وأنهم فسقة أو فجرة. كما أن البورجوازيين نظروا بعدم ارتياح معين نحو المكروبين ومنفذى الوصايا وإن كانوا لم يزعجوا كبار السن والفقراء عند تحصيل ما عليهم من ديون. كما أن الكنيسة قد علمتهم أن الفقراء ينعمون بالسعادة الروحية. كذلك كان دعاة النهضة يذكّرونهم بأنه يجب ألا يسيئوا إلى الفقراء إلى الله. فالقديس سان برناردينو من سابنا أخبر التجار أن "**ما ترتديه بناتهم من ملابس ثمينة، وكذلك مهورهن هى فى غالبها نتاج لما قاموا به من سرقة وربا على حساب عرق الفلاحين ودماء الأرامل وأن أفضل طعامهم هو ما حصلوا عليه من الأرامل والأيتام. ولو أن أحدهم أخذ ملابس بناته الثمينة وألقى بها بعيدًا فسوف يرى الدماء البشرية وهى تتدفق منها بغزارة**".

لقد قام رجال المال والأعمال بأداء دورهم بصعوبة بالغة، فالكثير من الناس كانت تغريهم عمليات الخداع والتحايل والنصب، والتزييف، بينما قلة قليلة كانت تميل إلى التعامل بثقة وتنفيذ ارتباطاتها. والقليل النادر من البورجوازيين هم الذين مارسوا النادر من أعمال المكر والخداع، وتزييف النحاس على أنه ذهب، وتطفيف الكيل

والموازين، وبيع الأصواف الرديئة على أنها جيدة مستغلين الظلام أو أضواء الشموع الخافتة. بحيث نسمع أن أحد الخبازين فى لندن اتُّهم بأنه كان يخفى طفلاً أسفل منضدة طويلة فى دكانه لكى يتسلل من أحد الأبواب المسحورة ويقوم بسرقة بعض عجين الزبائن تحت سمعهم وبصرهم. ومع هذا فقد كان العقاب الذى تنزله محاكم التجار قاسيًا: كدفع غرامة كبيرة، أو التشهير بالشخص المذنب، أو بتر أحد الأعضاء بالنسبة للمسجونين، وهذه العقوبة كلفت المدن الكثير.

وبالنسبة لعلاقة البورجوازين بطبقة النبلاء، فإن الأرباح التجارية لعبت دورًا كبيرًا فى إتمام كثير من حالات الزواج، على الرغم من أننا نسمع أحد المستشارين فى القرن الخامس عشر ينصح بالزواج من امرأة فقيرة، حليمة، على امرأة غنية. وعلى المستوى الأقل فى مجتمع البورجوازيين فإن الزوجة كان عليها أن تساعد زوجها فى مكان عمله، وترثه بعد وفاته. وفى مثل هذه الحالة فإنها غالبًا ما تتزوج كبير العمال لكى لا يتوقف العمل. وعلى كل المستويات الاجتماعية كانت المرأة تابعة، إما لوالدها، أو لإخوتها أو لزوجها. وفى كثير من المناطق لم يكن لها الحق فى أن ترث الأرض الزراعية، أو تكتب وصيتها، أو تشهد أمام المحاكم. وكان يتم تعليمها أن تمشى باحتشام. ففى القرن الرابع عشر كتب عمدة باريس Menagier de Paris لزوجته الشابة مجلدًا ضخمًا يحتوى على كثير من التعليمات الخاصة بكيفية إدارة البيت، وفيه ينصحها قائلاً: **عندما تذهبين خارج المنزل، ارفعى قامتك، ولا تلتفتى يمينًا أو يسارًا، واخفضى جفنيك، وانظرى دائمًا ولحوالى أربع قصبات أمامك إلى الأرض، دون النظر أو الالتفات لأى رجل أو امرأة يمينًا أو يسارًا، ولا ترفعى رأسك، أو تحملقى فى أى شىء، أو تضحكى، ولا تتوقفى لكى تتحدثى مع أى شخص فى الطريق.**

وإذا حدث وعصت التعليمات فقد كان يتم ضربها من أجل أن تلتزم بها ولمصلحتها. وهناك كاتب آخر فى القرن الرابع عشر الميلادى، يوجه إرشاداته إلى أخواته البنات فى سن الزواج ويحذرهن من مصير أن تكون الواحدة منهن زوجة غير مطيعة فإن زوجها بعد استشارته لأحد الأطباء الجراحين يستطيع أن يعقد معه صفقة لعلاج وإصلاح رجليها وبعدها يتوجه إلى منزله حيث يقوم بكسر رجليها بيد الهاون، حتى لا تعود مستقبلاً إلى عدم طاعته وكسر تعليماته مرة أخرى.

ومع هذا، فيمكننا أن نتذكر المرأة المسئولة عن الحمّام لكى ندرك كيف كان الشخص من سكان المدن يحصل على قدر كبير من المتعة والمرح فى حياته. ففى داخل منزلها، على الأقل، كان لها السلطان إلا إذا كان لها زوج غير عادى وصعب الإرضاء مثل عمدة باريس Menagier de Paris، هذا الرجل الباريسى الممتاز والذى تعد كتاباته أكثر قيمة للمؤرخين منها للزوجات.

أما عن منزل أحد سكان الطبقة البورجوازية فربما كان يتكون من غرفتين أو ثلاث غرف ضيقة تعلو الدكان فى أحد القصور الشامخة والتى ما زالت قائمة فى المدن القديمة فى ألمانيا وفى الأراضى المنخفضة. وكما هو الحال فى منازل النبلاء، فإن الحياة كانت تتركز فى القاعة الكبيرة (الصالة) والمطبخ الملحق بها. ومن المحتمل أن كل الأسرة كانت تنام فى غرفة نوم واحدة، بينما يجد الخدم والغلمان الذين يتم تدريبهم على حرفة مكاناً لحشايا القش التى ينامون عليها حسبما يشاءون. ففى قصة تشوسر عن رئيس المجلس البلدى فإن طحان ترمبنجتون والذى كان واضحاً أنه ينام هو وزوجته وابنته البالغة وحفيدته، واثنان من جريحى كامبردج فى غرفة نوم واحدة. ومن هذا التنظيم أو الترتيب ظهرت أولى المسرحيات الهزلية الساخرة. وعادة ما كانت الغرفة تحتوى إلى جانب الأسرة، على صندوق خشبى لحفظ الملابس الكتانية، وكرسى بلا ظهر أو ذراعين وربما اثنين، ولكن مع تزايد الثروة ، فإن ربة المنزل أخذت تزين أركان منزلها بعدد من الوسائد، وكذلك الحوائط بعدد من الأشياء التى يتم تعليقها والمصنوعة من قطع القماش مربعة الشكل أو على شكل الأزهار. ولم يكن هناك – وحتى فيما بعد – مراحيض، إلا أن بعض المنازل كان بها مجرى منحدر مغطى، يخرج من غرف النوم إلى أنبوب مائل يصل إلى فتحة السرب.

وعن الموضة فى ملابس النساء، فإنها تغيرت من سنة لأخرى ومن مكان لآخر، تماماً مثل تسريحات الشعر. وفى المدن الإيطالية المزدهرة أثناء القرن الثالث عشر للميلاد كانت النساء يرتدين شعراً مستعاراً، ويقمن بتزيين وجوههن بكثير من المساحيق وألوان الزينة، كما كن يشددن كثيراً من الأربطة حول خصورهن لتحسين مظهرهن الخارجى، كذلك كن يرتدين الفساتين مقورة الصدر وبشكل مخز. وحاولت الكنيسة أن

تفرض عليهن وضع مناديل حول الرقبة وكذلك الخمار. وفى ذلك يقول أحد كبار رجال الفرنسيسكان : **"إن النساء كن يصنعن الخمار من الكتان والحرير، ويجنبن أنظار الذين يتطلعون إليهن وبخاصة من يبحثون عن المتع الحسية".**

كما أن الأناقة فى الملبس كان يتم التعبير عنها عن طريق أنواع الأقمشة المستخدمة أكثر من القصات، ولم يكن ذلك خاصًا بالنساء فحسب بل شاركهن فيه الرجال، لذا كان الكثير من المشتغلين منهم بتجارة الأقمشة والعباءات يهتمون اهتمامًا كبيرًا بالجودة. وعبرت الملابس عن الأوضاع الاجتماعية، حسبما تقول المؤرخة سيلفيا ثروب **"على الرغم من أن التاجر كانت له عين الخبير بالنسبة للجمال الحقيقى للألوان ونوع النسيج الخاص بالأقمشة : وتخيل ما يليق بالأعمار المختلفة من ألوان قرمزية أو ألوان أخرى براقة، وكذلك طراوة ولمعان الفراء الفاخر ونعومة الأقمشة المرتبطة بقوة تحملها وأهميتها، فقد كانت هناك ألوان سمراء فاتحة اللون وأقمشة مخلوطة تناسب الفقراء وتتسم بالحقارة. ومع هذا فإن أقمشة القرن الرابع عشر للميلاد كانت تشد الناس إليها بلمعانها وبخاصة العباءات المصنوعة من النسيج الحريرى الذى تتخلله الخيوط الذهبية والفضية، وكذلك القطيفة، وأغطية الرأس الحريرية المخططة والمحلاة بالفراء أو بخيوط الذهب، والأرواب الخارجية ذات الألوان القرمزية والخضراء، والمزدانة بقطع من فراء القاقوم، والقندس، والدلق".**

كما عرفت النساء استخدام الخواتم المرصعة بالجواهر، والأحزمة المصنوعة من الحرير والتى تتدلى منها أكياس صغيرة من التفتاة، وبعض الحلى على شكل سكاكين لها مقابض من الكريستال، واستخدمن قبعات الرأس المصنوعة من الفراء المزركش، والأحذية المرقشة الألوان. وفى المناسبات العامة، ووفقًا للموضة الفرنسية، فإنهن يرتدين أغطية للرأس وأحذية مزدانة بكرات صغيرة من الذهب والفضة تحدث رنينًا، وقد تمت خياطتها فى تلك الأغطية والأحذية. وحتى طبقات صغار التجار فى ذلك العصر ارتدوا الملابس الحريرية، وكانت أروابهم دائمًا مزدانة بقطع من الفراء. وما زال فى وسع الواحد منا أن يرى هذه العظمة فى دار بلدية لندن حيث يظهر رئيس البلدية فى صورة براقة أخاذة.

ومن المحتمل أن التجار كانوا يتناولون طعام عشائهم بشكل جيد وكما يفعل التجار عادة فى كل مكان. إذ كان لديهم كل أنواع اللحوم المألوفة لنا، بالإضافة لبعض الألعاب المسلية. فمحالّ الحلوى فى باريس كانت تبيع الكعك المحمص، والكعك، والفطائر المحشوة بالفاكهة أو قطع لحم الخنزير، أو الدجاج، أو السمك، أو الجبن الطرى، والجبن المعد خصيصًا لكل من يرغب. ففى قصة بوكاشيو الساخرة عن المدينة الفاضلة. وحيث يربطون الكروم مع السجق، وحيث هناك تل من جبن بارما المبشور، يسكن أناس لا همّ لهم سوى عمل المكرونة والفطائر المحشوة باللحم المفروم، ويقومون بإعدادها فى مطابخهم ويضعون عليها حساءً رقيقًا وحريفًا لكل من يطلبه. كما أن بوكاشيو وهو الخبير فى اختيار المأكل والحكم عليه، يمص شفتيه بعد تناوله فطيرة جبن بارما وعليها نبات الخشخاش وشرائح اللحم المتبل والتى كانت تعمل على شكل السمبوسك، أو تلك الفطائر المحلاة بالذرة العويجة، وعليها البودنج أسمر اللون، أو بعض الأطباق الأخرى والتى تبدو لنا غير معروفة الآن.

كما أن طريقة إعداد قوائم طعام الطبقة البورجوازية يبدو أنها كانت أكثر إغراء من أطعمة طبقة النبلاء الثرية. وهنا مثالان من الترجمة التى قامت بها إيلين بور Eileen Power للتعليمات التى قدمها عمدة باريس الذى كان له خبرة كبيرة فى عمل الفطائر:

الخنزير المحشو : بعد ذبح الخنزير بقطع حلقومه، وسمطه فى ماء يغلى ثم سلخه، خذ اللحم الخال من الدهن، وارم الأرجل وأحشاء الخنزير، وضع هذا اللحم حتى يتم سلقه فى الماء الساخن. ثم خذ عشرين بيضة وقم بسلقها فى الماء الكستنائى اللون - أى الشوربة - ثم قم بتقشيرها، وخذ صفار البيض، مع بعض الجبن القديم ولحم أرجل الخنزير المطهو وقم بتقطيعها إلى شرائح، وقم بسحقها بالهاون مع كمية كبيرة من الزعفران والخل واخلطها باللحم، فإذا لحم الخنزير قد أصبح جافًا فيمكنك تليينه بصفار البيض لا تقم بفتح الخنزير من عند بطنه ولكن من عند كتفيه واجعل هذه الفتحة أقل ما يمكن، ثم ضعه على مسافة غير بعيدة عنك، بعد ذلك ضع هذا الخليط بداخله وقم بخياطة هذه الفتحة بإبرة كبيرة، ويمكنك أكله إما بعد وضع حساء الفلفل الأصفر عليه، أو المستردة فى الصيف.

الفطائر الحلوة مستثيرة الشكل :

أولاً : يتعين عليك أن تعد إنـــاءً كبيراً من النحـاس يتسع لربـع جـالون، وبحيث لا تكن حافته العلوية أوسع من قاعه، أو أوسع بقليل، ولتكن تلك الحافة العليا ترتفع عن قاع الإناء بمسافة لا تزيد كثيراً عن عرض أربعة أصابع، والأفضل ثلاثة ونصف.

ثانياً : يجب أن تقوم بوضـع مقدار من الملح والزبد وتقوم بإذابتـها، ثم قم بوضـع هذا الخليط في إناء آخر، واترك الملح وبعض السمن الطازج لبعض الوقت بحيث يكون نظيفاً والمقدارين متسـاويين. بعد ذلك أحضر البيض. . وانزع البياض من نصف هذا البيض وقم بتقليب الصفـار مع البياض المتبقي. بعد ذلك خذ بعض الدقيق الأبيض واخلطه مع البيض، بحيث تكون الكمية كافيـة لشخص أو شخصين، واعـجن الخليط جيداً بحيث لا تجعل العجينة خفيفة تماماً أو سميكة، ولكن بشكل يجعلها تنزلق من خلال فتحة صغيرة.

بعد ذلك قم بوضع السمن والملح على النار حتى يغليـان، ثم خذ العـجينة واملأ مغرفة أو ملعقة كبيـرة من الخشب المثقوب ومررهـا عدة مرات في السـمن، أولاً في منتصف الإنـاء وقـم بالتقليب حتى يمتلئ الإنـاء ؛ بعد ذلك استمر في تقليب العجينة بلا توقف، لكي تجعلها هشة جداً. وضعها في إناء السمن وقلبها حتى يتم الانتهاء من العجينة كلها مع ملاحظة المداومة على تقليب العجينة بلا توقف قبل طهيها.

ولعمل مثل هذه الأطباق الشهية، فإن من يقوم بالطهي في العصور الوسطى كان عليه أن يكون على قدر كبير من القناعة بسبب الصعوبات التي يواجهها. فاللبن الحليب كان قليل الاستعمال في إعداد الأطعمة ؛ وربما لاحظنا عدم استعماله في الفطائر الحلوة. ذلك لأن حليب البقر كـان نادراً في فـصل الشتـاء ؛ وكان هذا يعد مشكلة بالنسبة للأطفال الصغار. كما أن الدهن الحيواني المستخدم في الطهي كان محدوداً لكثرة الطلب عليه في صناعة الشموع، والصابون، والشحم، لدرجة أن رطل الدهن كان يبـاع بأربعة أمثال رطل اللحم. لهذا فإن معظم الأطعمة كان يتم سلقـها، ولا يتم تحميرها، وربما كان ذلك من الأشياء الصحية ولأنه لم تكن هناك ثلاجات، فقد كان على كل فرد أن يلاحظ بدقة الأسماك والبيض وما قد يعتريهما من فساد. **"من المعروف أن الصغار اليوم لم يروا مطلقاً البيض الفاسد"**. كذلك تركزت المخاطر في اللحوم

الجاهزة. وهناك واحد من المبشرين الفرنسيين من القرن الثالث عشر للميلاد يذكر أن أحد الزبائن قال يوماً للجزار الذى يشترى منه باستمرار: إنك يجب أن تخفض لى ثمن السجق لأنه عميل مستديم منذ سبع سنوات. فكان رد الجزار عليه : **"سبع سنوات ! وما زلت على قيد الحياة !"**.

وهناك الكثير من ذلك، ومع هذا فمن الواضح أن أفراد الطبقة البورجوازية فى العصور الوسطى عاشوا حياة سعيدة وهنيئة، باستثناء أوقات الحروب، وارتفاع الأسعار، وانتشار الأوبئة والحوادث. وإذا كان فى إمكاننا الانتقال إلى العصور الوسطى، فإن فى وسع الواحد منا أن يختار ألا يكون نبيلاً، لما كان يتكلفه من أعباء فى الزواج، وللمكانة التى تحتم عليه المشاركة فى كثير من المعارك الخاصة والعامة. كذلك ومن هذا المنطلق لن يختار أحدنا أن يكون فلاحاً، ولكن أفضل شىء يمكن أن يقوم به هو أن يكون أحد أبناء الطبقة البورجوازية، فهى أفضل ما فى ذلك العالم، والأفضل دائماً هو ما يحوز رضانا الكامل.

* * *

الفصل السابع

الطبقة العاملة

إن الكتاب المحدثين عادة ما يفرقون بين النظام الإقطاعى ونظام الضيعة، بطريقة غالبًا ما تكون غير واضحة تماماً، والسبب فى ذلك هو ما بينهما من تزامن واختلاف. وكما رأينا، فإن النظام الإقطاعى قائم على العلاقة بين حائزى الإقطاعات ونبلائهم. وما يحتمه ذلك من ضرورة وجود إقطاع فى حوزة أحد النبلاء، هو بدوره عبارة عن هبة أو منحة من نبيل أكبر. هذه الإقطاعية عادة ما تأخذ شكل الضيعة أو العزبة. بما فيها من قلعة أو دار كبيرة ؛ وقرية أو عدة قرى محاطة بأراضىَ زراعية. أما نظام الضيعة فيمكن تحديده فى الشكل الذى كان يتم به استغلال هذه الأراضى وفى السيطرة على سكان هذه الأراضى.

ومن الطبيعى أن يختلف شكل نظام الضيعة إلى حد كبير خلال فترة بلغت حوالى خمسمائة سنة، وعبر منطقة امتدت من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط وحتى داخل منطقة واحدة محدودة، كانت هناك اختلافات كبيرة، بسبب طبيعة الأرض، وعادات أهل الضيعة، وحقوقهم وواجباتهم المعترف بها ؛ بدرجة يصعب معها العثور على ضيعة واحدة، وفى وقت محدد، يمكن أن نطلق عليها أنها مطابقة تماماً لما هو معروف عن نظام الضيعة. وعلى أية حال، فإننا لدينا معلومات مهمة عن نظام الضيعة من شمالى فرنسا وانجلترا خلال القرون المبكرة من الألف سنة الأولى للميلاد. والصفحات التالية مستمدة من المعلومات التى وصلتنا عن نظام الضيعة فى تلك المناطق فى تلك المدة.

فالضيعة انقسمت إلى قسمين : أرض تم منحها للفلاحين وأصبحت فى حوزتهم ويقومون بزراعتها، على أن يقدموا للسيد أو اللورد بعض الحقوق، وأرض يمتلكها السيد ويستفيد من دخلها، ويقوم الفلاحون أنفسهم بزراعتها بالتناوب فيما بينهم. وفى الضياع الصغيرة ربما قام السيد بالإشراف على جميع العمليات الزراعية فيها بصفته الشخصية. أما فى الضياع الكبيرة فإن السيد كان ينيب عنه شخصاً عرف باسم Se-neschal أو الوكيل، وغالباً ما يكون أحد أفراد الطبقة النبيلة، تم تدريبه على الإشراف على حقوق وامتيازات السيد أو اللورد. ويذكر لنا العالم البريطانى هـ.س بنيت H.S. Bennett أنه على الوكيل أن يعرف حجم كل ضيعة واحتياجاتها، وكم عدد الأفدنة التى يجب حرثها ومقدار ما تحتاجه من بذور. كذلك يجب عليه أن يعرف كل مساعديه والموظفين الإداريين فى إقليمه، وطريقة تنفيذهم لتعليمات السيد. كما كان غالباً ما يستخدم أحد المساعدين كمشرف زراعى، هذا المشرف كان من أهم اختصاصاته الإشراف على أرض السيد أو اللورد، وملاحظة والإشراف على ما يتم من أعمال زراعية، إلى جانب الإشراف على الحسابات وتدوينها بطريقة الأعداد الرومانية فى سجلات خاصة يمكن عن طريقها معرفه حساب كل شىء.

هذه المعلومات كانت عادة مقسمة إلى قسمين، قسم يتم الاحتفاظ به فى السجل والآخر بمثابة الإيصالات التى يتم نزعها وتكون مطابقة تماماً لما فى السجل. هذا الوكيل هو فى الأصل أحد الفلاحين الأحرار اشتهر بالشدة والصرامة، وإليه تعزى كل صفات فلاح العصور الوسطى، وكان يتمتع بعدة امتيازات استطاع عن طريقها ابتزاز بعض الأموال من الفلاحين ، إلا أنه كان معرضاً لتفتيش الكاتب أو مفتشى الحسابات الذين يستخدمهم السيد ويرسلهم فى زيارات تفتيشية عدة مرات سنوياً بالإضافة إلى محاسبة الضمير إذا كان لديه ضمير.

وفى انجلترا فإن الكاتب كان لديه دائماً موظف إدارى يرافقه، هو فى الأصل أيضاً أحد الفلاحين. وأحياناً كان يتم تعيينه من قبل اللورد كرئيس للعمال، والذى كان يتم اختياره بواسطة العبيد كممثل لهم وللدفاع عن حقوقهم، وربما ترجع أصوله إلى الرئيس الأنجلو سكسونى، أو رئيس القرية التى يعمل بها فلاحون أحرار وهو يذكرنا

بشماس الكنيسة، أو "الكند سطبل" أى الموظف المسئول عن الأمن والذى كان يقوم بجمع الإيجارات وتحصيل الغرامات، واستدعاء من يتأخر عن دفع المستحقات عليه، حيث يتم سجنه فى المكان المخصص لذلك فى القرية. وعادة ما يقوم اللورد باختياره، أو يقوم الفلاحون بترشيحه للإشراف على عمليات بذر البذور والحصاد، وتربية الماشية والإشراف على بناء الحظائر الخاصة بها وكذلك الإشراف على المروج الخضراء المحيطة بالضيعة، وتحذير الفلاحين من إغارة الماشية على المحاصيل عن طريق النفير بصفارة الإنذار المصنوعة من أحد قرون الماشية. ذلك هو الفتى الأزرق الذى كان مسئولاً عن المراعى.

أما فى داخل القرية، والتى تبدو اليوم على شكل صفوف من المنازل، فقد كانت هناك كثير من التقاليد الموروثة التى انتشرت فى كل قرية، فعلى رأس مجتمع القرية كان هناك القس، والذى يرجع أنه كان من أصل نبيل، إلا أنه كان ينظر إليه على أنه فلاح من أبناء طبقته. كانت له أرضه الخاصة به، إلى جانب الأرض الخاصة بالكنيسة، كما كان مضطراً لأن يشارك فى الأعمال الجماعية فى قريته. حيث كان يعمل جنبا إلى جنب الآخرين، فى ثوبه الفضفاض الذى يرتديه لوقاية ملابسه من الاتساخ، وحذائه الردىء، ولكنه كان يلقى كل احترام.

وعن الفلاحين، وهم عامة أهل القرية أو الضيعة، فقد كانوا منقسمين إلى عدة مجموعات : الرجال الأحرار، وقد كانوا من الناحية القانونية يمتازون بعدة مميزات، ففى انجلترا كان بعضهم وهم الفرانكلين the franklins أى ملاك الأرض من غير النبلاء، وهم الذين امتلكوا جزءاً كبيراً من الأرض ولقوا كثيراً من التقدير والاحترام. هؤلاء الأحرار مع امتلاكهم لأراضيهم فإنهم استطاعوا أن يبيعوها أو يرهنوها بعد الحصول على موافقة اللورد. كذلك كان فى استطاعتهم ترك الضيعة، وعقد عقود الزواج حيث يطيب لهم، وكذلك إلحاق أبنائهم بالكنائس أو يرسلونهم إلى أى مكان ليصبحوا جنوداً. وهكذا شعر الرجل الحر بنوع من علو المكانة بالنسبة للعبد، ولكنه فى الواقع لم يكن أفضل منه اقتصادياً. فكل الفلاحين قد عاشوا فى نفس النوع من المسكن، ارتدوا نفس الملابس أكلوا نفس الطعام، عانوا كثيراً من ويلات الطقس والأرض.

كان العبيد مرتبطين بالضيعة، ولكنهم حصلوا على بعض الحقوق بالنسبة للأرض التي عملوا فيها، ففي انجلترا كان يطلق عليهم اسم الفلاحين، وكان لديهم منازل أكثرها من الأكواخ، واستطاعوا أن يكوّنوا أسرات. وكانت الأرض التي في حوزتهم يتم توزيعها عليهم بالڤيرجيت Virgate (*) أي حوالي ثلاثين فدانًا، ومن الناحية القانونية فإنهم لم يكونوا يملكون شيئا سوى بطونهم أو شهوتهم للطعام nihil praeter Ventrem ؛ وكل ما كان في حوزتهم هو ما يعيره لهم السيد، والذي كان من الناحية القانونية يستطيع أن يبيعهم مع الأرض التي في حوزتهم، يزوجهم لمن يشاء، أو يقوم بتفريق عائلاتهم حسبما يريد. وفي الواقع، فإن قليلاً من اللوردات في انجلترا على الأقل لم يخاطروا بإتيان مثل تلك الأعمال التي كانت في متناول أيديهم. لأنه كان مفهومًا أن أرض الفلاح كانت مرتبطة به وهو مرتبط بها كذلك. ولم يكن هناك من البطالة ما يخشى منه. وكان اهتمام اللورد الأكبر هو حماية عماله وأن يوفر لهم الأمان في عملهم. ومع هذا فقد كان في استطاعة العبد أن يشتري حريته أو بالزواج من امرأة حرة، أو بالتحاقه بالكنيسة، أو الهروب من موطنه والعيش لمدة سنة ويوم في إحدى المدن الرئيسية أو ضيعة الملك.

ولقد أمد كل من الرجال الأحرار والعبيد القريةً بما تحتاج إليه من المتخصصين في الأعمال المختلفة. فالحداد كان ضروريًا في الاقتصاد الزراعي، يشهد على ذلك نتاجه. حيث استطاع أن يمزج بين قوته البدنية وبراعته في عمله. فقام بعمل حدوة فرس، وصنع وأصلح آلات الحرث وغيرها من الأدوات الزراعية، وصنع النصال، والسكاكين، والمفصلات، والأغلاق، والمسامير، وأحيانًا بعض السيوف والأسلحة الأخرى. والطحان، الذي توارثت ذريته حرفته عبر كثير من الأجيال، من المحتمل أن تكون حرفته قد ازدهرت وعاش في بحبوحة من العيش كما تدل على ذلك كثير من الطواحين التي مازالت باقية، وكذلك من رواية تشوسر عن طحان ترمبنجتون، والذي يبدو فخورًا مثل الطاووس، ويحمل سيفًا فخمًا.

(*) مقياس إنجليزي قديم للمساحة. "المترجم".

ومع هذا فإن الطحانين وكما يبدو ذلك أيضًا من طحان ترمبنجتون حيث كان ينظر إلى الواحد منهم نظرة فيها نوع من الازدراء، لاتهامه بارتكاب كل الآثام، ولتطفيفه فى الميزان، ولحصوله على مقادير كبيرة لا يستحقها من القمح لقاء عمله وكأجر له. لدرجة أن أحد الفلاحين تساءل قائلاً: ما الشىء الأشد وقاحة فى الدنيا؟ موجهًا سؤاله هذا على شكل لغز. وكان الرد هو قميص الطحان ؛ لأنه يغطى لصًا من عنقه إلى أسفل رجليه. كذلك كانت القرية فى حاجة إلى خدمات كل من النجار، وصانع الأحذية، والحلاق، وصاحب الحانة ولو لجزء من اليوم وليس اليوم كله ؛ كذلك كان من النادر وجود أصحاب الدكاكين.

وهؤلاء الذين كانت لهم تجارتهم اكتسبوا ألقابًا، مثل صانع الأحذية، الصائغ، وهكذا. وفى القرن الثانى عشر غدت هذه الألقاب أسماء لبعض العائلات بشكل مألوف، وتم توارثها. فيما عدا اسكندنافيا وغربى أوربا، فإنه كان يتم إطلاق اسم الأب أو الأسرة مسبوقًا ببادئة أو متبوعًا بلاحقة تدل على النسب، وكذلك الأسماء المركبة مثل ويلسون Wilson، وچونسون Johnson، وسامسون Samson. كما أن الكثير من الألقاب كانت تحدد اسم موطن من يحملها، أو طبيعته الجسمانية، وسلوكه أو تصرفه.

فأهل الأكواخ أى الذين عاشوا فى أكواخ أو زرائب مكشوفة كشكل من المبانى مميز عن المنزل، قد كانوا من الناحية الاقتصادية أدنى منزلة من الرجال الأحرار والعبيد. على الرغم من أنه كان فى حوزتهم بعض قطع صغيرة من الأرض الزراعية، كما كانوا يعيشون على الأجور التى يحصلون عليها نظير ما يقومون به من أعمال غير منتظمة. وإلى جانب قيامهم بتربية الأبقار والخنازير، فإنهم كانوا يقدمون مساعداتهم فى المواسم الزراعية وخصوصًا فى موسم الحصاد، وفى حفر قنوات الرى، وفى حراسة السجناء، وتوصيل الرسائل من مكان لآخر. لأنهم قاموا بكثير من الأعمال الحقيرة، فإنهم كانوا هم الطبقة العاملة فى مجتمع الضيعة.

وأخيرًا تأتى جماعة العبيد الذين لم يكن لهم أية حقوق بالمرة، ولكن فى القرن الثالث عشر أخذ نظام الرق أو العبودية فى الاختفاء تمامًا من الغرب الأوربى.

وطالما تُرك الفلاحون يعيشون بلا تدخل من قِبَل أحدٍ فى حياتهم، فقد كان فى مقدورهم أن يحيوا حياة طيبة وأن يزدهروا. إلا أن هذا كان مستحيلاً بسبب الحروب. فالقس شوجر من سانت دينيس Abbot Suger of St. Denis يروى قصة طريفة، وهى أن نبيلاً مغروراً من ريمس Reims انتهك حرمة ضيعة ملكية. فقام الملك لويس السادس بمعاقبته بشدة، فغزا أراضيه، وسلب ما فيها وأشعل النيران فيما تبقّى، وحرم البلاد من سكانها، **"لقد كان عملاً رائعًا حقًا، أن هؤلاء الذين نهبوا وخربوا يجب أن يُنْهَبوا وتخرَّب أرضهم. لقد أخذ رجال الملك بثأرهم عن طريق ما قاموا به من تدمير للأرض الزراعية وارتكاب المذابح البشرية"** وهكذا تم عقاب الجناة بقتل وتدمير من لا ذنب لهم من الناس الذين لم يعرهم هذا الأسقف أدنى اهتمام.

كان هدف الضيعة الأسمى هو الاكتفاء الذاتى مثلما كان الحال فى المزارع والمستوطنات فى أمريكا منذ وقت مبكر. هذا الهدف لم يتم تحقيقه دائمًا ؛ فكان معنى هذا هو الفشل فى تحقيق الأهداف. على الرغم من أن الضياع كانت قادرة على توفير الطعام والكساء والمسكن لسكانها ؛ إلا أنه كان عليها أن تستورد الملح لحفظ اللحوم، والحديد لمواجهة احتياجات الحدادين، والقار لعلاج جرب الماشية. كما كان على سكانها أن يدفعوا ثمن هذه الواردات من فائض إنتاج مزارعهم. وكانت الصعوبة الكبرى هى العثور على سوق يسهل الوصول إليها، ذلك لأن تكاليف عمليات النقل كانت تبتلع وبسرعة كل ما يتم جَنيه من أرباح.

واختلفت طبيعة الضيعة باختلاف التربة الزراعية والمناخ، وبوجه عام فقد عاش سكانها فى قرى غير محمية إلى حد ما، ومن الناحية الاجتماعية كانوا فى شبه عزلة فرضها عليهم نظامهم فى الزواج. ولهذا فقد كانت القرية تمثل نوعًا من التعاون فى استغلال الأرض، وكان فى مقدورها اتخاذ قرارات جماعية فيما يتعلق باختيار أنواع المحاصيل وأوقات الزراعة والحصاد. كما كان كل فلاح يحصل على نصيبه فى الأرض المخصصة للبساتين والمراعى، وله حقوق أيضًا فى الأرض المشاع والأراضى البور. وكذلك كان عليه أن يساهم بنصيب فى العمل المخصص له ولأسرته وفى تقديم حيوانات الحمل أو الجر. وبالنسبة لشرائح الأرض التى فى حوزته فقد كانت عادة

صغيرة ومتناثرة، ويتم توزيع معظم إنتاجها على عدد كبير من المقطعين وورثتهم. ويتم تحديدها والتمييز بينها بواسطة كتل حجرية أو علامات أرضية أخرى وليس عن طريق الأسوار والحواجز التي يمكن أن تعوق الزراعة. وفيما يتعلق بالعمل الزراعي فقد كان يؤدى بشكل جماعي. وهذا هو نظام الحقل المفتوح. وهو نظام كان ملائمًا وكافيًا، بحيث يتم فيه توزيع الأرض الجيدة والرديئة بشكل عادل، كما أنه قد وفر تكلفة إقامة الأسوار الحاجزة، فضلاً عن أنه عمل على نشر الروح الجماعية جنبًا إلى جنب تجنب كثير من المنازعات. كما أنه منح الفلاح الذي يزرع مساحة صغيرة كثيراً من المزايا التي تتيحها العمليات الزراعية واسعة النطاق، إلى جانب أنه حد من عمليات الكسل أثناء الزراعة وعدم الإتقان نظرًا لأن كل الفلاحين كانوا يعملون تحت سمع وبصر جيرانهم.

أما الخطر الدائم بالنسبة للفلاح فقد كان إجهاد التربة الزراعية. فقد أدرك الفلاح أن كثرة زراعة الأرض سوف تؤدى إلى ضعفها، تمامًا مثلما يحدث للبشر فالأرض تحتاج إلى الراحة مثلما يحتاج الناس إلى النوم والغذاء. وفي انجلترا فقد كان في إمكان الفلاح أن ينتج – في أفضل الظروف – حوالي عشر بوشلات(*) قمحًا من كل فدان تتم زراعته بحوالي بوشلين من الحبوب (معدل إنتاج القمح الحالي في انجلترا أكثر من ٣٠ بوشلاً للفدان). ولم يعرف الفلاح في العصور الوسطى الباكرة أن سبب إجهاد الأرض هو نقص أو استنفاذ النتروجين بواسطة الحبوب التي يزرعها، كما أنه لم يكن يدرك أن بإمكانه توفير المواد النتروجينية عن طريق زراعة البرسيم والبقول. ولم تكن لديه الأسمدة الكيماوية، كما أن حيواناته الهزيلة بسبب سوء التغذية لم تنتج له سوى القليل من الأسمدة الطبيعي. ومع هذا، فقد أدرك أن الراحة، وتغيير المحاصيل سوف يساعدان على استمرار خصوبة الأرض. ولهذا توصل إلى نظام الدورة الثلاثية في زراعة الأرض، وهو نظام يعتمد على تقسيم الأرض الزراعية إلى ثلاثة أقسام، يزرع كل قسم منها مرة واحدة في السنة.

(*) البوشل : مكيال للحبوب كان يستخدم في العصور الوسطى يساوى ٨ جالونات، أو نحو ٣٣ لترا" "المترجم".

وبالإضافة إلى أراضى البساتين، فإن القرية العادية امتلكت بعض أراضى المراعى المشاع لرعى ماشيتها، هذه الأراضى هى أصل الظهير الذى تتمتع به بعض المدن الحالية، وربما كان للقرية الحق فى استغلال بعض الأراضى البور المحيطة بها، والأراضى القاحلة والصخرية والرملية. ومثل تلك المساحات أمدتها بكثير من الحطب اللازم كوقود، وفى عمليات البناء وصناعة بعض المعدات، وكذلك الطمى والصخور التى استخدمت فى بناء المنازل، إلى جانب نبات السرخس ونبات الخلنج اللذان استخدما فى عمل حواجز بين المزروعات، والقش الذى استخدم فى تسقيف المنازل، بالإضافة إلى الفواكه البرية والتوت كغذاء للسكان، وثمار شجر البلوط وشجر الزان والتى استخدمت كغذاء للخنازير. هذه الحيوانات كانت نحيفة جداً وبرية فى نفس الوقت وإن كان قد تم استئناس بعضها وتربيتها لمواجهة النقص الناجم عن موتها فى فصل الخريف، وكانت لحومها تشكل أهم أنواع اللحوم التى يتناولها فلاح العصور الوسطى، حيث يتم تمليحها، وتتم الاستفادة من جلودها فى صنع الأحذية، والأحزمة، وبعض الدروع، والعباءات.

وغالبًا ما كانت القرية تقع ملاصقة للغابة الخاصة بالسيد، والتى كان يستخدمها فى عمليات صيده. وكان على الفلاح أن يدفع ضريبة عند استخدامه لتلك الغابة فى الحصول على بعض الحطب سواء قام بجمعه علنًا أو خلسة، وكذلك على الحطب الذى يحصل عليه من حافة إحدى البرك. كما كان للفلاح قطعة أرض مخصصة للخضروات التى يستخدمها فى طعامه، وحقل صغير ملاصق لمنزله. فعلى سبيل المثال اشتمل الحقل الخاص بفلاح يدعى بيرز بلومان Piers Plowman على البقول، والبازلاء، والكراث، والبقدونس، والكراث الأندلسى، والبصل الصغير، والأعشاب التى كانت تستخدم فى تتبيل الطعام، والكرز.

وبالنسبة لنظام الزراعة، وإن كان وقتئذ لم يتم تطويره، فقد كان ملائمًا، فالفلاح كان يخشى دائمًا من كل جديد ومن إجراء التجارب، بل إنه كان يفضل باستمرار أداء عمله بالطريقة التقليدية المعروفة له منذ القدم. "إذ يبدو أن الألفة بينه وبين التربة الزراعية أدت إلى عدم التجديد، ربما لأن التربة نفسها كانت قد اعتادت تلك الطريقة

القديمة. فضلاً عن أن الفلاح نفسه كان مقتنعًا بضرورة عدم التخلى عما هو قديم، إذ لم يكن لديه المعرفة الكافية التى تجعله يخاطر بإجراء التجارب. فقد كان يؤدى عمله، على نفس الوتيرة باستمرار، وفى كل فصول السنة، لكن يبدو أنه كان يأخذ فرصته فى الإنتاج. فلم يكن هناك ما يجبره على الإنتاج المتزايد لعدم وجود السوق الكافى لاستيعاب أية زيادة إنتاجية. كما أن النظام القديم للضيعة كفل له بعض الحماية فى مواجهة الاستغلال ؛ فطوال فصل الشتاء الطويل المظلم، اعتاد الفلاح أن يمضى معظم وقته فى سبات، حيث يرقد بلا عمل تمامًا مثل حقوله. وحتى لو كان الغذاء نادراً، فإنه يبقى فى سبات عميق، وكما كان يفعل الفلاح الروسى بالأمس القريب، قانعًا باستمرار بنصيبه، لأنه لم يكن يعرف ما هو أفضل.

كان كل الفلاحين يتبعون نظامًا زراعيًا واحداً فى السنة، ففى فصل الربيع تتم عمليات الحرث والغرس أو بذر البذرة وتسوية التربة، وفى فصل الصيف تتم إزالة الأعشاب الضارة بالزرع، والتسميد، وجز صوف الأغنام، ورعاية حدائق السيد، وقطع وتخزين القش أو التبن ؛ وفى الخريف يتم حصد أو جنى القمح، وتتم تذريته وتخزينه، وفى فصل الصيف تتم عمليات إصلاح المنازل، وآلات الزراعة، وغيرها من الأعمال الأخرى. وعادة ما يقوم وكيل الضيعة باستدعاء الفلاحين للقيام ببعض الأعمال فى أرض السيد فى الوقت الذى تحتاج أراضيهم لجهودهم سواء فى بذر البذور أو جمع المحصول، وهذه الخدمة كانت تتطلب عادة عمل ثلاثة أيام فى أرض السيد. وقد قام الأحرار منهم، وكذلك صغار الملاك بدفع بدل نقدى، وعلى الرغم من أن البعض منهم كان يضطر لأن يؤدى بعض الخدمات الموسمية، إلا أنه كانت هناك بعض الإعفاءات التى خففت من حدة تلك القيود الخاصة بالعمل فى أرض السيد.

وربما أدت طبيعة نظام الضيعة إلى جعل فترة العمل اليومى قصيرة، أو أن يرسل العبد أحد أبنائه القادرين كبديل له. وفى فترات الذروة ربما طالب السيد الفلاحين بأداء بعض أعمال السخرة، مع بعض الواجبات الإضافية ؛ ولكنه عادة ما يعوضهم عن ذلك بتقديم عشاء فاخر من اللحوم أو الأسماك، مع الكثير من الشراب. وعندما ينتهى اليوم، فربما كان يحق للفلاح أن يحمل معه إلى منزله مقداراً كبيراً من التبن الذى كان

يجمعه بمنجله اليدوى. كذلك أدرك كل وكيل محنك أنه هو الخاسر دائمًا إذا أجبر رجاله على العمل الشاق، لذا فقد كان عليه أن يتركهم يعملون براحتهم.

وكان كل فلاح يدفع لسيده إيجاراً عن منزله أو كوخه، هذا الإيجار كان يتم تقديره بشكل بسيط، إلا أنه كان يتم دفعه نقداً أو عيناً، على شكل بعض الدجاج أو الخنازير. كما كان عليه أن يقدم لسيده سنوياً قدراً من البيض ؛ بحيث كان على الفلاحين تمويل احتياجات منزل السيد بالبيض اللازم، وكان الشيء المغيظ بالنسبة للفلاح هو خدمات العمل الإضافية أو أعمال السخرة. حيث كان يتم استدعاؤه لإصلاح الطرق والجسور، وأن يحمل الحجارة والمشاركة فى بناء قلعة السيد، وفى وقت الحرب فقد كان مطلوبا منه إمداد الجنود بما يحتاجون إليه، كما كان عليه أن يقدم للسيد الكثير من الالتزامات الإقطاعية، مثل دفع بعض النقوط عند الاحتفال ببلوغ أحد أبناء السيد سن الرشد، أو عند زواجه، إلى جانب أنه كان مضطراً لدفع ضريبة السماح له بتزويج إحدى بناته لشخص من خارج الضيعة، كما كان عليه أن يدفع ضريبة فى حالة إرثه شيئًا وكذلك فى حالة وفاته وانتقال ممتلكاته لورثته. ويشبّه رجل الدين المثقف جاك الفيترى السادة الذين كانوا يفرضون مثل تلك الضرائب على الورثة عند حدوث حالة وفاة بأنهم مثل الديدان التى تنهش جثث الموتى.

لقد وجد الفلاح نفسه باستمرار مثقلاً بكثير من الأعباء التى فرضتها حقوق الأسياد القديمة. فلقد كان عليه وكما رأينا أن يستخدم معصرة النبيذ الموجودة فى الضيعة وكذلك معصرة الزيت، والفرن، وطاحون القمح. حيث فرضت عقوبات شديدة على كل من يمتلك مجرشة أو مطحنة يدوية. كما كان على الفلاح أن يقدم لسيده دجاجة مقابل أن يربى بعض الدجاج. ولم يكن فى استطاعته أن يصيد الأسماك من البركة الموجودة فى الضيعة، أو أن يقتنص الغزلان التى تلتهم مزروعاته، فالصيد بالنسبة للفلاح كان يعتبر من أشنع الجرائم التى يمكن أن يرتكبها.

ومن الحقوق التى استمتع بها السيد إشرافه على تحقيق العدالة، فالغرامات التى كان يفرضها تدخل جيبه الخاص مباشرة. ومن المحتمل أنه كان يقبل الهدايا من

الجماعات المتنازعة. وكانت محكمة الضيعة تعقد - إذا سمحت الظروف المناخية - فى الهواء الطلق، ربما تحت إحدى الأشجار التى اعتبرت مبجلة من الجميع، وكان السيد أو وكيله يترأس هذه المحكمة، وعلى الفلاحين جميعا حضورها إلا إذا كان هناك عذر يسمح لأحدهم بالتخلف عن الحضور. وكان هناك موظف مسئول عن تقديم ملخص للدعوى، كما يقوم بتسجيل العقوبات، ولكن فى القضايا المهمة كان لابد من تواجد أحد المحلفين أو بعضهم، لكى ينفذ العرف المتفق عليه فى الضيعة، ولتقرير ما إذا كان أى شخص مذنبًا أم بريئًا.

ذلك لأن إثبات بعض الانتهاكات التى ترتكب فى حق أهل الضيعة كان يتطلب قدرًا من الكفاءة، وغالبًا ما كانت العقوبات والغرامات صارمة وشديدة. من ذلك أن أسقف كرولاند Crowland قد أمر بشنق أحد الأشخاص لأنه سرق ست عشرة بيضة **"ولذلك فإن هذا الأسقف تم توقيع قرار الحرمان ضده ؛ ليس بسبب قسوته فى مواجهة تلك الجريمة، لكن بسبب أنه قام بمطاردة السارق والقبض عليه دون أن يكون لديه الحق القانونى فى ذلك"**. كذلك فإن ج.ج. كولتون G.G. Coulton يذكر لنا بعض الأمثلة من ألمانيا عن العقوبات الصارمة التى كان أقلها العقوبة التى تم إنزالها بشخص اتهم بقيامه بنزع إحدى العلامات التى توضع لتحديد الأرض.

"بأنه حكم عليه بأن يدفن جسده فى التراب، وتبقى رأسه خارج التراب فى نفس المكان الذى كانت فيه تلك العلامة ؛ وأن يقوم الرجال بحرث تلك المنطقة ".

ولم يكن أحد قد قام بالحرث بعد، وأن يتم استخدام الثيران فى جر المحراث، والتى لم تكن قد استخدمت فى حرث تلك المنطقة من قبل، وأن تشد تلك الثيران فى المحراث لكى تقوم بعملية الحرث، و" **على الرجل المدفون أن يخلص نفسه من هذا الخطر إذا أمكن ذلك"**.

على أية حال، فإن السلطات واجهت الكثير من المشكلات فى تنفيذ أحكامها القضائية. فالكثير من المتهمين كان فى استطاعتهم الهروب والبحث عن ملجأ ومأوى لهم داخل أحد الأديرة أو إحدى الكنائس، أو أن يخضعوا للمحاكمة على أمل أن تنقذهم العناية الإلهية أو الحظ السعيد، أو أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة الحكام، كأن

يطلبون عفو الملك، أو رحمته بتخفيف العقاب عنهم. ففى الريف الإنجليزى التابع لمدينة لنكولن Lincoln عام ١٢٠٢، وكما يذكر المؤرخ توم كييف Q.G. Tom keleff فمن بين : "حوالى ٤٣٠ قضية من قضايا الجرائم، منها ١١٤ قضية سرقة منازل، ٨٩ منها سرقة بالإكراه مع استخدام العنف، ٦٥ قضية إحداث جروح، و ٤٩ قضية سلب أو اغتصاب، فإن اثنين من المجرمين فقط تم شنقهما، وكذلك ما بين ٢٠ : ٣٠ من الخارجين على القانون. بينما معظم المتهمين الآخرين طلبوا عفو المسئولين ودفعوا غرامات كبيرة، بينما أفلح بعضهم فى الاحتماء بإحدى الكنائس، إلى أن يتم تطهيره ويصبح من غير الخارجين على القانون".

وفى الحقيقة، فإن هذه الإحصائية عن الجرائم فى مدينة صغيرة مثل لنكولن لايمكن مقارنتها بما يمكن أن تقدمه بعض الإحصائيات فى عصرنا عن الخارجين على القانون. ويقدم لنا المؤرخ فردريك هير Friedrich Heer مظهراً غريباً لنظرية العدالة فى العصور الوسطى بقوله : كل شىء كان له نظام خاص به، وله وضعه القانونى، ومطلوب الدفاع عنه، وهناك مساءلة لكل تصرف يتم تجاهه. وهكذا فإن السيف الذى يمكن أن يهوى من على أحد الجدران، من الممكن السؤال عن السبب فى ذلك أمام المحكمة، وكذلك الحال بالنسبة للدواب التى يمكن أن تنزل إلى الحقول وتلتهم ما بها "وكما حدث فى إحدى المحاكمات فى مدينة بازل Basel مؤخراً فى عام ١٤٧٨م"، وكذلك الحال بالنسبة للفئران "فقد كانت هناك محاكمة بخصوص الفئران فى مدينة أوتون Autun حوالى منتصف القرن السادس عشر للميلاد وكذلك بالنسبة للضفادع، والسحرة والعرافين وجيران السوء".

مظهر آخر غريب عن العدالة فى العصور الوسطى، يتمثل فى عملية تحديد التواريخ واتخاذ القرارات بناء على شهادة الشهود، وعلى الذاكرة، حيث إن التدوين فى السجلات كان نادراً أو غير كاف. فالأطفال الذين يستخدمون كشهود كانوا محل توقير، ونادراً ما كان يتم انتقادهم بقسوة أو تعزيرهم حتى يبلغوا سن الرشد. فمدونات كولون الخاصة تشير إلى أن "السيد روجر دى مونتجومرى قد قذف ابناً له فى الماء ويدعى روبرت البلليمى Robert of Bellem، مرتدياً عباءة من الفرو عليها تعويذة كدليل وذكرى على مدى ما وصلت إليه سلطات الأسقف وجماعة رجال الدين.

وفى سبيل تحقيق القرية الاكتفاء الذاتى والارتباط الشديد بين الفلاح والأرض، فقد تحتم على القرية أن تكون وحدة اجتماعية مقيدة، وأن يكون أهلها جماعة مغلقة على نفسها، وكان من المتوقع أن يحرث الولد أرض أبيه، وأن يتناول عشاءه فى المنزل الذى شهد مولده. كما كان من المتوقع أن تتزوج البنت داخل نطاق الضيعة. أما الإخوة والأخوات غير الضروريين، فقد كان من المحتمل أن يبقوا دون زواج داخل منزل الأسرة، على الرغم من أن الذكور على الأقل كانوا مضطرين للهجرة إلى المدن.

وهكذا كانت هناك نزعة قوية للاستقرار محلياً، على الرغم من وجود بعض العداوة تجاه القرى التى ليست من نفس نطاق الضيعة، لذا تميزت القرية بعاداتها المحلية وشعائرها، ولهجتها الخاصة بها، وطعامها. كما لم يزر القرية سوى القليل من الزوار وخاصة أصحاب العربات التى تجرها الدواب، وبعض الجنود والحجاج. ولم يكن العالم الواقع بعيداً عن محيط تحركات أهل الضيعة سوى عالماً غامضاً ومرعباً تماماً مثل ذلك العالم الذى صورته عبارات القس أو راعى الأبرشية فى أحاديثه التى كان يثرثر بها.

وبالنسبة للنبلاء وسكان المدن، فإن عملية الزواج كان يتم الترتيب لها من قبل الوالدين، وكانت تعتمد أكثر ما تعتمد على مدى ما فى حيازة الفرد من أرض وليس على أصول الأشخاص، وإن كان هذا لم يمنع الفتيات من أن يظهرن وهن يمعن النظر فى الاحتفالات الخاصة برأس السنة لإلقاء نظرة خاطفة على أزواج المستقبل. وكثيراً ما يتجادل والدا العروس والعريس حول مكان إقامة العروس ومهرها، كما كان الزواج يتم مبكراً فى ألمانيا وفرنسا، إلا أنه فى إنجلترا كان متأخراً بعض الشىء، لأن والد العريس لم يكن يسلم ما بيده من الأرض لابنه إلا فى حالة تقاعده عن العمل.

وجرت العادة بأن يتم الاحتفال الخاص بالزواج عند بوابة الكنيسة، حيث يقوم العريس بذكر الهبة التى يقدمها ويضع مقداراً من الذهب أو الفضة مع الخاتم الرمزى، فوق كتاب، مع عدة بنسات للفقراء. إن احتفالات أفراحنا ما هى إلا امتداد حى لما كان يحدث قديماً، من القسم الذى يقسمه العريس مع الخاتم الذى يقوم بتقديمه أبوه، مع الوعد الذى يعلنه على الملأ بأنه سيفعل كل ما فى وسعه لإسعاد الزوجة، ثم يشرب بعضاً من المرز، وعادة ما يعقب الاحتفال الذى يعقد فى الكنيسة احتفال

صاخب فى القرية، تعقبة وليمة، هى كعكة الزواج، ومهرجان ريفى، وهو ما أصبح الآن تناول الشمبانيا. ثم يتوجه العروسان إلى منزل والد العريس، حيث يكون القس قد بارك فراش الزوجية وبصحبتهما بعض المضحكين الذين يؤدون بعض الأعمال الكوميدية.

فى بعض الأحيان يقوم الأزواج والزوجات بتزيين فراش الزوجية، والكثيرون يدركون أهمية الأبوة والتخطيط لها، فالأسقف ألبارو بيلاجيوس Alvarus Pelagius ذكر مبكراً منذ القرن الرابع عشر للميلاد "أنهم (أى الفلاحين) غالبًا ما يمسكون عن معاشرة زوجاتهم خشية كثرة الإنجاب لعدم قدرتهم على تحمل نفقات الذرية الكبيرة، لأنهم يعيشون تحت وطأة الفقر، وبذلك يرتكبون كثيراً من الآثام ويعيشون على النقيض من قانون الزواج"، "إن أحسنهم أحوالًا كانوا يضربون لهم المثال على ذلك، نذكر منهم كليمانتيا كونتيسة الفلاندرز Countess Clementia of Flanders التى أنجبت ثلاثة أولاد فى ثلاث سنوات. ولأنها خشيت من مشاكل وراثة العرش، فقد لجأت إلى كثير من الحيل الأنثوية لكى تتجنب أية عملية حمل أخرى، لكن الله عاقبها على ذلك بموت أولادها الثلاثة".

إن أفضل منازل الفلاحين هو ذلك النوع الذى نراه ماثلاً للعيان، والكثير من هذه المنازل ظل على حاله لأكثر من خمسمائة عام. وهو فى ملامحه العامة قد اعتمد على المواد الخام المحلية. ففى الشمال كان من الشائع بناؤه من أخشاب الأشجار، وله حوائط مبنية من القصب المضفر مع الأغصان مكسوة بالطين، وطبقة الطين هذه يتم تدعيمها بكثير من أعواد الخشب. أما السقف فكان عادة من القش، يتم بناؤه بشكل متحرر قليل الارتفاع حتى يساعد على تحدر مياه الأمطار. والقش كان بمثابة المادة العازلة الممتازة، ولكنه سريع الاشتعال؛ كما أنه يعتبر ملاذا لكثير من الحشرات، ويحتاج باستمرار لكثير من عمليات الإحلال والتجديد، وفى الجنوب فإن الآجر قد حل محل القش. أما الأرضية فكانت من الطين المضغوط والمخلوط بالتبن فضلاً عن أنه كان سيئ المظهر بسبب تأثير تسرب المياه وتجمدها وكذلك دوس الأحذية المحملة بالطين، وبالقطع فإنها كانت من أهم أسباب انتشار الروماتيزم. ومنذ زمن مبكر فقد كان يتم وضع مدفأة فى منتصف الحجرة الرئيسية، أما الدخان المتصاعد فكان يخرج

من الأبواب أو الشبابيك أو الفتحات الموجودة فى السقف، وبمرور الوقت أصبحت المدفأة والمداخن من الأشياء المألوفة. **كان كوخها قاتمًا بلون السخام، كما شمل السخام أيضًا صالة هذا الكوخ** " هكذا قال تشوسر عن إحدى الأرامل الفقيرات فى قصص كانتربورى. فقد كانت لديها على الأقل حجرتان، وحجرة نوم، وصالة.

أما فى ألمانيا فإن الفرن المبنى من الطين قد كان شائعًا منذ بدايات القرن الحادى عشر للميلاد، بحيث أصبح من أهم الأشياء فى كل بيت، وكان الناس يحكون كثيرًا من أسراره على أمل أن يتجنبوا سوء الحظ، وكما فى القصة الفولكلورية «الفتاة السانجة». وبعض المنازل كان بها غرف إضافية، يتم تخصيصها لكبار السن من الوالدين. والكثيرون كانوا يبنون حظائر لحيواناتهم التى وفرت لها الدفء، والكثير من الحشرات المألوفة. ومازال هناك الكثير من هذه المنازل فى أوربا الآن.

أما المعدمون، ممن لا يجدون ما يكفيهم من قوت يومهم، فقد كانوا يعيشون فى أكواخ بالية. وهناك حالة فريدة تدل على مدى فرض الأمر الواقع، إذ قام أحد المعتدين بإطلاق رمحه بحيث اخترق جدار أحد الأكواخ لكى يجرح سكان الكوخ. هذه الأكواخ كان من السهل فكها وإزالتها بلا أى عناء. كما كانت من أهم سمات العصور الوسطى، كذلك كان سكانها المعدمون محرومين من كل شىء حتى من الأرض الزراعية.

وكانت أشعة الشمس تتخلل المنزل عن طريق النوافذ، وعن طريق بعض الفتحات الصغيرة التى يتم عملها فى الجدران، ويتم إغلاقها بضلف خشبية. أما الإضاءة فكان يتم الحصول عليها عن طريق إشعال المدفأة، أو فتيلة يتم نقعها فى مادة راتنجية، ذلك لأن رطل الشمع المصنوع من الشحم الحيوانى كان يعادل أجرة عمل يوم كامل، فضلاً عن ندرته للاستخدامات العادية.

أما الأثاث اللازم فقد كان عبارة عن الأسِّرة الخشبية، التى ما زالت رمزًا للحياة العائلية. فالسرير ربما يكون كبيرًا وقويًا بحيث يتسع لستة أشخاص، وإن كان الفقراء جدًا لم يستخدموا سوى حشايا من القش يتم وضعها فوق الأرض. أما المجلس الخشبى فكان له بعض المساند، وتوضع حوله بعض الكراسى بلا ظهر أو ذراعين. وامتلك معظم الفلاحين صناديق خشبية وضعوا فيها بعض المقتنيات من ملابس وأشياء

اعتبروها ثمينة. أما الأحسن حالاً من الفلاحين فقد امتلكوا دواليب خشبية كبيرة وبعض الكراسي العادية، وكان لربة المنزل بعض الأدوات المنزلية، من الأواني المعدنية التي استخدمتها في الطهي، مثل الوعاء الكبير ذي العروة التي يعلق منها، والمقلاة، والإبريق، والمغارف، والقدور، والسلال، والمقشة، وربما قربة لخض اللبن وصناعة الجبن، وماجور للعجين.

أما الزوج فقد كانت له أدواته من معزقة، ومسحاة، وفأس، ومنجل، ومقصات كبيرة، وسكاكين، ومجزة للصوف، ومَسَن لشحذ الآلات القاطعة. ومع اختلاف بسيط، فإن مقتنياته كانت مقتنيات الفلاح الأمريكي الذي كان يعيش على الحدود منذ وقت ليس ببعيد، وكان الشتاء هو الوقت المناسب بالنسبة له لصناعة وتخزين المعدات اللازمة، فالرجال كان يضنيهم الهم والقلق، ويقومون بصناعة قواديس السواقي، والصحون، والأكواب والقباقيب من الخشب، ويقومون بعمل السلال بينما قامت النساء بالغزل والنسج، وترقيع الملابس، أحياناً بالخيط المصنوع من خيوط مثل خيوط الشباك.

كانت ملابس الفلاحين تصنع منزليًا من مواد محلية. وكان رداء الفلاح الرئيسي يتمثل في ثوبه الخارجي الفضفاض المطرز على شكل قرص الشهد، وهو عبارة عن عباءة من قماش الكتان المخلوط أو الصوف، أو فيما بعد من الكتان الجيد. وكان يرتدي بنطالاً قصيراً وقبعة فوق رأسه، وفي الشتاء، عباءة غالباً من جلد الأغنام. ويبدو أنه قد جرت العادة بأن الملابس كانت آخذة دائمًا في الإنكماش والتراجع بشكل جوهري ؛ فقد كان قميص الرجل النبيل تتدلى أكمامه وأخذ يقل حجمه بحيث أصبح كقميص داخلي، أما الثوب الخارجي الفضفاض فقد كان آخذاً في القصر. بحيث أصبح هو القميص الحديث ؛ أما الصديري أو الثوب الفرنسي فقد أخذ يتضاءل بحيث أصبح الصدرية الصغيرة، والعباءة الواسعة تطورت بحيث أصبحت المعطف الخفيف. وفي بعض الأقاليم فإن الفلاح كان يرتدي القباقيب المصنوعة من الخشب، والتي كان يخلعها عند دخوله البيت، وكما هو الحال الآن. ولكن معظم الصور تظهره وهو يرتدي الحذاء طويل الرقبة المصنوع من الجلد السميك، واللباد أو القماش. وكان يحمل سكينًا أو خنجراً، كأداة نافعة جنباً إلى جنب أنها تعتبر مظهراً من مظاهر الإنسان المعتد بنفسه.

وكانت وجبة الفلاح محدودة وتقليدية، وباستثناء أوقات المجاعة، فإنها كانت كافية ومغذية. وفى انجلترا فقد كان يتناول كثيراً من الخبز المصنوع من القمح ونبات الجاورد أو الشعير، وأحياناً يتم خلطه بالفول أو البقول الأخرى. ولم يكن هناك نقص فى الجبن أو خثارة اللبن، أو الشوفان، أو العصيدة، أو الرنجة. أما اللحم وإن كان من الأطباق القليلة إلا أنه كان نادراً. فعندما يحين وقت ذبح الخنازير فإن كل إنسان يستطيع أن يتناول لحم الخنزير فى إحدى الولائم. أما أكل لحوم الخيول، وإن كان يحدث مصادفة، فإنه كان محرماً بواسطة الكنيسة طالما أن الفرس لم تتشقق حوافره أو يجتر الطعام. وكان الرجل الإنجليزى وأطفاله يشربون شراب الجعة أو المزر والذى كان يسكر فقط من يداوم على شرابه. كما كان يصنع عصير التفاح أو غيره من العصائر ويحليها بالعسل، ويصنع شراب الميد Mead وهو شراب مخمر يعد من عسل وشعير وخميرة، ويتم وضع بعض التوابل عليه ليستخدم كدواء لمعالجة بعض الأمراض.

أما فى فرنسا فإن الفلاح اعتمد كلية على الخبز، والحساء السميك الذى يتم طهيه بغليه كثيراً مع الخضروات، والنبيذ، أو العصير فى الشمال، وكانت وجبته متنوعة فعلاً وكافية. وعلى الرغم من أنه كان فقيراً، فإنه كان يهتم بطعامه جيداً. فقد كان يحفظ الفاكهة بطهيها، أو تجفيفها على أشعة الشمس، أو حفظها فى العسل، أو طهيها فى عصير العنب أو عصير الفاكهة المركز أو عصارة الحصرم. كذلك كان لديه الكثير من الوصفات القديمة لحفظ الطعام، وطرق الطهى المختلفة، وعمل البودنج، والتى يقال إنه ورثها من الأيام السابقة على العصر الرومانى. بينما كان رجال الريف الإيطاليون يأكلون كل ما يشتهون مثلما هو حالهم اليوم، الخبز الجاف، والبصل، والبقول المسلوقة، واللفت، والثوم، مع المكرونة ذات الأشكال المتعددة. أما فى ألمانيا فإن عامة الناس كانوا يعيشون على الخبز الأسمر، ودقيق الشوفان والعصيدة، والبقول المسلوقة، واللفت، والكرنب، والكروت وهو طعام معد من كرنب مخمر، والعدس، وأحياناً لحم الخنزير. كما كانوا يعشقون لحم الخنزير مع اللفت الأخضر.

هذه كانت وجبات الطبقات الدنيا. والتى قال عنها أحد الشعراء من طبقة النبلاء :
"لماذا يأكل الفلاحون لحم البقر، أو أى طعام طيب المذاق ؟ فالنبات ذو الوبر الشائك، والأقصاب، والأزهار البرية، وأوراق البازلاء كافية تماماً بالنسبة لهم".

ومما لا شك فيه فالفلاح بنظامه الغذائى البسيط كان من الناحية الصحية أفضل بكثير من أى فرد فى طبقة النبلاء، والذى كان وبشكل ملفت للنظر يلتهم كميات كبيرة من لحوم الصيد، والخبز الأبيض، وأنواع المكرونة المختلفة، مع النبيذ. واللعنة كل اللعنة والفزع كل الفزع كانا يكمنان فى المجاعة الناجمة عن كثرة الحروب، أو من نقص المحاصيل، والتى كان لها تأثيرها الكبير والمدمر على الفلاح بوجه خاص، ذلك لأن طبقة النبلاء كانت تستطيع أن تعيش على ما تدخره لديها من مؤن أو ما تجمعه من مصادرات. أما السنوات العجاف فإن السبب فيها يرجع إلى رداءة الطقس، أو غضب السماء الذى يحل بالناس. ومن المحتمل كذلك أن يكون السبب فى ذلك كثرة الآفات الزراعية أو الأوبئة، أو أمراض النباتات غير المعروفة والتى لم يكن لأحد القدرة على التحكم فيها. فعندما تحدث المجاعة، فإنها يصحبها عادة كثير من اليأس ونتيجة لضحاياها الذين يموتون بسبب الجوع، لندرة القوت حتى يأكل الناس الحشائش والحيوانات الميتة.

ولدينا مثال على ذلك هو أسقف تريير Trier عندما قامت جماعة ممن يتضورون جوعًا بمهاجمته، ورفضوا ما قدمه لهم من أقوال لا طائل منها وكانت عديمة النفع، فأمسكوا بجواد له صغير وسمين، فمزقوه إربًا، والتهموه أمام عينيه. وهناك تقارير عن أكلة لحوم البشر، مثل تلك القصص الفلكلورية التى تصور الغيلان وهى تلتهم البشر، ومنها قصة چاك Jack وذى الرأس الفارع The Beanstalk، والتى لها فى الواقع شىء من الحقيقة.

كما أن الفلاح إذا أصيب بمرض ما لم يكن ليجد الطبيب الذى يمكن أن يلجأ إليه، على الرغم من أن بعض رفاقه من الفلاحين كانوا يدّعون أن لديهم مهارة ما فى علاج الكسور. وكان فى مقدوره أن يلجأ لإحدى النساء المشهورات بالحكمة، والتى لها بعض الخبرة فى المعالجة بالأعشاب المحلية وربما كان لديها بعض أسنان أحد الموتى، وكان لمس هذه الأسنان يشفى من آلام الأسنان. كما أن الجلاد أو الشانق الموجود فى إحدى القلاع ربما كان يعرض بعض الدهن الذى تم استخلاصه بعد سلقه لبعض أعضاء جسد أحد الذين تم إعدامهم، هذا الدهن كان مفيداً لكثير من الأشياء.

لقد استمتع الفلاح بكثير من الأعياد والاحتفالات، وبخاصة المسيحية منها أو تلك التى تعود إلى ما قبل أيام المسيحية. فالثانى من شهر فبراير كان يوافق عيد تطهير مريم العذراء، وهو يدل فى انجلترا على بداية ممارسة حراثة الأرض. كما أن عيد الفصح كانت له احتفالاته الخاصة، وكان يتبعه إجازة لمدة أسبوع، ومنه أخذت إجازة عيد الفصح المعروفة فى أيامنا. وفى عيد أول مايو فقد جرت العادة بإخراج قطعان الماشية إلى المراعى، فى الوقت الذى يقوم فيه الشباب بجمع زهور نبات الزعرور البرى، ويصنعون تاجًا يضعونه فوق رأس ملكة شهر مايو ويرقصون بعض الرقصات الإنجليزية التى يؤديها الرجال وهم يرتدون ملابس طريفة، يحملون الأجراس حول عمود مزين بالأشرطة والأزهار ينصب فى العراء ليرقص الناس حوله فى عيد أول مايو.

كما أن عيد القديس يوحنا فى الثالث والعشرين من يونيو، كان يتم الاحتفال به بإيقاد المشاعل؛ وفى عيد كل القديسين فقد كان من المعتقد أن كل الأموات يطلق سراحهم، لكى يقوموا بزيارة أهليهم ومنازلهم. أما فى إجازة رأس السنة التى تعتبر نهاية للسنة الزراعية، فإنها كانت تستمر اثنى عشر يومًا كلها مرح. وكانت بمثابة الوقت الذى يرخص فيه لاختيار أسوأ لورد حاكم وحيث يتم تقديم عرض مسرحى صامت، يصور موت وإعادة الحياة إلى أحد الممثلين الأساسيين، كتجسيد لأسطورة أدونيس وتاموز القديمة. أما فى إيطاليا ففى عيد ميلاد المسيح كان يتم تجهيز شجرة عيد الميلاد إلى جوار المدفأة ويتم تزيينها بكثير من الهدايا والعملات المعدنية.

لقد عشق الفلاح الرقص، وغالبًا ما كان يقوم بذلك فى فناء الكنائس قبل أن يضع رجال الدين العراقيل لذلك، أو يخصصون المكان للصلاة على أرواح الموتى وما زال هناك الكثير من رقصاته، والتى كان يقوم بها اللاهون بمصاحبة الموسيقا وبعض القصائد أو الأغانى. لقد كان لدى هؤلاء الفلاحين قليل من التورط الجنسى الذى نراه فى الرقصات الحديثة، كما لم يحجم الرهبان والراهبات عن المشاركة فى هذه الرقصات. كما كانت هناك رقصات دينية ورقصات أخرى يؤديها بعض المحترفين. وعلى امتداد شاطئ خليج بسكاى فإن كثيراً من المربيات كن يتجمعن تحت رخات المطر ويؤدين بعض الرقصات وهن يحملن الأطفال الرضع.

ومــع أن فــلاح العصــور الوسطى قد عاش فى ألفة مع الأرض، واستجاب لكل ما تفرضـه عملياتُها من إيقاع، فإن ألبارو بلاجيوس يقول : "ولأنهم يقومون بحرث الأرض وتقليبها طوال اليوم، فإنهم قد أصبحوا والأرض شيئًا واحداً، فقد كانوا يلعقون الأرض، ويأكلونها، ولا حديث لهم إلا عنها ومع الأرض ارتبطت آمالهم، ولم يلقوا بالاً ولو بقدر بسيط لأى عمل جوهرى يقربهم من السماء". كما كان الفلاح يصل سن الكبر سريعًا ويموت صغيراً. لقد كان جلده سميكًا شديد الصلابة بسبب تعرضه لكل أنواع الطقس. كئيباً مثل خنزير وسط الدخان الذى غطى كل منزله.

وعلى الرغم من أنه كان فقيراً بالنسبة لما فى حوزته من أشياء مادية، إلا أنه كان لديه كل ما يحتاج إليه لاستمرار حياته ؛ ولم يكن الفقر ليدفعه إلى ارتكاب الجرائم. كما لم يتم سجن أحد لقيامه بالتسول والشحاذة أو التشرد حتى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد. فالإنسان الفقير الذى يرضى بقدره كان محل تقديس واحترام، وكانت لديه فرصة أكبر كى يحيا حياة أخروية خالدة أفضل بعد الممات. لقد كان الفلاح جاهلاً، إلا أن جهله هذا لم ينصب على الأشياء التى كان عليه أن يستخدمها، بل لقد كان خبيراً بأنواع التربة وما عليها من كائنات، وإذا قدر لنا أن نتبادل الأماكن معه – وهذا فأل سيئ – فإننا بكل ما لدينا من علم، سوف نغرق تحت وطأة ثقل جهلنا.

لقد كان الفلاح حشنًا وقاسيًا، وربما كان يسخر من آلام الآخرين، إلا أنه كان فى مقدوره أن يتحمل آلامه دون تذمر. إذ يحدثنا مونتان Montaigne عن بعض الموتى من الفلاحين، والذين جلسوا فى قبورهم وأخذوا يهيلون التراب فوق أجسادهم. كذلك لم تنقصهم الشفقة أو العطف. ففلاح قصة تشوسر كان يحب جيرانه من الفقراء، ويساعدهم فى مواسم الحصاد، وحفر قنوات الرى، وعمل السدود، ويرفض الحصول على أجر محبة فى المسيح. كما كان الفلاح عنيفًا، مستعداً لاستخدام قبضته أو هراوته، غير مبال بما سيجره ذلك عليه من متاعب، وهكذا معظم الناس ممن ليس لديهم سوى القليل من المعرفة بالقانون، والذين عليهم أن يحصلوا على حقوقهم بأيديهم. كما كان الفلاح جشعًا بارعًا وتواقًا للانتقام، ولكن كان لديه انتماء قوى لعشيرته وأسرته، ويعرف كيف يتعاون مع رفاقه من سكان القرى فيكيف رغباته الخاصة مع رغبات جماعته.

وعلى الرغم من أنه كان يعانى من قسوة وجشع سيده، إلا أنه حصل على عطف وشفقة بعض سادته الطيبين٠.

وهناك مقارنة رائعة وحية بين أحد النبلاء وأحد الفلاحين تصورها لنا قصيدة "أوكاسين" و"نيكوليت" وهى من أدب القرن الثالث عشر الفرنسى. حيث كان أوكاسين يبحث عن محبوبته التى افتقدها فى الغابة والتقى بفلاح طويل قبيح المنظر شكله بشع كان يرتدى حذاء طويلاً مصنوعًا من جلد البقر، ورباطًا للساقين فوق الركبة حشنًا، ويرتدى عباءة تعكس سوء حالته، كلا جانبيها مقلوب، منحنيًا يعمل بهراوته الضخمة، فسأله أوكاسين إذا كان قد رأى أى أثر لنيكوليت.

"فقال له الفلاح بصوت أجش : مم تشكو ؟ أنا الإنسان الوحيد الذى له بعض الحق فى الشكوى. لقد كنت أعمل لدى فلاح غنى، أعمل على محراث يجره ثيران أربعة. ومنذ ثلاثة أيام مضت فقدت أفضل ثور لدى يسمى روجر٠ إننى أبحث عنه فى كل مكان، ولمدة ثلاثة أيام لم يكن لدى شيء آكله أو أشربه، ولم أجرؤ على العودة إلى قريتى لأنهم سوف يودعوننى السجن، لأنه ليس لدى ما أدفعه عوضًا عن الثور. وكل ما أملكه فى هذا العالم هو ما أرتديه فوق جسدى٠ إن أمى فقيرة، والشيء الوحيد الذى تمتلكه هو حشية "مرتبة"، ولقد أخذوها منها، وهى الآن تنام على القش٠ إننى حزين جداً عليها أكثر من حزنى على نفسى، لأننى إذا خسرت اليوم، فإننى سوف أكسب غداً فعلى أى شيء أنت قلق – إذن ؟ ". عند ذلك قام "أوكاسين" النبيل الطيب بإعطاء الفلاح عشرين قطعة نقدية من فئة السوس Sous لكى يشترى بها ثوراً جديداً بدلاً من الثور الذى ضاع منه.

هل كانت حياة الفلاح بوجه عام محتملة ؟ أم أنه كان بائسًا وضحية للظلم ؟ إن الكتّاب المحدثين يختلفون فى ذلك، فبعضهم يقول إنّ دَخْل الفلاح كان أسوأ بكثير من دخل العبد فى ظل النظام الصناعى، والميزة الوحيدة هى أنه كان يستغل الأرض الزراعية لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول٠ وفريق ثان يحكم عليه بأنه كان فى حال أفضل من زميله الذى كان يعمل فى مزرعة إنجليزية فى القرن التاسع عشر للميلاد٠ وفريق ثالث يزعم أن مستوى معيشته بوجه عام وفى كثير من الأقاليم خلال العصور الوسطى كان أفضل بكثير مما هو عليه الحال فى عصرنا الحديث.

فعلى الأقل، فإن الفلاح المتوسط عاش فى حالة انسجام أو توافق مع الظروف المحيطة به، ولم يعرف صيحات الاستنكار التى نطلقها نحن اليوم عن سوء الحال أو عند انتزاع الملكية من شخص وتحويلها لشخص آخر، كذلك لم يعرف حالة الكرب واليأس التى نعرفها. فقد كانت له مكانته المحددة داخل مجتمع القرية، وحظى بدرجة من التكريم فى مجتمعه الصغير. كذلك كان لديه الإيمان الحق والثقة الراسخة فى الله وفى القديسين الطيبين. وإذا كان قد عانى من ظلم البشر، فما كان عليه إلا أن ينتظر قليلاً حتى تأتى الساعة التى يتم فيها انصلاح كل المساوئ إلى الأبد. كما لم يكن فى مقدوره أن يتحكم فى النظام الذى ولد فيه، هذا النظام كان ضرورة ملحة تشبه تعاقب فصول السنة، فدورة الحياة هى الكدح، واللمعان، فالتدهور، ثم الموت.

أما الفلاح غير الراضى عن حياته أو المتذمر منها فربما كان يهرب إلى المدن، وهكذا بدأ نوع من التذبذب السكانى والذى لم يوضع له حد إلى الآن، وهنا كان يجد الفلاح نفسه فى قاع المجتمع. ومع شىء من الحظ وبتعاقب أجيالٍ قليلة، فإن الوافدين الجدد أتيحت لهم الفرصة للانخراط فى نقابات أصحاب المهن وقاموا بتوريث هذه المهن لأبنائهم. وكانت تلك ميزة جديدة بالنسبة لهم ؛ وفى انجلترا فإن توريث المهن كان مقيداً بالتشريع الذى صدر عام ١٠٤٥م، والذى سمح للأبناء بوراثة مهن آبائهم فى حالة امتلاك الواحد منهم قطعة أرض أو إيجار يقدر بعشرين شلناً فى السنة، إلا أن محاباة الأقارب كانت هى السائدة وكما هو الحال الآن فى بعض الحرف فى اتحادات العمال فى أمريكا.

كان على من يلتحق بإحدى نقابات أرباب الحرف أن يرتبط لفترة زمنية بأحد كبار رجال الحرفة، والذى كان بدوره يقوم بتعليمه أسرار الحرفة أو المهنة، ويعامله كأب حقيقى له، ويرعى شئونه الروحية والأخلاقية، ويعاقبه على ما فيه صالحه. وفى نهاية تلك الفترة، كان يعقد له امتحاناً بحيث يصبح بعده ممن يعتمد عليه فى مهنته. وعندها يصبح من حقه أن يتنقل لعدة سنوات متجولاً وعاملاً فى الدكاكين الأخرى. إلا أنه كان عليه أن يعترف بأستاذية مَنْ علّمه داخل مجتمع أبناء الحرفة. وبعد الاختبار النهائى يصبح مؤهلاً لأن يكون صانعاً قادراً على تدريب صبيان المهنة. وببعض المساعدات

الأبوية كان فى مقدوره أن يكون له دكانه الخاص به، إلا أنه لا يزال يعتبر أحد رجال الأعمال الصغار، يعمل جنبًا إلى جنب اثنين أو ثلاثة من العمال مثل كثير من أرباب الحرف، وكان مرتبطًا أشد الارتباط بقواعد حرفته ونقابتها. وهناك القليل من ذوى الطموحات الذين نجحوا فى الوصول إلى درجة كبار الأثرياء من أصحاب رءوس الأموال. ومعظم هؤلاء الصناع كانوا قانعين بما حققوه من إنجاز وضمان، ونظروا باستخفاف لمن هم أقل منهم مكانة أكثر من نظرتهم لمن هم أكبر منهم مكانة. وكما يوضح ذلك هنرى بيرن، بقوله :

"إن تحقيق الأمن والاستمرارية تطلّب نوعًا من الاعتدال فى الآمال". كذلك يصف بيرن نقابات أرباب الحرف بأنها" ذات علاقة بنظرية مالتوس القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية وأن النسل يجب أن يحدد أو يضبط" . لقد كفلت هذه النقابات عدم البطالة لأعضائها، إلا أنها لم تهتم بكثير من العمال من غير أعضائها وكانت تميل إلى استغلال المستهلكين بما يحقق صالح أعضائها، كما أنها لم تكن تناسب تصاعد الرأسمالية الصناعية فى المدن، وخصوصًا فى إيطاليا والفلاندرز. وحددت الإنتاج وساعات العمل، ومنعت تقاضى أى أجر عن العمل الإضافى، وحدّت من الابتكار، واختراع آلات جديدة توفر الجهد والوقت (وهنا يبدو التوازن الحديث واضحًا).

وكان عمال البناء الإنجليز يشتغلون فى الشتاء منذ طلوع الشمس وحتى حلول الظلام، وفى الصيف منذ شروق الشمس إلى ثلاثين دقيقة قبل غروبها، تتخلل تلك الفترة ساعة لتناولهم الغذاء، وثلاثون دقيقة راحة يأخذون فيها سنة من النوم، وثلاثون دقيقة أخرى لتناول شراب المزر. وهكذا فإن متوسط فترة عمل هؤلاء البنائين اليومى كان ثمان ساعات وثلاثة أرباع الساعة شتاء، وحوالى اثنتى عشرة ساعة صيفًا، وهى فترة طويلة. وفى الواقع إن تمضية الوقت كانت بطيئة، وإن كانت هناك أيام عطلات بسبب سوء الأحوال الجوية، إلى جانب الإجازات العامة، والإجازات التى يتم أخذها لحضور مجلس نقابة عمال البناء، أو تلك التى تتوقف فيها الأعمال التجارية على حين غرة.

وربما كان فى استطاعة أى فرد أن يعتمد ولو بشكل من الأشكال على الاشتغال بأى عمل تجارى عادى، إذ فى كثير من هذه الأعمال لم تكن هناك فوارق كثيرة، فالحداد أو الصائغ على سبيل المثال كان ولا يزال يعمل بنفس طريقة العصور الوسطى باستثناء استخدام بعض الآلات الحديثة أو المقاييس والموازين الدقيقة، كما أن صياد السمك الحالى لم يتعلم سوى القليل من الطرق الحديثة لصيد الأسماك. وحتى فى تلك الأيام الغابرة فإن أوعية الصيد المستخدمة كان منها إناء كبير به ماء يوضع فيه السمك ليبقى حيًا إلى أن يتم بيعه فى المدن الساحلية.

وأدى الطلب على الأسلحة، والمعدات والأحجار الكريمة إلى الإقبال على عمليات التعدين فى القرن العاشر للميلاد. حيث كانت قد توقفت معظم المناجم الرومانية القديمة خلال العصور الوسطى المظلمة. وكانت عمليات التعدين فى البداية قاصرة على القشرة العليا من المناجم مع بعض التغلغل الضحل فى أعماق المناجم. وكانت المياه تشكل العدو الرئيسى لعمال المناجم، إلا إذا تم عمل حفرة تتجمع فيها المياه الجوفية ويتم تصريفها، وإذا حدث وتجمعت كميات كبيرة من تلك المياه الجوفية فعندئذ تستحيل أعمال التعدين. ولأن المضخات الماصة كانت ممنوعة بسبب القوانين الفيزيائية لأن ترفع الماء من عمق أكثر من أربعة وثلاثين قدمًا، فإن الفنيين استخدموا آلات الرفع "السواقى" ذات السلاسل الطويلة والدلاء التى تديرها الخيول والبغال. ولم يلبثوا أن طوروا منها بحيث أمكنهم نزح الماء من أعماق وصلت إلى ستمائة قدم، وأقاموا الدعامات التى تمنع انهيار جوانب تلك الحفر العميقة.

ولقد كانت مشكلة التهوية من أعقد المشكلات التى واجتهم إلى أن تغلبوا عليها باستخدام آلات دفع الهواء. كما أن نقص الأكسوجين تسبب فى حدوث صداع لكثير من عمال المناجم بل أدى إلى اختناقهم. كذلك كان عمال المناجم فريسة لأمراض الجهاز التنفسى، وآلام القدم والصدمات النفسية. كما أن عمليات التنقيب عن الفحم فى الأعماق قد واجهت مشكلة اشتعال غاز الفحم، ذلك لأن عمال المناجم كان عليهم أن يعملوا على ضوء الشموع. وعلى الرغم من كل هذه المخاطر، فإن عمليات التعدين ازدهرت، وتم إنشاء العديد من الشركات لاستغلال المناجم العديدة، وعمل الضمانات المختلفة تمامًا مثلما يحدث فى شركاتنا الحالية، وبدأ التفكير فيما للمناجم من دور مهم.

وكان للنساء دورهن فى عالم الصناعة والتجارة، ففى القرن الخامس عشر للميلاد فى انجلترا وربما فى كل مكان آخر، فإن عددًا من النساء شاركن فى تجارة الملابس والأقمشة، والبعض الآخر ساهمن بدور فى تجارة الحرير. كما قامت زوجات كثير من أصحاب الأعمال بدور مهم فى متاجر أزواجهن، وبلا أجر. وعلى أية حال، فإن معظم النساء كن خارج نطاق التجارة المنظمة، يقمن بأعمالهن المنزلية، أو يؤدين بعض الخدمات العائلية، أو يعملن فى الحانات، وفى صناعة الجعة أو المزر، أو الاشتغال ببعض عمليات الغزل والنسيج فى منازلهن.

ويأتى العمال غير المهرة فى منزلة تلى التجار وأعضاء نقابات أرباب الحرف، وهم الغارقون فى الفقر والشقاء ويمثلون جماعات البروليتاريا من العمال الكادحين، ولا نعلم سوى القليل عنهم. وهم الذين يظهرون بشكل رئيسى فى سجلات المجرمين، ونادراً ما نجد ذكراً لهم فى الوثائق العديدة والخاصة بالملكيات. لقد كانوا وببساطة شديدة فى فقر مدقع، وكما تؤكد ذلك الوثائق الرسمية، وسنجدهم معنا فى كل مكان. لقد كانوا فى السابق من العبيد الذين فروا إلى المدن على أمل أن يجدوا فيها حياة أفضل وبعضهم ممن لم يكن لديهم أى أمل فى حيازة الأرض من أبناء الفلاحين الأحرار، والذين هاجروا لبناء مستقبلهم مع دعوات آبائهم وليس أكثر من هذا.

هذا الوضع هو ما تعكسه غالبًا روايات الفن الشعبى فى تصويرها للابن الأكبر الذى يلتهم كل شىء وبخاصة من أبناء النبلاء وللابن الأصغر الذى يخرج صفر اليدين من عملية الميراث. وبعض هؤلاء العمال الكادحين تم تصويرهم على أنهم السبب فيما حدث من تدهور سريع فى كل المجتمعات، وكذلك على أنهم عمال غير أكفاء، أو كجنود غير مسئولين تمت إحالتهم إلى التقاعد، أو بعض السكارى. كما أن البعض منهم كانوا من الخارجين على القانون، أو طريدى العدالة فى بلادهم وفى غيرها من البلدان. ولقد اكتسبوا قوتهم اليومى من خلال قيامهم ببعض الأعمال الحقيرة كحمالين، وكناسين، أو زبالين يجمعون القمامة من الشوارع، أو قوادين أو شحاذين. ومنهم من اشتغل بعمليات قطع الطرق التى غالبًا ما أدت بهم إلى المقصلة. لقد كانوا أحراراً

بالطبع، ولكنهم أحرار فقط فى بحثهم عن عمل، سواء كان هذا العمل شريفًا أم غير شريف، يهيمون على وجوههم فى كل مكان يعانون الجوع والبرد، والكثير من هؤلاء الشباب الذين لم يعرفوا الاستسلام فهاجروا إلى تلك المدن، كانوا يتحسرون على ما افتقدوه من أمن فى ظل العبودية بين أقرانهم، وعلى ما حرموا منه: أصدقاء طفولتهم.

هؤلاء هم الناس الذين نطلق عليهم بنوع من الغطرسة مصطلح "الغوغاء" أو "الرعاع"؛ كثير منهم كدح حتى وجد فرصة عمل فى تجارة الملابس، وبخاصة فى إيطاليا، والفلاندرز وإنجلترا وعانوا من تقلبات الأحوال التجارية، وحركة العرض والطلب، والتموين، والمنافسة الداخلية وحالات الكساد. كنت تراهم أسبوعيًا عند أبواب أصحاب الأعمال، على أمل أن يجدوا العون فى يد تمولهم بالمواد الخام التى يقومون بغزلها أو نسجها أو تصنيفها فى أكواخهم مقابل أجر زهيد. ومن الواضح أن نظام العمل بالقطعة والمتمثل فى تجارة الملابس بكل ما فيه من مساوئ كان موجودًا بنفس الشكل فى نيويورك وفى أماكن أخرى لمدة لا تزيد عن نصف قرن.

وكما هو الحال فى نيويورك، فإن العمال كانوا فى حالة من اليأس دفعتهم لأن يقاوموا أصحاب العمل عن طريق ما قاموا به من إضرابات، فكان رد أصحاب الأعمال عليهم هو إغلاق مصانعهم كليًا أو جزئيًا لإكراه العمال على الرضا بشروطهم. إن النزاع فى مجال الصناعة ولّد العنف ؛ كما أن عدم الرضا قد عبر عن نفسه ببعض التصرفات من خلال النظرية الاشتراكية البدائية، واتخذ الاضطراب والقلق مظهرًا سياسيًا، فقامت جماعات العمال الكادحة بالثورة ضد السلطات الحاكمة والدينية. وهناك العديد من تلك الثورات، التى قادها الفقراء من عمال النسيج فى الأراضى الواطئة "هولندا"، وفى غنت Ghent، وبروجس Bruges، وإيبرس Ypres، وليل Lille ودوى Douai. وقد حظى المحتجون بعطف وتشجيع الرهبان والمبشرين. وفى بدايات سنة ١٣٠٢م قام عمال النسيج فى بروجس بتأسيس حكومة ثورية استطاعت أن تصد حملة فرنسية تأديبية، وتهزمها عند كورترى Courtrai. وهو ما عرف باسم معركة المهاميز Spurs نسبة إلى المهاميز الذهبية التى جمعها عمال النسيج من الفرسان الذين لقوا مصرعهم فى أرض المعركة.

لقد عانى الفلاحون كثيراً من سوء الأحوال الجوية والكدح المضنى، كما كانت حياة العمال مقيدة ولا تقبل التغيير. والاشتغال ببعض المتاجر كان محفوفًا بكثير من المخاطر، مثل الأمراض المهلكة التى كانت تصيب المشتغلين بالأصواف، والأمراض التى يسببها الزرنيخ الموجود فى ألوان الصباغة، والتسمم الناجم عن الرصاص. كما أن الإصابات التى تسببها بعض المواد الفيزيقية والتى تعالج الآن بسرعة ويتم الشفاء منها فى يسر كانت فى ذلك الوقت منتشرة وصعبة المواجهة ؛ وكذلك الجروح، فأى جرح كان عادة ما يترك أثرا يظل مدى الحياة. وإذا حدث وأصيبت الأسنان بأى آلام فكان يتم خلعها، كذلك كانت أمراض العيون من الأمراض الشائعة، وعلى وجه الخصوص أمراض الرمد، والتراكوما، والورم الخبيث، وإعتام عدسة العين، والعمى.

ونسمع أن ملك بوهيميا يوحنا – وقد كان أعمى جزئيًا – اتفق مع أحد الأطباء على أن يعالجه من إعتام عدسة العين، إلا أن الطبيب فشل فى ذلك فأمر الملك بوضعه فى كيس وإغلاقه عليه وإلقائه فى نهر الأودر Oder River. كما أن الواحد منا تنتابه الدهشة لكثرة أعداد المعوقين، ومبتورى الأعضاء "المجدوعين" والمشلولين الذين يظهرون فى كثير من الرسوم التى تصور أحداث الحياة اليومية فى العصور الوسطى. كما أن بعض الأرجل والأيدى الملتوية لابد أنها كانت نتيجة لخطأ فى المعالجة أو فى فن التوليد. كذلك فإن الأشخاص الذين نراهم بلا أرجل أو أيدى فالسبب فى ذلك هو عمليات البتر القانونية التى كانت تطبق عليهم. ذلك لأن اليد التى ترتكب خطأ كالسرقة كان مصيرها القطع. كما أن بتر أحد الأعضاء كان هو الأسلوب المعتاد اتخاذه فى مواجهة الكسور المضاعفة، أو لمنع انتشار العدوى إلى بقية أعضاء الجسد.

وكان الأطباء والجراحون المؤهلون على درجة كبيرة من الندرة، وغالبًا ما كانوا يقدمون خدماتهم للأغنياء والنبلاء فقط. وعلى الرغم من أن الطب كان متسمًا بمحاكاة الطب القديم والطب العربى، إلا أن ما تم إنجازه فى مجال الجراحة كان شيئًا مرموقًا. كما أن عمليات نشر الجمجمة "التربنة" كانت شائعة ومألوفة بسبب كثرة جروح الرأس، وإصابات الجمجمة أثناء المعارك أو أثناء الاشتراك فى مباريات المبارزة. وكانت عمليات الفتق، والسرطان، وحصوة المرارة من العمليات الشائعة. كما أجرى الجراحون

كثيراً من العمليات القيصيرية، وعالجوا النزف باستخدام قابض للأنسجة وخيوط الأوعية الدموية، كذلك قاموا بإعادة العظام المكسورة إلى موضعها الطبيعى، وإحاطة الأطراف المكسورة بالجبائر.

وعلى الرغم مما يقال بأن أطباء العصور الوسطى لم تكن لديهم أى فكرة عن تطهير الجروح، فإنهم قاموا بكيِّ الجروح وسكبوا عليها الكثير من النبيذ المعتق، أو الخل المركز، وعقموها ببياض البيض الطازج، وخففوا آلامها ببعض المراهم العطرية أو البلسان. لقد عرفوا- ولو إلى حد ما - عملية التخدير أو إفقاد الحس بالنسبة للمرضى عن طريق وضع قطع من الإسفنج مشبعة بمخدر "الأفيون" على أنوفهم، أو نبات عشبى مخدر من الفصيلة الباذنجانية يسمى الماندريك Mandrake. كذلك عرفوا استخدام بعض المشروبات المخدرة الشرقية. وعن الجراحة التعويضية أو التقويمية التى تعنى بتقويم أو ترقيع أعضاء الجسم المشوهة فقد عرفت فى القرن الخامس عشر للميلاد، واستخدمت فى جراحة الأنف، والأطراف، والأذن والتشوهات الجلدية ؛ وكانت أحزمة الفتق معروفة وشائعة الاستخدام، كما استخدمت أنابيب المرىء للتغذية الصناعية.

أما عن الأطباء المتمرسين، فقد كانوا من العلماء الذين شعروا أنهم فى منزلة أرقى من الجراحين، وكانوا فى الحقيقة على مستوى من الخبرة والدراية العملية تفوق الجراحين، الذين كانوا من الندرة بحيث لم يكونوا كافين لمواجهة الاحتياجات البشرية.

لذلك قام كثير من حلاقى الصحة بإجراء العديد من العمليات الجراحية، واستمر تدخل الحلاقين فى أعمال الجراحين لعدة قرون حتى تم استبعادهم نهائياً. لدرجة أننا نسمع أنه فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر للميلاد فإن أحد جراحى الجيش كان يقوم بحلق ذقون كبار الضباط.

وبالنسبة لطب الأسنان فإنه شهد الكثير من ذوى المعرفة أو الخبرة من غير المتخصصين كغيره من فروع الطب الأخرى، على الرغم من وجود بعض المتخصصين، والذين عرفوا باسم أطباء الأسنان. أما عن علم الطب فقد توارث الأوربيون هذا العلم عن العرب الذين حققوا كثيراً من التقدم فيه نظرياً وعملياً. وكان الممارسون لهذا الفرع لديهم العديد من الأدوات مثل : المكاشط، والكلابات، والمقصات والمبارد،

والمياسم. ولقد قام المشتغلون بطب الأسنان بإزالة التسوسات، وعمل الحشو، وتقوية الأسنان الضعيفة بوضع طربوش معدني، وصناعة الأسنان الصناعية من عظام الثيران وبعض المواد الأخرى. ونسمع عن الحشو باستخدام معدن الذهب في القرن الخامس عشر للميلاد. كما أن كل كتاب العصور الوسطى كانوا يعتقدون أن السبب في تسوس الأسنان راجع إلى ديدان صغيرة داخل الأسنان. وهذا الاعتقاد ليس غريباً إذا أطلقناه على ديدان البكتريا. وكان علاج الأسنان الجيد متاحًا وسهلاً للأغنياء جداً، أما الفقراء فقد كان في مقدورهم التردد على أحد المشتغلين بخلع الأسنان في سقيفته في أحد الأسواق الدائمة أو الموسمية.

أما عن الأمراض غير المعروفة فكانت تجتاح كلاً من المدينة والقرية على السواء. وكان مرض الدوسنتريا من الأمراض الشائعة جداً، وكذلك أمراض الملاريا، والأنفلونزا والدفتريا، والإسقربوط، والتيفود، والصرع، وغيرها من أمراض الحمى. إلى جانب بعض الأوبئة التي كانت تجتاح البلاد في أوقات معينة، مثل حمى القديس أنطوني، وهو مرض خطير يظهر على شكل بثور، تصبح غنغرينية، يشوه جسم المصاب ثم يودى بحياة ضحاياه. وربما كان هذا المرض يتفاقم بسبب الحمرة أو الالتهاب الجلدى، أو ربما نجم عن تسمم الحبوب من قمح وشعير وذرة وأرز بسبب الفطريات، ومن المرجح أن يكون هو أيضاً المسئول عن طاعون أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد. ومن المحتمل كذلك أن يكون خباز القرية مسئولاً عن تسمم كل المجتمع. كذلك كان الجدرى منتشراً لفترات طويلة، وربما كان السبب فيه الصليبيون العائدون إلى أوطانهم.

أما الأمراض الجلدية مثل الجرب، وسل الغدد اللمفاوية، والحصف "داء جلدى" فكانت منتشرة بسبب سوء التغذية، وسوء الأحوال الصحية العامة، والملابس الخشنة، مثل القمصان المصنوعة من الخيش أو الخيوط الخشنة أو الفراء غير النظيف. ومن جهة أخرى، فإن الكتابات الطبية لدى المؤرخين لا نجد فيها سوى القليل النادر عن السل، والسرطان، والأمراض التناسلية. إلا أننا نسمع مؤخراً عن شلل الأطفال، والتيفوس، والكوليرا، والحمى الصفراء، ومرض النوم، والزهرى، والالتهاب الشعبى

المزمن بسبب مزيج الضباب والدخان فى المدن. أما التسمم بسبب إدمان الكحوليات والارتعاش الناشئ عن الإسراف فى شرب المسكرات فقد كانا غير شائعين، والفضل فى هذا راجع لعدم معرفتهم عمليات تقطير المواد المسكرة والكحولية.

أما المجانين فقد عوملوا بكل رفق، بوجه عام، وسمح لهم بالإقامة فى ملاجئ كبيرة بلا قيود إلا إذا ثبتت خطورتهم، فعندئذ يتم وضع قيود لهم أو سجنهم. ولأنهم وحسبما جرى الاعتقاد بأنهم تسيطر عليهم بعض الأرواح الشريرة، فقد جرى علاجهم عن طريق بعض التعاويذ الدينية التى كان الغرض منها معرفة تلك الأرواح وطردها من أجسادهم، وكانت هذه هى الوسيلة للعلاج، وهى نفسها الطريقة التى يلجأ إليها المحللون النفسيون إلى حد ما.

كذلك كان مرض الجذام من الأمراض المزمنة فى تلك الأيام، وبخاصة فى المناطق الأنجلوسكسونية. ولقد فشى مرة أخرى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ؛ ومن المحتمل أن يكون الصليبيون قد حملوه معهم من بلاد الشام. ولقد كان المكان الذى يتم فيه عزل مرضى الجذام فظيعًا، إذ كان بالنسبة للمريض منهم بمثابة مكان الموت ولعب دور الفيلق، حيث ينحنى على كسرة سوداء، ويسمع الطقوس الدينية والصلوات، ثم يقوم الكاهن أو القس بنثر التراب على قدميه، قائلاً : "لتكن ميتًا بالنسبة لهذا العالم، ولكنك ستحيا مرة أخرى مع الرب". وكان رجال الدين يقومون بالإشراف على المستشفيات بشكل جيد، ويستقبلون الكثير من الضحايا، بينما بعضهم الآخر كان يسمح لهم أن يعيشوا فى عزلة عن الناس فى ملجأ، أو يتجولون فى الشوارع وهم يرتدون ملابس سوداء عليها قطعة صغيرة من قماش أبيض وقبعة طويلة ذات لون قرمزى، ويعلنون عن قدومهم بقطعة خشبية، وكان ممنوعًا على مريض الجذام أن يدخل الكنيسة، أو الطاحون، أو المخبز، أو الحانة أو حضور أى اجتماع، أو حتى الاستحمام فى أحد ينابيع المياه أو الأنهار، أو أن يلمس أى شىء يريد شراءه. وكان يطلب منه أن يبتعد عن الاحتكاك بأى شخص يريد أن يتحدث معه أو يخاطبه. ومع هذا فإن الرأى العام المتعاطف معه منحه عدة مزايا، مثل حقه فى الحصول على حفنة من القمح الموضوع فى الأكياس والمعروض للبيع فى الأسواق، وأن يحصل على قطعة جبن

أو سمكة من حمولة كل عربة، أو أن يحصل على فرس من الخيول المعروضة للبيع. وربما كان للعزل الإجبارى الذى فرض على هؤلاء المرضى أثره فى تراجع مرض الجذام فى القرن الرابع عشر للميلاد.

والآن دعنا نترك هذا الموضوع الكئيب ونتجه بأبصارنا إلى ما تمتع به ساكن المدينة من مباهج صحية؛ لقد عشق الرياضة وأنواع الألعاب أكثر بكثير من سلفه فى الريف، وهو الذى كانت التدريبات البدنية جزءاً من روتين حياته اليومية. كما أن معظم المدن كانت لها ملاعبها التى يؤمها القادمون إليها والمشتركون فيها أيام العطلات، ويستمتع بها الطلبة والموظفون كذلك. لدرجة أننا نسمع أن أسقف لندن كان يشكو سنة ١٣٨٥م من لعب الكرة داخل وخارج كنيسة القديس بولس وما يسببه ذلك من كسر النوافذ والتماثيل. وكان الرياضيون يتدربون على الرماية وعلى نوع من الكرة يشبه لعبة البيسبول باستخدام المضرب وكرة مصنوعة من الجلد. فضلاً عن أن كرة البولينج تعود على الأقل إلى القرن الثالث عشر للميلاد وربما قبل ذلك. أما لعبة التنس فهى أقدم من ذلك بكثير ؛ وهناك قصة جاءت فى « ألف ليلة وليلة » عن أحد الملوك وقد لقى حتفه عندما أمسك بمقبض أحد مضارب راكيت مسموم.

وعن ملاعب التنس فقد انتشرت فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر، ولن ننسى أنه فى إحدى روايات شكسبير فإن الابن الأكبر لملك فرنسا أرسل لهنرى الخامس هدية عبارة عن عدة كرات. ولأن المطاط لم يكن معروفاً بعد، فإن الكرات كانت متينة جداً وثقيلة ؛ بل ومميتة. ففى إلفورد Elford فى مقاطعة ستافورد شاير Staffordshire يوجد قبر عليه صورة طفل يمسك بكرة تنس أودت بحياته مصادفةً. أما كرة القدم فقد كانت عبارة عن مثانة منفوخة من جلد الخنزير، مغطاة بالجلد وأحياناً يتم وضع حبات جافة من الفول أو البازلاء داخلها لتحدث خشخشة. وكانت مباراة كرة القدم بمثابة معركة بين أبناء الأحياء المختلفة الذين يضربون الكرة بأيديهم وأرجلهم فى اتجاه بوابات المدينة ويلعبها أى عدد. ولم تكن لها قواعد منظمة فيما عدا الكثير من الإصابات ؛ وفى القرن الرابع عشر للميلاد قام العديد من الملوك الإنجليز بإصدار أوامرهم مراراً بمنعها. أما لعبة الجولف فقد ورد ذكرها فى البلاد الواطئة "هولنده" واسكتلنده فى القرن الخامس عشر للميلاد.

كما أن الكثير من الألعاب الرياضية، مثل مهاجمة الثيران ومطاردة الدببة باستخدام الكلاب تعد الآن من الأعمال الوحشية من حيث الذوق العام. وإن كنا نقبل الآن الابتهاج بإظهار القسوة أمام الجماهير فى مصارعة الثيران، وإراقة الدماء فى معظم أفلامنا. وفى القرن الثانى عشر، فإن الصبية فى المدارس كانوا يحضرون الديكة فى الفصول يوم «ثلاثاء المرافع» السابق لأربعاء الرماد «وتجرى مناقرة الديوك فى معارك حتى الموت، ويقوم مدرسوهم بعملية التحكيم. أما إيطاليا فقد كانت تجرى بها لعبة القطط الشريرة، حيث يقوم أحد الرجال وهو عار حتى الوسط، حليق الرأس، بالدخول إلى قفص به قط ويحاول أن يقتل القط بأسنانه، دون أن يستخدم يديه أو يفقد عينيه. "وهذا ما يمكن تصديقه من طلبة جامعة بولونيا Bologna لأنهم كانوا يستهجنون هذا المنظر ".

كذلك استمتع رجل المدينة بمشاهدة الروايات الغامضة، والتى تطورت شيئًا فشيئًا عن الطقوس الكنسية. كما قام بتمثيلها كثير من الناس، بلغ عددهم فى بعض الأحيان خمسمائة ممثل، معظمهم من أعضاء نقابات أرباب الحرف والتجار، على مسرح كبير جرت العادة ببنائه فى الميدان العام للمدينة. كما أن القصة المقدسة تمت إعادة تمثيلها بكثير من الإسهاب والمواقف الكوميدية.

ومما لاشك فيه أن أعظم تسلية لعامل المدينة كانت هى الشراب، والثرثرة، والمقامرة فى الحانة المفضلة لديه فى المدينة. وهناك كان فى مقدوره أن يقضى وقتًا ممتعًا مع أصحابه فى الاستمتاع بالدفء والراحة. إلا أن رداءة التهوية كانت مؤذية، وخصوصًا مع العرق الذى يتصبب من أجسادهم، وعبق المكان، والملابس غير النظيفة، إلا أن الشيء الذى يحمد فى هذا الجو هو عدم وجود دخان التبغ. وكانت أسعار المشروبات رخيصة ولم يجرؤ أحد على أن يفرض عليها أية ضرائب، ففى انجلترا كانت كل حانة تصنع جعتها أو المزر الخاص بها – وكان هذا من عمل النساء – ثم يتم وضعه فى أوانى خاصة لعرضه على المترددين على الحانة بعد وضع بعض كمية من أوراق الشجر فوق تلك الأوانى، كما أن وضعه بهذا الشكل يتيح للمفتشين التعرف على نوعه ومذاقه، فإذا وجد أحدهم أن الشراب دون المستوى، ففى هذه الحالة يتم منع تداوله وإغلاق الحانة. وإن لم تكن هذه هى العادة فى فرنسا، حيث إن الزبائن الدائمين كان عليهم اختبار مشروبهم.

وعن الحياة فى حانة العصور الوسطى فإنها لم تختلف عنها فى الخمارة أو النادى الليلى اليوم. ومن المحتمل أن ساقى الحانة الآن لن يجد اختلافاً كثيراً فى نوعية الأحاديث التى كان يتجاذبها معه الشاربون، والدليل على ذلك أن أحد المعاصرين وهو بيير بلومان أمكنه أن يصور لنا ذلك وبطريقة موثوق بها فى نسخة معدلة حديثة لتقريبها إلى أذهان القراء قام بها ج.ف. جودريدج.

ففى أحد أيام الجمعة كان جلوتونى Gluttony فى طريقه إلى الكنيسة ليقوم بعملية الاعتراف، فقابل بتى Betty زوجة صانع المزر. فسألته : إلى أين أنت ذاهب؟ " فأجابها قائلاً: إلى الكنيسة المقدسة، لكى أسمع الصلوات وأقوم بالاعتراف ؛ وبعدها لن أقترف أى ذنب آخر. فقالت له : لقد أحضرت بعض المزر الجيد هنا، ياجلوتون، لم لا تأتى وتتذوقه، إنه رائع. فسألها : هل أحضرت بعض المشهيات فى حقيبتك ؟ فردت عليه قائلة : نعم، معى بعض الفلفل، وبعض حبات القرنفل ورطل من الثوم، أم أنك تفضل حب الشمار ؟ إنه يوم لا يصدق ! "لذا فإن جلوتون دخل إلى الحانة، وتبعته تلك السيدة، فوجد سايسى صانع الأحذية جالساً، كما وجد وات Wat حارس الطرائد أى المكلف بمنع الناس من صيد الحيوانات فى الأملاك الريفية جالساً مع زوجته، كما وجد تيم Tim السمكرى مع اثنين من زملائه، وهيك Hick سائق العربة، وهبو Hugh الخردجى، وكلارك Clarice المسئول عن بيت الدعارة، ومعه كاتب الأبرشية، وديفى Davy حفار المسارب، والأب بطرس بريبه دبيه الراهب، ومعهم بايكوك الفلمنكى وحوالى اثنى عشر شخصاً آخرين، منهم عازف الكمان، وصائد الفئران، وكناس الشوارع، وصانع الحبال، وأحد رجال شرطة المدينة. يليهم روز Rose صانع الأوانى، وجود فرى طاحن الثوم، وجريفث Griffiths الولشى، وعدد من الدلالين. الكل مجتمع هناك فى الصباح الباكر، وعلى أتم استعداد للترحيب الحار بجلوتون.

عندئذ قام كلمنت Clement الإسكاف بخلع عباءته وألقى بها أرضاً ليلعب لعبة سباق العدل. وسرعان ما ألقى هيك سائق العربة بقلنسوته سائلاً بيت Bett الجزار أن يشاركهم، واختاروا أحد الدلالين لكى يقيِّم الأشياء الموضوعة على الأرض ويقرر أيها الأقل سعراً.

بعد ذلك تعالت الصيحات والصرخات منادية : "قم بالدوران حول الكأس"، ثم جلسوا وهم يصيحون ويغنون حتى صلاة الغروب. وفي تلك الأثناء كان جلوتون قد تناول عدة جالونات من المزر، وكانت أحشاؤه تتلوى تمامًا مثل زوج من الخنازير الشرهة، ولم يعد قادراً على الحركة أو السير دون عصاه، إلى أن أفلح في أن يخطو عدة خطوات ولكنه كان يتحرك مثل أنثى الكلب المترنحة، أو مثل طائر يتخبط في طيرانه، يخطو أحيانًا إلى الأجناب وأحيانًا أخرى إلى الوراء. وعندما اقترب من الباب، فإن عينيه أصابتها غشاوة، فكان يمشي مشية الرجل الأعرج وسقط على الأرض مغشيًا عليه .

الفصل الثامن

الحياة العقلية

إن ثقافة أى زمان ومكان ما هى إلا نتاج انتقال الأفكار المتوارثة واسترداد لشكل من أشكال الفكر المغمور أو المهمل أو لفكر جديد. ومثل هذه الجذور عادة ما تزدهر فى ظل الرخاء، ويعتنى بها فى ظل الترف، وتتم حمايتها فى ظل السلام، فتبرز على نحو غير متوقع أو بدرجة تثير الدهشة. وبشكل عام فإن فترة الازدهار هذه غالبًا ما تكون قصيرة الأمد، كما كان الحال بالنسبة للنهضة الكارولنجية. فقد كانت تربتها واهية، وجذورها غير مثمرة.

ولمدة تقارب الثلاثمائة سنة من القرن العاشر للميلاد فصاعداً، فإن النمو الثقافى فى غرب أوربا كان قد توقف تمامًا. ففى الكنيسة لم يكن هناك سوى القليل من المتعلمين الذين كانوا يستطيعون كتابة اللغة اللاتينية بطريقة جيدة، وفى الأديرة كان هناك عدد أقل ممن اتصفوا بالجرأة أو المثابرة، يقبلون على كتب الحكمة القديمة وينسخون منها عدة نسخ وإن كان لا يزال ينقصنا الكثير عن الحياة الروحية فى تلك الأيام، إلا أنه من الجلى الواضح أن التوقف الثقافى راجع للجهل أكثر منه للإغفال وعدم المبالاة، فلم يكن الناس يجهلون شيئًا عما يرغبون معرفته أو يحتاجون إليه – فى زراعتهم العملية، وفى عمل الأسلحة، واستراتيجيات البقاء ؛ كما لم يكن لديهم اهتمام فى إعادة اكتشاف تأملات الحكماء القدماء – فإذا كنا ننتقدهم أو نوجه إليهم اللوم على إهمالهم، فعلينا أن نسأل أنفسنا : متى قرأنا أعمال شيشرون وفرجيل بإمعان؟

وفى القرن الحادى عشر للميلاد حدثت فترة رواج اقتصادى، وهى فترة خفت فيها حدة التوتر فى أوربا المسيحية، فالغزاة الإسكندنافيون كان قد تم استقطابهم، كما تم

وقف المد الإسلامى، وظهرت نظم جديدة فى الكنيسة، وخصوصًا النظم الكلونية، ونعمت البلاد بفترة أمن وسلام، واستمر النضال من أجل البناء، ولكن الناس كان يحدوهم الأمل فيما هو أكثر من البقاء. فهنا وهناك كانوا يجدون الرخاء الذى يدفعهم إلى التأمل والتفكر وإلى المزيد من حب الاستطلاع والتعرف على ماضى البشرية جنبًا إلى جنب التعرف على قَدَرِهم فى عالم آخر.

وفى تلك السنوات المزدهرة لمع اسمان : هما **ألفريد العظيم** ملك وسكس Wesswx **وجيربرت** من أورياك. أما ألفريد والذى لا يزال يحظى بكل التقدير فى الأساطير الإنجليزية، فقد عاش فى نهاية القرن العاشر للميلاد، ولم يقم بتشييد الملكية الأنجلوسكسونية فحسب، وحقق انتصاراً فى حروبه ضد الغزاة الشماليين، بل ترجم إلى لغته العديد من الأعمال اللاتينية القديمة، ومنها "سلوى الفلسفة "من القرن السادس للميلاد لبوئثيوس، كما رعى الأدب الأنجلوسكسونى وكثيراً من مجالات الثقافة الأعظم قيمة أو نفعًا والقادمة عبر القارة الأوربية ؛ إلا أنه قدر لهذه النهضة أن تتوقف بعد سنة ١٠٦٦م.

أما جيربرت الذى سطع نجمه فى النصف الأخير من القرن العاشر للميلاد، فقد ترك ديره فى جنوبى فرنسا وتوجه إلى إسبانيا للدراسة، وعاد لكى يرأس مدرسة ريمس Reims الكاتدرائية، ولكى يشرف على تعليم أوتو الثالث إمبراطور ألمانيا المقبل. كما قام بتحرير منهج الدراسة فى مدرسته من كثير من القيود والتعقيدات، وأحيا الإبداعات القديمة لفرجيل، وهوراس، وتيرنس وجوفينال. كذلك قام بشرح القواعد الموسيقية الدقيقة باستخدام خيوط شديدة الحساسية ذات أطوال مختلفة أنيقة ؛ وقام بتشييد ساعة لتحديد الوقت، وآلة هيدروليكية تدار بالماء، وآلة فلكية قديمة مؤلفة من حلقات تمثل مواقع الدوائر الرئيسية فى الكرة السماوية، وهى تصور الكرة الأرضية، ومدارات الكواكب حولها، والنجوم السيارة فى السماء. كما قام بتقديم المعداد المستخدم فى تعليم الأطفال العد، مما سهل إجراء عمليات الجمع بسرعة.

ومن الطبيعى أن يعتبره الناس أحد السحرة ؛ بحيث يقال إنه صنع رأسًا من النحاس الأصفر كانت تخبره بكل شىء عن المستقبل. وهى التى أخبرته أنه سيصبح

أحد البابوات. وفى الحقيقة فقد تم اختياره بابا تحت اسم سيلفستر الثانى. ولكن يجب الحذر من عملية استحضار الأرواح، أو العرافة التى تخدع الأنصار المتحمسين للدين. ولقد توفى عقب تكريسه، ويقال إنه كان قد تاب وهو على فراش الموت لأنه قد باع روحه للشيطان.

وعقب وفاة شارلمان، فإن معظم المدارس التى كان قد تم تأسيسها أخذت فى التدهور والنقصان، والحقيقة أننا تعودنا دائمًا أن نوازن بين التعليم والمدارس لدرجة أننا قد ننسى أن المدارس فى متناولنا تقريبًا، وأنها من الناحية الاقتصادية تمثل التعليم العام. ولكن فى المجتمعات الخاصة فإن الطفل يتم تعليمه بانضمامه إلى مجموعة ممن هم أكبر منه فى العمل أو فى اللعب. وكثير من كبار المفكرين، من سقراط وحتى باسكال، وروسو، وميل، لم يذهبوا إلى المدارس العادية.

وبالنسبة للأديرة، فمع اهتمامها الرئيسى بالغناء السليم والإنشاد الدينى، فإنها وبوجه عام أدت دورًا مساعدًا لمدارس المرتلين الكنسية فى تدريب صغار المرتلين فى الجوقات الكنسية. وكان على هؤلاء أن يتعلموا قراءة وكتابة النصوص اللاتينية وكانوا فى حاجة إلى دراسة بعض قواعد اللغة اللاتينية والمفردات؛ لكى يقوموا بالإنشاد بطريقة سليمة، ويعرفوا مخارج الألفاظ.ولم يكن هذا بالشىء الصعب فى الدير حيث اللغة اللاتينية شائعة الاستعمال. فمعظم خريجى هذه المدارس تلقوا تعليمهم، وبلا شك فإن الكثيرين منهم حسّنوا من فرصهم للدراسة الخاصة. وعلى هذا الأساس فإن المدارس الديرية كانت مدارس مهنية. وكذا المدارس الكاتدرائية فهى بالنسبة لكل أسقف من المفترض أن تقوم بإعداد المترددين عليها لأن يكونوا قساوسة.

وبمرور الوقت ازداد الإقبال على تعلم القراءة والكتابة، وانتشرت مدارس المرتلين انتشارًا واسعًا، فها هو تشوسر يحدثنا عن "**أحد صغار رجال الدين المسيحى البالغ من العمر سبع سنوات، والذى تعلم كيف ينشد ويفسر؛ كما يفعل الصغير فى طفولته.**" كان الأطفال ينشدون الأغانى بطريقة جماعية تحت إشراف مدرسهم كما تعلموا الحروف الهجائية مرتبة على شكل أعمدة متقاطعة، ومن ثم جاءت الطريقة المعروفة لدينا باسم الكلمات المتقاطعة. وربما كانت هذه الأعمدة المتقاطعة موجودة فى كتب يتم

حفظها فى صناديق مصنوعة من قرون الحيوانات، وتتم كتابتها على قطع من الرق مغلفة بطبقة شفافة من العاج. كما كانوا يتدربون على الكتابة على ألواح مصنوعة من الشمع أو الإردواز، لأن الورق كان غاليًا جدًا بالنسبة للاستعمال. وبقدر الإمكان كان يتم تلقينهم اللاتينية. أما المدارس غير الدينية، فقد بقى منها القليل منذ أيام الرومان، وبدأت أيضًا فى الزيادة فى عددها بسبب زيادة الإقبال على التعليم الأولى – مما زاد من الفرص التى قدمتها المدارس الكنسية والديرية. كثير من هذه المدارس تم تخصيصها لأبناء المدن، وتم توجيه الدراسة فيها إلى التعليم التجارى، مع التركيز على الرياضيات واللغات الأجنبية. أما أبناء النبلاء فكان يتم تعليمهم على أيدى مدرسين خصوصيين ؛ أما البنات فكان يتم إرسالهن إلى مدارس الراهبات ليتعلمن.

والقليل من المدارس الكاتدرائية المبكرة قامت بدورها التعليمى من المرحلة الأولى إلى مرحلة التعليم العالى "الثانوى" ومن هذه المدارس تأتى مدرسة تعليم قواعد النحو والصرف فى كاتدرائية شارتر ذات الشأن الكبير فى القرن الثانى عشر للميلاد. وعن مناهج الدراسة فى تلك المدارس فقد سارت وفق النظام الرومانى حيث تقسيم الفنون الحرة السبعة إلى مجموعتين، المجموعة الأولى وهى ثلاثية، والمجموعة الثانية رباعية، واعتبرت المجموعة الثلاثية ذات مكانة أعلى من الرباعية. كانت المجموعة الثلاثية تتكون من النحو والبلاغة والمنطق ؛ وهى التى ساعدت على تقدير الدراسات اللاتينية القديمة حق تقديرها، وعملت على ازدهار الشعر والنثر اللاتينى، والتواصل الفكرى وإقامة الحجج والبراهين. أما المجموعة الرباعية فكانت تتكون من الحساب، والهندسة، والفلك، والموسيقا. ومن الطبيعى أن تكون الدراسات الخاصة بعلم الحساب بدائية، بينما كانت الدراسات المتعلقة بالفلك مرتبطة تمامًا بعلم التنجيم. وفى شارتر كان يتم تدريس الطب كذلك، على الرغم من أنه لم يعدو كونه نقلاً من النصوص القديمة، ومع ذلك فإن مدرسة شارتر كانت معنية بالعلوم الدنيوية أى غير الدينية ؛ وقام أساتذتها الملهمون بدفع الكثيرين من الطلاب للبحث والدراسة فى الطبيعة والعالم الخارجى.

أما عن الدراسة فى مدارس النحو فقد كانت شفهية بالدرجة الأولى، ذلك لأن المدرس كان لديه وحده نسخة الموضوع الذى يقوم بتدريسه. مما تطلب جهدًا خارقًا للتذكر. أما التعليم عن طريق التفكير والنسيان فقد كان يبدو شيئًا مضيعًا للوقت.

وكانت الساعات طويلة، خالية من أى نشاط رياضى مدرسى. كما كانت الرحلة فى طلب العلم نادرة، وكانت العقوبات صارمة ويتم توقيعها على أية إساءة للتصرف، كأن يتحدث أحد الطلاب بلسان قومه مما يعتبر بلاء يحل به.

ولقيت هذه المقررات إقبالاً شعبيًا. ففى لندن فى القرن الثانى عشر للميلاد كان طلاب العلم من مختلف المدارس يلتقون فى الكنائس ليناقشوا كثيرًا من قضايا القياس والمنطق. و"البعض" وكما يذكر أحد المعاصرين "كانوا يتجادلون لإثبات وجوههم وبطريقة استعراضية، والبعض الآخر للوصول إلى الحقيقة. بينما كان ينظر إلى بعض السوفسطائيين المخادعين على أنهم من طلبة العلم البارعين لما تتدفق به ألسنتهم من كلمات" وكان الأطفال يقومون بحفظ الأشعار اللاتينية، ويدرسون بعضًا من القواعد الأساسية وتصريف الأفعال.

وفى أواخر العصور الوسطى اتجهت المدارس إلى تحرير نفسها من سيطرة الكنيسة عليها. وكانت أول مؤسسة قامت بذلك فى انجلترا فى ونشستر Winchester، والتى تأسست سنة ١٣٨٢م. وبعد عدة سنوات أصبحت إيتون Eton أول مدرسة عامة، "عامة" لأنها كانت تقبل الطلاب من كل مكان، وليس فقط من المناطق المحيطة بها أو المجاورة لها.

وفى القرن الثانى عشر شهد التعليم تقدمًا ملحوظًا، حيث تزايدت أعداد المواد الدراسية، وأدى إقبال كثير من الطلبة النابهين على التعليم إلى أن تطور الجامعات من نفسها من مجرد مراكز تعليمية معينة، أو مجرد بؤرة يتجمع فيها عدد من الطلاب حول أستاذ مشهور لتصبح كليات وجامعات. ولم تكن كلمة "جامعة" Universitas تعنى أكثر من "مجلس" أو نقابة. وكان أول ذكر لها قد جاء فى خطاب للبابا إنوسنت الثالث سنة ١٢٠٨م أو ١٢٠٩م كما كانت أول جامعة فى سالرنو فى إيطاليا، وتبعها عدد آخر فى بولونا Bologna، وباريس، ومونبلييه، وأوكسفورد، وحققت هذه الجامعات استقلالها نسبيًا عن أساقفتها المحليين، ووضعت نفسها تحت إشراف البابا، لاعتقادها بأنه أكثر تحررًا وأكثر بعدًا.

قامت الجامعات بتدريس الفنون الحرة الثلاثية والرباعية، جنبًا إلى جنب العلوم الطبيعية كما وصفها أرسطو بذلك. هذه الدراسات كانت تشابه مناهجنا فى الآداب والعلوم، وكان ينظر إليها على أنها علوم عقلية أو دراسات تمهيدية ضرورية للمشتغلين بالفلسفة واللاهوت، وهى تخصصات جامعات الشمال، ومهمة بالنسبة لدراسة الطب والقانون وهما من تخصصات جامعات الجنوب.

كذلك كانت الجامعات الأولى ينقصها بعض التنظيمات أو بعض نظم الإدارة لأنه لم يكن لديها الأمناء، والمدراء، والعمداء، بل وحتى المبانى الجامعية. كما كانت شروط الالتحاق، وسن القبول غير محددة، ونسمع أن بترارك Petrarch قد تم قبوله فى جامعة مونتبلييه وقد بلغ من العمر الثانية عشرة ؛ وتم تقسيم الطلاب إلى مجموعات حسب الكليات. ففى باريس وفى غيرها فإن الطلبة الذين يدرسون الآداب كان يتم تقسيمهم إلى مجموعات حسب بلدانهم، وحسب أصولهم الجنسية. وعاش الطلبة فى غرف مشتركة فى المنازل وفى مساكن داخلية فى الأندية، مما دفع كثيراً من أهل الخير على إغداق المنح والهبات والأوقاف، وهى التى تحولت فيما بعد إلى كليات باريس، وأوكسفورد، وكامبريدج. وكان طلبة بولونا يشرفون على الجامعة، فيعينون الأساتذة أو يعفونهم من التدريس، ويفرضون عليهم الغرامات لغيابهم أو تأخيرهم بغير عذر مقبول، أو بسبب عدم ملاءمة المواضيع التى يدرسونها، أو لوضعهم بعض الأسئلة الصعبة فى الامتحانات.

وبذلك كانت جامعة بولونا عبارة عن نقابة من الطلبة، بينما فى أماكن أخرى كانت الجامعات عبارة عن نقابات تضم الأساتذة. وكان الأساتذة معتزين بأنفسهم، يقومون بالتدريس على منصة عالية، وهم يرتدون ملابس فخمة : هى رداء جامعى، وقبعة، وقفازات طويلة، وخواتم ذهبية، وحققوا لأنفسهم مكانة رفيعة مساوية لمكانة الفرسان وحاولوا جعل مناصبهم وراثية. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عن طريق اكتساب شعبية كبيرة، وتوددهم إلى الحكام، فضلاً عن أنهم كانوا يتقاضون أجورهم من المصاريف التى يدفعها الطلبة، إلا أنهم لم يتمتعوا بنوع من التثبيت فى وظائفهم بعد

فترة الاختبار، ولم يحصلوا على معاش عند نهاية الخدمة أو بلوغ سن التقاعد، كما لم يحصلوا على أية ضمانات. وعندما قام أعضاء جماعات الرهبان المتسولين باقتحام الجامعات فى القرن الثالث عشر للميلاد، فإنهم قوبلوا بعداء شديد، لأنهم كانوا يعيشون على جمع الصدقات ويعلمون بلا مقابل.

وكان اليوم الدراسى الفعلى يبدأ الساعة الخامسة أو السادسة صباحًا. حيث يحتشد الطلبة فى إحدى الغرف أو القاعات التى تم استئجارها، أو فى الكنائس، ويجلسون على مقاعد خشبية أو على حصير يفرش على الأرض، ويدونون معلوماتهم على ألواح مصنوعة من الشمع بالمرقم (*). وكان الأستاذ يقرأ عليهم بعض المختارات من النصوص ثم يقوم بالشرح والتعليق عليها، وعادة ما يسمح للطلاب بالنقد والتعليق عليها، حيث لم تتغير أصول التدريس كثيرًا، ولكن فى ظل ندرة الكتب وارتفاع أسعارها كانت فرصة القراءة نادرة، وكذلك كتابة المقالات، والتلخيصات وعمليات البحث والتحرى. وجرت العادة أن يأخذ الطلبة استراحة من التدريس عند العاشرة صباحًا لتناول طعام الغذاء "وكما هى العادة فى جامعة أوكسفورد حتى القرن الثامن عشر للميلاد" ثم يتم استئناف الدراسة إلى المساء، حيث يتحتم على الطلبة أن يتوجهوا إلى الفراش عند الثامنة أو التاسعة مساء على الأكثر.

كان الجدل أو المناظرة أحد الدروس الجامعية، إذ كان على الطالب النابه أن يقوم بمساعدة أستاذه بعرض موضوع من المواضيع، وعليه أن يناظر الحاضرين ويجادلهم مهما كان عددهم كثيرًا أم قليلاً، وأن يدافع عن وجهة نظره التى يعرضها فى رسالته فى مجال دراسته، وفى تلك الأثناء كانت تتوقف كل المجالات الدراسية الأخرى، لإتاحة الفرصة أمام أكبر عدد من الطلاب والزائرين للمشاركة، وكانت حلقات النقاش هذه بمثابة المباريات أو المنافسات الرياضية ولكن فى المجال الثقافى، ويلعب الأستاذ دور المنافس والمدرب فى نفس الوقت، ويلقى صاحب اليد الطولى الاستحسان والتصفيق.

(*) أداة مستدقة الرأس يكتب بها على ألواح الشمع "المترجم".

كذلك كانت تعقد حلقات المناظرة هذه عند الحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه. وفى ظل نظام النقابات، كان على الطالب أن يلتحق بالنقابة كأحد الأعضاء، وبعد فترة اختبار يعتبر حاملاً للبكالوريا أى مساوياً للعامل غير المتمكن الذى ينتقل من مكان لآخر لاكتساب الخبرة حتى يصبح عاملاً ممتازاً. وفى نهاية السنة السابعة بعد ذلك يستطيع أن يحصل على درجة الماجستير بعد أن يعطى محاضرة نموذجية، وكما يفعل أحد أرباب الحرف لأثبات جدارته، عند ذلك يتوج بلبس قبعة دالة على درجة الماجستير وكانت جامعة كامبردج تعقد امتحاناً خاصاً للخريج للحصول علي درجة الماجستير، فى قواعد النحو والصرف أو التدريس. ويقوم الشماس بإهدائه عصا للتأديب وقطعة من سعف النخيل أو مضرباً صغيراً لقطع سعف النخيل، وطفلا صغيرا. ويظهر الخريج مهارته فى استخدام عصا التأديب وسعف النخيل، ثم يقوم بدفع مبلغ للطفل كتعويض عن آلام الضرب، وهو مبلغ رمزى، كذلك يدفع مبلغاً آخر للشماس.

هذا الأستاذ الجديد أصبح من حقه الانضمام إلى نقابة المعلمين رسمياً. وعليه أن يقسم يمين الولاء لأساتذة الجامعة ومديرها، ويجلس على كرسى الأستاذ، وفى يديه جزء من أرسطو أحد الكتب المخصصة لذلك الغرض، كما يتم إلباسه خاتماً كدليل على ارتباطه الشديد بالعلم، وعندئذ يقوم زملاؤه من الخريجين الجدد بتهنئته مقبّلين إياه. ثم يقوم بدعوة ممتحنيه إلى مأدبة طعام، وهى عادة من العادات التى اندثرت مع الأسف. وفى إيطاليا، إذا كان هذا الشخص ثرياً فإنه يتحمل نفقات حفلة راقصة؛ وفى إسبانيا حفلة لمصارعة الثيران. وفى أحد التقارير الخاصة بعضو جديد بخيل جاء أن " **الناس الذين حضروا حفلةً لم يجدوا إلا القليل لكى يأكلوه لدرجة أنهم لم يكن لديهم أمل فى الشراب**". ولكن انظر التعليق التالى على شخص آخر حيث جاء فيه " **إنه بدأ حفله بالمترهبنين واستأجر عدداً من المستمعين**".

لقد كان معظم الطلبة فقراء طموحين، وجادين. وكثير منهم كان ممن التحقوا بالرهبنة حديثاً وأرسلتهم إبيرتهم التى تعانى الفقر، لذا كان عليهم أن يتسولوا بأن ينشدوا بعض الأناشيد الدالة على عبوديتهم عند أبواب الأغنياء، كما يذكر توماس مور ذلك، أو أن يعملوا كحراس لديهم. ويحكى لنا روجر بيكون قصة طفل عمل خادماً مدة

عامين وفى النهاية لم يجد من يعمله كلمة واحدة. إلا أن بعض الطلبة كانوا أثرياء واستطاعوا أن يتحملوا نفقات الملابس الفاخرة، والفراش الوثير، والانغماس فى الملذات فى الحانات. كما لم تكن هناك ألعاب رياضية منظمة، وهناك كثير من الألعاب - بما فيها لعب البلى، والوثب والغناء - كانت محرمة.

وكثيراً ما عبرت النفوس المكبوحة عن نفسها فى أحد أشكال العنف، كمعارك تنشب بين الطلبة بعضهم البعض وخصوصاً أبناء الشعوب المختلفة، أو فى مشاجرات بين أبناء المدن المختلفة، مثل المذبحة الرهيبة التى حدثت فى أكسفورد سنة ١٣٥٥م، ومات فيها الكثيرون. وفى بولون فإن أحد الطلاب هاجم زميلاً له بسيف قصير، وتم تغريمه لأنه ضيع وقت وجهد الأساتذة. أما فى ليبزج فقد قامت المشاجرات ضد القواعد التى تحرم جرح أحد الأساتذة أو إلقاء حجر حتى ولو أخطئ الهدف منه، أو حتى التقاط حجر وفى النية إلقاؤه على أحد الأساتذة.

لقد كانت معظم وسائل تسلية الطلبة ضارة وغير مفيدة إلى حد ما، ففى ألمانيا كانت هناك عمليات لإزعاج القادمين الجدد لكى يتخلوا عن طابعهم الريفى، ومثل هذا الحدث المثير للغضب تمت مواجهته سنة ١٤٩٥م باتخاذ القرر التالى **"ممنوع على أى شخص يلتحق بهذه الجامعة أن يقوم بالأعمال التالية: أن يوجه إهانة، أو أن يقوم بأعمال الشغب، أو إزعاج غيره، أو أن يرش عليه الماء أو البول، أو الغبار أو أية قاذورات، أو أن يسخر منه بالصفير، أو الصياح بصوت مزعج، أو أن يتجرأ بأن يتحرش به بأية وسيلة كانت، جسدية أو معنوية ، أو وصفه بأنه ريفى جاء إلى هذه الجامعة للدراسة".**

ولدينا من القرن الثالث عشر للميلاد دعابة من باريس. فقد اعتاد بعض الطلبة على حضور قط أليف إلى مساكنهم "فهو يأكل هنا بحريته" حسبما يقولون، "ويجعلونه يشاركهم فى لعبة النرد"، بل إنهم حاولوا أن يدربوه على إلقاء زهر النرد؛ إلا أنه كان يخسر. فقاموا بوضع رسالة حول عنقه يطلبون فيها ربع جالون من النبيذ وأطلقوا سراح القط. فعندما وصل إلى صاحب الحانة رده ومعه النقود ورسالة يقول فيها : "لا تجعلوه يرمى الزهر مرة أخرى، لأنه لا يجيد الحساب"، ولعل هذه كانت أول قصة مشوشة عن القطط.

ومثل هذه الألعاب التى كان يقوم بها الطلبة هى التى دفعت أحد الشعراء لأن يصور حالة الكسل هذه بقوله :

إن الوقتَ يمر

ولم أفعل شيئًا

إن الوقت يتكرر

ولم أقم بعمل شىء

وفى الوقت الذى كان فيه رفاقهم من الجادين يكدحون على أمل الحصول على عمل فى الكنيسة أو فى بلاط أحد النبلاء، فإن هؤلاء الطلبة كانوا يقضون وقتهم فى الشراب وفى ترديد أغانى السكارى فى الحانات، مثل الأغنية التى تقول : "**إن عزمى أكيد على أن أقضى نحبى فى إحدى الحانات**". وكذلك بعض الأغانى الجريئة الخاصة بالحب والشراب، وكذلك الأغانى ذات النغمات الحزينة والكئيبة أو الدالة على الاستسلام للقدر. لقد كان هؤلاء هم الرافضون، والهاربون من الحياة الرتيبة للمجتمع، ذلك لأن الجامعات كانت تقوم بتخريج أعداد كبيرة لتولى الوظائف العامة، وإثراء الحياة العقلية، وفى نفس الوقت تسرب منها عدد إلى عالم الرذيلة والسقوط والهاوية. ولقد مارس هؤلاء الخريجون مهنة التدريس بأساليب ملتوية، تماماً مثل الشعراء الرحالين، والمهرجين، ومثل الشحاذين واللصوص الحقراء. ولقد كان فرانسواز فيلون Francois Villon، رئيس آداب جامعة باريس هو مثلهم الأعلى والمتحدث باسمهم.

ولأن غالبية الطلاب ومدرسيهم كانوا مفعمين بالحيوية والنشاط وتحدوهم رغبة أكيدة فى التعليم وبالنسبة لهم لم يكن عدو الإنسان الأول هو الشيطان المغوى القديم، بل هو الجهل نفسه. "**إذ إن منفى الإنسان هو الجهل، ووطنه هو العلم**" هكذا قال الأسقف هونوريوس أسقف أوتون Autun فى القرن الثانى عشر للميلاد. وعلق على ذلك القديس أنسيلم St. Anselm من كانتر بورى قائلاً : "**إننى لا ألتمس أو أقصد أن أفهم كيف أؤمن، لكننى أؤمن أننى ربما أفهم**"، لذا كانوا يبحثون عن المعرفة فى الأعمال النفيسة جنبًا إلى جنب أعمال المفكرين العظام ؛ إن حب الاستطلاع هذا قد

اصطدم بكثير من الورعين والأتقياء. ففى الأديرة الكلونية فالراهب الذى يرغب فى قراءة كتاب وثنى كان عليه أن يبين الحقيقة عن طريق قيامه بحك أذنيه، "وكما تفعل الكلاب، لأنه ليس من الإنصاف أن نجعل الوثنى مثل هذا الحيوان"، ولكن الألفة مع الكتّاب القدامى أدت إلى احترام متواضع للدراسات الكلاسيكية، ممثلة فى الآداب جنبًا إلى جنب الفنون.

فأعمال النحت الموجودة داخل الكنائس، قد تم فيها تصوير الرسل وهم يرتدون العباءات الرومانية. وأخذ الناس يجمعون كل ما هو قديم. كما أن مجلس السناتو الرومانى أصدر قرارًا سنة ١١٦٢م ينص على أن أى شخص يحدث خدشًا أو إصابة بأحد الأعمدة الرومانية يعاقب بالموت. هذه الروح لحب وتقدير الماضى غرست حب الدراسات الإنسانية.

وقد صحب انتعاش الدراسات الكلاسيكية إعادة اكتشاف أرسطو. فكثير من مجموعة المبادئ الخاصة بالبحث العلمى أو الفلسفى، بأبحاثها الستة الخاصة بعلم المنطق، كان قد تم التعرف عليها فعلاً، فى ترجمة من القرن السادس الميلادى قام بها بوئثيوس. وفى القرن الثانى عشر للميلاد كانت معظم أعمال أرسطو وغيره من الفلاسفة قد تمت ترجمتها من اليونانية إلى العربية - غالبًا عن طريق السريانية - ومن ثم إلى اللاتينية مرة أخرى، سواء بطريق مباشر أو عن طريق ترجمتها إلى الإسبانية أو العبرية: وكثير منها قد فقد أو تُرجم بطريقة خطأ فى تلك الأثناء. وكما يقول أحد كبار المترجمين فى العصور الوسطى، وهو أديلار الباثى Adelard of Bath: "**إن النص له أنف من الشمع ممكن أن تتجه هنا أو هناك**". ولكن وبوجه عام فإن الأمانة فى المحصلة النهائية للنص الأصلى شىء يمكن ملاحظته.

إن أرسطو، "المعلم الأول"، وكما يسميه دانتى، كان ذا عقل من أكبر العقول على مدى التاريخ الثقافى، ولعله فعلاً كان أعظمها، لقد قدم نظامًا متكاملاً لتفسير الكون، إلا أن النظام الميكانيكى الأرسطى تعارض مع النظام الكنسى، وذلك لأن أرسطو لم يتخذ الترتيبات المسبقة تحسبًا للرغبة الحرة، الإلهية فى التغيير، أو حدوث المعجزات، أو الإلهام. لذلك فإن الحكم الخيّر على الأرواح البشرية قد اختفى تمامًا مع الخلاص والعقاب، ولم يبق للرب الكثير مما يفعله فى عالمه.

إن عدم استقامة الرأى عند أرسطو سببت له كثيراً من المخاطر التى رفعت الكنيسة رايات الاحتجاج من أجلها. كما أن النقد غير البناء أظهر كثيراً من أخطائه ؛ فقد ذكر أحد المترجمين أنه قد رأى قوس قزح مرتين فى السنة، بينما لم يذكر أرسطو سوى أن ذلك يحدث مرتين فقط كل خمسين سنة. ويذكر بترارك : « إننى أعارض أرسطو عندما يعارض أرسطو الإدراك العام». ولقد أطلق الرأى العام عليه «ابن الشيطان»، وهو الذى حصل على الحكمة بسرقته لكتاب الأسرار الخاص بسليمان من بيت المقدس. كذلك ذكروا كيف أنه أحب امرأة تافهة وبشكل مهين لدرجة أنه كان يحبو على رجليه ويديه وعليه سرج، وهى تركب فوق ظهره، وتلهبه بالسياط فى نشوة الباغية المنتصرة.

ومع هذا فإنه لا يمكن إنكار ما وصل إليه أرسطو من سمو فكرى، كما لا يمكن لأى كنيسة أن تلغى تعاليمه بمجرد إصدارها بعض القرارات ضده ولكون العلم مقبولاً أو موافقًا للعقل ولاطراد السلوك الإنسانى. فقد لقيت آراؤه قبولاً، على الرغم من احتمال رفض أى شخص لنظرته الفلسفية.

إن أعمال أرسطو حفزت العلماء وطلبة العلم لدراسة الجدل، كمادة منفردة بذاتها وكأسلوب علمى. والجدل ليس أكثر من شكل من أشكال المنطق المنظم المبنى على نظرية أرسطو، ثم تطور بواسطة القياس، وفقًا لما يقوله الفيلسوف المعاصر ر. و. سوثرن R. W. Southern بأن الطلبة يجب أن يتعلموا كيفية ترتيب الأنماط المختلفة للمناقشة، وأن يكتشفوا أسباب الخطأ، ويخلعوا القناع عن عملية الخداع. ومرة أخرى سيجد الطالب، أنه بدلاً من التعدد المذهل الذى يواجه الباحث بشكل طارئ، فإن نقاط النقاش الجيد محددة العدد تمامًا، ويمكن تصنيفها إلى عدة نقاط أساسية.. إن المنطق كان هو الأداة المنظمة فى عالم مشوش تمامًا. عالم طبيعته مشوشة، عالم به كثير من القوى الخارقة، به مس من الشيطان وغيره، عالم ليس للعقل سلطان عليه سوى المنطق، والذى كان فى البداية غامضاً، إلا أنه سرعان ما فتح نافذة للنظريات المنظمة حول العالم ولعقل الإنسان.

لقد منح المنطق الناس فهمًا جديداً مبنيًا على الاقتناع، حيث كان على الإنسان أن يقبل أى شئ دونما تفكير أو دونما استفسار. فالشخص يلاحظ، ويتحدى، ثم يرتب ويفهم، ويحسم الأمر بشكل عقلانى، ثم يعزز ما يثق فيه، ويفسر التناقضات الواضحة فى ظل السببية ؛ واستخدام السببية كان ينظر إليه على أنه وسيلة الفهم للحقيقة المجردة. لذلك قيل : "إن الثقة التامة يجب ألا تكون عمياء".

إن المفكرين الجدد كانوا يركزون فى تأملاتهم على القضايا الكلية، والتى كانت قد شغلت فكر كل من أفلاطون وأرسطو والتى اختلفا فيها اختلافًا بينًا. فالعالم يتكون من عدة ملكيات فردية، وأسماء ذاتية، فالسيارة تدل على اسم ذات موجود، إنها ملكية، ولكن هل السيارة تدل على اسم جمع موجود ؟ إنها شىء مملوك، مفهوم، وتصورى ؛ لا نستطيع رسمه، فهو يدل على كل السيارات وليس سيارة واحدة بعينها. وعلى هذا فهل يمكننا القول: إنها شىء موجود؟

وللرد على هذا السؤال، فهناك إجابتان، فالواقعيون يجيبون : فعلاً، إن السيارةَ كاسمِ ذاتٌ موجودٌ – فى العقل البشرى – فالإنسان عادة ما يرمز إلى الذات بشىء تقريبى. والحقيقة أننا نستطيع أن نتصور السيارة الحقيقية، وهذا دليل على وجود تلك الذات. أما الإجابة الثانية فهى إجابة أصحاب مذهب "الاسمانية"، وهو مذهب فلسفى يقول بأن المفاهيم المجردة، أو الكليات، ليس لها وجود حقيقى، وأنها مجرد أسماء ليس إلا، فعلاً ليس هناك مثل هذا الشىء كالسيارة بوجه عام. وعندما ندع الأسماء الكلية ونتجه إلى الأسماء المجردة، فإن القضية تصبح أكثر وضوحًا. فماذا عن العدالة، والجمال، والحقيقة ؟ فلا يوجد هناك دليل على وجودها بشكل مستقل عن تفكير الإنسان.

وعبر عدة قرون تمت مناقشة السؤال المطروح عن الكليات وبشكل مختلف فيه، وما زالت هناك العديد من الأبحاث التى تدور حول هذا السؤال، وهى أبحاث مستنيرة. فهل كان السؤال فعلاً مهمًا جداً، أم أنه مجرد واحد من المواضيع التى غدت مهمة لأن الفلاسفة والمؤرخين قد تحدثوا عنها كثيراً ؟ كما أن الخلاف حول هذا الموضوع يعد مهمًا لما يتضمنه الموضوع واتساع نطاقه. فإذا سرنا وراء أصحاب مذهب "الاسمانية"

الذين يؤكدون بإيراد الدليل أو الحجة بأن الأسماء المفردة موجودة، فماذا عن المعنى الروحي غير البادى للحواس أو المدرك بالعقل حسبما تعتقد الكنيسة ؟ وبدلاً من الواقع أو الحقيقة هل هذه الدلالة واضحة وملائمة لجموع المسيحيين فحسب ؟ فماذا يعنى الثالوث الأقدس ؟ وكيف يمكن لثلاثة أن يكونوا واحداً، أو لواحد أن يصبح ثلاثة ؟ وهل هذه الكلمات تحدد الحقيقة أم أنها مجرد كلمات ؟ وبهذا فإن أصحاب مذهب "الاسمانية" بمسلكهم هذا يوحون بأنهم اعتنقوا بعض الأفكار المتطرفة للهرطقة.

ولقد استمر الجدل حول الأسماء الكلية تحت مسميات أخرى. فالعلم يميل إلى جنب أصحاب مذهب "الإسمانية" بينما الاستعمال الشائع والبحث التحريرى يفضلان القول بأن للمادة وجوداً حقيقيًا مستقلاً عن إدراكنا العقلى لها، أو الواقعية بعبارة أخرى. وعندما أعلن موسولينى أن الدولة لم تقم من أجل الناس، بل إن الناس قد وجدوا من أجل الدولة، فإنه بذلك يعبر عن وجهة نظر الواقعية. وعندما يموت إنسان فى سبيل الشيوعية أو فى سبيل الرأسمالية، فإنه بذلك يحيى الواقعية بأنفاسه الأخيرة.

وفى بداية القرن الحادى عشر للميلاد قام بطرس أبيلارد Peter Abelard بإيجاد حل وسط بين النظريتين، ووفقًا لما يرويه الفيلسوف موريس دى وولف Maurice de Wulf فإن أبيلارد يقول : **على الرغم من وجود أفراد، وعلى الرغم من أن كل واحد منهم مستقل عن الآخرين فى وجوده، فإن العقل مع هذا تتكون لديه فكرة عامة عن البشرية تخص كل واحد منهم ؛ ولكن هذا الشكل من التعميم هو نتاج لنشاطنا المتعلق بالمفاهيم ولا يؤثر بحال فى الموجود الحقيقى.**

لقد كان أبيلارد واحداً من الشخصيات البارزة فى وقت تميز بعدم مراعاة الشخصيات بل والضغط عليها. وفى تاريخ الحياة الثقافية فإنه يعد واحداً من كبار المثقفين ؛ وممن حظوا بشهرة واسعة، وتمتعوا بحب كبير، على الرغم من أنه كغيره ممن تمتعوا بذلك الحب لم يكن إلا واحداً من أبناء المدن. وعندما بلغ العشرين من العمر ظهر فى باريس، وتحدى المتعلمين من الأطباء ودحض آراءهم، وما لبث أن أسس مدرسة خاصة به. وحظى بشعبية هائلة – باستثناء ذلك – بين المدرسين الذين أقفرت فصولهم من الطلبة، وسرعان ما لقب بلقب «وحيد القرن» الذى لا يقهر. ثم وقع فى حب ابنة أخ كاهن نوتردام الجميلة المتعلمة هيلواز Heloise، فرزق منها بطفل، أطلق عليه

اسم معلم الأسطرلاب. وقام الكاهن الغاضب بالقبض على أبيلارد وإخصائه، ولم يكن أمامه سوى الالتحاق بأحد الأديرة، بينما تحولت هيلواز وتحت إصرار من والدها أيضا إلى راهبة. فقامت بكتابة العديد من الرسائل تعبر فيها عن حبها واشتياقها له، كما تعبر عما كانت تعانيه من كبت وسوء حظ محبوبها. "ويذكر أحد المؤرخين أنها استطاعت أن تكتب ما كتبت لأنها كإحدى الراهبات كان في مقدورها أن تصل إلى مكان مخزن الرق المستخدم في الكتابة في الدير".

لقد ترك لنا أبيلارد عدة إسهامات في الفلسفة، والمنطق، وعلم الأخلاق، ولعل أهم كتبه تأثيراً هو كتابه **"نعم ولا، أو من جهة ومن جهة أخرى"** وهو عبارة عن قائمة بها كثير من المتناقضات الواضحة في الأقوال الواردة في الإنجيل، ولدى آباء الكنيسة، مع بعض الاقتراحات للتوفيق بين الجمل المتعارضة. كذلك قام أبيلارد بعمل شيء لتحرير المرأة، وكما يذكر فردريك هير Friedrich Heer في كتاباته : إن أبيلارد أعلى من مكانة مريم المجدلية، كقديسة تناصر الخاطئات من النساء، بأن جعلها في مكانة أعلى من قديسي العصور الوسطى المناضلين، لذا فإنه قام بإدخال عدد منهن في جماعة القديسة مريم المجدلية التي أنشأها. كما حث شباب ونساء أوربا على أن يفكروا جيداً وأن يبحثوا عن الحب بشغف. وأخيراً، فإن تأثيره الشخصي جعل من جبل القديس جنيفيف شمال بنك باريس مركز الحياة الثقافية لباريس والعالم الغربي.

وكان عدو أبيلارد الرئيسي هو القديس برنارد الكليرفوي، حيث كان برنارد يتبرأ من التفسير الإنساني كوسيلة لبلوغ الحقيقة الإلهية، لقد كان مثقفًا ضد المثقفين، فقد أصدر أوامره إلى أتباعه من رجال الدين بأن يبتعدوا عن مدارس مدينة باريس المنغمسة في الترف والإثم لإنقاذ أرواحهم – **"سوف تعثرون على الكثير في الغابات بشكل أكبير مما تجدونه في الكتب. إن الأشجار والأحجار سوف تعلمكم أكثر من أي مدرس"** وضرب لهم الكثير من الأمثلة التي ترتاب في العلوم، والفلسفة، والذكاء التأملي والتي تثير بعض الشغوفين من المؤمنين. كما أمر برنارد بعقد محاكمة لأبيلارد لاتهامه بالهرطقة ؛ إلا أن أبيلارد كسب الورقة الرابحة بموته قبل أن تصدر روما قراراً ضده.

وكان أسلوب أبيلارد وزملائه الفلسفى يعتمد على التعمق فى الفلسفة، واللاهوت ودراستها لعدة سنوات. كما أن "السكولاستية Scholasticism (*) " وكما يذكر أحد العلماء المحدثين أنها : "جوهرية لتطبيق مبدأ السببية على الوحى أو سفر الرؤيا" فهى تقبل ما جاء فى الكتاب المقدس من عبارات وكذلك كتابات الملهمين من الكتاب بلا مناقشة، ولكنها توضحها أو تفسرها من خلال السببية، فضلاً عن أن الغموض الذى يحيط بالثالوث المقدس، على سبيل المثال، هو من طبيعتها المبهمة، لكن الفلاسفة السكولاستيين دافعوا عنها . كما أنه من السهل توضيح مفهومه من خلال التحليل المستنير. وهكذا فإن العلة أو السببية فى إمكانها التعامل مع أهم أركان العقيدة. كذلك تمثل أسلوب الفلسفة السكولاستية فى شكل المناظرة ؛ حيث يتم طرح مشكلة أو سؤال، ويتم عرض وجهات النظر المؤيدة والمعارضة مع عدم محاولة إحداث توازن بينهما. هذا الأسلوب قد سار عليه توماس الأكوينى فى بحثه اللاهوتى الشامل Summa Theologica0 وبعد سنوات عديدة، فقد تكرر ذلك فى أبحاث هيجل، عن التضاد والتركيب، ومازال هذا الأسلوب مألوفًا، وبشكل جوهرى فى قاعات محاكمنا.

إن الأسلوب السكولاستى شجع التأمل، وساعد على رقى العقل، وتشحيذ الأذهان لدى الباحثين، كما أثار الحمية لدراسة الفلسفة فى المدارس على حساب الدراسات الإنسانية والعلمية ولإيجاد حل وسط بالطبيعة، فإن هذا الأسلوب لم يؤد إلى اكتشاف حقائق كبيرة، بل إنه أدى إلى الإفتاء فى قضايا الضمير ومسائل الخير والشر فى السلوك وبطريقة خالية من التشويق، بل وإلى نتائج سخيفة ومنافية للعقل أحيانًا. إلا أنه ترك أثره حتى فى لغتنا، وكما كتب ج.ج كولتون G.G. Coulton يقول : (عندما تلتقط آذاننا ما تتفوه به شفاه أحد العمال العاديين فى جملة مثل "إنها ليست كمية الطعام تلك التى أعنيها، بل هى النوعية" فإن هذا الشخص يصور لنا رغبته بسهولة ويسر أكثر مما استطاع كثير من المثقفين الرومان أيام شيشرون).

(*) مذهب فلسفى ساد فى القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، وقد بنى على منطق أرسطو، ومفهومه لما وراء الطبيعة، ولكنها اتسمت فى أوربا الغربية بإخضاع الفلسفة للاهوت، ومن أبرز رجالها توما الأكوينى الذى حاول أن يقيم صلة عقلانية بين العقل والدين "المترجم".

إن حرية التأمل السكولاستي، والسلوى، وتأمين العقيدة تم وضعها معًا فى تعاليم مذهب الحقيقة الثنائية، فهناك - الحقيقة الفلسفية، المعتمدة على السببية، وهناك الحقيقة الدينية، والمستقلة تمامًا عن السببية الإنسانية وهى فى مكانة أعلى منها. وليست هناك مشكلة فيما لو بدت هاتان الحقيقتان متعارضتين، لأنهما لا يمكن إلا أن تتعارضا، لأنهما تكمنان فى أشكال مختلفة للحقيقة، كما أنهما غير قابلتين للقياس. لذا فإن أى عالم أو فيلسوف حر فى أن يصل إلى نتيجة ما، وأن يمارس الإيمان أو العقيدة بلا أى اضطراب عقلي. وإن كان هذا التوافق بين الحقيقتين غير معروف فى أيامنا هذه.

كما أن حقيقتي الإيمان والسببية قد تم الجمع بينهما وبشكل رائع على يد توماس الأكوينى فى بحثه اللاهوتى الشامل. وبعد وفاة توماس بستمائة سنة أعلن البابا ليو الثالث عشر وبشكل رسمى أن هذا الكتاب يجب أن يكون هو الأساس فى دراسة اللاهوت فى الكنيسة. كما أن المدرسة التوماسية الجديدة ما زالت مزدهرة.

كان الأكوينى يدعو إلى إيجاد نوع من الواقعية المعتدلة حيث نادى بقبول العقيدة وكما وصلتنا عن طريق المسيح، والكنيسة، وآباء الكنيسة. وقبول السببية لأنها هبة الله للإنسان، وأنها يجب أن تؤكد حقيقة الإيمان، فإذا فشلت فى تحقيق ذلك، فإنها تكون قد انحرفت عن الطريق السوى. ولقد قدم لنا أرسطو الفيلسوف أسلوبنا المنطقى كما قدم لنا أفضل تعبير لما حققته السببية ولم يكن مؤمنًا "مسيحيًا". لذا، فإن الأكوينى يقدم لنا عدداً غير محدود من المناقشات التى تدور حول العقيدة، ومعها عدد من الآراء المؤيدة والمعارضة لها، فضلاً عن أنه استشهد بأرسطو كشاهد له وزنه، ثم وصل إلى الحل، وأخيراً شرح الخلافات الظاهرية. وعلى الرغم من أن الأكوينى كان مدافعًا عن المسيحيين، إلا أنه منح فرصة كبيرة للسببية، جاعلاً منها المهيمن على معالم التجربة والمعرفة، وهكذا فإنه شجع الفلاسفة على التمتع بحرية أكبر.

ومثلما قام الأكوينى بجمع وتصنيف علوم اللاهوت، فقد قام أشخاص آخرون بنفس الجهد فى علم القانون، وهناك نوعان من القانون: نوع من القانون المتعلق بالعرف، ونوع آخر هو عبارة عن مجموعة الأوامر أو المراسيم، أو حسبما نقول القانون

الوضعى، أو التشريع - فالقانون العام يعتمد على ما توارثناه من الزمن السابق، وهو يختلف من إقليم لآخر، بل وحتى من قرية إلى أخرى ؛ باستثناء انجلترا، لأن تقاليدها متوارثة بشكل يجعلها صالحة للتطبيق فى أضيق نطاق. هذا إلى جانب أن الكنيسة والحكام العلمانيين كانوا يطالبون بالتنظيم، فالبابا إيربان الثانى ذكر سنة ١٠٩٢م : «إن الرب الخالق قد قال : "اسمى الحقيقة"، ولم يقل : "إن اسمى هو العادة".

والقانون الوضعى ينقسم إلى شقين : كنسى ومدنى ، فالكنسى منهما هو ما يختص بشخص البابا، ورجال الدين، والقرارات الدينية، والمراسيم أو الأوامر التى تصدرها السلطات الدينية. ولقد تم جمعها وترجمتها على يد الراهب جراتيان Gra-tian حوالى عام ١١٤٠م، تحت عنوان : توفيق القوانين الكنسية المتعارضة Concordia Discordantium Canonum ، ويتضح أن الهدف منها هو الجمع، أو الشرح أو التوضيح، والتوفيق بين القوانين الكنسية المتناقضة غالبًا. وبذلك أوجد جراتيان للكثير ممن أتوا بعده مجالاً جديداً للدراسة، وكذلك حرفة جديدة، وهى حرفة ممارسى المحاماة. وكان للقانون الكنسى سلطات قضائية ثلاث : سلطات على الأشخاص، أى سلطة على كل رجال الدين، وسلطات على ما تصدره المؤسسات أمثال المؤسسات الكنسية، وعلى الممتلكات، والزواج، والوصايا، والرهونات، والعقود المبنية على الثقة، وخضعت لسلطات الجرائم المتعلقة بالخطايا والآثام، والهرطقة، والخلافات، والحنث بالأيمان، الربا، وبعض الجرائم الأخرى، مثل الجرائم الجنسية. وهكذا ظهر إلى الوجود نظام المحاكم الكنسية جنبًا إلى جنب المحاكم المدنية.

أما مؤسسة القانون المدنى فقد بدأت بإعادة اكتشاف مجموعة القانون المدنى الرومانى للإمبراطور جستنيان، وذلك فى القرن الحادى عشر للميلاد، والقائمة أساساً على السلطة الإمبراطورية وليس على أساس السلطة البابوية ؛ إلا أن الحاجة الملحة إلى محامين مدنيين والناجمة عن استخدام هذه القوانين كانت من أهم العوامل التى ساعدت على بقاء هذه المهنة. فالحكام كانوا فى أمس الحاجة للحصول منهم على النصح ودفعوا لهم الكثير مقابل ذلك ؛ كما أن الجامعات الجديدة وبصفة خاصة جامعة بولونيا قدمت مجالاً كبيراً للتدريب العملى على القانون، ومنحت كثيراً من الدرجات، ووفرت الوظائف المرموقة والمربحة للملتحقين بها فى هذا المجال.

أما العلم، أو محاولة الحصول على المعلومات عن الكون المادى عن طريق الملاحظة المتأنية والتدقيق، فقد شهدت صحوة منذ بايات القرن الثانى عشر للميلاد. فقد جرت فى مدرسة شارتر أول محاولة لتفسير الظواهر المحيطة بعالمنا بردّها إلى أسباب طبيعية. "فالفكرة العظيمة هى التى مكنت من انتشار العلم وتطوره منذ ذلك الحين".حيث كتب أحد مؤرخى العلوم وهو أ.س كرومبى A. C. Crombie يقول : "هل كانت فكرة التفسير المنطقى أو العقلى تعتمد على الإثبات وكما هو الحال فى البرهان الهندسى؛ حيث يتم استنتاج البرهان أو الدليل من مبدأ عام أو قاعدة عامة" هذه الفكرة الكبيرة أو العظيمة كانت الأساس الذى سار عليه أرسطو وكذلك اليونان. "لقد كان فكرهم المنظم هو الذى تفهم العلم، كلما أمكن، وهو الوسيلة للاستدلال على الحقائق التى يتعذر إثباتها أو إقامة الدليل عليها من المبادئ الأساسية". وينبغى أن نشير إلى أن العلم فى العصور الوسطى كان ينظر إليه على أنه فرع من فروع الفلسفة أكثر منه دراسة مستقلة حقًا، إن الكثير من العلوم الطبيعية قد وصلتنا فى عصرنا الحالى عن طريق الفلسفة الطبيعية.

كما أن القوة المقنعة لدراسة العلوم والرغبة فيها جاءت مع الترجمات من اليونانية والعربية، ترجمات أرسطو أولاً، ثم إيوكليد، وبطليموس ، ثم الكثير من أعمال علماء الطبيعة العرب واليهود الذين استحوذوا على خيال الأوربيين. وأدرك العلماء أن عالم الطبيعية لم يعد مجرد مجال كئيب لإجراء التجارب وتدريب النفس على المثابرة، بل هو عمل فنى من الطراز الأعلى أوجده الخالق تعالى. ولقد كتب العالم الموسوعى فنسنت البوفى فى القرن الثالث عشر للميلاد فى مقدمة كتابه الذى يتضمن جدولاً كبيراً يظهر المواقع النسبية لجميع الكواكب السيارة، كتب : "إننى مدفوع بحلاوة الروح نحو الخالق والمهيمن على هذا الكون، لأننى أتبعه بمهابة كبيرة وإجلال عندما ألاحظ عظمة وروعة واستمرارية ما خلقه".

مثل هذه الاعتبارات سرعان ما أدت إلى فكرة ضرورة تمحيص العموميات عن طريق الملاحظة الدقيقة، وخلق مواقف لدراستها عن طريق التجريب. من ذلك أن ألبرت الكبير وهو أحد فلاسفة الدومنيكان فى القرن الثالث عشر للميلاد، والذى أجرى عدة

تجارب على النباتات يؤكد فى قوله : "إن العلم الطبيعى لا يتكون من مجرد التصديق على ما قاله الآخرون، ولكن من خلال البحث عن أسباب الظواهر" وفى نفس الوقت فإن أحد رؤساء جامعة أوكسفورد من الفرنسيسكان وهو روبرت جروستست وهو أسقف لنكولن يقترح نظرية منظمة للتجربة العلمية. لقد كتب فى علم الفلك، والرياضيات، والفيزياء، والبصريات، كما قدم النظرية القائلة بأن الطاقة الضوئية هى أساس الظواهر الطبيعية ؛ بحيث أُطلق عليه : أ٠س٠ كرومبى المؤسس الحقيقى للفكر العلمى فى جامعة أوكسفورد فى العصور الوسطى، بل والفكر الإنجليزى الحديث. كما كان أيضًا مفكرًا دينيًا لامعًا، عرف اللغة اليونانية جيدًا إلى جانب إلمامه ببعض العبرية.

أما تلميذه فى جامعة أوكسفورد وهو روجر بيكون فقد اكتسب شهرة تفوق أستاذه بكثير، فهو الذى أعلن أن الظواهر الطبيعية ما هى إلا نتيجة لتأثير القوة فى المادة، وأن تلك القوة خاضعة بشكل ثابت وغير متغير لقانون الطبيعة، كما دعم الرأى القائل بالتجريب معتقدًا أن النتائج التى تم التوصل إليها عن طريق الجدل لابد من اختبارها بطريقة عملية. لقد كان روجر واسع الخيال، فتنبأ باستخدام الآلات فى النقل برًا وبحرًا وجوًا، كذلك بوجود عالم تتحكم فيه مجموعة من التقنيين المتخصصين من صفوة العلماء٠ وفى نفس الوقت فقد اقترح شن حرب صليبية علمية على الأراضى الإسلامية لإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية وإبهارهم بالعلم الأوربى. كما كان بيكون شخصية مبهرة، وإن كان الكتاب المحدثون يميلون إلى وضع إنجازاته العلمية فى منزلة أدنى من إنجازات جروستست.

وكانت هناك كثير من الأمور التى أعاقت التقدم العلمى ولفترة طويلة، من أهمها الحالة البدائية التى كانت عليها الدراسات الرياضية، وبوجه خاص عدم كفاءة الأعداد الرومانية المستخدمة فى الجمع. ومما لا شك فيه أنه كان لظهور الأعداد العربية "ذات الأصل الهندى" أثره فى القرن الثانى عشر للميلاد فى تمكين العلماء - جنبًا إلى جنب التجار، ورجال المال والأعمال - من أداء أعمالهم بكفاءة وسهولة ويسر، كما تيسر

التعرف على علم المثلثات فى القرن الثانى عشر أيضاً والإستفادة منه. وتمت استعارة كثير من الأجهزة الفلكية القيمة من العرب، مثل جهاز ذات الربع(*)، والجداول المتقاطعة، والأسطرلاب، وهى التى كان يستخدمها العرب لتحديد مواقيت الصلاة واتجاه القبلة. ولقد وضع تشوسر بحثًا عن الأسطرلاب، من المحتمل أن يكون قد ألفه لابنه الذى كان يتلقى تعليمه فى جامعة أوكسفورد.

وهناك بعض الجهود التى تم تنفيذها فى مجال الفيزياء والميكانيكا فى جامعات باريس وأوكسفورد. حيث نسمع عن بعض التجارب فى مجال الجاذبية المغناطيسية فى القرن الثالث عشر للميلاد. وفى علم طبقات الأرض "الجيولوجيا" فقد ركز ألبرت الكبير دراسته على بعض البقايا المتحجرة. فضلاً عن أن التجارب التى أجريت على النباتات فى الحدائق قد أفادت المدارس الطبية، وتم تدوين كثير من المعلومات عن الأعشاب. وفى مجال علم البيولوجى فإن العديد من الدراسات تركزت أساساً على الملاحظة الدقيقة لعالم الحيوان، كما أن فردريك الثانى فى كتابه عن فن القنص باستخدام الجوارح قد اقتحم مجال العلم فى دراسته لتشريح الطيور، وعاداتها، وهجراتها، وعملية طيرانها.

كذلك كرس كثير من العلماء اهتمامهم لدراسة القدرة على تحويل شىء مبتذل إلى شئ نفيس والتى تطورت إلى علم الكيمياء. وترجع أصول هذه الدراسة إلى أزمنة بعيدة. **فمصر فى عصورها الإغريقية والرومانية عرفت التقطير لاستخراج الزئبق، والزرنيخ، والكبريت. كما قدم العرب كثيراً من الوسائل فى علم الميتالورجيا "علم المعادن"، وصناعة الزجاج، وفن صنع الألعاب النارية واستعمالها**. والنظرية الكيميائية التى تقرر أن كل مادة تتركب من خليط من عدة عناصر ؛ وعلى هذا فإن الذهب هو أكثر المواد نقاء، ولا يتطرق إليه الصدأ ؛ كما أن المواد الأساسية يمكن تحويلها إلى مواد أكثر نقاء بواسطة الجوهر أو العنصر الخامس أو حجر الفيلسوف، ويبقى فقط اكتشاف حجر الفيلسوف. ولقد أدى الجهد المبذول إلى التشجيع على البحث والتحرى

(*) هو أداة تستخدم فى الفلك والملاحة لقياس الارتفاع تتألف من قوس مقسم إلى ٩٠ درجة. "المترجم".

والتجربة وتأسيس علم الكيمياء. ولقد أصيب الكيميائيون بكثير من الإحباط، وبشيء من العدل نستطيع القول إن ذلك يعود إلى أن من أتى بعدهم قد اكتشفوا الآن الجوهر، أو حجر الفيلسوف، وببساطة فقد استطاعوا حساب عدد البروتونات في الذرة.

لقد سبق أن تحدثنا عن ممارسة الطب، فلقد كانت هذه الممارسة طوال السنوات الطويلة والمظلمة ليست أكثر من ممارسات طبية شعبية، اشتغل بها العشابون، ومجبرو العظام والسحرة أو العرافون. كما كانت الأديرة تعين واحداً من الرهبان ليقوم بعمليات الفصد، وما زالت هناك بعض كتب فصد الدم الإنجليزية من القرن العاشر للميلاد. ولقد بدأ الغرب الأوربي يعرف علم الطب عندما وصلت إليه كتب اليونان والعرب، وبخاصة أعمال جالينوس وابن سينا، في القرن الحادي عشر للميلاد.

وفي سالرنو في إيطاليا تم إنشاء أول مدرسة للطب، ومما يبدو مثيراً للدهشة أنها كانت على مستوى عال ومستنير. وبعد سالرنو، فإن كثيرًا من مدارس الطب أقيمت في بولونيا، ومونتبلييه وفي أماكن أخرى ؛ إلا أن تقدم علم الطب واجه بعض المعوقات من أهمها عدم معرفة الكتابات القديمة والعربية المعرفة التامة، إلا أن الممارسة العملية غالبًا ما تبعد عن الطب النظري، وكما هو الحال في الجراحة، وفي المستشفيات، وفي معالجة الأمراض المعدية بواسطة الحجر الصحي أو العزل، كذلك تم فهم الطب الوقائي: فقد كان لدى البندقية مؤسسة للصحة العامة تعود إلى سنة ١٣٧٧م.

ومع النشاط العقلي للعصور الوسطى المتأخرة، فإن بربرية العصور السابقة كانت آخذة في الانتشار، إن لم يكن من نافلة القول بأنها اختفت. فارتفع مستوى الثقافة العام ؛ وأصبحت القراءة والكتابة شيئًا مألوفًا، وعندما قام القديس برناردينو بإلقاء عدة خطب في ساينا Siena في بدايات القرن الخامس عشر للميلاد، فإن أحد العمال المشتغلين بصناعة الصوف قام بتسجيل خطبه باستخدام المرقم على ألواح شمعية وبطريقة شخصية مختزلة. ولأن المنح الدراسية كان يتم تقديمها من الأديرة، فإن الثقافة أصبحت وقفًا على رجال الدين، أمثال دانتي، وتشوسر. إلا أن بعض بلاطات الملوك والأمراء أخذت على عاتقها تشجيع التعليم. فكان الفرسان والسيدات يلتقون في الصالونات الأدبية لكي يستمعوا إلى القصائد الشعرية، ولكي يتناقشوا معًا

حول ما يجب أن يكون عليه سلوك الفارس. وحتى أبناء الطبقة البورجوازية فقد أظهروا تقديرهم للأدب والنماذج الشعرية المختلفة. ولم تعد النساء المتعلمات، وكذلك المثقفات أو ذات الاهتمامات الأدبية يشكلن ندرة في المجتمع. من ذلك أن زوجة وبنات جيوفاني دى أندريا، وهو أستاذ القانون فى القرن الرابع عشر فى جامعة بولونيا، قد تم الاحتفال بهن لتعلمهن، ويقال إن إحدى بناته كانت تحاضر بدلاً من والدها أثناء مرضه؛ إلا أنها كانت تقوم بالتدريس من وراء ستار حتى لا تصرف انتباه الطلبة لجمالها.

كانت الثقافة الجديدة ثقافة عالمية، لها لغتها الخاصة، وهى الأسهل، أى اللغة اللاتينية البسيطة فى ذلك الوقت، ولها موضوعاتها العامة مسيحية كانت أو وثنية. وكان رجال الدين، والعلماء باستمرار فى حركة تنقل دائمة فى كل مكان، يحملون على ظهورهم حقائبهم ويسافرون هنا وهناك، ذلك لأن الحروب الصليبية نمت لدى الناس حب الترحال والمغامرة. وفى ذلك يقول المؤرخ الفرنسى هنرى دانيل روبس : وحتى فى أوقات الحروب فإنه لم يحدث أن قامت الحكومات المتعادية بالقبض على حلفاء الأعداء والزج بهم فى المعسكرات، كما أن الرحالة الأجانب لم يتم حجزهم بسبب الإجراءات المعقدة التى تتطلبها عملية التفتيش على جوازات السفر، أو تصاريح الدخول. كما كان فى مقدور أى حاج أن يزور أى بلد وأن يصلى من أجل قديسه المفضل. ولم تمنع الحروب التجار من التنقل بمتاجرهم والتوجه إلى الأسواق الخارجية أو العالمية.

لقد كان هناك مناخ عام ثقافى، والذى كان ضروريا للكاتب، سواء كان شاعراً أم عالماً، ومع ما كان يعانيه الواحد منهم من قسر فقد كان عليه أيضاً أن يتحدث عن عمله وأن يقرأ بعضا منه لبعض الآذان الصاغية والمتعاطفة معه. لأنه بدون التشجيع الخارجى فإن الجو الأدبى والعلمى سيصبح خاوياً بلا جدال. كما أن النشر لم يكن شيئاً جديداً، ففى جامعة بولونيا كان يطلب من الأستاذ أن يقدم مؤلفاته السنوية ليتم نشرها وإلا فيتم فرض غرامة كبيرة عليه لنسيانه أحد أهم واجباته.

لقد كان الكاتب وهو يؤدى عمله موضوعاً محبباً لكثير من الفنانين، حيث صوروه وهو فى زيه الذى يرتديه، جالساً بجوار إحدى المناضد ذات السطح المنحدر، وبجواره أو أعلى رأسه أحد الأرفف يضع عليه مراجعه من الكتب. وأمامه قطعة من الورق أو الرق، وفى يده محبرة، وريشة يكتب بها هى فى الغالب ريشة أوز، وسكين يسوى بها

الريشة لتكون صالحة دومًا للكتابة، ويمحو بها كذلك الزغب، وقضيب من الرصاص، ومسطرة يرسم بواسطتها الأسطر التى يكتب عليها وكذلك يحدد بها هوامش الصفحة، ومكشطة لمحو الأخطاء، وحجر خفاف لينظف به صفحات الورق، وسن دب أو ماعز لكى يلمع به الرق الذى يستخدمه فى الكتابة، وشمعة وختم يختم به كدليل على أصالة ما يقوم بكتابته، ذلك لأن التوقيع من قبل الكاتب لم يكن قد اتخذ بعد الصفة القانونية، وربما كان لديه كذلك ساعة زجاجية وموقد نحاسى لتدفئة أصابعه ولتجفيف الحبر، وبجواره كان يجلس كلب له أو إحدى القطط، ينظر الواحد منهما إليه فى إعجاب .

وكان استخدام الورق من أكبر بواعث حركة التنوير، ترجع أصوله الأولى إلى الصين منذ القرن الأول للميلاد ؛ ومنها انتقل وفى حركة بطيئة غربًا إلى الشرق الأدنى، ثم وصل إلى الغرب الأوربى عن طريق إسبانيا فى القرن الثانى عشر للميلاد. حيث أدخلت على صناعته كثير من أساليب التطوير. وعلى العكس تمامًا من ورق البردى أو الرق فقد كان الورق متينًا ورخيصًا، مما مكن التجار ولأول مرة من اتخاذ سجلات لحركة مبيعاتهم اليومية، وجعل فى مقدور الشخص العادى أن يكتب رسالة وبسعر بسيط، كما جعل فى إمكان أى عالم أن يدون كثيرًا من الملاحظات المهمة، ويطلق لنفسه العنان بتدوين كل ما يعن له فى كتبه.

كذلك كان فى مقدور أى كاتب أن يستخدم ألواح الأردواز والطباشير بدلاً من الورق عند الضرورة، أو القلم المصنوع من الرصاص اللَّين "ذلك لأنه لم يكن قد تَم التعرف على استخدام أقلام الرصاص بعد" للتدوين على الخشب، أو المرقم للتدوين على ألواح الشمع أو العاج، والتى كان يتم محو ما عليها بسهولة. فهذا أحد الرهبان من أتباع تشوسر، وقد كان يبيع صلوات القداس التى تقام على أرواح الموتى، قد سجل أسماء عملائه على ألواح كلها من العاج، والتى كان من السهل محو ما عليها من كتابات فى الحال، ثم القيام بتدوين أسماء العملاء الجدد محلها.

ومنذ فترة مبكرة كان الاشتغال بإنتاج الكتب من أهم الأعمال التى قام بها عدد من الرهبان فى أديرتهم، وقام النساخ بتطوير بعض النماذج الخطية المحلية، وكما هو الحال فى أيرلنده. والنموذج الذى كان أكثر شيوعًا هو النموذج الكارولنجى المكتوب بخطوط صغيرة جدًا، والذى ترجع أصوله الأولى إلى العصر الكارولنجى وظل

مستخدماً حتى القرن الثانى عشر للميلاد. وكان لدى الرهبان متسع من الوقت، وقاموا بعمليات النسخ بصفة خاصة من أجل الآخرة، وتمتعوا بقدر من الحرية مكنهم من تزيين ما أنتجوه من صفحات بشتى الطرق التى نالت الكثير من الرضا. إلا أن أفضل ما أنتجوه كان من نصيب خزائن الملوك والكنائس من الكتب النافعة. كذلك فإن الطلب المتزايد على الكتب جعل صناعة الكتاب تخرج من حيز الأديرة إلى عالم التجارة، مما ساعد على ظهور طبقة من النساخ المحترفين، معظمهم من غير رجال الدين، والذين تركزت أعمالهم بجوار الجامعات ؛ وكان عددهم كبيراً، واشتهروا بجودة ما ينسخونه من أعمال. فقد كان لدى أحد باعة الكتب فى فلورنسا فى بدايات القرن الخامس عشر للميلاد خمسة وأربعون ناسخًا يعملون بالنسخ، ويمدون الأثرياء أمثال كوزيمو دى ميدتشى Cosimo de Medici وغيره من محبى جمع الكتب بما يحتاجون إليه.

كما شكل هؤلاء النساخ نقابة خاصة بهم، أشرفت على معدلات الأجور، وساعات العمل، ونظمت عملية المنافسة، ومنعت الدعاية ومحاولات إغراء الزبائن، حتى ولو كان ذلك رغم أنف أعضائها وبطريقة فعالة. وبذلك اكتسبت النقابة قوتها وبراعتها ورونقها، وكان هدفها هو استمالة أو إغراء الكتاب بالتقليل من الأخطاء قدر الإمكان. وقام النساخ بأداء أعمالهم بشكل سريع، وغالبًا ما استخدموا الحروف القوطية التى ساعدتهم على سرعة الإنجاز، كما استخدموا العديد من المختصرات التى يجد فيها القارئ الحديث بعض التشويه أو بعض الصعوبة، وكانوا ينهون عملهم فى أى كتاب بنوع من الارتياح وكأنهم لم يعملوا شيئًا، وغالبًا ما يختتمون عملهم ببعض الملاحظات الشخصية، فعلى سبيل المثال قول أحدهم، على ما أعتقده فإن العمل قد انتهى ؛ من أجل المسيح أعطنى شيئاً أشير به.

أما الكتاب الكبير أو المصوَّر فعادة ما يتكلف كثيراً جداً، حيث كان العمل فى نسخ إنجيل عادة ما يستغرق عامًا كاملاً، ولم يكن فى مقدور أى قسيس عادى أن يتحمل تكلفة مثل هذا العمل. كما أن أى مكتبة خاصة وشهيرة لم يكن بها سوى القليل من الكتب، وعلى العكس، كانت الكتب الصغيرة والتى يتم نسخها فى ساعات، وكذلك المختصرات والكتب الدراسية يتم إنتاجها على نطاق واسع وكانت زهيدة الثمن فى

نفس الوقت وبشكل يثير الدهشة. "فهناك أحد تجار الجملة من المشتغلين بالكتب وقد طلب أربعمائة نسخة من أحد الكتب الجامعية" ؛ ومع هذا فالقليل من الطلبة كانوا يشترون الكتب ؛ لأنهم كانوا يقومون باستعارتها من محلات بيع الكتب، وكما يحدث في أيامنا هذه حيث يقوم الطلبة ببيع ما بحوزتهم من مذكرات وكتب وملخصات في نهاية أي فصل دراسي لمن يشتري الكتب المستعملة.

إن إغراء التأليف جذب إليه الكثير من رجال الدين جنبًا إلى جنب العلمانيين، مما أدى إلى ظهور كثير من الكتاب المحترفين، والقليل منهم من أمثال دانتي، وبترارك قد نالوا قسطًا من التدريب الجامعي، أما الغالبية العظمى منهم فقد اكتسبوا كثيراً من مهاراتهم من واقع الحياة، إلا أنهم لم يحققوا أرباحًا مباشرة من عملهم هذا، ونسمع أن واحداً مثل بوكاشيو والذي كان دائمًا مفلسًا، إلا أنه كان يقدم نسخ مخطوطاته إلى النساخ، ولم يكتسب الواحد منهم شيئًا سوى شهرته ومنزلته في مجال الحياة العقلية، والتي جلبت لهم الإقامة المجانية في الكنائس، وبعض الهدايا من الأمراء والنبلاء.

وهكذا نسمع عن أول كاتبة محترفة وهي كريستين دي بيزان Christine de Pisan والتي اعتمدت في حياتها وتربية أولادها على البلاط الفرنسي في بداية القرن الخامس عشر للميلاد. ولقد كانت الحياة الأدبية صعبة وشاقة، فلم يكن في استطاعة أي شخص أن ينشر كتابًا له إلا إذا قدمه إلى أحد النبلاء المتعاطفين معه في إحدى الحفلات، بأن يقرأه عليه بصوت مسموع ؛ بعد ذلك يصبح الكتاب ملكية تامة لهذا الأمير أو ذاك ؛ كذلك اعتبرت عملية بيع الأفكار عملية خسيسة.

ولم تكن هناك حقوق تأليف، كما لم يكن هناك الإحساس بأهمية الملكية الأدبية، فقام الكثيرون بعمل نسخ من الكتب التي تروق لهم، وغيروا فيها حسب هواهم، ومنهم من أضاف كثيراً من الإضافات متناسين بذلك المؤلف الحقيقي والذي لم يكن له حول ولا قوة ؛ سوى الانضمام إلى جيش المجهولين. ولم ينظر أحد بعين الاعتبار إلى عمليات الانتحال أو التزييف، بحيث نسمع أن كبير أساقفة كانتربوري في القرن الحادي عشر للميلاد ويدعى لانفرانك Lanfranc قد قام بتزييف تسع وثائق لكي يبرهن على سمو

كنيسة كانتربورى على كنيسة يورك، كما نسمع أن المحكمة البابوية لم تعترف بهذه الوثائق لأنها لا تحمل أختامًا وأنها لا تتصف بالصفات التى تميز النماذج الرومانية.

ومع هذا فلم يكن هناك ما يعوق أى إنسان يشتغل بالكتابة والتأليف، فالأدب الوسيط ضخم جداً من حيث وفرته، وإن كان ما فقد منه أكثر بكثير مما قدر له البقاء، وهو غنى من حيث تعدد موضوعاته، يتميز بعمق التفكير والرقة فى أفكاره، وبه لمسة جمالية من حيث تعبيراته. وفى البداية كان الشعر أكثر شيوعًا من النثر، وذلك لأن الشعر كان تعبيراً عن نبض الحياة الأدبية قبل أن تأتى الكتابة التى أفسدت نظم الثقافة، وبعد مدة طويلة من ظهور الكتاب كان الأدب يُسمع أكثر مما يُقرأ، بل وحتى القارئ المنعزل كان ينطق بالكلمات، وفى القرن الرابع للميلاد كان الناس يتعجبون من القديس أمبروز الميلانى وهو يقرأ لنفسه سراً دون أن يحدث أى صوت مسموع.

إن أهم السمات التى ميزت أدب العصور الوسطى الباكرة هو التحول من الشكل الشفاهى إلى الشكل المدون، إلى جانب تشكيل الأدب الشعبى الذى نافس الأدب اللاتينى، ومع التحول إلى الشكل المدون فإن الأدب أصبح سمعيا وخاصا، مما أفقده الصوت والموسيقا وكذلك النقد الذى كان يقوم به المستمعون نحو أى مغن أو فرقة كوميدية، كما فقد الكاتب القدرة على التمييز عما إذا كان فى استطاعته الاستحواذ على مشاعر سامعيه أم لا. ومع هذا فإن التحول إلى الشكل المدون جعل بمقدور القارئ أن يتوقف ويفكر، ومكن الكاتب من أن يتعمق أكثر فى أفكاره التى سيعرضها، وما فقده شكلاً فقد تم تعويضه موضوعاً.

إن ظهور الآداب الشعبية أكثر وضوحًا فى انجلترا والبلدان الشمالية، حيث لم تكن اللغة اللاتينية ذات تأثير كبير. فملحمة بيوولف Beowulf وكذلك ملاحم الشمال لم تتأثر بالتراث اللاتينى. أما فى الجنوب فإن اللغات الرومانسية أى الناشئة عن اللاتينية كان لها مجالها، وغدت اللغة اللاتينية غير مفهومة لغير المتعلمين، وفى نفس الوقت فإن اللغات الرومانسية كانت قد ازدهرت بما ورثته عن اللاتينية، وبالتدريج أصبحت مناسبة للتعبير عن الأفكار الصعبة والرقيقة.

وما تم إنجازه فى الأدب الوسيط وباللغات المختلفة فى البلدان العديدة لا يمكن بسهولة تلخيصه فى صفحات قليلة. إذ ليس فى مقدور الواحد منا سوى أن يذكر بعض أسماء للأنماط الشهيرة، والقليل من الأسماء اللامعة والمألوفة.

لقد بدأت الملحمة شفاهية أو فولكلوراً، وهى نتاج طبيعى لمعظم المجتمعات البدائية، كقصة لأبطال يتغنى بها شاعر، وكثير من الشعراء غير المعروفين شكلوا هذه القصص بأشكال فنية، وبإيقاعات تتناسب مع لغة وموسيقا الشعوب، وبعد ذلك تم تدوينها لتصبح نموذجاً لمن يأتى بعدهم من الكتاب المتخصصين.

ولقد ازدهرت الملاحم الشعبية بين الكلت، والجرمان، والروس، والبولنديين، والتشيك، والصرب، والبلغار، كما أن ملحمة بيوولف الأنجلو سكسونية قد تم تدوينها حوالى سنة ٧٠٠م، وقام شعراء الملاحم أو البطولة فى أيرلنده وويلز بالتغنى بملاحمهم فى القرن الثامن للميلاد، على الرغم من أن هذه الملاحم لم يتم تدوينها إلا فى وقت متأخر كثيراً. كما أن الملاحم الاسكندنافية يرجع تاريخها إلى حوالى سنة ٩٠٠م فصاعداً. أما الملحمة الإسبانية العظيمة وهى قصيدة «السيد» فقد تم قرضها حوالى عام ١١٤٠م، إلا أن أهم الملاحم ذات التأثير الكبير فى كل مكان فهى الملاحم الفرنسية والألمانية.

ففى فرنسا فإن هذه الملاحم كانت معروفة تحت اسم "أناشيد أو قصائد الأعمال البطولية العظيمة "Chansons de geste، والتى يرجع تاريخها تقريباً إلى القرن الثانى عشر للميلاد. وهى تجمع بين التاريخ والأسطورة، وتعبر عن نظرة النبلاء إلى البطولة، والشرف، والولاء الإقطاعى، وحب الوطن. وعلى الرغم من أنها لم تتبع الخط التقليدى للملاحم القديمة، فإنها وبشكل أو آخر هى شعر شعبى ونتاج فنى، قرضها شعراء، عادة غير معروفين، أطلق عليهم اسم " الشعراء الجوالون " فى الشمال أو اسم «شعراء التروبادور» فى الجنوب. هذه القصائد تم تناقلها بالرواية الشفاهية إلى أن وصلت إلى الشاعر الجوال الذى تغنى بها فى قاعات القلاع واستمع إليها كثير من المستمعين.

لقد كانت أفضل وأول قصيدة من قصائد الأعمال البطولية العظيمة هى "أنشودة رولان "، وهى الملحمة القومية الفرنسية، والتى قيلت حوالى عام ١١٠٠م، وقرضها أحد الشعراء الجوالين مجهول الاسم، ربما كان أحد الرهبان. وهى تحكى قصة حدث حقيقى وهو هزيمة أحد قادة مؤخرة جيش شارلمان عند رونسيفو فى جبال البرانس عام ٧٧٨م. وفيها تم تصوير رولان كبطل مثالى إقطاعى، لا يعرف الخوف، شديداً فى

المعارك، مخلصاً كل الإخلاص لسيده ولأصدقائه لا يعرف الشفقة أو الرحمة فى معاملة الخونة، يتسم بالاحترام والخشوع أمام الله، إلا أنه كان لديه عيب واضح، وهو الغرور الذى منعه من طلب العون، إلا بعد فوات الأوان مما سبب دمار جيشه. إن الشخصية التى تم رسمها له تصوره كشخص حاد ولعل ذلك راجع إلى فن الحبكة الدرامية الذى لجأ إليه راوى القصة.

أما فى ألمانيا فإن أهم الملاحم هى ملحمة نيبولونجينليد The Nibelungenlied وهى عبارة عن استعادة لعدد من الملاحم الجرمانية القديمة، كتبها شاعر نمسوى مجهول حوالى عام ١٢٠٠م. إنها قصة دموية لمغامرات سيجفريد Siegfried المليئة بالطموحات والأحداث، وتم إنشادها بشكل صاخب وصوت عال. وتنتهى بعمليات الإبادة الكاملة لضحاياه الذين طرحهم أرضًا، وتبدو وكأنها القدر السماوى الذى استمد منه فاجنر موسيقاه.

ومثل هذه الملاحم تعبر عن سلوك وقيم النبلاء فى العصور الوسطى المبكرة، وهى تمجد أعمال البطولة والقتال والبسالة، وبها القليل من مشاعر الحب ؛ فالنساء القليلات اللاتى يظهرن فيها يبدو أنهن من المتعطشات للدماء بالغريزة أمثال كريمهلد Kriemhilde، وزوجة سيجفريد المخيفة. ولكن هناك أجيال جديدة ظهرت، أكثر ثقافة، وتهذيبًا من الجيل القديم، حيث نظرن إلى عمليات الطعن بالرماح، وعمليات قطع الرأس، وشطر أعضاء الجسم على أنها أشياء مقيتة. كما طالبن بأشياء أكثر لطفًا وهى الاعتراف بالمتطلبات الإنسانية، وقصص الحب، هذه الرغبات توافقت مع أساطير الرومانسية(*)، والتى تم التعبير عنها ببساطة فى الرواية The novel.

أما عن أساطير الفروسية فهى عبارة عن قصص الحب والمغامرات، شعراً أو نثرًا، وهى موجهة أساسًا لجمهور المستمعين من النبلاء، حيث تمجد طريقة معيشة الطبقة الأرستقراطية، وتتضمن تفاصيل كثيرة عن مباهج حياتهم، وأثاثهم، ومن يدور

(*) الرومانس Romance: قصة شعرية أو نثرية من قصص القرون الوسطى قوامها الأسطورة أو الحب الشريف أو مغامرات الفروسية. وهى قصة ذات أبطال خياليين وأحداث من حيث الزمان والمكان يغلب عليها الطابع البطولى أو المغامر، وغالبا ما تعبر عن غرام عفيف. "المترجم".

فى فلكهم. كما تمجد وبشكل كبير النساء وترفع من شأنهن، واللائى كن الملهمات للشعراء، ويمثلن جمهورهم الأكثر جاذبية واستماعًا لهم. كذلك رفعت هذه القصص من شأن عادات البلاط، كنظام أخلاقى مثالى لأبناء وبنات الطبقة النبيلة، وأكثر ما مجدته هذه القصص وأعلت من شأنه قصص الحب، **"باعتبار الحب أساس كل ما هو جميل وحسن"**.

وأساطير الفروسية هذه بدأت أول ما بدأت شمالى فرنسا فى القرن الثانى عشر للميلاد ثم انتقلت منه إلى كل أنحاء الغرب الأوربى. واتخذت لها المواضيع التى تتعلق بروما القديمة وبلاط شارلمان كمواضيع أساسية، وخصوصًا القصص الكلتية، والتى تم تعديلها وتهذيبها فى بريطانيا وانجلترا. هذه القصص دارت حول فرسان المائدة المستديرة فى بلاط الملك آرثر، والذى يعد فى الحقيقة المثل الأعلى للحاكم البريطانى المسيحى فى القرن الخامس عشر للميلاد.

ولا شك أن الأدب الكلتى البدائى كان له من الخصائص والمميزات ما يمكن الوقوف عليها عند ييتس Yeats وبعض الكتاب الأيرلنديين المحدثين الآخرين : من حب لكل ما هو خيالى وعجيب أو رائع، والغموض الذى يحيط بكل قوى الطبيعة والخارقة للطبيعة ؛ وقبول فكرة السحر، والطرائف، والجنيات، والعفاريت، والحيوانات المفترسة الناطقة، وكذلك الأشجار، ونافورات المياه كأشياء مألوفة، وتنوع العالم السفلى، والنزوع إلى الحزن والكآبة، وفكرة الحب كقدر محتوم ؛ وأسلوب التحليق الخيالى فى الشعر، وكذلك تحويل عبارات البشر البسيطة إلى أفكار ذات مفهوم آخر. هذه الروح نلمسها كثيراً فى كثير من أعمال كثير من الكتاب فى القارة كلها.

ولعل أفضل قصة من القصص الكلتىّ هى قصة الحب اليائس بين كل من ترستان Tristan وإيزولت Iseult، والتى أعيدت صياغتها عدة مرات فى فرنسا، كذلك وبشكل ملحوظ فى ألمانيا حوالى سنة ١٢١٠م على يد الشاعر جوتفريد فون ستراسبورج Gottfried von Strassburg. كما يظهر أثر الدين والقوى الخفية بشكل خاص فى الأعمال الرومانسية "أساطير الفروسية" العديدة التى تدور حول قصة الكأس

المقدسة(*) . هذه الأعمال تعرض المواضيع القديمة الهادفة، والتى تتواءم مع التجارب الفعلية للصليبيين. وكما يتضح هذا من العمل الذى قام به ولفرام فون ايتشنباخ Wolfram von Eschenbach تحت اسم Parzival والذى كتبه فى بدايات القرن الثالث عشر للميلاد، وصور فيه روح الكفاح وما حققته من إنجازات. ومن الأدب المتعلق بعصر الملك آرثر فى انجلترا، يأتى العمل العظيم الذى قام به سير توماس مالورى Sir Thomas Malory موت الملك أرثر (١٤٦٩م).

وفى العصور الوسطى المتأخرة كان الكتاب يبحثون عن مواضيع أخرى، فعلى سبيل المثال نجد قصة بوكاشيو المسماة Fiammetta "حوالى ١٣٤٣م" ، وهى قصة قصيرة نثرية تتحدث عن الحياة المعاصرة. وفى استطاعتنا أن نطلق على «فراشات تشوسر» اسم القصة الشعرية. كما أن القصة القصيرة لم تكن موجزة أو مختصرة، بل هى نوع أدبى قائم بذاته، تمتد جذوره إلى الماضى البعيد، المستمد من قصص الشتاء التى تُروى أحداثها حول العديد من المدافئ المتواضعة. كما أن قصصنا المتعلق بالجان له جذور بعيدة ترجع إلى العصور الوسطى، حيث مدافئ الفحم البدائية بما لها من مخاطر، وبما فى هذه القصص من حيوانات مفترسة معروفة، وبمن فيها من حكام أشرار، وأميرات سجينات، وبما فيها من إنشاد بصوت عال، وساحرات وعفاريت. والعديد من هذه القصص أتت من بلاد اليونان والشرق، وتداولتها الكثير من الألسنة، وعرفتها البيئة الغربية، وما زالت إلى الآن معروفة مثل قصص بوذا والبوذية، والتى تحولت إلى قصة اليوشفات، حيث يوجد أو كان يوجد كنيسة للقديس يوشفات فى بالرمو.

وفى فرنسا فإن الكثير من هذه القصص التى تناقلها الشعراء الجوالون ظهرت للعيان فى القرن الثانى عشر كقصص خيالية. هذه القصص تمت صياغتها فى قصائد لها جلجلة أو صلصلة، وكان يقوم بترديدها كثير من الشعراء الجوالين على مسامع

(*) الكأس المقدسة التى شرب منها المسيح عليه السلام فى العشاء المقدس، والتى راح المسيحيون فيما بعد يجدّون فى البحث عنها . "المترجم" .

الناس فى الأسواق، وهى تعكس حياة الطبقة البورجوازية وقيمها، كما نجد بها كثيراً من السخرية الموجهة ضد النبلاء المتعجرفين، والفلاحين البسطاء، ورجال الدين الفسقة والنساء المخادعات. ومهما كانت هذه القصص فظة أو خشنة وقاسية، فإنها تعرض فنًا قصصيًا رائعًا، ويمكن اعتبارها أعمالاً كوميدية.

إن القصة القصيرة أصبحت وبشكل واضح شكلاً من الأشكال الفنية الأدبية منذ كتب بوكاشيو قصته Decameron حوالى عام ١٣٥٠م. وفى عمل بوكاشيو هذا يمكن رؤية العناصر الأساسية للحبكة الروائية، وخلق الشخصيات الروائية، وتواصل السرد القصصى بطريقة يقبلها جمهور كتاب القصة القصيرة اليوم. وجاء بعد بوكاشيو تشوسر ليتبعه، وكانت مجموعته القصصية المسماة «قصص كانتر بورى» (١٣٨٧ - ١٤٠٠م) كنماذج حية ليس فحسب للفن القصصى الروائى، بل للكشف عن الحياة اليومية فى العصور الوسطى.

وانبثقت قصيدة الشعر الغنائى من إحساس الإنسان العام بحاجته إلى الغناء والرقص وترديد بعض الكلمات السارة على شكل إيقاع، كما أن القصائد الغنائية الشعرية الخاصة بالعصور الوسطى، والتى قدر لها البقاء فقد تم صقلها بترتيبات معينة أجريت على طول السطر، والمقاطع الشعرية، والمقاطع اللفظية وتأثيرها، والقافية. وربما رجعت هذه الترتيبات فى أصولها الأولى إلى القصائد الرومانية الشعبية، أو إلى القصائد الطويلة التى كان ينشدها الجنود، أو ربما إلى أصول كلتية أو جرمانية. وهناك بالتأكيد تأثير مستمد من اللغتين العربية والعبرية من الشعر الإسبانى. وعلى أية حال، فإن التراتيل اللاتينية الباكرة قد تمت تقفيتها " عمل قوافى لها"، وتم وضع النبرات الصوتية لها، وبشكل مغاير للأوزان الشعرية اللاتينية القديمة. ومع بداية القرن الثانى عشر للميلاد فإن الشعر التى وضعت له تلك النبرات الصوتية والقوافى المرسومة أصبح شائعًا فى الأغانى اللاتينية لدى الرهبان الجوالين الذين عرفوا باسم «المتشردون» Goliards.

أما قصائد الشعر البروفنسالى فقد ظهرت فى القرن الحادى عشر للميلاد. ومنذ البداية كانت متأثرة بالعادات والتقاليد السائدة، من حيث المواضيع والقوالب ؛ ومما لا شك فيه أن كثيراً من التقاليد كان قد تم جلبها إلى بروفانس على يد القطلان

ثنائى اللغة أو ثلاثى اللغة، لأنهم كانوا يعرفون الأغانى الإسبانية والعربية الموجودة فى شبه جزيرة أيبيريا. كما أن أغانى شعراء التروبادور فى بروفانس كانت زاخرة بذلك، فنحن نعرف أسماء ما لا يقل عن خمسمائة منهم، وهم الذين أدخلوا كثيراً من التجديدات الهائلة فى تاريخ الأدب الغربى. فلقد ابتكروا – أو لعلهم استعاروا من اللغة العربية – قصائد الشعر الغنائى المحركة لعواطف الحب، القصيرة منها والمطولة، والمعبرة عن الهيام أو الافتتان بكل ماهو طاهر وفاضل، والتغزل بالنساء الجميلات. ومنذ ذلك الحين أصبح ذلك هو الطابع العام لقصائد الشعر الغنائى، كما أن شعراء التروبادور أخذوا ينظرون باحتقار للشعر السهل الوضوح، وابتكروا عدة أشكال محددة تمتاز بالغموض، وتحتوى على أكثر من معنى، وشعرهم المغلق هذا يعد فضيلة فى حد ذاته ويتطلب من القارئ أن يبذل جهدًا من جانبه. فضلاً عن أن الشعر السحرى، والذى كان معروفًا منذ عدة عقود مضت غدا محبًبا لدى الشعراء والنقاد.

لقد تجول شعراء التروبادور فى أنحاء بعيدة مختلفة، وشجعوا الكثيرين من الكتاب على أن يكتبوا بلغاتهم الخاصة، مما أوجد الآداب القومية. ففى البلاط الصقلى لفردريك الثانى، فى بدايات القرن الثالث عشر للميلاد، فإن الملك المثقف أشرف على جماعة من الشعراء يكتبون باللغة الصقلية الإيطالية، مستخدمين بعض الأنماط البروفنسالية، ومبتكرين بعض الأنماط الخاصة بهم بما فيها السونيتة The Sonnet(*) . وانتشرت الرغبة فى الكتابة باللغة العامية فى كل أنحاء إيطاليا. ولقد أطلق القديس فرانسيس على نفسه «مغنى الرب» ؛ ولقيت أنشودته النبيلة المسماة "أنشودة الشمس" وقعًا جميلاً لدى كمن سمعها. كما قامت مجموعة من شعراء توسكانيا وعلى رأسهم دانتى بتطوير القصيدة الشعرية مستخدمين المواضيع الأفلاطونية القديمة والتى لها صداها فى المشاعر الإنسانية السامية، ومثل هذه المواضيع تم تلخيصها عند دانتى فى مدحه لبياتريس Beatrice.

(*) السونيتة : قصيدة تتألف من ١٤ بيتًا، ويطلق على الشاعر الذى يقرضها ،ناظم السونيتة. "المترجم".

وفى ألمانيا، ومنذ القرن الثانى عشر للميلاد، فإن ما قام به شعراء التروبادور حفز كثيراً من شعراء المينيسنجرز، وعلى رأس هؤلاء الشعراء يأتى والتر ڤون دير ڤوجلويد Walther von der Vogelweide. وهو اسم له وقعه الموسيقى فى حد ذاته، والذى مجد المرأة والحب، واهتم كثيراً بالطبيعة والدين. وفى انجلترا فإن القصيدة الشعرية فى العصور الوسطى يظهر فيها تأثير اللغة اللاتينية، والفرنسية، والبروفنسالية. ومن الأمثلة القليلة التى قدر لها البقاء، وكل شخص يعرفها "الصيف قادم حتماً"، على الرغم من أن القليلين هم الذين يدركون مدى فظاظتها.

إن التاريخ المبكر للدراما الأدبية غامض جداً. فما الذى كان يحدث على تلك المسارح العملاقة فى غاليا وأفريقيا والمقامة فى الهواء الطلق ؟ بالتأكيد إن مديرى هذه المسارح لم يقوموا بإخراج الأعمال التراجيدية التى ألفها سينيكا Seneca، وكذلك من المحتمل أنهم لم يخرجوا الأعمال الكوميدية التى ألفها بلوتوس Plautus، ومما لا شك فيه أن جماعات التمثيل الصاعدة الجوالة قد قدموا العديد من العروض، واستفادوا من استخدام المناظر المختلفة، وإن لم يكن لدينا الدليل القاطع على ذلك. وخلال فترة العصور المظلمة الطويلة والتى شهدت هجرة كثير من المدن، وصعوبة المواصلات والتنقل والتجمع، فإن التمثيل الصامت ربما يكون قد اختفى تماماً، أما فى القرن الثانى عشر للميلاد فقد حل محلهم الشعراء والمغنون الرُّحل.

وترجع جذور الدراما الحديثة إلى الطقوس الكنسية، وفى بدايات العصور الوسطى فإن كثيرا من الحوار الروائى الدرامى كان موجوداً فى الطقوس الكنسية، عند الاحتفالات الكبرى التى كانت تقام فى الأعياد، وعيد رأس السنة، وعيد الفصح. ثم انتقلت هذه الممارسات من داخل الكنيسة إلى خارجها، حيث وجد الممثلون فى شرفة الكنيسة مسرحاً معداً ومرتفعاً لأداء أعمالهم عليه، لما فى هذه الشرفة من أبواب قد تكون اثنين أو ثلاثة لدخولهم إلى المسرح وخروجهم منه، إلى جانب الخلفية بما تزدان به من تماثيل القديسين (فقد قام القديس فرانسيس بإعادة تمثيل قصة ميلاد المسيح عليه السلام فى أحد الإصطلاب، فى وجود حيوانات حقيقية).

ثم أقيمت العديد من المسارح فى الأسواق، ومثلت عليها سلسلة من الأعمال المسرحية منها الجنة والنار، وتم إقحام كثير من الأعمال الوثنية ؛ إلا أنها بمرور الوقت وكقبول للأمر الواقع لم تعد تلق معارضة. وعلى هذا الأساس فقد تم إظهار زوجة نوح على أنها امرأة سليطة اللسان بشكل كوميدى، وكذلك مارى المجدلانية على أنها فتاة عاملة فى أحد البارات، وكذلك ظهر الشياطين فى بعض الأعمال الكوميدية الخشنة ؛ حيث يضعون على رءوسهم القرون، ولهم ذيول، وعلى وجوههم أقنعة مرعبة، وهم يتجولون بين المشاهدين، يفزعون أصدقاءهم وأعداءهم.

وفى القرن الخامس عشر للميلاد، فإن المسرحيات والتى عرفت باسم المسرحيات الغامضة أو التى تكتنفها الأسرار، تطورت إلى العديد من أعمال المغامرة الشعبية، واستمر عرضها لمدد طويلة بلغت الأربعين يوماً، إلا أنها سرعان ما اندثرت نتيجة لكثرتها المفرطة ونتيجة لتغير الذوق العام، وكذلك نتيجة لعدم استحسان المصلحين الدينيين لها.

أما سلسلة أعمال الدراما الدينية فقد كانت قائمة على المسرحيات التى تعرض المعجزات، والقيم، وهى فى معظمها لاتهم كل إنسان، وما زالت تعرض من حين لآخر مع كثير من التعديل حتى أيامنا هذه. ومن خلال الأعمال الكوميدية المليئة بالغموض هذه تم استنباط المسرحية الهزلية الساخرة The farce، والفصل الإضافى الذى يتخلل فصول المسرحية واللحن الإضافى الذى يعزف بين أجزاء المسرحية أو القداس. كما أخذت جماعات المحترفين من الممثلين فى الانتقال من مكان لآخر بواسطة العربات، ومعها غرف تبديل الملابس، وكذلك خشبة المسرح، ومن هنا ولد المسرح الحديث.

وفى غضون ذلك، فإن الروايات المسرحية والتى كانت على هامش الأدب الخلاق أخذت تحدد أهدافها وتشكل جزءًا مهمًا من الإنتاج الأدبى الرائع. كما أن كتاب التاريخ المعاصرين قد شد انتباههم الحماس العام الخاص بالحروب الصليبية. فهذا هو المؤرخ فرواسارت Froissart يقدم لنا سجلاً حافلاً عن الأيام الأخيرة لعصر الفروسية. كما أن كتابات ماركو بولو أوضحت الكثير عن العالم الجديد لأبناء الغرب. وفى مجال السيرة الذاتية فإن قصة حياة القديس لويس التى كتبها جوانفيل تعد عملاً

غير مسبوق، إلى جانب عمل المؤلف المجهول عن الزهور الصغيرة للقديس فرانسيس.كذلك فإن الأدب الدينى كان فى المقام الأول تأملياً وتعليميًا، إلا أن تيار المذهب الباطنى (*) أوجد سلسلة من التخيلات الرائعة، تمتد من أعمال القديس برنارد الكليرفوى إلى تقليد المسيح.

وعلى رأس أدب العصور الوسطى تأتى «الكوميديا الإلهية» لدانتى، فإنك تجدها فى قائمة الكتب القيمة، وفوق الأرفف، فهى أعظم شعر كاثوليكى، ومثل «الفردوس المفقود» والتى تعد أعظم شعر بروتستانتى، إنها جهر بالإيمان الشخصى أو العقيدة، وحث على الفضيلة، إنها قصة روائية علمية لرحلة عبر الجحيم والمطهر والفردوس، وهى موسوعة حافلة بالأفكار الفلسفية، والدينية، والعلمية، تم صبها جميعًا فى قالب شعرى رائع. **إن الكوميديا الإلهية تتجاوز العصور الوسطى، لقد كتبت لكل العصور: إنها كتاب أبدى.**

(*) أى الإيمان بأن المعرفة المباشرة بالله أو بالحقيقة الروحية يمكن أن تتم للمرء عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطنى وبطريقة تختلف عن الإدراك الحسى العادى أو اصطناع التفكير المنطقى "المترجم".

الفصل التاسع

التراث الفنى

إن فن الرسم التصويرى للعصور الوسطى هو نتاج النبض الخلاق الذى كان يبحث عن وسيلة للتعبير بشكل طبيعى وبطريقة يتعذر اجتنابها عن التقاليد القديمة، ومنها التقاليد الرومانية والبيزنطية، والتقاليد المحلية للشعوب الأوربية، وتلك التقاليد التى جلبها الغزاة والمهاجرون من الشرق. ولعل أهم وأقوى التأثيرات المبكرة والتى أثرت فى الفنون الغربية هى تلك التى استمدت من الإسكيزيين، وهم بدو آسيا وإستبس روسيا قبل ظهور المسيحية. وقد كان لديهم رغبة محمومة للزينة، فرسموا على أوانيهم وأجسامهم أشكالاً نباتية وحيوانية متقنة. كما أن الأشكال النباتية الإسكيزية المزدهرة واستخدام الأشكال الحيوانية فى أعمال النحت جنبًا إلى جنب هى طريقة شرقية، وانعكست بوضوح فى أعمال الفن الرومانسكى والقوطى وبخاصة فى الحفر والزخرفة.

وفى العصور الوسطى كانت السمة الغالبة هى تصوير عمليات صيد التنين أو افتراسه، وحتى فى بلدان اسكندنافيا البعيدة، ففى أطلال الكنائس فإن الزخارف المتبقية ما زالت تحمل زخارف نباتية وحيوانية، ومناظر لعمليات صيد التنين التى تحلى الإفريز الخارجى لهذه الزخارف، كما أن مراكب الفيكنج الطويلة كانت تحمل فى مقدمتها أشكالاً تمثل التنين.

كذلك تأثر فن العصور الوسطى بالفنون السلتية (*)، وحيث تم العثور على العديد

(*) سلتى : منسوب إلى السلتيين وهم من الشعوب الهندو أوربية التى قطنت فيما مضى أجزاء واسعة من أوربا الغربية، ولهم لغة هى السلتية، تشمل : الأيرلندية، والأسكتلندية، والويلزية، ولا تزال حية إلى اليوم فى أيرلنده والشمال الغربى من اسكتلنده وويلز ."المترجم" .

من النماذج ذات الأنماط المبكرة للرسوم السلتية فى أيرلنده، وهى عبارة عن مقصات وأكواب، ومشغولات معدنية، ومجوهرات مزخرفة برسوم نباتية متشابكة، أو على هيئة أشكال متقاطعة ذات نقاط عديدة، ومحاطة بعناية فائقة بإطار أو حاشية. كما يجب أن نذكر أن السلتيين فى أيرلندا وفى كل القارة الأوربية كانوا يعشقون الألوان، وأنهم طعموا أدوات زينتهم بأحجار براقة، كما استخدموا المينا اللامعة فى الحواف المرتفعة للأوانى الزجاجية والمعدنية، وهى ما يعبر عنه بالمجتزع Cloisonnerie (*). وفى بعض الأحيان كانوا يرسمون أشكالاً لوجوه إنسانية مثيرة للاشمئزاز فى تصميماتهم، وهذا ما يتضح فى بعض رؤوس التماثيل المتبقية فى فرنسا، وترجع إلى الفترة السلتية المبكرة، وتلك الكرانيش المزخرفة بكثير من الحروف فى الفن الرومانسكى(**).

ومثل كثير من تفاصيل زخرفة العصور الوسطى، فإن الزخرفة النباتية ذات الشكل اللولبى الموجودة على الحلى عادة ما كانت رائعة، وتكشف عن استخدام المساحات الخلفية ببراعة، كما أن بعض الأشغال المعدنية والحلى تقدم لنا الدليل على أن أصل هذه الأعمال جاء من إيران والشرق الأدنى، وكذلك فإن النوق السلتى المبكر قد أثر بشكل ما فى فن القرن الثانى عشر والذى يعد فناً جديداً.

كما لم يتبق لنا الكثير من الأعمال الفنية الجرمانية سوى بعض الأقراط، ودبابيس الزينة "البروش"، وأبازيم الأحزمة، والأكواب، وبعض الأشياء الصغيرة، والأشياء النفيسة سهلة الحمل والإخفاء، والتى قدر لها البقاء لفترة طويلة حتى تم العثور عليها. وهى فى مجموعها مزخرفة برسوم حيوانية، وبطريقة طبيعية من حيث أصلها، إلا أنها تشكل نموذجاً تم عمله وفقاً لقواعد مقررة فى استخدام مجموعات الطيور والحيوانات. كما أن ما تبقّى من أعمال فنية اسكندنافية يعد مماثلاً للأعمال الجرمانية، إلا أنه أكثر وفرة منها إلى حد ما.

والنوق الجرمانى أو النورمانى قد دخل انجلترا وأيرلنده مع الأنجلوسكسون فى القرن الخامس للميلاد، ومرة أخرى مع التأثير الشمالى، فى الوقت الذى لم يتم فيه

(*) المجتزع : مينا تفصل بين ألوان نقشها المتعدد شرائط معدنية "المترجم".

(**) طراز فى فن العمارة راج فى أوربا فى أوائل القرون الوسطى بين عهدى فن العمارة الرومانى وفن العمارة القوطى. "المترجم".

التخلي عن الطابع أو الذوق المحلي. ومع هذا فإن تأثير كل من التقاليد الجرمانية والسلتية تعد واضحة تماماً في أعمال الحفر المتقنة على الحجر والتي تسمى بالمصلبات السلتية، والمزخرفة بأطر مضفورة، ومشكّلة من أشرطة متداخلة فيما بينها.

ولقد ظهرت النماذج المنحوتة الرائعة في المخطوطات الأيرلندية، مثل كتاب القرن السابع الميلادي المسمى كتاب الدورو Durrow، وكتاب من أواخر القرن الثامن الميلادي أو أوائل القرن التاسع للميلاد والمسمى كتاب كيلز Kells، هذه المخطوطات مدونة بالخط الروماني، وبطريقة معدلة لكي تتناسب مع الذوق السلتي، أما الزخارف المستخدمة فيها فقد كانت على درجة كبيرة من الإتقان، واعتمدت بشكل أساسي على مجموعة الرسوم النباتية والحيوانية وكذلك استخدام النقاط والالتواءات والأطر المضفورة، وكلها مستمدة من النماذج السلتية والجرمانية، أما الأشكال الآدمية المستخدمة فواضح أنها بيزنطية تماماً، هذه النماذج تشي بشيء من التأثر بالفن القبطي المعاصر الزخرفي. فمؤرخ الفن جيمس جونسون سوينلي يزعم وجود ارتباط مباشر بين الفنانين في كل من أيرلنده المسيحية والفنانين الأقباط في الأديرة المصرية منذ وقت مبكر.

أما الفن الأنجلو سكسوني المبكر فقد كان فنًا واعداً، حيث ازدهرت مدرسة النحت المسيحي في إنجلترا منذ بدايات القرن الثامن الميلادي، وقام النحاتون فيها بعمل كثير من الأعمال الفنية التي ازدانت بها جدران كثير من الكنائس وما زالت. وفي فترة لاحقة، في القرن العاشر للميلاد ظهرت مجموعة من المثالين والرسامين في جنوب إنجلترا، تركزت في الأديرة البندكتية في وينشستر Winchester، وتخصصت في الرسم التخطيطي، وبوجه خاص للأشكال الآدمية، ورسمها أو تصويرها بشكل حركي واقعي. واعتمدت طريقتهم بشكل عام على الأنماط القديمة أكثر من اعتمادها على الأنماط السلتية أو الإسكيزية. كما كان الأنجلوسكسون على درجة من البراعة في المشغولات المعدنية والتطريز.

وفي القارة الأوربية وإلى حد ما في انجلترا كذلك، فإن بقايا المباني الرومانية وأعمال الزخرفة، أمدت الناس في العصور الوسطى الباكرة بمواضيع مستمرة والرغبة

فى التساؤل عن كيفية تنفيذ تلك المبانى، إلى جانب الرغبة فى تقليدها ؛ كذلك فإن استمرار الأنماط الرومانية ظلت ظاهرة للعيان فى فن البناء الكنسى. ووفقًا لما ذكره مؤرخ القرن السادس للميلاد جريجورى التورى، فإن كنيسة القديس مارتن التورى وهى إحدى مزارات الحجاج المسيحيين كانت عبارة عن بازيليكا واسعة مبنية على الطراز الرومانى، ومزينة بكثير من الرسومات القيمة وأعمال الحفر ؛ هذا إلى جانب أن فن الزخرفة الرومانى كان ممثلا فيها من خلال النماذج اللولبية، واستخدام الحروف ذات الأشكال النباتية، والحليات المعمارية المتكررة، وهكذا لم تفقد النماذج الرومانية الأخاذة بريقها وسلطانها. فالنحاتون الفرنسيون قلدوا الرسومات الرومانية والأعمدة الرومانية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد، وربما اعتبرت شرفة كنيسة نوتردام فى أفينون خروجًا على النموذج الرومانى.

كما كان التأثير البيزنطى واضحًا تمامًا فى كثير من أنواع الفنون وخصوصًا فن المعمار، فالنوق الرومانى كان شائعًا فى روما أثناء غزوات البرابرة، وظل له تأثيره لعدة قرون. ففى فن البناء كانت القبة البيزنطية قد حلت محل القبة الرومانية، وهو إنجاز معمارى هام شامخ، ورشيق، بحيث تكون القبة التى توفر الحماية والوقاية مبنية على دعامات لها نتوءات بارزة وفيما بعد فقد تطورت إلى القبة المرفوعة على أسطوانة، وتعدد هذا النوع الأخير من القباب، وكذلك الأجزاء النصف دائرية من مبانى الكنيسة. وهكذا فإن الفن البيزنطى قد ساهم فى إقامة العديد من المبانى الأثرية الغربية.

وفى مجال الفنون، فإن الفن البيزنطى قدم للغرب قطع الموزايكو الصغيرة اللامعة، والمحلاة بالذهب أو ذات الأرضية الزرقاء، مما نفخ روحًا وحياة فى الزجاج القوطى الملون. كما منح الفن البيزنطى الفن الغربى حب الفخامة، والألوان الشرقية، وكلها أشياء وجدت استجابة بين أناس بسطاء، فسادت بينهم، وصبغت كل فنون العصور الوسطى. كذلك فرضت بيزنطة أسلوبها فى تصوير الشخصيات المقدسة، وفى الفن التشكيلى إلى حد بعيد، فلم تكن صورة أحد القديسين لتعبر عن الواقع، بل كانت بمثابة موضوع مقدس فى حد ذاته، أو عمل أيقونى له سحره، وعلى هذا الأساس فقد تحتم على هذا العمل أن يطابق العرف والتقاليد، وبلا أى تدخل من خيال الفنان.

وكما يقول مؤرخ الفن أرنولد هاوسر : "**إن بيزنطة كانت تعتقد أن الفن يجب أن يكون تعبيراً مطلقًا عن النص المستشهد به، وعن عظمة الخالق، وعن مقدرة الفنان التى لا تضاهى**" . كما أن البيزنطيين كانوا يفضلون الأشكال المسطحة ذات الظلال والتى لها مغزاها الروحى، ولم يهتموا إلا قليلاً بإبراز تفاصيل أعضاء الأجسام البشرية فى تصويرهم للشخصيات. أما عن المواضيع، فقد كانت تدور حول القديسين، أو الأباطرة، أو بعض موظفيهم، بحيث يتم تصوير الوجه بالكامل وهو يواجه المشاهد، وبشكل متواضع. ويستمر أرنولد هاوسر فى حديثة قائلاً : "إن المسيح قد تم تصويره على أنه ملك، والسيدة مريم على أنها ملكة، يرتديان ملابس ملكية وأروابًا ثمينة، ويجلسان على العرش فى تحفظ، وبلا أى تعبيرات وبطريقة منفرة. بينما يقترب منهما صف طويل من القديسين والرسل فى إيقاع بطىء مقدس، تمامًا مثل الإمبراطور والإمبراطورة وهما يحضران أحد الاحتفالات فى البلاط ويحيط بهما رجال الحاشية "!

لقد امتزجت الأنماط الرومانية والبيزنطية مع التقاليد الشعبية المختلفة وكذلك الخاصة بالشعوب البربرية لكى تشكل الذوق الأوربى الغربى. وجاءتها الفرصة لكى تعبر عن نفسها فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن العاشر للميلاد عندما حل السلام وعم الرخاء فى عصر شارلمان، وإن لم يتبق سوى القليل النادر من هذا العصر من أعمال البناء، باستثناء الكنيسة التى بناها شارلمان لنفسه كى يدفن فيها فى آخر سنة ٨٠٥ م ؛ فى محاولة جادة منه لأن يكون رومانيًا، فأمر بعمل تصميم بيزنطى لها وكذلك نموذجا مصغرًا، وزاد على ذلك واجهة على هيئة واجهات القلاع، وزودها بأبراج وشرفة وتم تنفيذ ذلك وإجراء التعديلات، فخرجت إلى الوجود فى شكل جرمانى ضخم. ينبئ عن الطابع الرومانسكى فى فن العمارة.

كما أن فن بناء الكنـ... الكارولنجية قد تم تعديله كى يناسب الاحتياجات الطارئة، ففى كنائس الرهبان فإن ضخامة الحجم أصبحت مطلوبة لمواجهة متطلبات الاحتفالات، وإقبال الحجاج المتزايد؛ بحيث تم توسيع المكان المخصص لجماعة المرتلين الذين زاد عددهم، كذلك تم تشييد العديد من الصوامع للقديسين المفضلين حول الجزء النصف دائرى داخل الكنيسة، وتم تجهيز سرداب تحت الكنيسة لحفظ الذخائر المقدسة

للقديسين. أما الحوائط فقد تمت زخرفتها بالفريسكو، واللوحات المرسومة، والموازيكو والزجاج الملون، والتى تصور الأحداث التى وردت فى الإنجيل، وحياة القديسين، كما أن الهدف منها كان تعليميًا جنبًا إلى جنب مع الاهتمام بالإحساس الجمالى، فقد ذكر أحد رجال الدين المسيحيين أن "الصورة هى نوع من التثقيف خاصة للأميين".

ولم يتبق من أعمال الرسم والفن التشكيلى من العصر الكارولنجى سوى القليل والنادر، باستثناء أعمال الحفر على العاج الممثلة فى بعض اللوحات، وكذلك فى المخطوطات المصورة. هذه الأعمال تنم عن حرية تامة فى التجديد، والنزوع للعودة إلى الواقعية القديمة فى معالجة الموضوعات الزخرفية والجسم الإنسانى، ولعل من أبرز هذه الأعمال كتاب "مزامير أوترخت " الذى تم تنفيذه حوالى عام ٨٢٠ م، بما فيه من رسوم تخطيطية قام بها بعض الفنانين المبرزين وإن لم يتم ذكر أسمائهم.

وفى الفترة المضطربة من القرنين التاسع والعاشر للميلاد، والتى شهدت غزو الفايكنج للغرب الأوربى، إلى جانب ما نشب من فتن وصراعات بين النبلاء المحليين، فإن حركة البناء تكاد تكون قد توقفت تمامًا، باستثناء ألمانيا فى الفترة القصيرة للنهضة الأوتية من القرن العاشر للميلاد، وإن كانت معظم العمارة عبارة عن قلاع وأسوار للحماية، حتى الكنائس التى تم تشييدها، كانت بمثابة أماكن حصينة أشبه بالقلاع، ذات صبغة دفاعية غير مفضلة ؛ كما أن واجهاتها لم تكن مزخرفة ومثيرة للاشمئزاز، إلا أنها من الداخل تشعر الإنسان بالأمن والأمان وأنها مبان دينية.

وفى فترة السلام النسبى فى القرن الحادى عشر حدثت عملية ولادة جديدة فى فن المعمار، وفى الفن بوجه عام باعتباره أساسًا لفن المعمار : "فالغطاء الأبيض" للكنائس، والذى انتشر فى كل أوربا لا يزال مثار إعجابنا ودهشتنا. كما أن نمو المدن القديمة وأقسامها، وإيجاد مدن أخرى جديدة كان بمثابة الضمان لإقامة الكاتدرائيات والكنائس العملاقة ؛ فإذا نحينا جانبًا عدد الكنائس الحديثة الآن، فإننا نستطيع القول بأن المدن كانت زاخرة بالكنائس، ولكن إذا افترضنا أن نصف سكان مدينة يبلغ عددها حوالى خمسة آلاف سوف يحضرون قداس الأحد، فإنهم سيحتاجون إلى مبنى ضخم. ومما لا شك فيه أن العديد من المناطق السكانية كانت مكتظة بالمبانى الكنسية نتيجة

للمنافسات المحلية. ولكن هذه الكنائس كانت فى زمنها كافية وحتى لو كانت غير مرتبطة بإحدى الأبرشيات، فقد كانت فى حد ذاتها شيئًا يدعو إلى الفخر. ولأن مبانيها كانت حجرية، فقد كانت تعتبر بمثابة الحصون التى يلجأ إليها الناس ضد أى غزو مرتقب، فضلاً عن أن أبراجها المرتفعة أو الشاهقة كانت تساعد الرحالة على تحديد الجهة التى يقصدونها، كذلك فإن أجراسها كانت تحدد ساعات العمل وساعات النوم والراحة، كما أن ما بها من زخرفة كان يتيح للفلاح المسكين أن يلقى نظرة خاطفة على عالم حافل بالجمال والخيال.

لقد كان الفن تقريبًا فنًا دينيًا، فإذا كان فن النحت وجد فقط فى الكنيسة، فإن فن الرسم والزخرفة لم يكن لهما نصير أو حام غيرها فى العصور الوسطى الباكرة، فلم تكن قصور وقاعات النبلاء المظلمة مكانًا مشجعًا للفن. أما الكنيسة فقد تم تصميمها لكى تبرز الصور الزيتية الجدارية، والزجاج الملون فى نوافذها، ومذبحها المشرق بما فيه من مشغولات ذهبية وأحجار. كما أن الفن الزخرفى وفن المعمار كانا يشكلان وحدة واحدة، وإن كانا فى الأيام الأخيرة قد أخذ كل منهما لنفسه مجالاً منفصلاً . "إنه من الواضح أننا اليوم، بكل ما لدينا من ثروات وعمال بناء ،لا نستطيع تنفيذ الزخرفة الجميلة المألوفة والتى كانت تتم فى العصور الوسطى الفقيرة" .

لقد تحكمت الرمزية وبخاصة الرمزية الشعرية فى تصوير الأشياء فى العصور الوسطى، فقاعدة النحو على سبيل المثال كان قد تم تصويرها على هيئة سيدة عجوز معها سكين ومبرد لمحو أخطاء التلاميذ. أما علم البلاغة أو البيان فقد تم تصويره على هيئة سيدة مهيبة، فستانها مزين بحروف الكلام. وإن كانت الرمزية تسيطر على كل حياتنا الآن، حيث تجد سهمًا يشير إلى مكان الخروج، أو إلى مكان المرحاض العام، على الرغم من السهم الفعلى أو الواقعى يعتبر نادرا فى تجاربنا. هذا إلى جانب أن عدم إدراك الرمزية أكثر من محير، فكنيسة العصور الوسطى ربما استخدمت الشكل الصليبى لكى تضيف فراغا أكبر للجمع المحتشد وبخاصة من المصلين فى أجنحة الكنيسة، أو لكى تقيم أكثر من مذبح جانبى، أو لتجعل من الممكن تحمل قوة الدفع الخارجى للبرج الرئيسى. ومع هذا فهناك عدم إدراك للرمزية ممثلٌ فى المسيح

مصلوبًا، فرأسه هو هيكل الكنيسة "مذبح الكنيسة" المحاط بتاج، هو مجموعة الصوامع الصغيرة، والأبواب هي يداه ورجلاه المصلوبة، والكنيسة نفسها تعد رمزًا لعملية تنفس الصعداء بما لها من برج متجه نحو السماء.

أما النمط الأوربي العظيم والذي يرجع إلى أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر للميلاد فهو نمط رومانسكي، وهذه كلمة تم اختيارها بشكل دقيق تعني أنه نوع من الفن الروماني. فالكنيسة الرومانسكية مستمدة مباشرة من البازيليكا الرومانية، والتي كانت عبارة عن صالة كبيرة مستطيلة الشكل تنتهي بجزء نصف دائري، والذي كان يضم منصة مرتفعة مخصصة للإمبراطور أو من ينوب عنه من الحكام ؛ والجزء العلوي من الصحن الذي يجلس فيه المصلون كان مزودًا بعدد من الشبابيك، أما الأجزاء الجانبية منه فقد كانت مغطاة بسقف منحدر يستند على صف أو صفين من الأعمدة، هذا التكوين قد تم تحويله إلى الكنيسة عن طريق توسعة الصحن لكي يشتمل على مذبح الكنيسة، وعن طريق التوسع في الجزء الملاصق للمبنى تم عمل الطرق الجانبية المؤدية إليها، وعمل جناح الكنيسة، وإعطاء الرسم الكلي لها شكل الصليب.

إن بنّائي العصور الوسطى قد ورثوا عن الرومان أسلوبين للاستفادة من المساحات الكبيرة وحصرها ،هما : **العقد نصف الدائري**، وهو عبارة عن حنية نصف دائرية تستند على دعامتين هي حوائط جانبية وتشكل كلها كتلة حجرية . **والعقد الصليبي الشكل**، والذي يتكون من عقدين نصف دائريين متقاطعين عند الزاوية اليمنى، مما يجعل ثقل هذه الأحجار لأسفل وإلى الخارج، مما يتطلب حوائط متينة وأعمدة كثيرة لتتحمل هذا الثقل، ومجموعة من الأكتاف لتقوى الأعمدة وتجعلها تتحمل الضغط الواقع عليها من أعلى. أما الشبابيك، والأبواب، وصفوف الأعمدة فقد كانت كلها على شكل أقواس مستديرة، كما أن متطلبات البناء كانت تحتم ضرورة إنارة الصحن والسماح بنفاذ قليل من الضوء.

أما التأثير العام فقد كان واضحًا فيما تحقق من صلابة، واستمرار، وظلام، إلا أن هذا الظلام قد تم التغلب عليه بإشعال العديد من الشموع على المذبح وهو معبد

الرب ومثواه ؛ وفى المكان المخصص للترنيم فإن أصوات المنشدين كانت ترتفع ويرتد صداها من السقف الحجرى برنين مدهش. أما الخواص السمعية والصوتية فلا يمكن حصرها، إلا أنها يمكن التعرف عليها بالتجربة أو الممارسة العملية.

وفى الكنائس الرومانسكية نجد أن فن النحت كان خاضعًا وبشكل ملحوظ لفن العمارة، كما كان دائمًا بارزًا وذا ألوان براقة، على الرغم من إعطائه الإحساس بالكتلة الحجرية ؛ أو التراب، وأنه القالب الأم أو الرحم الذى تؤخذ منه النسخ المتعددة، وفى بعض الأحيان كنت ترى أن الزخارف المتقنة التى تم تنفيذها على الأبواب والشرفات هى فى الحقيقة رسوم بيانية مبتكرة. كما أن نحاتى الحروف كان يسمح لهم بعرض بعض أعمال من خيالهم، وبوجه عام فإننا يمكن أن نطلق على فنهم عبارة «الفن التعبيرى»، باستثناء الفترة الكارولنجية، حيث حدث نوع من النزوع إلى الواقعية، والتى فى ظلها كان يسمح ببعض المبالغة والتحريف لكى تحقق نوعًا من التعاطف.

وفى فن النحت الرومانسكى فإن الأرواح الملعونة قد كان لها بعض الوقار، كما تم تطهير القديسين من العوامل الدنيوية المفسدة وإظهارهم بمظهر الزهاد. (فالمسيحية لم تعرف القديسين السمان ولا البوذيين) وكان المسيح يتم تصويره على شكل ملك، ونادرًا ما يكون عاريًا أو وهو يعانى على الصليب، أما السيدة مريم العذراء فهى ملكة السماء، وليست الأم الحزينة على ابنها، وعادة ما تم تصوير الأشخاص وهم يقفون جنبًا إلى جنب وبشكل متناسق، وكما هو الحال فى الصور الفوتوغرافية فى القرن التاسع عشر للميلاد، وبحيث تبدو الحركات وقد تم وضعها فى الإطار المناسب.

إن فن التصوير الرومانسكى سواء كان من الفريسكو الذى تزدان به الجدران، أو الصور التى تزدان بها المخطوطات، أو على الزجاج النادر من تلك الفترة، فقد كان غير بارز وعبارة عن رسومات تخطيطية، مستمد من نماذج معروفة، إلا أنها استخدمت بشكل بدائى، وظلت نموذجًا يحتذى به ؛ كما أن ألوان الفريسكو الذى قدر له البقاء كانت بسيطة، ويغلب عليها اللون الأصفر، والأحمر والأسود. كذلك فإن الألوان النباتية، مثل اللون الأزرق المستخرج من جذر نبات الفوة، كانت شاحبة، واستخدم الرسامون عددًا كبيرًا من الألوان الخاصة بالحلى، مع إضافة شرائح من الذهب، وعلى

نطاق كبير فى المواضيع الدينية المقدسة، وإن كان بعض الرسامين قد استخدموا رسومات حيوانية فى مواضيع مختلفة من الحياة اليومية.

الواقع أن كل رسومات العصور الوسطى الرومانسكية والنحت، وما يسمى اليوم بالتأليف الأدبى، كانت كلها أعمال تصويرية وصفية، تحكى قصة متتابعة، كضرب من ضروب الكوميديا، وإن لم يكن لها نزوع لأن تتفرد باهتمام خاص أو مستقل ؛ ولكنها كانت شيئًا مكملاً للعمارة، والكلمة المكتوبة، ولصوت الواعظ أو الكاهن.

إن فن العمارة يمثل دوما التفاهم أو الحل الوسط بين الحاجة والوسيلة، ففى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد، كانت هناك فترة تقدم وازدهار، صحبتها رغبة واضحة لبناء كنائس أكبر لتفى بحاجة الجموع المحتشدة، ولكى تحل المنشآت المشرقة محل المبانى الضخمة، أما الوسيلة التى اكتشفها المهندسون المعماريون لمواجهة تلك الاحتياجات فقد انصبت على النمط الجديد الذى ذاع صيته وهو نمط فن العمارة القوطى، بعناصره الأربعة المميزة، وهى القوس المدبب، والعقد ذو الأضلاع، والكتف المعلق، والشرفة التى فوق الممشى الجانبى، أو المبنى المقنطر والمقام فوق أعمدة صحن الكنيسة أو المكان المخصص للمرتلين، كل هذه العناصر نشأت عن الفن الرومانسكى المتأخر، كما أن ما تم من دمج بينها أدى إلى ابتكار أسلوب متميز.

فالقوس المدبب أو القوس المستدق الرأس Ogive قد أتى أصلاً من الشرق، فالعرب استخدموا تنوعًا هائلاً من الأقواس، ولأغراض زخرفية أكثر منها فى فن البناء، وبجانب القوس المستدق الرأس فإنهم عرفوا قوسًا على شكل حدوة الفرس، والعقد مستدق الرأس الذى فى كل من جانبيه منحنى معكوس قرب الذروة Ogee، والقوس المركب The Compound ، والقوس مستدق الطرف أو الأطراف The Causpate بل وحتى الأشكال المفلطحة التى استخدمت فيما بعد فى الفن القوطى المتأخر. كما أنهم قاموا بضفر الأقواس المستديرة معًا، وهكذا ابتكروا سلسلة من الأقواس المدببة المتداخلة فى بعضها البعض. ويجب أن نشير إلى أن القوس المدبب كان معروفاً فى الغرب أثناء الفترة الرومانسكية ؛ أما ما قام به مهندسو المعمار فى الفن القوطى هو استخدامه فى العقود المتصالبة أو المتقاطعة.

ففى العقد المتقاطع الرومانسكى، فإن خطوط نقطة التقاطع تسمى الحنايا Groins، فبعد وضع كتف من الحجر لهذه الحنايا، فإن البنائين يقومون أولاً ببناء الأكتاف الحجرية، ويملأون ما بينها من فراغات بألواح حجرية رقيقة، وبعد ذلك جاءت فكرة أن الكتف يمكن أن يبنى أولاً عند قاعدة بين بابين أو نافذتين "ركيزة"، ويأخذ فى الارتفاع منحنيا إلى أن يصل إلى نقطة اتصال لكتف آخر، مما أوحى بفكرة العمود ذى العناقيد، والركيزة أو العمود ذى الأكتاف. كما أن العقد ذا الأكتاف يمكن أن يستخدم لكى يغطى كل أنواع المساحات غير المتناسقة، ويمكنه الارتفاع إلى علو معقول. وحيث إن ضغط الثقل الهائل يحدث لأسفل على الأكتاف ومنها على الركائز، فإن الحوائط الواقعة بين تلك الركائز لا تخدم هدفًا معماريًا، ويمكن أن تحل محلها شبابيك تتيح ضوءًا معقولاً بالنهار لرجال الدين والرهبان.

كما أن ثقل الأسقف الحجرية المستخدمة حاليًا بدلاً من الأسقف الخشبية كان يقع على الركائز، ويتوزع على أطرافها، لذا فقد كانت الركائز مدعمة بدعامات على شكل مائل أو مورب من الخارج بأكتاف ضخمة، ولأنه وفى بعض الأحيان لم تكن هذه الدعامات كافية لكى تتحمل الضغط القوى، فكان يتم بناء بعض العقود المعلقة لكى تتلقى قوة دفع دعامات السقف عند نقطة التقائها بالحوائط.

ونتيجة لذلك الابتكار فقد تحتم عمل هيكل حجرى، أو الهيكل الخارجى كما يقول علماء البيولوجى بعيداً عن الكائن الحى، فاختفت بذلك الحوائط العريضة الرومانسكية ؛ والأعمدة الضخمة، والأقواس الثقيلة. ولم يعد داخل الكنيسة مظلمًا وكما كان الحال من قبل، ويقوم الناس بإشعال الشموع ومع هذا لا ترى إلا قليلاً من الظل، وغدا داخل الكنيسة متمتعًا بفيض من ضوء النهار؛ وفى كثير من الكنائس فإن الزخرفة الداخلية كانت متوافقة مع الألوان الجذابة للشبابيك، وأصبح خارج الكنيسة مليئًا بالأبراج، والأسقف المتحدرة، والحليات المعمارية، والميازيب الناتئة، والشرفات المليئة بالتماثيل فى الكوات الموجودة فى حوائط الشرفات.

وأصبح أهم ما يميز ملامح الكنيسة القوطية العظيمة هو الارتفاع الشاهق، والاتساع، والسمو، والجاذبية، والثقل، ليس فحسب، إلى جانب استخدام الكتل الحجرية وما نجم عنها من اختلاف على حد قول مؤرخ الفن ويلهيلم وورنجر : لقد كانت

هناك اختلافات على أية حال، محلية، وفردية، وقومية. ففى إيطاليا يبدو النمط القوطى ليس إلا نموذجًا مفروضًا على النمط الرومانسكى، لأنه فى تلك البلاد المشمسة فإن البنائين قد احتفظوا بالحوائط الواقية، والرواق المقنطر العميق، والشبابيك الصغيرة. أما فى إسبانيا، فإن الذوق العربى كان شائعًا، ومؤثرًا فى كثير من أنماط وأشكال العديد من الكنائس، فكاتدرائية إشبيلية وهى أكبر وأوسع الكاتدرائيات القوطية، قد تم بناؤها على أساسات أحد المساجد القديمة، وأن برجها الشهير والمعروف باسم جيرالدا Giralda هو منارة "مئذنة" المسجد، كما أن فن الزخرفة الإسبانى كان غنيا ومتنوعًا بوجه خاص ؛ والكثير من الكنائس لها شوايات حديدية – وهو ما يميز إسبانيا – كما أن مكان جوقة المنشدين منفصل تمامًا عن المذبح، كذلك فإن الفن القوطى الفرنسى احتفظ دائمًا بشىء ما من الأشياء القديمة وخصوصا استخدام الكتل الضخمة فى فن البناء والعمارة، ونزوع شديد لاستخدام الزخرفة. أما الفن القوطى الألمانى فقد كان أكثر ميلاً إلى الارتقاع والوجد أو الانجذاب الرهبانى، وهو أسلوب أخاذ، ورقيق.

ولقد شيدت ألمانيا والبلدان الواطئة كثيراً من المبانى المدنية، والأسواق، وقاعات المدن، وقاعات اجتماع النقابات على النمط القوطى. أما الكنائس الإنجليزية فكانت تفضل المذبح الطويل لإقامة الشعائر الدينية، وكذلك وجود برج مربع طويل فوق السقف المتقاطع للمذبح والأروقة، لتحل محل برج الكنيسة شائع الاستعمال فى كل القارة.وفى بلاد الشام فإن الصليبيين استخدموا النمط الفرنسى وفى الغالب كانت مبانيهم ذات أسقف مستوية ساعدتهم على عمل العديد من الشرفات للاستمتاع بنسيم الهواء فى المساء. إلا أن كل الفنون القوطية كانت آخذة فى النمو وبشكل مطرد، بشكل أكثر حرية وتنوع فى البناء بوجه خاص، وأقل تمسكًا بالنواحى الهندسية النمطية، إلى أن تغيرت أشكال الأضلاع، والزخرفة التشجيرية (*)، والتى كان واضحًا أنها اتجهت إلى أعلى وكما كان يحدث فى الأشكال النباتية اللولبية عند الفنانين السلتيين الأوائل.

كانت أول بوادر التغيرات فى فن البناء القوطى قد تم الشعور بها فى فرنسا حوالى عام ١١٠٠م، ففى ذلك الوقت كان قد تم بناء أول مزار "كنيسة" للحجاج فى ڤيزلى Vezelay، بعقودها المقببة والمتقاطعة، لكى تسمح ببناء منور مرتفع للكنيسة. وبعد

(*) زخرفة قوامها خطوط مشجرة، وبخاصة فى أعلى النافذة القوطية "المترجم".

ذلك بقليل تمت إضافة شرفة مغطاة، ذات عقود متقاطعة على الرغم من أنها لم تكن ذات أضلاع. أما العناصر القوطية فيمكن أن ترى فى الكنيسة المزدوجة التى شيدها وليام الفاتح وزوجته فى مدينة كاين Caen، وفى الكاتدرائية الإنجليزية فى دورهام Durham وفى أماكن أخرى. وحوالى سنة ١١٤٠م قام الأسقف البندكتى لكنيسة القديس دينيس ببناء أول وأعظم الكنائس القوطية خارج مدينة باريس.

أما أول كاتدرائية قوطية فهى فى سانز Sens، والتى بدأ بناؤها حوالى نفس ذلك التاريخ، وفى القرن التالى تم بناء ثمانين كاتدرائية وخمسمائة كنيسة قوطية كبيرة فى فرنسا وحدها. وارتفعت المبانى القوطية بشكل شاهق. لدرجة أن قمة سقف مكان المنشدين فى كنيسة بوفييه يبلغ ارتفاعه ٢٢٤ قدما، كما أن البرج الشمالى لشارتر يبلغ ارتفاعه ٣٧٥ قدمًا، وبرج ستراسبورج ٤٦٦ قدمًا، أما برج أولم فيبلغ ٥٢٥ قدمًا» إن برج أولم قد تم تصميمه فى القرن الخامس عشر للميلاد، وتم استكماله حسب الرسم الأصلى فى القرن التاسع عشر للميلاد». ومثل هذه الارتفاعات لم يقدر لها التنفيذ مرة أخرى حتى القرن التاسع عشر للميلاد، عندما وصل الارتفاع إلى ٥٥٠ قدمًا عندما تم بناء برج أنطونيليانا فى تورين، وبرج إيفل فى باريس.

وما زالت هناك بعض الكاتدرائيات غير مكتملة البناء؛ وفى ذلك يقول جويث Goethe : إنها لم تكتمل لأنها تسير فى موكب التطور. كما أن الفن القوطى قد ازدهر مرة أخرى فى فترة ازدهار الفن القوطى الڤيكتورى فى القرن التاسع عشر للميلاد، وفى فترة استخدام العوارض الخشبية القوطية فى القرن العشرين. وإن لم تعد مستخدمة لعدة أسباب منها أنها صعبة جداً فى تنفيذها، وباهظة التكاليف، ومع هذا فإن الفن القوطى لم يمت بعد.

كذلك فإن فن النحت الرومانسكى قد تخصص فى الزخرفة باستخدام نظام القوالب، والأشكال الغائرة، واستخدام الأحرف، أما الفن القوطى فلم يهتم باستخدام الأحرف، لأنه كان يعوق عملية التدوين على الجدران من الأرضية إلى الأسقف ذات العقود، ووجد الفنانون سعادة كبرى فى عمل التماثيل الآدمية، بحيث وضعوا تماثيل القديسين فى كوّات خارجية، بحيث تصور هذه التماثيل العديد من الأحداث مثل يوم

الحساب أو الدينونة وذلك فى الشرفات المختلفة. أما فى الداخل فكانت هذه التماثيل تزين المقابر الفخمة والنصب التذكارية. واتصفت أعمال النحاتين بالواقعية، حيث نظروا إلى الطبيعة وقلدوها، مقدمين بذلك أشكالاً ثلاثية الأبعاد للشخصيات التى قدموها، وأدخلوا الكثير من التطوير فى أعمالهم، بحيث غدت الزخارف المؤلفة من عدة نقوش على صورة أو رسم أو نحت غائرة أكثر ورقيقة فى نفس الوقت. كما أن الأشكال أصبحت أكثر من مجرد رسومات ذات صبغة بيزنطية، بل غدت تمثل شخصيات معروفة. كذلك فإن كثيراً من هذه الأعمال لم يتم تنفيذها فى الموقع الذى وضعت فيه، بل تم تنفيذها فى المسكن المريح الدافئ الذى يشغله الرسام قرب الموقع.

ولعل أكبر مثال على ذلك هو التمثال الكبير المطلى بالذهب للقديس مايكل، والذى يزين كنيسة القديس مايكل، فهو يمثل الدوارة أو الشكل المروحى وكأنه يدور على قاعدته، ممسكا بسيفه ليواجه العاصفة أينما كانت "إنه يجب أن يدور وبشكل متزن على السنادات التى يستند عليها، مهما كانت، ومن الذى قام بتزييتها ؟ وكيف تم ذلك؟" إن الرهبان كانوا يعتقدون أنه لو قدر لهذا التمثال أن يقع على الأرض، فإن الكنيسة سوف تصاب بمكروه كذلك. وفى سنة ١٧٨٨م أصابت صاعقة التمثال، وبعدها بقليل فإن الثوار قاموا بنفى القديس وأنصاره من موطنهم.

وفى العصور الوسطى الباكرة كان يسمح بإقامة قبر للقديسين فقط، إلا أن الملوك العظام والنبلاء طالبوا بنفس الامتياز الذى كان يحصل عليه القديسون، لذا فقد ظهر واضحا مدى إسراف طبقة الفرسان وزوجاتهم فى كثرة القبور فى الكنائس القوطية. ومن جهة أخرى فإن الفنانين اللاحقين ممن يبحثون عن الواقعية، استمدوا كثيراً من موضوعاتهم من الحياة اليومية، ثم أقاموا كثيراً من التماثيل والصور، وتركوا الكنائس واتجهوا لزخرفة وزينة القلاع الفاخرة الخاصة بطبقة النبلاء.

وعن فن الرسم القوطى فقد كانت هناك محاولات مستميتة لتحقيق الواقعية التى تحققت لفن النحت، إلا أن مثل هذا الإنجاز كان يتطلب القدرة على رؤية الأشياء وفقًا لعلاقتها الصحيحة أو أهميتها، وهو ما يطلق عليه الرسم المنظورى، إلى جانب تقصير الخطوط بغية إبراز الصورة للعين، ومراعاة موضعها سواء كان تحت الضوء أو فى

الظل، وتحويل المنظر ثلاثى الأبعاد إلى ثنائى الأبعاد، وإيجاد عمق خادع للصورة، وفى العصور الوسطى العالية كانت حوائط قاعات القلاع يتم تزيينها بمناظر تاريخية، وأخرى تمثل أمجاد الفروسية، إلا أن الزمن والرطوبة كان لهما تأثيرهما المدمر على هذه المناظر ؛.

وعلى أية حال فلقد بقى لدينا الكثير من المخطوطات المصورة، وهى تؤكد أن فن التصوير قد اتجه نحو الواقعية، وظهرت فيه كثير من الكفاءات، كما أن الكثير من أعمال المصورين اليدوية تثبت مدى براعتهم فى تنقية وطحن وخلط الألوان. وفى القرن الثالث عشر للميلاد فإن الفنانين أجازوا لأنفسهم استخدام خلفيات ذات مناظر طبيعية وخيالية، كما أطلقوا لأنفسهم العنان فى التراكيب الفنية المختلفة فى صورهم، فعبروا بذلك عن الأحاسيس والانفعالات التى تعتمل فى نفوسهم، مثل الحزن، والتى انعكست على أوضاع الأشخاص الذين صوروهم وكذلك قسمات وجوههم. وفى القرن الرابع عشر للميلاد شغف المصورون بأعمال فن الجروتسك وما فيه من مفارقات مضحكة وأشياء غريبة، والإسراف فى الزينة أو الزخرفة، واستخدام الألوان الصارخة؛ وعلى الرغم من أن هؤلاء الفنانين مجهولون بالنسبة لنا، إلا أننا نستطيع أن نقف على بعض اللمسات الجمالية لبعض الفنانين الموهوبين الذين أبدعوا فى تصويرهم للجمال الإلهى.

ولعل أهم إنجاز لفن الرسم القوطى هو الزجاج الملون، والذى يحكى قصة العقيدة المسيحية من خلال الألوان الزاهية المستخدمة فى هذا الفن، إن عبارة "الزجاج الملون" هى عبارة عن اصطلاح ردىء، ذلك لأن اللون كان يتم صبه مع الزجاج، ولا يتم استخدامه على سطح الزجاج ؛ لدرجة أنه يقال أحياناً إن هذا الفن لم يعد معروفاً الآن، وأننا رغم ما نحن فيه من تقدم لا نستطيع إنتاج الألوان الزرقاء المستخدمة فى شارتر. وعلى أية حال فإن ثيوفيل البندكتى الألمانى من القرن الثانى عشر للميلاد أعطانا كثيراً من التوجيهات فى كتابه عن الفنون المختلفة De Diversis Artibus لتصميم وعمل ذلك الزجاج الملون. بحيث كشف لنا عن أن صناع الزجاج كانوا يطحنون وبكميات صغيرة الموزايكو القديم ليحصلوا على بعض أفضل ألوانهم.

ربما كانت الكاتدرائية الضخمة تشتمل على حوالى عشرة آلاف شكل من الأشكال التى تم تصويرها على الزجاج بداخلها، أو تم نقشها على الحجر خارجها، وبذلك كانت الكاتدرائية بمثابة - مدرسة للتاريخ المقدس - عبرت عن الدين بطريقة مسرحية ؛ كما أنها كانت أيضًا بمثابة معرض عام للفنون، وربما كقاعة موسيقية، وأحيانًا كمكتبة، فلقد كانت مصممة بحيث تلبى معظم احتياجات الناس الروحية، فى هذا العالم وفى العالم الآخر.

كما كان فنانو الكاتدرائية مدركين تمامًا لما تتمتع به أعمالهم الفنية من ميزات، وكذلك ما يتمتعون به هم أنفسهم من فضائل وجدارة. وتوقعوا أن يكون رد فعل الناس المخلصين مزيداً من الإخلاص لهم والحماس. فلقد كتب الراهب ثيوفيل لأحد تلاميذه يقول : ابنى العزيز المفعم بالحيوية والنشاط، إنك بما تتمتع به من فضائل جليلة قد دنوت من بيت الرب بكل ثقة، وقمت بتزيينه بكل ما هو جميل ؛ فلقد زخرفت الأسقف والحوائط بأعمال متنوعة وبألوان مختلفة، ولقد أظهرت بكل المقاييس جنة الله للناظرين، مشرقة بكل أنواع الزهور المختلفة، المخضوضرة بالأعشاب العطرية والزخارف ذات الأوراق النباتية، والمتوجة بكل حسنات القديسين وأرواحهم ؛ ولقد منحتهم الدافع لكى يمتدحوا الخالق المبدع فى صنعته. ذلك لأن العين البشرية غير قادرة لأن تفكر: فى أى الأعمال يجب أن تحدق أولاً. فإذا نظرت إلى الأسقف فسوف تبدو لها مطرزة، وإذا نظرت إلى الحوائط فهى إحدى الجنان، وإذا نظرت إلى أضواء الشبابيك المشرقة، فإنها سوف تنبهر بجمال الزجاج ورقة الصنعة التى لا تقدر بثمن، ولكن لو تصادف أن تأمل المؤمنون صورة آلام المسيح كما يجسدها الفن، فإنهم سوف يصابون بألم حاد ويتوجعون شفقة عليه، وإذا تأملت أنواع العذاب الذى تحمله القديسون وما لحق بأجسادهم بسببه وما لقوه من جزاء خالد، فإن ذلك سوف يدفع من يشاهده إلى التطلع إلى الحياة الأفضل بشغف. وإذا ما تأملت المباهج السماوية العظيمة، وعذاب الجحيم اللعين، فإن ذلك سوف يدفع إلى عمل كل ما هو خير، ويجعل الإنسان يرتجف من مجرد التفكير فى ارتكاب الآثام.

ومما لا شك فيه أن بناء أى كنيسة للرب قد شحذ خيال وقدرات الناس إلى أقصى درجة، وفى البداية كانت تتولد الفكرة، ويأتى الإلهام الذى يتجسد فى الهدف الذى يبحث عن الوسيلة ويجدها لوضع هذا الإنجاز موضع التنفيذ.

فالراهب شوجر من كنيسة القديس دينيس وهو يستعيد الذكريات بسعادة غامرة، فيتذكر المراحل المختلفة والتى انتهت بتشييد أول كنيسة قوطية حقًا، فقد كانت البازيليكا الخاصة به القديمة على الطراز الرومانسكى، وبها قطعة من صليب المسيح، وقطعة أخرى من إكليل الغار، هاتان القطعتان كانتا مقصداً لكثير من الحجاج المسيحيين والزوار، لدرجة أنه فى الأيام المقدسة المهمة كان الرجال والنساء يتدافعون بقسوة وتطأ أقدام بعضهم أجساد البعض الآخر، ويكادون أن يختنقوا من شدة الزحام. لذلك قرر شوجر أن يوسع ويعيد بناء كنيسته، مستفيدا من الأساليب الجديدة فى البناء، والتى كان قد رآها فى ڤيزلى Vezelay، فاقترح استيراد الأعمدة من إيطاليا بحراً، وعبر الساحل الأطلنطى إلى ساين Seine، ولكن لحسن الحظ فقد تم اكتشاف محجر قديم وعميق فى المنطقة القريبة من بونتواز Pontoise.

"وعندما يتم جذب الأعمدة من قاع المنحدر بالحبال المحكمة الوثاق، فإن كلاً من رجالنا والجيران الطيبين، سواء من النبلاء أو من عامة الناس، كانوا يقومون بالتشمير عن سواعدهم، وصدورهم وأكتافهم ويتناولون الحبال، ويقومون بما تقوم به حيوانات الجر، فيسحبون الأعمدة إلى أعلى الجزء المنحدر إلى وسط المدينة، حيث يقوم الصناع المهرة ويتركون آلاتهم جانبا ويخرجون للقائهم، ويتغلبون بقوتهم الجسمانية على صعوبات الطريق، ويضعون تلك الأعمدة فى مكانها إرضاءً للرب وأرواح الشهداء.

وفى إحدى المناسبات قام سبعون شخصاً، بعضهم من الضعفاء وغير القادرين، والبقية الباقية من الصبية وبأعجوبة رفعوا أحد الأعمدة بمقدار قدم، هذا العمل كان يعجز عن أدائه مائة من الرجال الأشداء". أما المشكلة الثانية فقد تمثلت فى إيجاد العوارض الخشبية لعمل سقف مائل، وهى عريضة، وطويلة، مستقيمة وقوية بدرجة تكفى لدعم السقف، والذى كان بالقطع مصنوعًا من الخشب. وقد كان الأسقف على يقين أنه لم يتبق قطعة واحدة من هذه العوارض فى كل إقليم باريس. إلا أنه لم يستمع

لكلام أحد، وخرج بنفسه لكى يبحث فى الغابات الكثيفة، وخلال عشر ساعات تمكن من العثور على اثنتى عشرة شجرة طويلة ومستقيمة، وهو تماماً نفس العدد المطلوب، وحسبما يقول :"إن الله منحه كل شىء وكما هو مطلوب من حيث الوزن والمقاس.

وبمساعدة بعض الأدوات الحسابية والهندسية فإن التوسعة الجديدة كانت منسجمة تماماً مع المبانى القديمة، بحيث تمت إقامة العديد من النوافذ الجديدة التى زودت داخل المكان بالضوء اللازم، كما وصلتهم الهبات والمساعدات من كل أنحاء العالم المسيحى. وعندما تم وضع العقود الرئيسية فى مكانها ولم يكن قد تم تثبيتها ولصقها مع بعضها البعض، فإن الشيطان بما له من سلطان على الطبيعة أرسل ريحاً مخيفة، قوية بدرجة تكفى للإطاحة بالأبراج الحجرية والمتاريس الخشبية ؛ إلا أن أحد الأساقفة – وقد كان يقوم بالطقوس الدينية عند المذبح – هزم تلك العاصفة عندما أشار إليها بذراع القديس سيمون، لذلك لم تستطع العاصفة أن تدمر تلك العقود المنفصلة والمقامة حديثاً، وترنحت فى الهواء الطلق، وتم صدها بقوة الرب".

فكان إنجاز كاتدرائية القديس دينيس على هذا الشكل مشجعاً لكثير من أساقفة فرنسا على بناء العديد من الكاتدرائيات على النمط الجديد، وكانت أولى الخطوات هى جمع الأموال. ففى كل مدينة فإن الأسقف، والكهنة، والأشخاص ذوى المكانة أو السلطة كانوا قدوة، فالملك كان أول من قدم هبة قيمة، تلى ذلك حملة عامة لجمع التبرعات، شجعها البابا بمنحه الغفران لكل المتبرعين الكرام. كما قام أرباب المال بإقامة عشاء خيرى لجمع التبرعات، ثم تجولوا فى أنحاء الدوقية كلها ومعهم بعض الذخائر المقدسة لإثارة الحماس الدينى، مذكرين الناس بالمعجزات، ومظهرين ما ينتظر المتبرعين من جزاء أخروى وغفران الذنوب، فضلاً عن إثارة روح التنافس للتبرع فيما بينهم. فقام الناس فرادى وجماعات بالتبرع، وهكذا نجد أنه فى شارتر فإن ١٩ نقابة من نقابات أرباب الحرف أسهمت بتقديم النوافذ، وتم قبول كثير من التبرعات مهما كانت بسيطة بلا أى ازدراء. "كما أن كاتدرائية باريس قد تم بناؤها بالفارذنج The farthings(*)

(*) قطعة نقد بريطانية تساوى ربع البنس "المترجم".

التي تبرعت بها النساء العجائز" كما قال أحد الأساقفة المعاصرين. وقد شاركت النساء جميعًا وليس العجائز منهن، بل يقال إن نقابة النساء العاهرات فى باريس قد تبرعت بشباك أو بخمرة كأس القربان لكاتدرائية نوتردام، وتم قبول هذا التبرع وإن لم يلق استحسان كثير من الناس.

إن المهندس المعمارى، أو كبير البنائين كان يتم استئجاره، فيقوم بعمل مسح للموقع، ويضع التخطيط ويقيم السقالات الخاصة بمشروع الكنيسة الذى سينفذه، هذا على الرغم من انتشار كثير من الأساطير والشائعات بأن الكاتدرائيات كانت تبنى بلا تخطيط، وأنها كانت تبنى وفقًا للإلهامات اليومية، كما أن وجود الكثير من التفاصيل فى ريمس Reims، وستراسبورج Strasbourg وساينا Siena عن الخطط يكذب هذا الزعم. فقد كان المهندس المعمارى أحيانًا يقدم نموذجًا، وكما فعل جويتو Giotto عندما تقدم لبناء كاتدرائية الكامبانيل Campanile فى فلورنسا. كذلك كان المهندس المعمارى رجل له قيمته وأهميته، كما كان يحصل على أجر ممتاز، وغالبًا ما يحصل على سكن وبعض المتطلبات الأخرى. وقد جرت العادة بأن يقال إنه يعمل من أجل تمجيد الرب وليس تمجيد نفسه؛ إلا أنه فى الحقيقة كان يحفر اسمه على كل ما ينفذه من أعمال كلما أمكن ذلك. فهو يقوم بوضع كل التفاصيل الدقيقة للمبنى، ويستخدم فى رسوماته ألواحًا خشبية، وألواحًا من الجص أو الإردواز، لأن استخدام قطع من الجلد كان مكلفًا جدًا.

وبوجه عام لم يكن هناك بناء يشتغل بمفرده فى عمل عقد من العقود، وهو ما ينطبق أيضا على المهندس المعمارى، والذى كان يستخدم بدوره ملاحظا للإشراف على العمل، كذلك كان لديه مجموعات عديدة من العمال، ربما بلغ مجموعهم أكثر من ألف عامل يحتاج إليهم فى بناء إحدى الكاتدرائيات، ومن هؤلاء العمال تأتى الصفوة وهم البناءون، ينقسمون إلى نوعين : نوع هم بمثابة عمال مساعدين، يقومون بقطع الحجارة، ويجهزون الملاط "المونة"، والبناءون المهرة وهم الذين يقومون بتسوية وتشكيل

الأحجار للعقود، والشبابيك والشرفات وللزخرفة وللحفارين. وكان عملهم يعد من الأعمال الدقيقة، ولا يسمح بحدوث أية أخطاء أو إهمال. كذلك كان هناك كثير من أرباب الحرف مثل النجارين "يقومون بعمل البراويز، والمقاعد فى مذبح الكنيسة، والأثاث المختلف"، والزجاجين، والمشتغلين بعمل المشغولات المعدنية، والنقاشين، وبعض العمال غير المهرة، مثل الفعلة، والحجارين، والحمالين.

وكانت الحجارة يتم جلبها من المحاجر، والتى كانت غير بعيدة فى فرنسا عن مواقع العمل، بحيث تم تقدير ما أنتجته محاجر فرنسا فيما بين عامى ١٠٥٠م و ١٣٥٠م بأكثر مما تم استخدامه فى بناء الأهرامات فى مصر، وكان الحجر الجيرى يتم جلبه من كاين Caen من نورماندى بكميات كبيرة ويتم نقله بحراً إلى انجلترا، ولتوفير مصاريف النقل، فإن كثيراً من الحجارة الخام كان يتم قطعها وتشكيلها فى المحاجر حسب المواصفات التى يطلبها المهندس المعمارى، كما أن عملية بناء الحوائط، والعقود والأبراج كان يتم قياسها بالقدم. كما كان يتم استخدام السقالات المكونة من قطع خشبية يتم ربطها بالحبال عند بناء الحوائط المرتفعة، ذلك لأن الألواح الخشبية المستخدمة لعمل السقالات الآن كانت نادرة وباهظة التكاليف.

أما الحجارة فقد كان يتم رفعها إلى مكان استخدامها بواسطة ونش "مرفاع" تجره حبال تتحرك على بكرات مثبتة على عارضة موضوعه على جزء ناتئ من المبنى"بحيث يجب أن يكون الشق الخاص بالعوارض ظاهراً باستمرار". ولقد حققت عملية رفع الحجارة بهذه الطريقة اليدوية نجاحًا كبيراً، حيث تم رفع حجارة إلى برج بارتفاع وصل إلى ٤٥٠ قدمًا ؛ كما أن التقنية التى استخدمت فى بناء العقود فوق ممرات الكنيسة أو فوق المذبح الرئيسى لابد أن تكون مستمدة من بناء القناطر ذات العقود. أما الأطر الخشبية فقد كانت تقام فوق الجدران وهى غالبًا ما تكون بمثابة دعامات لهذه الأطر، بعد ذلك كان يتم وضع الأضلاع الحجرية والتى تم قطعها بعناية فوق الأطر الخشبية ويتم لصقها بالأسمنت معًا. كذلك كان يتم ملء الفراغات بينهما ببعض القطع الحجرية الصغيرة أحيانًا، وأحيانًا ببعض قطع من الدبش، بعد ذلك تتم إزالة الأجزاء الخشبية التى تستخدم للتثبيت لكى تتم الاستفادة منها فى عملية أخرى

وفى قسم آخر من العقد، وكذلك فى تثبيت الجزء السفلى وتجصيصه، وهى عملية شاقة تتطلب جهداً وصبراً وخبرة كبيرة، ذلك لأن أى خطأ حسابى سوف يؤدى حتماً إلى كارثة، فمازال صدى انهيار أحد عقود كاتدرائية بوڤيه Beauvais يتردد منذ سنة ١٢٨٤م، والذى كان قد بلغ ارتفاعه ١٥٧ قدماً.

لقد كان يشترط فى عمال البناء أن يكونوا أعضاء فى النقابات العمالية، هذا على الرغم من وجود بعض المتطوعين المتحمسين الذين ساهموا فى بناء بعض الكاتدرائيات، إلا أنهم لم يلقوا دائماً الترحاب، وهناك رواية تمت صياغتها فى قالب شعرى تفيد أن أحد الأشخاص الأتقياء قد اشتغل فى بناء إحدى الكنائس لقاء عدة بنسات، ومع هذا فإن العمال المحترفين قاموا فى النهاية بقتله، "إلا أن أسماك نهر الراين حملت جثته إلى قاع النهر محاطة بالشموع المضيئة"، أما البناءون فقد كان غالبيتهم من المهاجرين الذين كانوا يقيمون بالقرب من مواقع البناء التى يعملون فيها "ومصطلح البنائين قد انتعش أو عاد للحياة من جديد مع شارات هؤلاء البنائين وهى المربع والبوصلة وزاوية النجار، وهى شارات أحدثت بينهم نوعاً من التعاطف. حقيقة إن عمال البناء كانوا يتقابلون فى اجتماعات سرية، من المحتمل أنها كانت تتم فى مقر النقابة، لكى يناقشوا محاسن ومساوئ ظروف العمل ؛ إلا أنه ليس هناك دليل على أن هذه الاجتماعات كانت مقصورة على فئة معينة منهم، وإن كانوا فى مرحلة لاحقة قد اتخذوا لأنفسهم جماعات سرية وطريقة خاصة وشعارات للتعارف فيما بينهم".

كذلك قام أرباب الحرف والعمال المهرة وبعض رجال الدين والرهبان بتقديم يد العون فى البناء، وعمليات صيانة المبانى، وخاصة صيانة الأديرة والكنائس الخاصة بهم. كما أن المشتغلين بالفنون الجميلة، والنحت، والرسم، والتصوير كانوا من رجال الدين ومن يدور فى فلكهم، إلا أنه سرعان ما اشتغل بهذه الفنون الكثيرون من غير رجال الدين. ومن الناحية الاجتماعية فإن هؤلاء المشتغلين بالفنون لم يحظوا بمكانة اجتماعية رفيعة، كما حصلوا على أجورهم مثل أرباب الحرف الآخرين، وفى بعض الأحيان كانت نقابتهم فرعاً لنقابة صانعى السروج، ولم يحظوا بتقدير من قبل عامة الناس أكثر مما حصل عليه أرباب الحرف الأخرى.

ولقد مجّد دانتى اثنين من رسامى القرن الثالث عشر للميلاد، وتعجب أحد المعلقين الأوائل على أعماله بقوله: "إنه من الواجب تخليد أصحاب الأسماء المجهولة الذين لم يحظوا بمكانة مرموقة" ولكنه "**قد صمت لكى يكون مفهومًا إلى أى حد أن الرغبة فى الشهرة والعمل من أجلها سرعان ما يرتبطان بأسماء العاملين عليها بشكل أو بآخر، لدرجة أن الفنانين الصغار كانوا شغوفين بذلك، تمامًا مثلما نرى الفنانين وهم ينقشون أسماءهم على أعمالهم**" . وحتى لو لم يحصل الفنان على التقدير أو الإعجاب الذى يستحقه ولو بعد حين، فإننا لا يجب أن نسرف فى الإشفاق عليه لأنه كان فى وضع أفضل من غيره ممن يعملون فى الحقول أو فى الورش حيث كان يشغل كل وقته بالعمل، فى مقابل أجر متواضع، وصحبة ممتعة ؛ كما كان يجد نوعًا من الرضا عند رؤية عمل له وهو لا يلقى استحسانًا فحسب، بل تصل درجة الإعجاب به إلى درجة العبادة. وعندما يشاهد الجموع المحتشدة تركع أمام صورة العذراء التى رسمها أو أحد القديسين، وعندها لابد أن يشعر أن عمل يده قد لقى استحسانًا من السماء.

إن طراز القرن الثالث عشر القوطى العظيم قد تغير وتطور، فخلفه فى فرنسا الطراز المموج، أى ذو الخطوط المتموجة أو الملتوية كألسنة السعير، والذى استمد اسمه من الزخرفة التشجيرية (*) أعلى النوافذ على شكل لهب، وفى انجلترا الطراز القوطى المزخرف، والذى حل محله فيما بعد فى القرن الرابع عشر للميلاد الطراز العمودى (**) هذان الطرازان يمثلان فى الواقع نوعًا من المبالغة والتكملة لطراز القرن الثالث عشر الميلادى القوطى، ولقد تميزا بإدخال بعض التطوير على التصميم، والعقد المستدق الرأس فى كل من جانبيه منحنى معكوس قرب الذروة، والعقود ذات الأشكال المتعددة، والإسراف فى الزخرفة، والبراعة الواضحة فى البناء، لدرجة أن المؤرخين كثيرًا ما يبدون شيئًا من الرثاء تجاه الأعمال القوطية المتأخرة، ويطلقون عليها أسماء الأعمال كثيرة الزخرفة، والمتكلفة، بل وحتى المبجلة، بعد فخامة ومثالية الأعمال النبيلة للقرن الثالث عشر للميلاد.

(*) وهى زخرفة قوامها خطوط مشجرة وبخاصة فى أعلى نافذة قوطية. (المترجم)

(**) أى عمودى الخطوط، وهو طراز انجليزى معمارى قوطى تسيطر فيه الخطوط العمودية. (المترجم)

وفى ذلك يقـول المؤرخ «هوزنجا J. Huizinga "إن الطراز المموج للبناء هو بمثابة المقطوعة الختامية الموسيقية التى تختتم بها الخدمة الدينية فى الكنائس لعازف على الأرغون لم يستطع أن ينهى مقطوعته". كما أن المشاهدين سواء كانوا من رفيعى المستوى الثقافى أو غيرهم لم تتح لهم الفرصة للإعجاب بكاتدرائية الروس، أو بالمنشآت المزخرفة فى المدن الفلمنكية، أو بالعقد المروحى الرائع فى كنيسة هنرى السابع فى وستمنستر، وكنيسة الكلية الملكية فى كمبردج .

إن نكبات منتصف القرن الرابع عشر للميلاد قد أعاقت البناء، وبوجه خاص فى فرنسا فقد وصل الطاعون والمسمى بالموت الأسود سنة ١٣٤٨م ليفتك بحوالى ثلث سكان أوربا، فاجتاح الأديرة، ووضع حدا لفترة لرحلات الحج ؛ وجاء أول غزو انجليزى فى حرب المائة عام سنة ١٣٤٦م ؛ كما هاجمت الجماعات المسلحة كنائس ومدن فرنسا وعاثت فيها فساداً، وشعرت فرنسا بعجز مالى خطير، وعجز فى الأيدى العاملة الماهرة، وكذلك الحافز على البناء أو حتى الإصلاح.

وفى الوقت الذى استسلمت فيه فرنسا لعوامل الإحباط والقلق، فإن بعض البلدان الأخرى والتى كانت أقل ابتلاء، قد استأنفت عملية البناء وفق الطرز القوطية المتأخرة، مثل البلدان الواطئة والتى أظهرت وبوجه خاص براعة وعظمة فى كثير من مبانيها المحلية، مثال ذلك دور البلدية فى بروسل، وبروج ولوفان، ونستطيع أن نتعرف فيها على النزعة العلمانية أو النزعة الوطنية فى فن البناء. كذلك فقد انتقل الحماس للبناء من الأساقفة ورجال الدين إلى الطبقة البورجوازية الغنية والمواطنين من رجال الأعمال مثل أسرة ميدتشى فى فلورنسا الذين شيدوا كثيراً من الدور فى مدنهم فى الشمال، وكثيراً من القصور فى الجنوب، كذلك أقاموا الكثير من المقابر الفاخرة، واستأجروا كثيراً من الفنانين لزخرفة كنائسهم ورسم كثير من الصور لهم ؛ لقد دفعوا الكثير من أجل الفن لمتعتهم واضعين نصب أعينهم ما يعود به ذلك من منفعة عليهم. **"بحيث كانت هناك سوق منتظمة للفن فى أفينون"**.

كما أن رواج التصوير والزخرفة الداخلية كان شيئًا ساراً بالنسبة للفنانين، وبدلاً من أن يجلسوا على الرصيف أمام أسوار إحدى الكنائس فقد غدا من الميسور عليهم

الجلوس فى أحد الاستديوهات، ورسم صوره لمذبح على لوحة ثلاثية الأجزاء، أو صورة لأحد النبلاء وزوجته، وهما يرتديان أفخر أنواع الثياب.

ولقد بزغت فى إيطاليا روح جديدة مستمدة من فلسفة القرن الرابع عشر الإنسانية(*) هذه الروح تمثلت فى الرغبة فى محاكاة الإنجازات الفكرية لروما القديمة. مقام الأثرياء بجمع الأعمال الفنية القديمة، كما قام الفنانون بدراسة المبانى الرومانية مع الرغبة فى تقليدها. فكان أول توقف عن الطراز القوطى القديم ممثلاً فى قبة كاتدرائية فلورنسا، التى بلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم، وتم بناؤها ما بين ١٤٢٠م، ١٤٣٤م على يد فيليب برونيلتشى المهندس، المثّال، الرياضى، الحداد، وهو أحد رجال عصر النهضة المبرزين.

وفى فترة سابقة بكثير على ذلك، وفى السنوات الأولى من القرن الرابع عشر للميلاد، كان الرسامون الإيطاليون دائمى البحث عن تقنية جديدة. فقد كافح كل من دوتشيو سيمون مارتينى وآخرون من سابنا من أجل الواقعية ؛ وتمت المناداة بجويتو الفلورنسى كمؤسس لفن النهضة، وببراعة استطاع رسم الخطوط بطريقة مصغرة بغية إبراز الصورة للعين، فحصل بذلك على تأثير ثلاثى الأبعاد، وهكذا رسم صورة خادعة للبصر تعبر عن الواقعية.

وفى القرن التالى ظهر الرسامون العظام الفلمنكيون أمثال : روجر فان دير وايدن، وهانز مملنج، والإخوة هوبرت، وجان فان آيك وغيرهم. وهم الذين أوجدوا تقريبا طريقة الرسم بألوان الزيت، وكذلك الواقعية الملموسة فى فن التصوير، وطريقة رسم ما بداخل المنازل من أهل البيت والأشياء الأخرى، إلى جانب المبانى الداخلية وانعكاسات الضوء عليها ولأنهم من أبناء الطبقة البورجوازية، فإنهم استجابوا لمطالب كبار البورجوازيين الذين كانوا يتاجرون فى السلع الترفيهية والكمالية، وطالبوهم بتصويرهم بأمانة ؛ ومما لا شك فيه أن هذا الفن الواقعى يمدنا بكثير من الوثائق التى تصور الحياة فى العصور الوسطى ؛ والتى لا تزال كثيراً من زوار المتاحف، على الرغم مما قاله مايكل أنجلو من أنها يجب أن تشد فقط انتباه الأطفال والنساء العجائز.

(*) هى فلسفة تؤكد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل، وكثيراً ما ترفض الإيمان بأية قوة خارقة للطبيعة "المترجم".

ومع أفول العصور الوسطى لم يقنع الفن بمجرد تصوير الحياة الواقعية ؛ فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث صور لنا ما بعد الموت من تحلل الأجسام الذى تم التعبير عنه بأسلوب رائع فى « رقصة الموت »، حيث يأتى الموت بابتسامته العريضة، ويمد يده إلى السيدات المتكبرات، والملوك، والتجار الأثرياء، وكبار رجال الدين، وهكذا إلى أن تصل يداه إلى الفلاح المنهك فى الحرث ؛ ورقصة الموت هذه تم تصويرها على حوائط الكنائس والمقابر وعلى القطع الخشبية المصورة والتى أخذت فى الانتشار بين عامة الناس فى القرن الخامس عشر للميلاد.

وفى الوقت الذى قام فيه الفن المسيحى المبكر بالتعبير عن الصفاء، والأمل، والفردوس الأعلى ؛ فإن الفن الدينى فى القرن الخامس عشر للميلاد ركز على المعاناة والرعب، فالمسيح يتدلى وهو يتعذب فوق صليبه، وإكليل الشوك مغروسًا فى جبينه، وجنبه ينزف دمًا، ويبدو أن تصوير عملية استشهاد القديسين لم يكن الهدف منها هو استدرار الشفقة والإعجاب بقدر ما كان الهدف منها هو إثارة الخيال. كما يزعم الكتاب المحدثون بأن هذا النوع من الفن الرهيب به بعض الدلائل على أن القرن الخامس عشر مجرد فترة ركود، وحروب، وقلة إيمان، مقرونة بالرغبة فى الموت. وسيكون من المفيد ألا نبعد هذا الاستنتاج، ففى المقام الأول فإن القرن يتميز بحركة الإصلاح، والإحياء جنبًا إلى جنب حالة القنوط، وفى المقام الثانى هناك كثير من الأعمال الفنية المبهجة التى يمكن أن تواجه تلك الأعمال الحزينة والكئيبة، وفى المقام الثالث، فإن الفن لم يكن دائمًا تعبيرًا حقيقيًا عن واقع الحياة.

كما يقال إن الموسيقا كانت عالمية، فكل فرد كان يغنى أو يحاول أن يغنى. فالناس فى العصور السابقة على العصور الوسطى جعلوا الموسيقا واحدة من الفنون الحرة السبعة والتى شكلت النظام التعليمى، وورث المسيحيون الأوائل الأناشيد الدينية اليهودية، وظل صدى ذلك موجوداً ومتوارثًا فى ظل الموسيقا الكنسية المسيحية. وفى البداية كانت الجموع المسيحية المحتشدة تغنى فى جماعات أو بشكل تجاوبى مع مجموعتين من المنشدين ؛ وفيما بعد قام بهذا الغناء فرقة من المنشدين كان يتم اختيار أفرادها بدقة.

واستقر طراز الإنشاد الدينى فى شكل غنائى موسيقى بعدد من الأصوات، وهو الذى عرف باسم الغناء الموسيقى أو الإنشاد الجريجورى، فالبابا جريجورى العظيم لم يبتكر الغناء الموسيقى هذا، لكنه شجعه كنوع متعارض مع أنواع الغناء الأخرى، وساند مدرسة الإنشاد التى قامت بتدريب الصبية على ذلك النوع من الغناء، والغناء الموسيقى اعتمد كلية على كلمات النص، والموسيقا الصوتية لتأدية المقاطع المغناة، وهى فى العادة مقاطع متساوية تقريبًا فى الطول وتتميز باتساق النغمات، إنه نوع بسيط ومؤثر فعلاً واستمر تقريباً إلى حوالى ألفى سنة.

وعن الإيقاع فقد كان يعتمد على جهود كل من الرجال والنساء بأصواتهم المختلفة، وفى محاولاتهم الغناء بنوع من التجانس مع إحداث شيء من الفروق المقبولة فى التناغم، وظهرت عمليات تخطيط الإيقاع فى القرن الثامن للميلاد أو بعد ذلك بقليل، وربما جاءت من مصادر سلتية أو جرمانية. بحيث كان الصوت يغنى نفس اللحن. فى وقفات قد تصل إلى أربع أو خمس وقفات، أو فى ثمانٍ وحدات، وعلى هذا الأساس فإن أداء اللحن على أربعة أجزاء كان ممكنًا. وفى القرنين التاسع والعاشر للميلاد حدثت عمليتى التتابع والمجاز، وفى الصلوات العامة للكنيسة جرت العادة أن يتم نطق حرف "a" الأخير وبشكل منظم فى عبارة « سبحوا الرب» Alleluia، هذا النطق بمرور الوقت أصبح إيقاعًا مستقلاً بذاته ؛ أما التتابع فقد كان عبارة عن عدة كلمات تمت صياغتها لتتناسب مع هذه العبارة. وبدأ المجاز على شكل كلمات يتم اختيارها ووضعها بين الكلمات أو العبارات الخاصة بطقس القربان المقدس، كما هو الحال بين الكلمات Kyrie و eleison "يارب ارحمنا" ؛ والتى تطورت بحيث غدت إضافات طويلةً، بل وحتى أشعاراً كاملة وتامة، تلك الإضافات وذلك التحرر أوجدا كثيراً من التراكيب المستقلة، مما دعا إلى ضرورة إيجاد أسلوب لتسجيلها وصيانتها.

أما عن التدوين الموسيقى فقد كان فى الأصل مجرد مجموعة من العلاقات الصغيرة، وكنوع من الاختزال، تتم كتابته فوق الكلمات ليبين درجة ارتفاع أو انخفاض الصوت وكذلك التغيرات التى تحدث عند النطق بأى مقطع، دون تحديد أمد النغم أو طبقة الصوت، إلى أن جاء القرن الحادى عشر للميلاد وتم وضع الخطوط الأفقية لتحديد طبقة الصوت ؛ وفى نفس الوقت تم وضع أسماء للنوتة الموسيقية، وهى :

لو، رى، مى، فا، صو، لا، وهى أسماء مستمدة من بيان المقاطع اللفظية من السطور المتوالية للترانيم المألوفة لتسبيح الرب.

وللحفاظ على الأصوات فى إيقاع منسجم أثناء الغناء، فقد كان من الضرورى التمييز بين مدى الأصوات ووضعها فى مجموعات كل منها تشكل وحدة زمنية. وهذه هى الموسيقا القياسية. أما النوتة الموسيقية فقد تم تدوينها فى القرن الثانى عشر للميلاد، وذلك على شكل مربعات سوداء ومعينات تم وضعها فوق أعمدة صغيرة، أما الشكل الحديث للنوتة الموسيقية فقد ظهر حوالى سنة ١٦٠٠م.

كذلك كان تأثير الموسيقا العامة على الموسيقا الكنسية كبيراً بلا شك، وإن ظل مبهمًا إلى حد ما، وإذا كان الأدب قد تم تسجيله فى كثير من المدونات، وأعمال البناء تشهد عليها كثير من الصروح الحجرية الشامخة، والفنون تم التعبير عنها من الرسومات والصور، إلا أن الأعمال الموسيقية قد ذهبت مع الريح، فالقليل جداً من أغانى الفولكلور، والكلمات والموسيقا هى التى قدر لها البقاء، فمعلوماتنا عن الموسيقا العامة "المدنية" تبدأ مع ألحان بعض الشعراء الجوالين وأغانى الجوليياردية من القرن الثانى عشر للميلاد وهى التى تم تدوينها فى بعض الوثائق، وهى قليلة جداً، كما أنها تدل على بعض الأحداث التى جمعت بين الموسيقا الشعبية والطرز الكنسية.

إن الناس فى العصور الوسطى لابد وأن يكونوا قد استمعوا إلى المغنين، فلم يكن أمام سكان الريف شيءٌ يشغلهم فى ليالى الشتاء المظلمة سوى الغناء ورواية القصص، والكثير من رواياتهم قد تمت صياغتها على شكل مقاطع موسيقية، وكان الناس يتغنون وهم يرقصون، ذلك لأن الآلات الموسيقية كانت كئيبة ونادرة على الأقل فى العصور الوسطى الباكرة ؛ وربما كان الناس يتغنون وهم يعملون معًا، وكما يفعل البحارة، أو كما اعتادوا أن يفعلوا وقام الشعراء الجوالون والمينيسنجرز بوضع الموسيقا لكى تلائم كلماتهم، وبحيث يتم ترديدها بمصاحبة الكمان أو القيثارة الصغيرة. أما النبلاء فقد تعلموا الغناء كأمر طبيعى، إما أثناء تعليمهم فى قصورهم أو فى مدارسهم. ففى جامعة ونشستر كانت المواد التى يتم امتحان الطلبة فيها هى القراءة، وقواعد اللغة اللاتينية، والغناء.

لقد أحب الناس الموسيقا وكرموا المغنين، فالراهب سالمبين Salimbene الذى انضم إلى طائفة الفرنسيسكان فى القرن الثالث عشر للميلاد يعطينا بعض الأمثلة التاريخية عن أصدقاء له من الموسيقيين، هذه المعلومات تكشف بعض الغموض عن أنماط المغنين، والمؤلفين الموسيقيين أمثال الراهب هنرى البيزى، فيقول عنه :

"لقد كان ماهراً فى التدوين الموسيقى، لأنه وضع ألحانًا جميلة لكثير من الأغانى المبهجة سواء من حيث الإيقاع أو الأداء الصوتى. لقد كان مغنيًا رائعًا، له صوت جهورى عظيم، لدرجة أنه كان يجلجل فى المكان المعد لجوقة المنشدين، إلا أنه كان لديه فلوت (*) يبلغ ثلاثة أمثال الفلوت العادى، طويل جدًا وحاد، حلو، وناعم، وجميل بشكل يفوق كل المقاييس. وذات مرة سمع إحدى الخادمات تدق بأصابعها على أحد المقاعد فى كاتدرائية بيزا وتغنى بلهجة عامية، وتقول :

إذا كنت لا تهتم بى

فإننى لن أعيرك أى اهتمام

فعندما سمع منها ذلك قال عدة كلمات، ووضع لها لحنًا موسيقيًا، قال فيه :

المسيح ذو طبيعة أسمى من طبيعة البشر

المسيح هو ملك وسيد كل البشر

وأكثر من هذا، ولأنه عندما لازم فراش المرض فى الحجرة المخصصة لعلاج المرضى فى دير ساينا، ولم يستطع أن يكتب أى موسيقا، فإنه استدعانى، وقد كنت أول من استمع إلى أغنيته التى غناها، ولحنها وقال فى تلحينه لكلماته : إن الإيقاع من ابتكار الأخ ڤيتا Vitaمن مدينة لوكا Lucca، وهو أحد رهبان جماعة الفرنسيسكان، هو أفضل المغنيين فى زمنه غناءً واسمًا، فى الإيقاع وفى الغناء، إنه يتميز بصوت رقيق يبهج كل من يسمعه، ولم يكن هناك أحد مهما بلغت قسوته إلا وكان يستمع إليه

(*) آلة نفخ موسيقية "المترجم".

بسعادة، وكان يغنى أمام الأساقفة، وكبار الأساقفة، والبابا نفسه، وكانوا جميعًا يستمعون إليه فى سعادة غامرة، وإذا حدث وتكلم أحد فى الوقت الذى يغنى فيه الأخ ڤيتا فإن الجميع يصرخون فيه يطلبون منه ألا يقاطع الموسيقا. لدرجة أنه لو حدث أن أحد طيور العنادليب كان يصدح فى عشه فإنه سوف يتوقف عند سماعه لصوت غنائه، ويستمع إليه بشغف كبير، ثم يستمر فى صدحه عندما يتوقف ڤيتا عن الغناء، لدرجة أن الطيور والرهبان كانوا يتغنون بعده بدورهم، وكل منهم يشدو بأعذب الألحان".

وفى القرن الثانى عشر ظهر « اللحن المساير» the descant (*)، أو التغيير الزخرفى وهو شكل أفضل من الموسيقا المخصصة لعدد من الأصوات، هذا اللحن المساير هو الذى تطور إلى أن أصبح فن مزج الألحان، وهو الذى تحول فى القرن الرابع عشر إلى اللحن متعدد الأصوات Polyphony أو الغناء الفردى. لقد تغنى الناس بالقصائد الغزلية القصيرة، وبالأغانى القصيرة التى ينشدها عدة أشخاص أو جماعات بعضهم إثر بعض The rounds، مثل "الصيف قادم" وهى أغنية من ستة مقاطع ينشدها بعض الناس إثر البعض الآخر، والتى تمت كتابتها بعد سنة ١٣٠٠م بقليل.

فى القرن الرابع عشر بلغت الموسيقا شأوًا بعيدًا، فقد نشر فيليب دى ڤيترى فنه المستعر Ars Nova، والذى قدم فيه إيقاعًا جديدًا وترتيبات نغمية مركبة. كذلك كان فى مقدور العلمانيين أن يشقوا طريقهم كمؤلفين وملحنين ومغنين، فقد كان لدى كل أمير وكاردينال جماعة موسيقية أو الأوركسترا الخاص به، وخصوصًا فى شمالى إيطاليا حيث وجد عدد كبير من المتمكنين من فنهم الموسيقى، وعدد من المؤلفين المتحفزين والباحثين عن الإبداع، مما كان له أثر كبير فى هذا المجال. كذلك تمكنوا من السيطرة على تقنيات هذا الفن، وتغلبوا على كل الصعوبات المعروفة آنذاك، مما جعلهم يستحقون كل إعجاب.

لقد كانت الموسيقا الباكرة بدائية تضج بالأصوات، ذات آلات تستخدم فقط لتقوية الآلة الرئيسية أو الصوت الرئيسى. فالأرغون وهو المعروف عند القدماء، قد ظهر أول

(*) هو لحن يعزف أو يغنى مع لحن آخر "المترجم".

ما ظهر فى فرنسا فى القرن الثامن للميلاد. وفقًا لما يقوله الأستاذ جروت Grout فقد كان عبارة عن "آلة خشنة غير طيعة، يقوم الأرغونى بتشغيله بوضع الإصبع على أحد ثقوبه وفى ونشستر فى القرن العاشر الميلادى كان هناك أرغون شهير له أربعمائة أنبوب "ماسورة" وستة وعشرون منفاخًا، وكان يملأ الكنيسة بأصوات هائلة لا يمكن التمييز بينها. وفى القرن الثالث عشر فإن الأرغون أصبح يتم تشغيله عن طريق لوحة مفاتيح، وتم استخدامه على نطاق أكبر فى المكان المعد للمنشدين وفى الصلوات.

أما القيثارة فقد عرفت فى أيرلنده أو بريطانيا، وقبيل القرن التاسع الميلادى وصلت إلى كل أنحاء القارة الأوربية حيث أطلق عليها اسم "القانون الإنجليزى" والآلة الموسيقية الأخرى والمعروفة منذ زمن هى آلة الڤييل the Vielle، وهى أصل آلة الڤيولين، ومن الآلات كذلك والفلاوت، وآلة الشومن Shawn وهى آلة موسيقية خشبية قديمة، والبوق، ومزمار القربة، والطبلة، وأخيرًا آلة الدف. وفيما بعد تم استخدام آلة العود، وآلة السنطير (*)، وآلة المصوات(**)، والأرغن اليدوى وغيره من الاختراعات الجديدة. كما أن أول تأليف للقطع الموسيقية لتعزف على الآلات يرجع إلى القرن الثالث عشر للميلاد، هذه القطع كان يتم عزفها فى بلاط الملوك والأمراء. كما نسمع عن مقطوعة موسيقية من القرن الرابع عشر، تم عزفها على أوركسترا يضم ستة وثلاثين نوعًا من الآلات الموسيقية.

وهكذا نجد أن العصور الوسطى قد كونت حبًا للجمال وطبّقته فى مجالات الموسيقا، والأدب، والفنون، والعمارة، وقدمته للإنتاج الفنى بأساليب جديدة وبراعة، وكان إنجاز هذه المجالات هائلاً، إلا أن كل مجال من هذه المجالات بدا وكأنه وصل إلى نهايته، أو إلى مرحلة وهمية هى غاية من الدقة، وبخاصة فى الأدب، وفن البناء المموج، والموسيقا، نشأت من الذوق العام الأساسى، وإلى مرحلة من النقاء كانت كفيلة بالانقلاب وتدمير نفسها. وفى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد كان الناس يبحثون عن شىء ما لايزال جديداً، إلا أن ما بحثوا عنه، أو وجدوه هو ما يمثل العصور الحديثة.

(*) وهى آلة موسيقية قديمة تشبه القانون "المترجم".
(**) آلة موسيقية وحيدة الوتر "المترجم".

الفصل العاشر

نهاية عصر

لو أمعنّا النظر فى الإنسان الأوربى عام ألف وثلاثمائة للميلاد لوجدنا أنه كان ينظر إلى عالمه بقدر كبير من الرضا. ذلك لأن التقدم الذى تحقق عبر قرنين من الزمان كان مستمراً، حتى لو قدر لأحدنا الآن أن يفكر فيه. فالأرض كانت عامرة بكثير من القرى والمدن الجديدة والتى تمتع سكانها بكثير من الأمن خلف أسوارها، وزاد زخرفها بكثير من الكنائس العظيمة، والدور المريحة ؛ وقدمت القلاع الفسيحة كل أسباب الراحة والمتعة لأبناء الطبقة العليا من المجتمع، ولكل من يقصدها طلباً للحماية بل وحتى الفلاحين فى الأوقات العصيبة. كما كان الطعام رخيصاً ووفيراً نتيجة للزراعة المكثفة، كذلك كانت التجارة جيدة، فالطرق البرية والبحرية مفتوحة دائمًا. وكان فى مقدور المواطن فى إسكتلنده أو السويد أن يحصل على نبيذه المفضل من مَعاصِر النبيذ فى فرنسا، وأن يرتدى هو وزوجته الملابس الحريرية والمطرزة المصنوعة فى الشرق، وأن يتبل طعامه بكثير من التوابل القادمة من الشرق الأقصى. وكان فى مقدوره أن يرسل ابنه إلى الجامعة، حيث يجد حرية كبيرة فى النقاش والجدل، بالطبع فى إطار الحدود التى رسمها الدين.

كما أن الملوك قلوا أم كثروا كانوا قد استقروا فى ممالكهم التى تشكلت حدودها وفقًا للجنس واللغة، وأصبح لديهم وبوجه عام من القوة ما استطاعوا به كبح جماح كثير من النبلاء المشاكسين، هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فإن النفوذ الإسلامى كان آخذاً فى الانحسار فى إسبانيا وجنوبى إيطاليا، فى الوقت الذى كان فيه العالم

المسيحي قد امتد ليشمل المنطقة من شرقي أوروبا السلافية إلى جرينلاند ؛ وكانت نكبة الحروب الصليبية الطويلة قد انتهت، واستتبعها ازدهار تجاري مع الشرق. لذا كان بإمكان هذا الإنسان الأوربي المتأمل أن يختتم حديثه بمقولة فولتير : **"إن لم يكن كل شيء على ما يرام، فعلى الأقل كل شيء محتمل"**.

حقيقة إن طبقة النبلاء فقدت كثيراً من استقلالها في علاقاتها بالملوك، وكثيراً من ثرواتها بسبب الطبقة البورجوازية الصاعدة ؛ كما ضعف النظام الإقطاعي، وبضعفه ضعف نظام الفروسية القديم. أما طبقة رجال الدين فقد مزقتها الخلافات، وخاصة خلافات الكهنة المتنافسين، والرهبان. واستطاع أبناء الطبقة البورجوازية تحقيق مزيد من الرخاء والثروة، وعن طريق المال تمكنوا من شراء المناصب والألقاب، وقاموا بتزويج بناتهم لأبناء طبقة النبلاء. أما عن الحكام، في منطقة البحر الأبيض المتوسط على الأقل، فقد جمعوا حولهم كثيراً من المستشارين وهم أقل سلطة من اللوردات وكبار رجال الدين، وأعلى مكانة من غيرهم ممن لا تُعرف أصولهم العرقية.

وفي فرنسا ظهرت طبقة النبلاء والحكام، وموظفو الحكومة، بملابسهم المميزة، ولبس السيف الذي يميز الأشخاص رفيعي المقام. وفي إيطاليا، وبوجه خاص، كان هناك انتهاك للتقسيم الطبقي، إذ يذكر لنا بوكاشيو أن أحد الخبازين قام بدعوة ممثلي البابا لشرب النبيذ، وفي المقابل طلب منه أن يتناول العشاء مع كبار المواطنين ؛ كما أن بترارك كان يمضي أوقاتاً طيبة في صحبة أحد الحدادين واسع الاطلاع، أما دانتي الذي كان يتفاخر بأنه من أصل نبيل، فقد كان عضواً في نقابة الصيادلة.

ويمكن أن يقال إن فلاحي تلك الفترة قد شبوا في ظل حركة رخاء متنامية، ومن المرجح أنهم كانوا أحسن حالاً من إخوانهم لعدة قرون قادمة. فكثير منهم استطاع أن ينال حريته وأصبحوا مُلاكًا للأرض. فالملك لويس العاشر ملك فرنسا قام بتحرير كل العبيد سنة ١٣١٥م على أساس من القانون الطبيعي الذي يقول أن كل إنسان يولد حراً، **"وإن كان قد مكن العبيد من شراء حريتهم"**،ومع هذا فإن نظام العبودية لم ينقرض تماماً، وإن كان من الناحية النظرية قد وجد عند غير المسيحيين وعلى نطاق ضيق. ومن الناحية العملية فإن تجار الرقيق لم يهتموا بالتحقق من ديانة أسراهم.

إن الأوقات السعيدة، أو السعيد نسبيا لم يقدر لها أن تستمر طويلاً، فالزيادة السكانية تحولت إلى تضخم سكاني، ونستطيع أن نستدل على ذلك من عملية تفتيت الملكيات الزراعية وتحويلها إلى وحدات صغيرة، ومن الجهود التى بذلك لاستغلال الأراضى الحدودية، ومن تضخم حجم القرى بما فيها من طبقة كادحة جائعة وثائرة. فلقد ارتفع عدد سكان انجلترا من مليون ومائة ألف سنة ١٠٨٦م إلى حوالى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف سنة ١٣٤٦م، فضلاً عن سوء الأحوال الجوية وما نجم عنها من مجاعات، فقد اجتاحت أوروبا مجاعة رهيبة فى السنوات من ١٣١٥م - ١٣١٧م. فى الوقت الذى لم تكن هناك أية مؤسسات حكومية للتخفيف من حدة هذه المجاعات، كما لم يكن هناك أى نظام لترتيب حركة انتقال الفائض السلعى من مناطق الوفرة إلى مناطق الندرة. فأصحاب شون القمح وهم غالبًا الطحانون فى نفس الوقت كانوا يقومون بتخزين القمح وإخفائه حتى ترتفع أسعاره، هذا فى الوقت الذى بذلت فيه الكنيسة كل جهودها عن طريق جمع وتوزيع الصدقات، ولكن فى البلدان التى تضررت من المجاعة كانت الكنيسة فقيرة تماماً، وعندما كان المعدمون يجدون مستودعاً لخزن الغذاء فإنهم يهاجمونه وينهبونه خشية الموت جوعاً.

وفى تلك الأوقات العصيبة فإن الإنتاج الصناعى فى القرى والمدن عادة ما يصاب بالشلل، ويتم طرد الكثير من الأيدى العاملة، ويحدث نوع من الخلل بين عمليتى العرض والطلب. واكتشفت الحكومات عملية التضخم، ولم يكن فى استطاعتها إصدار ورق البنكنوت، إلا أنها استطاعت أن تقلل من كمية الذهب والفضة فى عملاتها، مما كان يؤدى إلى اضطراب قاعدة المعاملات بهذين المعدنين وكما نلاحظ فى عملاتنا الفضية القديمة. وكان الفقراء، وهم غير القادرين على فهم النظريات الاقتصادية، يقومون بتوجيه اللوم للسادة الأغنياء والثورة عليهم وقتلهم باعتبار أنهم السبب فى كل ما يلحق بهم من مصير محتوم.

ففى فرنسا والتى وقعت تحت وطأة حرب المائة عام، فإن الطابع الثورى عبّر عن نفسه فى الريف وفى الحضر. ففى باريس فإن مجلس طبقات الأمة الثلاث سنة ١٣٥٥م، والذى كان يتزعمه رئيس التجار إيتين مارسيل Etienne Marcel تقدم بعدة

طلبات ثورية لكى يتم التحكم فى الدخل القومى ومن ثم التحكم فى المملكة. وتحول مارسيل إلى زعيم للدهماء أو خطيب شعبى يستغل الاستياء لاكتساب النفوذ السياسى، فأغرى الرعاع، وكان أول من ابتكر العبارة الشهيرة "**مطلب الشعب**"، وكذلك قبعة الحرية ذات اللونين الأحمر والأزرق، ولكن ما حدث هو أن الثورة أطاحت بأهدافه بسبب إفراطه، وفى يونيو عام ١٣٥٨م تم اغتيال مارسيل نفسه.

أما فى الريف فإن الغضب سرعان ما تحول إلى عنف. "فنحن رجال تشكلنا على هيئة المسيح، كما أننا بقينا مثل الوحوش الضارية" هكذا ردد الفلاحون هذه العبارة. واستجابوا تماماً للشحن المعنوى الزائد عن الحد، وكانت خطتهم مهاجمة قصر أمير الضيعة، ونهب ما فيه من نبيذ، وقتل كاتبه اللعين، وحرق القصر بما فيه من سجلات. فكان على الأمير المجاور وكذلك الملك أن يرسل كل منهما قواته لتنزل أشد العقاب بهؤلاء الفلاحين ؛ ولعل أشهر ثورة كانت الثورة الچاكية Jacquerie (*) التى بدأت فى إقليم بوفييه سنة ١٣٥٨م، وراح ضحيتها كثير من الناس ما بين قتيل وجريح على يد هؤلاء الفلاحين الكادحين.

وكان لإيطاليا نصيبها من المشاكل والمتاعب، ففى فلورنسا وصل مجلس عموم العمال إلى السلطة وحَكَم لمدة أربع سنوات بنوع من الاعتدال يثير الدهشة فى السنوات من ١٣٧٨م – ١٣٨٢م. وفى روما سنة ١٣٤٧م فإن كولا دى رينزو Cola di Rienzo وضيع المولد لكنه من المثقفين قاد الثورة ضد النبلاء والسلطة الكنسية، فى محاولة منه لإحياء الجمهورية الرومانية القديمة، إلا أنه أسرف فى وعوده للعامة أكثر مما ينبغى، مما دفع جموع الرومان إلى قتله وحز رأسه، وتعليق جسده من رجليه على إحدى شرفات قصر كولونا. "**كان موسولينى معجباً جداً بكولا لدرجة أنه أعلن أن كولا هو أول فاشستى ؛ إلا أن التاريخ أصدر حكمه عليه بأنه هو نفسه يجب أن يعلق من رجليه على الأقل عند محطة بنزين ميلان**".

(*) الثورة الچاكية ثورة قام بها الفلاحون الفرنسيون عام ١٣٥٨م. "المترجم".

أدرك الفلاحون الإنجليز مدى ما يعود عليهم من عمليات الإخلال بالأمن، ومن النهب والسلب، فتمت مهاجمة الكنائس غير الشهيرة وإحراقها بعد نهبها. وفى لندن سنة ١٣٢٦م قام الغوغاء بقطع رأس أسقف المدينة وتركوه عاريًا فى الشارع. ولعل أكبر عملية احتجاج عرفتها إنجلترا هى هياج الفلاحين عام ١٣٨١م، والذى وصل إلى درجة الثورة. كانت تلك الأوقات مليئة بالحروب، والطواعين، والمعاناة، والجوع. على الرغم من وجود نقص فى الأيدى العاملة نتيجة للطواعين، مما دفع النبلاء إلى رفع أجور الأيدى العاملة، كما طالب العبيد بالحرية، ورفضوا تأدية ما عليهم من التزامات إقطاعية، وقام القس چون بال John Ball ذو الصوت الذهبى – سليل رجال الدين أصحاب الوعى الاجتماعى – بدعوة الناس إلى الاحتشاد وسماعه، **وهو يقول : "عندما كان آدم يحرث الأرض، وتقوم حواء بالغرس، فمن كان عندئذ نبيلاً ؟ ".**

"أيها الناس الطيبون، إن الأمور لا تتصلح فى انجلترا ولن تتصلح إلا إذا صار كل شىء عامًا، وساعتها لن يكون هناك فلاحون أو نبلاء، وساعتها سنتحد جميعًا، ولن يصبح اللوردات سادة كبارًا عنا. ما الذى فعلناه ؟ أو ما الذى يحتم علينا أن نبقى هكذا فى ظل العبودية ؟ لقد خلقنا جميعًا من أب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء".

ويقال إنه كان مرشحًا لشغل منصب رئيس أساقفة كانتربورى، وأنه وعد بأن يصفى كل الكنائس والأديرة ويقوم بتوزيع ممتلكاتها. وهناك بعض القادة العاديين الذين ظهروا على أنهم زعماء ملهمين من بينهم وات تايلر Wat Tyler، وچاك سترو Jack Straw.

وفى شهر مايو عام ١٣٨١م أطبقت ثلاثة جيوش على لندن، والتى سقطت بسهولة كما سقط الباستيل بعد أربعمائة سنة، وقام الغزاة بالقبض على كبير أساقفة كانتر بورى وقطع رأسه، هو والمشرف على خزائن اللورد وبعض الموظفين، وعندما انسحبت هذه الجيوش الثلاثة قال أحد المعاصرين وهو توماس والسنجهام Thomas Walsing-ham : **"لقد انطلقت صيحة مفزعة، ليست كصيحة بنى البشر، ولكنها أفظع من كل صيحات البشر، مثل صيحة الشياطين فى جهنم"**، وكانت خطة المتمردين تهدف وفقًا للتقارير التى كتبها أعداؤهم إلى طرد رجال الدين باستثناء الرهبان، والاستيلاء على

أراضى النبلاء وعلية القوم، وقتلهم جميعًا ومعهم جميع موظفى الحكومة، والمحامين، والقضاة ؛ كما حاولوا قطع رأس كل الغرباء، وأى شخص يستطيع كتابة أية رسالة.

وعلى أية حال، فإن الثوار أعلنوا ولاءهم للملك ريتشارد الثانى البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، والذى قبل أن يأتى للتفاوض معهم. فخرج الملك بفرسه محاطًا بحرس المدينة إلى ميدان سميث فيلد Smithfield، وركب وات تايلر كذلك، فقابل الملك هناك وحيَّاه بتيهٍ وكبرياء، وصافحه مخاطبًا إياه "بالرفيق"، ثم طلب بيرة "وبعد أن شربها قام بتجفيف فمه كما يفعل الفلاحون وبشكل بذىء مقزز". وكان هذا أكثر مما يحتمل نبلاء الملك، فسحبوا وات من على فرسه، وقام أحد الأتباع بقتله، وفى اللحظات التالية كانت اليد العليا لجماعة الملك، واختفى جيش الفلاحين.

وفى الريف والمدن فإن الثوار كانوا يهاجمون منازل السادة الإقطاعيين والكنائس لكى يحرقوا الوثائق، والسجلات، وإيصالات مديونياتهم، وفى ذلك يقول والسنجهام :
"لقد نفذوا عقوبة قطع الرأس على كل مطلّع على قوانين البلاد.. كما كانوا متلهفين لأن يلقوا بالسجلات القديمة إلى النيران. وحتى لا يكون فى مقدور أحد أن يعيد فى المستقبل كتابة مثل تلك السجلات فقد قتلوا كل من كان قادرًا على ذلك. وكان من الخطورة بمكان أن يقال على شخص أنه كاتب، وحتى الذين وجدوا وبجوارهم المحابر نادرًا ما أفلتوا من قبضتهم. ولأن كل المعلومات المدونة فى السجلات قد ضاعت، فلم يعد فى مقدور أحد النبلاء مستقبلاً أن يثبت حقًا له عليهم".

ومن الطبيعى أن يصيب العنف من تسببوا فيه، إذ سرعان ما فشلت الثورة، وتم إعدام جون بال وآخرين من القادة، وظلت رءوسهم معلقة فوق قنطرة لندن، وتم منح الأمان لأتباعهم شريطة أن يعودوا إلى مواطنهم. ولقد اتخذت الفتنة عدة أشكال متتابعة، أولها الاضطرابات، وظهور بعض القادة الذين يتم فرضهم بالقوة على مجريات الأحداث، والذين يلفتون الأنظار لحالة الاستياء العام، ويطرحون الحلول البديلة ؛ يلى ذلك الاندفاع والاستيلاء على السلطة، لمدة قصيرة الأمد، وبشكل دموى، وبحيث تسكرهم نشوة الوصول إلى السلطة ؛ ثم فشل الأهداف البناءة، ورد فعل المعتدلين، وطبقة الملاك بأسلحتهم وجيوشهم : الأسلحة البيضاء فى مواجهة الفزع الدموى.

ومثل هذه الفتن تكشف عن الروح الثورية التى تهدد الاستقرار الاجتماعى، لكن من السهل المبالغة فى أهميتها، فهى نادراً ما تحدث مرتين كل قرنين، وتصيب فقط القليل من الأقاليم المتفرقة ؛ وربما قام الرجال بنوع من التذمر والتهديد، وعادة ما يكون عدد المشتركين فيها قليلاً، وبخاصة الذين يحولون حالة الاستياء إلى أعمال عنف، وأخيراً تقوم السلطات المحلية بالسيطرة على تلك الأحداث وفقاً للعادات والتقاليد، وبشكل قوى لمواجهة مزاج الثوار المتطرف، كما أن الثورة كانت تعتبر شيئاً غير طبيعى، وكان واجب المؤرخ الأول هو التعرف على كل ما هو طبيعى.

وخلال السنوات الأخيرة من العصور الوسطى نلاحظ تدهور الكنيسة وضعف الروح الدينية، والسبب فى هذا راجع إلى أن فى القرن الثالث عشر للميلاد كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ ؛ ففى سنة ١٢٩٢م لم يستطع الكرادلة إقامة بابا لروما، وانقسموا إلى أحزاب متصارعة جرت حروب بينها فى الشوارع، وبعد مرور سنتين على هذه الحال اختاروا أحد الرهبان البسطاء تحت اسم سلستين الخامس Ce-lestine V على أساس أنه فى حضور البابا جريجورى ورجال بلاطه فقد علق قلنسوته كراهب على مكان مشرق. ولقد ساور سلستين الرعب لاقتناعه بأن عملية اختياره بابا كانت إلهاماً شيطانياً، إلى جانب قلقه من صخب حركة المرور فى روما.

وقصة اختياره تفيد أن الكاردينال بنيديتو جايتانى Benedetto Gaetani قام بتزويد صومعة البابا بأنبوب للتخاطب بين أجزاء مختلفة للمبنى الواحد، وشجعه على أن يتنازل عن منصبه، مخاطباً إياه بصوت آمر على أنه صوت أحد الملائكة. ومما لا شك فيه أن هذه القصة ملفقة، إلا أن سلستين تنازل فعلاً، ولهذا السبب جعله دانتى من أهل الجحيم. وخلفه الكاردينال جايتانى تحت اسم البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII وقبض عليه وسجنه إلى أن مات وهو فى سجنه.

قام البابا بونيفاس بتأكيد السمو البابوى فوق كل العالم المسيحى، وفى سنة ١٣٠٠م أعلن عن أول يوبيل فضى بابوى، وظهر فى موكب مرتدياً الشارة الإمبراطورية، وتم وضع السيفين اللذين يرمزان إلى السلطة الدينية والدنيوية أمامه، وأخذ الموظف المسئول عن الشارات يصيح قائلاً : أنا القيصر، أنا الإمبراطور !

كما أضاف حلية ثانية إلى التاج البابوى، للدلالة على سلطته الثنائية. "أما الحلية الثالثة، والتى تؤكد على السمو البابوى فى الأمور الدينية فقد جاءت بعد ذلك بقليل".

فى أثناء تلك الفترة كان يعتلى عرش فرنسا الملك فيليب الرابع، الأشقر أو الوسيم، فعندما حاول فرض ضريبة على رجال الدين الفرنسيين، فإن البابا بونيفاس رد عليه بشكل حاسم عن طريق المرسوم البابوى الشهير والذى يؤكد على عدم خضوع رجال الدين لنفوذ الحكام العلمانيين "سنة ١٢٩٦م" Clericis Laicos ، ويمنع أى ملك أو أمير من فرض ضرائب عليهم إلا بعد موافقة البابا، وفى نفس الوقت أمر أتباعه من رجال الدين أن يدفعوا له تلك الضريبة كنوع من التحدى لحكامهم. وعندها أمر فيليب بمنع تصدير النقود والأشياء الثمينة من فرنسا، مما كان له أكبر الأثر فى تقليل عائدات البابوية. كذلك فكر فى تقوية مركزه بعقد اجتماع سنة ١٣٠٢م، ولأول مرة حضره ممثلون عن الطبقات الثلاث طبقة رجال الدين والنبلاء، والعامة، والطبقة البورجوازية، وهكذا ظهر الملك وهو ينشد مساندة شعبية، واضعًا فى اعتباره أن البورجوازية تمثل وحدة اجتماعية وسياسية، ولها القدرة على المشاركة فى اتخاذ القرار. وقام المجتمعون بمن فيهم رجال الدين بمسانده الملك، مما دفع البابا بونيفاس إلى أن يطلب من فرنسا الاذعان الفورى وإعلان الطاعة والولاء، مستخدمًا العبارة الشهيرة "**لا وسيلة للخلاص خارج الكنيسة**"، وهدد بخلع الملك الفرنسى ؛ فأرسل فيليب فرقة من المغاوير مهمتها الإغارة على إيطاليا، على رأسها أحد المحامين التواقين للانتقام لأن جده كان قد تم إحراقه فى لانجدوك Languedoc على أنه أحد الهراطقة ؛ ولقيت هذه الفرقة مساندة من أسرة كولونا فى روما، واستطاعت أن تقبض على البابا العجوز، فأساءت معاملته وسجنه، ومات بعدها بقليل من أثر الصدمة وما لحقه من عار. وقام دانتى - لأنه يعارض مزاعم البابوية بخصوص السلطة الدنيوية - بإعداد كوة له فى أحد جدران الجحيم ليستقر فيها مقلوبًا : رأسه لأسفل ورجلاه لأعلى، والنيران تمطر فوق قدميه.

وقام فيليب سنة ١٣٠٥م بعد أن هيمن على الأمور بترتيب اختيار أحد البابوات من فرنسا، وهو كليمنت الخامس Clement V، الذى استقر فى أڤينون Avignon بدلاً

من روما، وقام بتعيين حاشية من الكرادلة الفرنسيين، الذين فضلوا أڤينون على المدينة المقدسة المعرضة للشغب والإخلال بالأمن. وهكذا بدأ الأسر البابلي للبابوية الذى استمر حتى عام ١٣٧٨م.

وأُطلقت على بابوات أڤينون الفرنسيين كثيرٌ من الألقاب الرديئة، على الرغم من قصورهم الضخمة، وإخلاص بعضهم، أو تعليمهم وكفاءتهم. ذلك لأن البابا الجيد عليه أن يتمتع بفضائل أكثر من الفضائل المألوفة، للحصول على ولاء العالم المسيحى له. إلا أن بابوات أڤينون كانوا متعاطفين ولأقصى حد مع المصالح الفرنسية. وباعتبارهم رؤساء لأكبر مؤسسة مالية فى العالم، فقد اهتموا أكثر بالنظم الإدارية واستثمار الأموال أكثر من اهتمامهم بالشئون الدينية. إلا أن الفساد سرعان ما تطرق لهذا النظام. وقام صاحب كل مصلحة برشوة حراس القصر باستمرار لتحقيق مصالحه، فخضعت كل الأحكام والقرارات وغيرها لما يدفع فيها من أموال، فحصلت الكنيسة على كثير من الأموال من إصدارها لصكوك الغفران، واستخدمت سلاح قرارات الحرمان بل أصدرتها حتى ضد الفقراء والذين أنهكتهم الضرائب.

بل إن أهم مورد مالى حصلت عليه الكنيسة كان نتيجة تعيين رجال الدين، مما كان السبب المباشر فى نشوب نزاع لا حد له مع الحكام العلمانيين حول مسألة التقليد العلمانى لرجال الدين من الأساقفة والقساوسة. فهؤلاء الأساقفة والقساوسة باعتبارهم من العاملين فى الكنيسة، وممثلين لملاك الأراضى، مما أدى إلى تداخل فى الحقوق المادية. كما أن النزاعات التى نشبت بخصوص تعيينهم كانت لانهائية، ونادراً ما كانت فى صالح السكان المحليين.

فالأسر البابوى قد تبعه انقسام كبير، ذلك لأن روما وهى المدينة المقدسة كان لها من المكانة ما لايمكن لأى مدينة أخرى أن تضاهيها، ولها اسمها الرنان، مما دفع البابا جريجورى الحادى عشر بالعودة إليها سنة ١٣٧٧م. وعند وفاته بعد ذلك بسنة، فإن الكرادلة بحكم تهديد أهالى روما الطبيعى لهم اختاروا بابا إيطاليًا، وبعدها فر أكثرهم ؛ منكرين لتصرفهم هذا، وقاموا باختيار بابا آخر، أو البابا الزائف، والذى عاد

بدوره إلى القصر الشاغر فى أفينون. وعندئذ تعرض المسيحيون لمشهد مؤلم من قبل البابوات المتنافسين سياسياً، وقيامهم بإصدار قرارات الحرمان ضد بعضهم البعض، وشن الحملات الحربية، والنزاع حول أحقية كل منهم فى إيرادات الكنيسة إلا أن إرادة الله فى مجريات الأحداث كان لا يمكن إدراكها. ففى سنة ١٣٩٨ تشاور إمبراطور ألمانيا مع ملك فرنسا وبابا أفينون بندكت الثالث عشر فى مشكلة البابوية، وقد كتب البروفيسور كولتون بهذا الخصوص. يقول :

"إن الإمبراطور وينكسلاس كان سكيراً مدمناً، ولا يمكنه أداء أى عمل إلا فى الصباح الباكر. أما الملك شارلز السادس فنادراً ما يكون فى وعيه، باستثناء فترة آخر النهار عندما يكون قد تناول طعامه وشرابه أما البابا أو "البابا المزيف"، فلم يكيم مدمناً للخمر ويكون فى وعيه بدرجة كافية بشكل أو بآخر، إلا أنه كان من الناحية السياسية أقل إعمالاً للعقل، وإن كانت لديه القدرة على الإنصات وبعين العقل لكل ما فيه الخير والقوة والكرامة وبشكل أفضل من غيره من السكارى أو المجانين". وبعد سنتين كان قد تم عزل الإمبراطور وينكسلاس لأسباب معقولة متعددة، منها أنه قام بشوى طباخه بأن أضرم النار فيه لأنه أفسد طعام عشائه.

فقام رجال الدين الفرنسيون – وهم الذين كانوا يشمئزون من بندكت الثالث – بطرح الثقة فيه، وكان معنى هذا التصرف أن الكنيسة الوطنية تستطيع أن تؤكد أو تسحب ولاءها للبابا حسبما تشاء. وفى سنة ١٤٠٩ فإن معظم الكرادلة الغاضبين عقدوا مؤتمراً فى بيزا، حيث أعلنوا فيه أن مجلسهم هذا له سلطة أعلى من سلطة البابوات. كما قرروا عزل البابوين كليهما على أنهما من الهراطقة، واختاروا ثالثاً تحت اسم ألكسندر الثانى، لكن سرعان ما وافته المنية، فاختاروا بديلاً عنه هو يوحنا الثالث والعشرين. وعلى الرغم من أنه فى بداية حياته كان قائداً للمرتزقة، إلا أنه لم يستطع أن يتغلب على منافسيه واللذين رفضا قرار المجمع بعزلهما (ولم تعترف الكنيسة به بابا شرعياً، لأن هناك بابا آخر يدعى يوحنا فى القرن العشرين استطاع أن يغتصب نفس الرقم).

ولقد تبع المؤتمر الذى تم عقده فى "بيزا" مؤتمر أكثر شهرة وهو مؤتمر كونستانز Constans، هذا المؤتمر ادعى أن سلطته لا تعلو عليها سلطة وأمر البابوات الثلاثة بالتخلى عن مناصبهم، وقبل اثنان منهم القرار، أما الثالث وهو بندكت الثالث عشر سريع الغضب، فقد انسحب بسرعة إلى أحد الجبال فى إسبانيا، حيث أصدر عدداً من القرارات التى لم يلتفت إليها أحد. وقام مؤتمر كونستانز سنة ١٤١٧م باختيار بابا جديد جدير بالاحترام وهو مارتن الخامس Martin V الذى بذل كل ما فى وسعه لاستعادة النفوذ البابوى من جديد.

ولمدة قرن كامل ظهرت الكنيسة أمام العالم بمظهر التفكك، والتآمر، والعجز، والفساد، بدلاً من زعامتها الروحية والخلقية، والتى افتقدها الناس كثيراً. وغدت روما موضع سخرية واستهجان كثير من الناس. ولقد صور بوكاشيو وبطريقة نالت الاستحسان قصة أحد اليهود فى زيارة له لروما، وقد تحول إلى المسيحية على أمل أن هذا التحول لهذا الدين سوف ينقذه من الجرائم التى ارتكبها.. كما أن الدعوة إلى الإصلاح غدت كبيرة وواسعة الانتشار. فرجال الإصلاح الموهوبون والغاضبون، كانوا يتذمرون وبصوت عال لدرجة أن كلماتهم أصبحت مسموعة بوضوح.

فهذا هو چون ويكليف John Wycliffe ، وقد ولد حوالى سنة ١٣٢٠م، كان أحد رجال الدين البارزين فى أوكسفورد، والذى أغرته بعض الأفكار الخطرة التى تفاقمت خلال مهزلة الانقسام الكبير المخزى سنة ١٣٧٨م. مما أعطاه فكرة خاطئة عن حماية الرب للكنيسة. وكان ويكليف سريع الغضب، لا يعرف الخوف، لذلك أخذ يدحض مزاعم روما الخاصة بسموها، والعقيدة الكاثوليكية، قائلاً بأن الإنجيل به كل ما يلزم للخلاص، ولأن الإنجيل لم يعرف تفرقة بين القساوسة والأساقفة، فإن التسلسل الهرمى لرجال الدين فى روما هو نظام فاسد، وأن البابا عدو للمسيح، وأنه ليس من حق الكنيسة أن تتدخل فى الشئون التى تتعلق بالحكومات المدنية "الأمور الدنيوية" ،لأن كل القساوسة أتباع للسلطة العلمانية "غير الدينية" ،كما أنه اشتط إلى أبعد من ذلك، فأنكر تحول خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه، واقترح إبطال عمليات الاعتراف، والكفارة، والحج، واستخدام الماء المقدس وتبجيل الذخائر المقدسة، والصلوات طلبًا لشفاعة

القديسين والسيدة مريم العذراء. كذلك شن هجومًا شديدا على ثروات رجال الدين، ونظر إلى الإخوة الرهبان على أنهم شياطين. إلا أن هذا كان شيئًا من الهرطقة ! كما كان ذلك شيئًا بروتستانتيًا قبل ظهور البروتستانتية بقرن على الأقل. وتم إجبار ويكليف على ترك الجامعة، فكرس نفسه لتحويل الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس عند الكنيسة الكاثوليكية إلى الإنجليزية، وتجنيد القساوسة البسطاء لنشر آرائه ؛ وكانت السلطات الإنجليزية متسامحة على الأقل مع آرائه.

ولم يقم ويكليف بتأسيس جماعة منظمة، ومع هذا فقد التف حوله كثير من المتعاطفين مع آرائه ضد طبقة الإكليروس، وإصراره على حق الأفراد في الحكم، ومناداته بحرية تفسير الكتب المقدسة. وعرف أتباعه باسم الويكليفيين Lollards الذى ربما كان يعني من يتكلمون كالأطفال أو المعتوهين "babblers"، الذين كثر عددهم بين طبقات رجال الدين الدنيا، وطبقة أرباب الحرف، وكانوا بالطبيعة من الخارجين على الكنيسة ؛ وهم الذين اعتبروا الصور من الأوثان، واعتبروا السيدة مريم العذراء ساحرة. كذلك كانوا يسخرون من القداس ؛ وقام أحد الفرسان الولتشيرين بسرقة خبز القربان المقدس وأكل بعضه مع قليل من المحار، والبعض الآخر مع البصل، وبعضه مع النبيذ، دون أن يلقى أى تعنيف من أحد الكبار. ولم يلق الويكليفيون تقريبًا معارضة من أحد، إلا أنه في بداية القرن الخامس عشر للميلاد أصر هنرى الرابع على إحراق الهراطقة. مما أدى إلى اختفاء الويكليفيين من على مسرح الأحداث، وإن كان نشاطهم ظل مستترًا، إلى أن ظهر من جديد مع حركة الإصلاح الديني.

ولقد قدر لآراء ويكليف أن تنمو من جديد، وتعمق جذورها وتنبت براعمها على يد جون هس John Hus أحد المبشرين البوهيميين الذين لا يقيمون وزنًا للأعراف والقواعد الاجتماعية، والذى عاش في إقليم بروجى Progue، وكان عميدًا لكلية الفلسفة ورئيسًا للجامعة بها ؛ وأخذ ينادى بحق كل إنسان أن يبحث عن الإيمان في الكتاب المقدس، ورحب التشيكوسلاف الداعون إلى الاستقلال الكنسي بآرائه، وأصبحت مذهبًا أساسيًا لثورة سياسية ضد السيطرة الأجنبية، بما فيها سلطة البابوية. وتم

استدعاء هس للمثول أمام مجمع كونستانز، حيث تم إصدار قرار الحرمان ضده، وتم إحراقه – على الرغم من الأمان الذى أُعطى له – باعتبار آرائه هرطقة لا أساس لها من الصحة ؛ وأعقب ذلك نشوب الحرب التى عرفت باسمه The Hussite، والتى انتهت بانتصار البابا والإمبراطور سنة ١٤٣٦م. وعلى أية حال، فقد تم تحريف بعض السلطات البابوية عن عمد، وكذلك بعض الممارسات المحلية المعبرة عن التقوى، وغدا چون هس وكما هو الحال الآن الشهيد البطل للتشيكوسلاف البروتستانت.

وعلى الرغم مما كان يبدو منذ أوائل القرن الخامس عشر للميلاد، بأن الكنيسة كانت قد كتسبت بعض الهيمنة والمقرر لها أن تستمر إلى ما لا نهاية ؛ وأن أعمال العنف والمظاهرات التى قام بها الهراطقة، قد تم قمعها أو إخمادها، وأن عملية الإيمان قد تم تنظيمها بواسطة المجامع الدينية، وأن الانشقاقات الكبرى عن الكنيسة قد انتهت، وأن سيطرة البابوية داخل الكنيسة أصبحت لا تنازع، ومع هذا فقد كانت هذه السنوات تمثل بداية النهاية، أو سنوات النقاهة لقرن من الطاعون.

فالطاعون الروحى كان قد صحبه طاعون جسدى استشرى فى كل مكان، وهو الموت الأسود. ففى أكتوبر من عام ١٣٧٤م رست قافلة من اثنتى عشرة سفينة بندقية فى ميناء مسينا Messina ، من المعتقد أنها كانت قادمة من البحر الأسود وعلى ظهرها بعض الرجال يصارعون الموت. **"فى عظامهم مرض خبيث جداً، لدرجة أن أى شخص يتحدث معهم كان يصاب فى الحال بمرض فتاك لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يتحاشى الموت"** حسبما يذكر أحد المؤرخين المعاصرين. فأمرت السلطات هذه السفن بمغادرة الميناء، إلا أن هذا الإجراء اتخذ بعد فوات الأوان، فخرج أهل مسينا هائمين على وجوههم، ناشرين المرض معهم فى كل أنحاء صقلية، وفى بدايات عام ١٣٤٨م وصل الطاعون إلى الأراضى الإيطالية ثم فرنسا.

هذا الطاعون لا يزال موجوداً، تراه أحياناً فى حالة سكون، وأحياناً أخرى يجتاح بعض المناطق، وقد قامت منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة بعمل إحصائيات به حديثاً، وتبين أنه ناجم عن بكتريا عصوية موجودة فى دم نوع معين من البراغيث. وعندما يحدث انسداد فى معدة هذا النوع من البراغيث، فإنه لا يستطيع أن يتغذى

بشكل طبيعى، وعادة ما يلتصق هذا النوع من البراغيث بالفئران السوداء، لكى يتغذى على دمها، حيث يغرز ذنبه على شكل المثقاب فى جلد تلك الفئران، وبسبب انسداد معدته فإنه يتقيأ البكتريا المسببة للطاعون فى مكان اللدغ. وعندما تموت هذه الفئران، فإن البراغيث تبحث عن غذائها لدى فريسة أخرى، فتختار البشر إذا لم تكن الفئران متاحة. وغالبًا ما تأخذ العدوى ثلاثة أشكال : الطاعون الذى يصيب الغدد اللمفاوية، والطاعون الرئوى، والطاعون الذى يؤدى إلى تسمم الدم.

وفى حالة طاعون الغدد اللمفاوية فإن البكتريا المسببة له عادة ما تستقر فى الغدد اللمفاوية، وتنشط على جدران الأوعية الدموية مسببة عملية نزف، وسرعان ما تظهر بقع سوداء تغطى الجسم كله، ويتحول لون اللسان إلى اللون الأسود، ومن هنا عرف هذا الطاعون باسم الموت الأسود. كما تظهر بثرات متقيحة تحت الإبطين والفخدين، هذه الغدد اللمفاوية هى التى استمد منها الطاعون اسمه الصحيح. والذين يعانون من طاعون الغدد اللمفاوية نادراً ما يقدر لهم النجاة، وإن كان معظمهم يموتون خلال ثلاثة أيام من الإصابة. أما فى حالة الإصابة بالطاعون الذى يؤدى إلى تسمم الدم، فإن الدم يصبح فى حالة إصابة قاتلة. أما الطاعون الرئوى فإنه يسبب التهاب وتقيح الزور والرئتين، مما ينجم عند آلام عنيفة فى الصدر، وقىء ونزف للدم، مع رائحة كريهة. كما أن ضحايا الطاعون الرئوى غالبًا ما يلقون حتفهم، ومن حسن حظهم أنهم يموتون بسرعة رهيبة.

وفى الوقت الذى كان فيه الطاعون ينتقل من بلد إلى آخر - لضخامة أعداد الفئران التى كانت تملأ المدن لعدم النظافة - كانت كل مظاهر الحياة العادية تتوقف، كما كانت وسائل العلاج الطبية آنذاك عديمة الجدوى ؛ بحيث نسمع أن رجال الدين كانوا يخشون من مجرد الاقتراب من الموتى وتلاوة القداس على أرواحهم. كما كانت أبواب المنازل مفتوحة دائمًا، ومع هذا لم يجرؤ أحد على اقتحامها أو السرقة منها، وتم الإفراج عن السجناء من سجونهم، وتم جلب الفلاحين من المناطق الجبلية لتكديس جثث الموتى فى أكوام كبيرة داخل المقابر العامة، نظير إعطائهم نفقات السفر. وفى البحر كانت السفن تحمل بحارتها موتى، تطفو على سطح الماء وكأنها سفن مهجورة.

لقد ترك لنا بوكاشيو وصفًا دقيقًا مؤثرًا لآثار الطاعون فى فلورنسا فى مجموعته القصصية The Decameron، حيث يقول : إن الكثيرين من الأشخاص قد تناولوا طعام الغذاء مع أصدقائهم فى الأرض، إلا أنهم تناولوا العشاء مع أسلافهم فى الجنة، كان الناس يتحاشون بعضهم البعض. وهجر الأخ أخاه، كما هجروا والديهم، وحتى أطفالهم. ونسى الناس الخزى والعار، فالنساء اللاتى لم يلقين أية رعاية، لم يجدن غضاضة فى تعريض أجسامهن على من يقوم بخدمتهن ؛ ولم يهتم أحد بالموتى كما لا نهتم نحن بالشاة الميتة. وأهمل الفلاحون مزارعهم، ولم يفكروا إلا فى الاستمتاع بما لديهم. كانت الحيوانات لا تجد من يقوم بحلبها، وتتجول وسط حقول القمح دون أن تجد من يمنعها. وأصاب المرض الأغنام والخنازير فماتت كما مات البشر. وتلاشت كل السلطات القانونية، وكل ما هو إنسانى أو مقدس، كما ضاعت الروابط الأسرية، وضاع معها الحب والخير. أما الذين قدر لهم النجاة، وقد صورهم بوكاشيو فى قصته الخالدة، فإنهم قد تركوا المدينة والتجأوا إلى الريف، لكى يمضوا أيامهم فى لهوهم ورقصهم، وفى سرد بعض القصص المسلية.

وانتقل الطاعون إلى الشمال، حيث بقى ساكنًا هو وبراغيثه بسبب الشتاء القارس، ثم استأنف نشاطه مع بدايات الربيع، فانتشر فى كل أنحاء أوربا، ووصل إلى انجلترا فى أغسطس ١٣٤٨م، ثم هاجم اسكندنافيا وروسيا ؛ وأخذ يتراجع شيئًا فشيئًا، إلا أنه عاد للظهور مرة أخرى وبشكل أقل عنفًا سنة ١٣٦١م وبعض السنوات التالية، ومع هذا فإن طاعون لندن الشهير سنة ١٦٦٥م كان من النوع الذى يصيب الغدد اللمفاوية.

وعن عدد الذين راحوا ضحية " الموت الأسود" فلا أحد يدرى على وجه اليقين، ذلك لأن تقديرات العصور الوسطى البابوية أحصت ١٥٠٠ ميتًا فى ثلاثة أيام فى أفينون، وأن خمسة من الكرادلة، ومائة من الأساقفة، و ٣٥٨ من طائفة الدومينيكان هلكوا فى نفس المدينة، وفى نهاية هذا الطاعون بلغت خسائر طائفة الفرنسيسكان ١٢٤ , ٤٣٤ شخصًا، فلعل هذا يدفعنا لقبول تلك الأعداد وأن نستنتج أن حوالى ثلث أو نصف سكان أوربا قد لقوا حتفهم من جراء هذا الطاعون الذى يعد أكبر كارثة حلت بالعالم الغربى.

كما كانت النتائج المتوقعة لهذا الطاعون أسوأ من نتائج أية حرب، إذ كان فى مقدور أى رحالة أن يرى قرى بأكملها وقد تحولت إلى أطلال بسبب هجوم هذا الطاعون، كما امتلأ الريف بجثث الحيوانات النافقة. فالمؤرخ المعاصر هنرى نايتون Henry Knighton يذكر أن خمسة آلاف من الأغنام قد تعفنت أجسامها فى مرعى واحد. كما يذكر أن الخوف من الموت سيطر على عقول الناس جميعاً وتفكيرهم، ولم يجرؤ أحد من الناس أن يستفيد من هذا العالم المحكوم عليه بالهلاك.

إلا أن هذه الحالة لم تستمر طويلاً، فبمجرد ما هدأت حدة هذا الطاعون، وأخذ الناجون منه يتطلعون مرة أخرى إلى المستقبل الدنيوى، ارتفعت الأسعار بسرعة رهيبة بسبب الندرة فى كل شىء، فبلغ ثمن زوج الأحذية أربعين بنساً حسبما يذكر نايتون فى هلع، كما أن أجرة من يقوم بالحصاد بلغت فى اليوم على الأقل ثمان بنسات بالإضافة إلى إطعامه، كما بلغ أجر الجزاز "من يجز صوف الغنم" اثنى عشر بنساً ، بينما كان الأجر المعتاد لا يزيد عن بنس واحد فى اليوم". وحاولت الحكومات عبثاً أن تحدد الأسعار والأجور، وأدرك العمال مدى أهميتهم، فرفضوا القيام بأية أعمال سخرة أو أداء بعض الالتزامات الإقطاعية، فإذا حاول أحد ملاك الأرض تخفيض الأجر، فإن العمال كان فى استطاعتهم دائماً هجرة هذا المكان والعمل فى مكان آخر، دون أن يسألهم أحد سؤالاً واحداً. واستمتعت كل القرى بتضامنها المشترك وبحريتها. كما حصل كثير من العبيد على حريتهم، وانخرطوا فى طبقة الفلاحين الأحرار وهم الذين شكلوا الطبقة الوسطى الزراعية. وبوجه عام فإن الفلاحين أدركوا ما لهم من قوة، والدليل على ذلك هو ثورة الفلاحين الفرنسية وهى التى تعرف بالثورة الچاكية Jaeguerie وثورة الفلاحين الإنجليز.

وبالنسبة لرجال الدين فإن طاعون "الموت الأسود" قد سدد لهم ضربة قاصمة. فالقساوسة من أصحاب الضمير الحى قاموا بأداء صلوات القداس على أرواح الموتى دونما خوف على أنفسهم. بينما هلك كثير من الرهبان، ونسمع أن بترارك كان له أخ يدعى جيراردو، هو أحد رهبان دير مونتريو بالقرب من مرسيليا، اعتاد أن يزور إخوانه الرهبان فى مرضهم، ويقوم بدفنهم الواحد تلو الآخر بعد وفاتهم، ولم يترك الموت سواه

مع كلبه المخلص. **"فعادة ما تكون الكلاب أكثر إخلاصًا من البشر"** لقد كان الإخوة الرهبان بوجه عام يهتمون برعاية المرضى فى المدن، مما نجم عنه إصابة الكثيرين منهم بالطاعون وهلاكهم. ولكن خلال فترة التعمير وإعادة البناء فإن كثيراً من جماعات الرهبان غدت غير قادرة على ما هو مطلوب منها، والذين كانوا شغوفين فقط بالحصول على نصيب من ثروات الأديرة والكنائس. ويذكر هنرى نايتون قوله : **"إن الكثير ممن فقدوا زوجاتهم فى الطاعون سارعوا بالالتحاق بفرق الرهبان المختلفة، وكثير من هؤلاء كانوا من الأميين، وببساطة كان من الواضح أن رجال الدين هؤلاء كانوا لا يعرفون شيئاً سوى القراءة فقط وفى نطاق محدود".**

ومن الآثار السيئة لهذا الطاعون هو ما حدث من اضطهاد لليهود، ولأنه من طبيعتنا أن نلقى التبعة على غيرنا لسوء حظنا، فإن الناس اتهموا اليهود بوضع مخطط عام لتدمير العالم المسيحى عن طريق تسميم موارد المياه. وربما كان لهذا الاتهام ما يبرره، فاليهود، وكما هو معروف عنهم كانوا يهتمون كثيراً بالأمور الصحية، ومن المفترض أنهم امتنعوا عن استخدام مياه الآبار غير الصحية وكذلك مياه الأنهار الملوثة. إلا أن جمهرة الناس كانوا يطالبون بالانتقام، ورفضوا حتى أن يلاحظوا أن اليهود ماتوا بسبب الطاعون مثل بقية المسيحيين. فحدثت مذابح شنيعة جنوبى فرنسا، وفى إسبانيا، وفى النمسا، وبولندا وعلى وجه خاص فى ألمانيا. حيث تم إحراق مائتين من اليهود أحياءً فى ستراسبورج، وفى سباير Speyer تم ذبح اليهود وإلقاء جثثهم فى نهر الراين فى براميل نبيذ فارغة. أما فى إيسلنجن Esslingen فإن الناجين من اليهود تجمعوا فى المعبد الخاص بهم وقاموا بإحراق أنفسهم، إلا أنه فى شافهاوزن Schaffhausen وربما فى غيرها، فإن السلطات المستنيرة قامت بحماية اليهود من الطاعون الأسود للتعصب.

ويبدو أن الطاعون لم يكن فيه الكفاية، فقد جاءت الحرب بمثابة ابتلاء آخر للعالم الغربى. ففى سنة ١٣٤٨م المشؤومة، قام ملوك انجلترا وفرنسا بإشعال الحرب التى قدر لها أن تستمر لأكثر من قرن، وهى التى عرفت بحرب المائة عام، وهى حرب لها علاقة بالسلالة الحاكمة فى البلدين وكذلك بسبب النزاع على الممتلكات الخاصة بهما.

فقواعد وراثة العرش فى فرنسا كانت مبهمة، مما أعطى الفرصة لملوك انجلترا لادعاء حقهم فى العرش الفرنسى. وبالنسبة للفرنسيين والذين لم يقبلوا بوجود سيد أجنبى عليهم، فقد طوروا من القواعد لتسمح بقبول تولى فيليب السادس، أول ملوك أسرته على العرش سنة ١٣٢٨م، وفى ذلك العام تدخل فيليب فى شئون الفلاندرز المضطربة، ولفترة من الوقت كانت له السيادة على ذلك الإقليم. فقام إدوارد الثالث ملك انجلترا بالتهديد بمصادرة أملاكه فى جنوب غربى فرنسا، وهى التى كانت تابعة لفيليب، وتعد بمثابة إحدى إقطاعياته.

وكان من الطبيعى أن تنشب الحرب فى عام ١٣٣٧م، عندما قام إدوارد بتأكيد مزاعمه بأحقيته فى تولى العرش الفرنسى، إلا أنها كانت حرب فاترة. وفى يوليو ١٣٤٦م قام إدوارد بغزو فرنسا، عندما رست إحدى قواته الحربية فى ميناء سانت ڤاست Vasst على الساحل الشمالى الشرقى من شبه جزيرة نورماندى، وعلى بعد عدة أميال من الموقع الذى نزلت فيه قوات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، ومن المحتمل أن يكون عدد قوات هذا الجيش قد بلغ خمسة عشر ألفاً، فى تشكيل غريب جداً. فبدلاً من الفرسان ثقيلى العدة بخيولهم والذين كان من الصعب نقلهم عبر بحر الشمال العاصف، فإن الجيش فى معظمه كان يتكون من الخيالة خفيفى التسليح ورماة السهام الذين كانوا يحملون أقواسهم الطويلة القوية. وشق الجيش طريقة ينهب ويحرق القرى التعيسة التى مر بها فى ڤالجونز، وكارنتان، وسانت لوى التى تحولت مرة أخرى إلى كتل من الحجارة بعد تدميرها تماماً سنة ١٩٤٤م.

وسقطت مدينة كان Caen بعد قتال مرير بسبب إهمال بناء التحصينات اللازمة للدفاع عنها، هذا فى الوقت الذى كان فيه الملك فيليب قابعًا بالقرب من باريس فى جيش كبير فى انتظار المواجهة، وتقدم بعرض لمبارزة الملك إدوارد فى المكان الذى يختاره، وكان هذا نوعاً من التحدى الذى يعرفه الفرسان، إلا أن إدوارد كانت لديه أفكار أخرى، فقد نجح فى إصلاح أحد الجسور المنهارة فوق نهر السين عند بواسى Poissy، فراوغ جيش فيليب واتجه رأساً إلى الشمال الشرقى لتأمين إقليم الفلاندرز. وبعد مطاردة قوية من فيليب، وصل الإنجليز إلى موقع يشرف على نهر

أبفيل Abbeville واستفاد من عنصر الوقت، فقد استغل مخاضة يسهل عبورها عندما يكون المد منخفضاً، فاجتازها الجيش تحت حماية النيران التى أشعلها رماة السهام، ووصل جيش فيليب إلى المخاضة فى الوقت الذى ارتفع فيه المد وتعذر معه عبور تلك المخاضة. بينما كان إدوارد قد عسكر بجيشه فى مكان حصين بالقرب من قرية كريكى Crecy، على حافة هضبة صغيرة يحيط بجوانبها كثير من الأشجار الكثيفة. وهناك قام بتقسيم جيشه إلى مجموعتين قويتين من الفرسان بينهما رماة السهام الذين كان بإمكانهم إطلاق سهامهم فى كل اتجاه، وحيث نعم الجنود بفترة كافية من الراحة.

وكان جيش فيليب الذى يطارد الجيش الإنجليزى ويفوقه فى العدد بنسبة ٣ : ١ على الأقل، قد اتخذ مساره عبر الطريق الضيق المحازى لنهر أبفيل، يتقدمه الفرسان المتحفزون للمعركة، بينما كان المشاة قد أعياهم المسير ووعورة الطريق، وشمس أغسطس الحارقة، وغدوا فى حالة من الفوضى. وعندما اكتشف الفرنسيون موقع الجيش الإنجليزى حاولوا أن يعيدوا ترتيب صفوفهم فى مواجهته، إلا أن خطوط القتال ازدحمت نتيجة لوصول القوات المستمر مندفعة من بين الأحراش، مما ساعد على الاضطراب، لدرجة أن الملك نفسه وجد صعوبة كبيرة فى الوصول إلى ميدان المعركة.

وقام فيليب بإرسال فيلق من الجنوية رماة السهام لاجتياز المنطقة بين الجيشين المتحاربين والاشتباك مع الجيش الإنجليزى. إلا أن شمس الغروب كانت فى أعينهم، كما كان عليهم أن يطلقوا سهامهم إلى أعلى التل، فتفوق عليهم رماة السهام الإنجليز. ويذكر المؤرخ أومان C.W.C. Oman أن الإنجليز **"كانوا يطلقون سهامهم بسرعة ودقة متناهية لدرجة أن السماء بدت وكأنها تمطر خطوط الجنوية بوابل من السهام. وأن سهامهم أصابت كل مكان فى أجسام ودروع وصدور الجنوية، بحيث انهارت روحهم المعنوية من أول لحظة فى القتال. وأن رماة السهام هؤلاء لم يقدر لهم الصمود سوى بضع دقائق، وأن خسائرهم كانت مفزعة لدرجة أن بعضهم ألقى بأسلحته، والبعض الآخر قام بقطع أوتار أقواسهم، ونكصوا على أعقابهم محاولين تسلق المنحدر الذى كانوا قد هبطوا منه".**

وقام الملك إدوارد بإخراج سلاحه السرى من العربات، وهو عبارة عن أنابيب مدهشة من الحديد يبلغ طولها حوالى خمسة أقدام. هذه الأنابيب كان قد تم حشوها بمسحوق أسود وتم إشعالها. فكانت تقذف كرات من الحديد والحجارة يبلغ قطر الواحدة منها حوالى ثلاث بوصات. فكان اللهب المقذوف من هذه البنادق، والانفجار الذى تحدثه، والكرات المندفعة تبدو للفرنسين وكأنها سحر شيطانى.

وسرعان ما قام الخيالة الفرنسيون بالاستدارة واتخاذ نفس الطريق الذى كان يسلكه رماة سهامهم الهاربون محاولين صعود نفس المنحدر الذى هبطوا منه، إلا أن وابل القذائف الإنجليزية جعلهم يتساقطون وسط الأحراش من على جيادهم المضطربة. ومن بين أكوام الموتى، فإن الشجعان من الفرنسيين قاوموا، وقليل منهم من وصل إلى خطوط قتال الإنجليز إلا أنه لم يقدر لأحدهم أن يخترقها. وراحت زهرة فرسان الفرنسيين الذين تم حصرهم فيما بعد بحيث بلغوا ١٥٤٢ من اللوردات والفرسان، بمن فيهم من دوقات وكونتات من بين الطرحاء.

لقد كانت معركة كريكى Crecy واحدة من المعارك الحاسمة فى التاريخ، والتى كان من نتيجتها تدهور قوة فرنسا لمدة قرن من الزمان، كما كانت بداية لتفوق النفوذ الإنجليزى فى الشئون الدولية . ومن الناحية العسكرية، فقد كانت علامة بارزة على تدهور نظام الفروسية وإحلال الأسلحة المتفجرة محله. وفى مجال فن حرب القذائف، فقد تم تطوير القوس الطويل واستخدام الأسلحة الآلية إلى استخدام القذائف ذات العيار وذات الأبعاد، لتحل محل السيف، والرمح، والبلطة التى كانت تستخدم فى الاشتباك الفردى. وفى مجال القدرات الفردية، فإن البسالة أخذت تخلى مكانها للذكاء أو الدهاء فى اختيار الأماكن الدفاعية والمحصنة. كما أصبح الفارس النبيل مجرد هاو، وحل محله الجندى المحترف، كما أصبحت الحرب صنعة وعملاً تجارياً بعد أن كانت عملاً ممقوتاً، ويتم تنفيذها وفق عقود، ويتم شنها فى أى مكان دون اعتبار الجنسية. ولم يعد الفرسان أنفسهم يحاربون من أجل الالتزامات الإقطاعية، أو الولاء، بل أخذوا يحاربون من أجل تحقيق المكاسب. وكان كل حلمهم يتركز فى أسر بعض النبلاء من أجل الحصول على فدية كبيرة.

لقد تركت هذه الحرب الفظيعة آثارها على مجريات الحياة فى فرنسا لمدة مائة عام، ولم تعان فرنسا منها وحدها، بل كانت تلك الفترة إحدى الفترات التى طغت فيها فنون القتال فى كل أنحاء الغرب الأوربى. وكان الرعب حالة طبيعية عم الوجود. لقد سمعنا أن الخنازير قد تعلمت أن تهرب مسرعة بحثًا عن ملجأ عندما تسمع أجراس التحذير "**وهو مثال رائع يعكس لنا سوء الأحوال التى كانت قائمة**". كما أن الجنود المحترفين الجدد لم يكونوا دائمًا راغبين فى المعارك الضارية، بل كانوا يفضلون عليها عمليات التدمير والنهب والسلب، لدرجة أنه فى نهاية الأمر لم يتبق إلا القليل الذى يمكنهم نهبه أو تدميره. وقام الفرسان الألمان الذين افتقروا باتخاذ الحرب تجارة خاصة، إذ لم يكن لديهم البديل عنها. "فالدوق وارنر فون أورسلنجن كان قائدًا لفرقة من المرتزقة العسكريين، هذه الفرقة هى التى عرفت باسم الشركة الكبرى، وكان مجال عملياتها هو إيطاليا. وكان يزين سترته بكلمات من الفضة هى : دوق وارنر، عدو الرحمة، والشفقة، وعدو الرب. لقد كان نظامه أسوأ بكثير من نظام المافيا، فقد كان يهاجم المناطق الآمنة، فيسرق، ويحرق، ويغتصب، ويقتل. ثم يوجه إنذاره إلى العاصمة ويطلب فدية كبيرة كى لا يتعرض لها وإلا ! وهكذا حصل على مبالغ نقدية كبيرة من ساينا Siena، وبيروجيا Perugia، وفلورنسا Florence، وبولونا Bologna . ولقد استخدم برتراند دى جيوسلين نفس أسلوب الابتزاز مع البابوية فى أفينون، لكنه فى تعامله مع الآخرين كان يعيش ويترك الآخرين يعيشون .

ولعل أفضل ما فى الطاعون أنه سبب فترة راحة من الحرب، إلا أنها كانت فترة خاطفة . وربما فكر البعض منا فى أن ذلك الدمار العام "الطاعون" قد أصاب الحكام فى دمائهم، وأنه لو تمت دعوة الموت إلى الرقص، فإنه سيكون آخر المغادرين، كما يبدو أنه لن يتهمنا أحد بالافتقار إلى البسالة لعدم تقديم يد العون لذلك الموت . ويخبرنا هنرى نايتون أن الأسكتلنديين، والذين لم يمسهم الطاعون بسوء، يزعمون أن يد الرب الآخذة بالثأر قد سلطت الطاعون على الإنجليز وحدهم، ولهذا فإنهم احتشدوا لغزو إنجلترا. فواحسرتاه ! إن انتقام الرب كان مشتركًا، ففى فترة قصيرة جدًا كان خمسة آلاف من الأسكتلنديين يرقدون صرعى، أما البقية، سواء أكانوا من المرضى أو من الأصحاء يتجهون نحو منازلهم . وقام الإنجليز الذين هربوا من الطاعون برحمة من الرب بالاشتباك مع الإسكتلنديين، وقاموا بذبح أولئك الذين انتشر فيهم الوباء.

وفى الحرب الدائرة بين انجلترا وفرنسا، فإن الإنجليز حصلوا على أفضل ما فيها، وذلك بسبب المنافسة والحظ. ذلك أن معركة بواتيير Poitiers عام ١٣٥٦م كانت تكراراً لما حدث فى كريكى Crecy، فلقد انهزم الفرنسيون على الرغم من تفوقهم العددى على يد الإنجليز بتكتيكم الحاسم . وتم أسر ملك فرنسا يوحنا الطيب، واحتجز إلى أن يدفع مبلغاً ضخمًا فداءً له . ومرة أخرى عند أجنكورت Agincourt عام ١٤١٥م فإن جيش هنرى الخامس والمتفوق عدديًا بنسبة بلغت حوالى ٢ : ١ والذى سحق القوات الفرنسية التى كانت تعانى من الجوع وسوء القيادة. فى تلك الأثناء كان استخدام البارود شائعًا، ولكن استخدامه الأكثر كان فى عمليات الحصار، ومدفعية الميدان، فالأسلحة الصغيرة كانت لا تزال ثقيلة وغير جديرة بالثقة والاعتماد عليها.

لقد كانت هناك فعلا بعض الجزر التى تتمتع بأمن نسبى فى أوربا، فهؤلاء هم حجاج تشوسر نادرا ما يذكرون. ولقد تأثرت كل من إسبانيا والبرتغال بشكل بسيط. وشمالى ألمانيا، وسويسرا، وإسكندنافيا، فقد تحفظت فيما بينها، وحتى فى فرنسا نفسها فقد كانت هناك حسب أحد التقديرات ستون سنة من السلام خلال مائة وستين سنة من الحرب. كما كانت هناك فترات يتخللها الازدهار، وكما كان الحال عام ١٣٨٩م، عندما جاءت إيزابيلا من بافاريا إلى باريس لكى يتم تتويجها، فامتلأت النافورات بالنبيذ، وتم تعليق المنسوجات المزدانة بالصور والرسوم بامتداد الشوارع حيث يمر موكبها.

وفى نفس فترة تلك المحنة، فإن دوقية بورجندى Burgundy حققت ازدهاراً كبيراً، وفى أواخر القرن الرابع عشر للميلاد وأوائل القرن الخاس عشر، فإن مجموعة من الدوقات قاموا بتوسيع حدود دوقياتهم، عن طريق الغزو، أو الزواج السياسى لتضم برابانت Brabant، والفلاندرز، ومعظم هولنده. وقاموا بتحدى السلطات فى فرنسا وإنجلترا. وفى بلاطهم فى ديجون Dijon وغيرها كانوا رعاة للفن، وقام مهندسوهم المعماريون بتطوير الفن القوطى البور جندى المترف، وعمل رساموهم ونحاتوهم من خلال الطراز الواقعى الذى يعبر لنا عن معالم الحياة فى العصور الوسطى. أما عن فيليب الجرىء (١٣٤٢ - ١٤٠٤م) فقد كان مغرمًا بجمع الملابس الثمينة، والفراء،

والمجوهرات. أما فيليب الطيب (١٣٩٦ - ١٤٦٧م) فقد كان نموذجًا رائعًا للفنان، وفى الفترة التى لم يظهر فيها حسن خلقه، فقد كان عاشقًا للفن بحيث أطلق عليه لقب «فيليب المحب للفن».

لقد كانت فرنسا أقل حظًا من بورجنديا، فهذه هى جريدة " المواطن الباريسى" تشكو فى سنة ١٤٢١م من الضرائب الزائدة عن الحد، وارتفاع الأسعار : **"ففى كل ليل ونهار الإنسان منا يسمع فى باريس وحدها الصرخات المتعالية، بسبب ارتفاع الأسعار، والندرة فى كل شىء. إننى أشك فيما إذا كان صوم جيرميا الرسول نوعًا من التعاطف عند ما تم تدمير مدينة بيت المقدس كلية، وتم أخذ أبناء إسرائيل أسرى إلى بابليون؛ فطوال الليل والنهار يظل الرجال والنساء يصرخون قائلين : "واحسرتاه، إننا نموت من البرد، ومن الجوع"**. وقام المواطنون الموسرون بإنشاء الملاجئ وتقديم الطعام، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا، فقد أكل الفقراء النفايات التى تحتقرها الخنازير، كما أكلوا أوراق الكرنب والأعشاب، وفى المستشفيات كان يتم تكديس من يصارعون الموت مع الأموات، وفى سنة ١٤٣٩م التهمت الذئاب الجوعى أربعة عشر شخصًا فى المنطقة ما بين مونت مارتر وميناء سانت أنطوان، وهاجمت رعاة الغنم مفضلة إياهم على الأغنام الهزيلة.

وفى سنة ١٤٤٤م فإن جماعة كبيرة من اللصوص ومن القتلة اتخذت لها مكانًا تقيم فيه خارج باريس، وأخذت تستولى على الأغنام من أجل طعامها، وتقبض على الأشخاص لتحصل على فدية. وعانى الريف من الخراب وتدمير الحقول المزدهرة فى نورماندى قد تحولت إلى منطقة مليئة بالطحالب والأعشاب البرية والبوص، وتم هجر كثير من الطرق الرئيسة، وتكسرت الجسور، وانسدت الترع، بينما امتلأت الموانئ بالطمى. وأخذت عصابات قطاع الطرق والمحتالين تجوب القرى، تسلب كل ما يقع تحت ناظريها بقوة السلاح، مانحين حمايتهم لكل من يدفع لهم، بينما يحرقون من يرفض الدفع لهم. والأمان الوحيد كان داخل الأسوار الكبيرة للبلدان والمدن، والتى غالبًا ما كانت مناطقها الزراعية على مرمى البصر من حراسها القابعين فى الأبراج.

وكانت المصائب قد حلت بفرنسا جراء عدم كفاءة حكامها، ففى سنة ١٣٨٠م وصل إلى العرش شارلز السادس، وكان يبلغ الثانية عشرة من العمر، ولم يكن بارعًا فى أحسن الأحوال، وفى عام ١٣٩٢م بالتحديد أصبح مخبولاً، على الرغم من أنه يحظى ببعض فترات من صفاء الذهن أو التفكير، وأخيرا فقد مات سنة ١٤٢٢م، وخلفه على العرش ابنه تشارلز الدوفين "الابن البكر"، أو ولى العهد، وقد كان ضعيف الجسم والعقل معًا. كما كان كثير التردد مثل الكثيرين غيره، بسبب ضعف صحته، كذلك كان أسيرًا من الناحية الواقعية لمجموعة من مستشاريه فى قلعته الفخمة فى شينو Chinon فى تورين Touraine. لقد حرصوا على جعله فقيرًا، يرتدى زوجًا من الأحذية البالية، ويقوم بترقيع معطفه البالى. بينما كانت إقطاعاته الرئيسة تقع وسط وجنوب شرقى فرنسا، لذا كان يعرف بملك القرى، وإن كان مشهورًا أكثر بالدوفين. ووفقًا للتقاليد الفرنسية، فلم يكن فى مقدوره أن يصبح ملكًا مثل تشارلز السابع حتى يتم تتويجه فى كاتدرائية ريمس، إلا أن ريمس كانت فى حوزة البورجنديين المعادين له؛ ثم حدثت المعجزة، أو أقرب ما يكون للمعجزة فى التاريخ:

ففى إحدى قرى اللورين، وهى دومرمى Domremy القريبة من نانسى Nancy كان يقطن أحد الفلاحين ويدعى چاك دارك Jacques d' Arc. وكان فى دومرمى شجرة خاصة بالجن ونافورة لها شهرة بالسحر. وكان لچاك ابنة تعمل فى موسم الحصاد فى الحقل، كما ترعى الحيوانات فى المرعى، وتقوم بما تقوم به النساء من أعمال الغزل والنسج، والتى قالت بكل اعتزاز عند محاكمتها: **"ضعونى أمام أية امرأة فى روين Rouen"**، وكانت أمية، على الرغم من أنها تعلمت فيما بعد كيف تكتب اسمها، لقد كانت فتاة ممتازة ومتدينة، وكانت تصر على أن تتناول العشاء الربانى كل شهر.

وعندما بلغت الثالثة عشرة، أخذت تسمع بعض الأصوات وترى فى منامها القديس ميخائيل، وسانت كاترين، وسانت مارجريت. فأخبرها القديس ميخائل عن الرحمة الكبرى الموجودة على أرض فرنسا. ولأنها كانت على علم بالنبوءة بأن فرنسا فى محنتها العظمى سوف يكون خلاصها على يد إحدى العذارى من اللورين، فأقسمت بأن تحتفظ بعذريتها إلى الأبد. وأخبرتها الأصوات التى تسمعها بأنها يجب أن تذهب

لمساعدة ملك فرنسا، وتؤكد له بأن صحته سوف تتحسن، وأنه سوف يرفع الحصار عن أورليانز Orleans وفى شهر مايو عام ١٤٢٨م، عندما بلغت السادسة فإن چان Joan زارت رئيس القلعة المجاورة فى ڤوكولير Vaucoleurs وأخبرته بقصتها، ثم أعادها إلى موطنها، إلا أنها فى شهر فبراير التالى عادت إليه وألحت عليه بأن يرسل معها ستة من الرجال إلى الدوفين فى شينو واستغرقت رحلتها عبر فرنسا وسط بلاد الأعداء أحد عشر يومًا، كانت ترتدى خلالها ملابس الرجال كنوع من الأمن والمحافظة على سلامتها . وكانت المجموعة تواصل سيرها بالليل، وتنام بالنهار فى الغابات، ولقد ذكر أحد مرافقيها فى شهادته قوله : **"إننى لم أجرؤ على أن أترفع عليها، وأقسم أننى لم أفعل ذلك لا بدافع دنيوى أو حتى رغبة منها، ولا رغبة منى".**

وعندما وصلت إلى شينو Chinon كان الدوفين الحذر قد تنكر وسط حشد من الناس، إلا أن چان تعرفت عليه وقدمت له انحناءة احترام، لدرجة أنه كان مندهشًا . وبالنسبة لقدرتها على استحضار الأرواح وقدرتها على التنبؤ، فقد قام بإرسالها إلى بواتييه Poitiers حيث خضعت لاختبار قام به جماعة من رجال الدين، والذين لم يجدوا فيها إلا الخير، والتواضع، والرأفة، والأمانة، والبساطة، وتم التأكد من عذريتها على يد اثنتين من النبيلات. وأخيراً فقد تحقق للدوفين النصر.

حيث جهزها بدرع واق وأحد أقاربه وهو دوق أليسنو Alencon، وأعطاها فرسًا، فخرجت إلى المراعى بفرسها الذى يعدو مسرعًا، وفى يدها حربة الأعداء الذين تخيلتهم. وهذا هو كل ما تم تسجيله فى قصة حياتها المثيرة. ولقد أكدت چان للدوفين أحقيته فى العرش، وأنه فعلاً الملك الحقيقى لفرنسا، وأصرت على أنها ستقود الجيش الملكى لتحرير أورليانز وهى المدينة التى تقع على الشاطئ الأيسر لنهر اللوار، والتى كانت تعانى من حصار الإنجليز لها منذ أكتوبر الماضى (١٤٢٧م). والذين كانوا قد قاموا ببناء سلسة من القلاع الصغيرة حولها، وكانوا ينتظرون أن تفتك المجاعة بها، دونما خوف من قوات الدوفين. واستطاعت چان أن تدخل المدينة ومعها بعض الإمدادات دون أن تلقى كبير عناء، ثم أمسكت بلجام فرسها الأبيض المجهز للقتال، وأمامها رايتها البيضاء وعليها اثنان من الملائكة كل منهما يحمل زهرة الزنبق الفرنسية، مما أحيا الأمل فى نفوس المواطنين، وتحت قيادتها قاموا بتوجيه الضربات

القلاع الإنجليزية الواحدة تلو الأخرى. لقد أكدت عند محاكمتها قولها : **"لقد كنت أول من وضع سلمًا متحركًا على الجزء المحصن من الجسر"** ؛ وانهزم الإنجليز ورفعوا الحصار عن المدينة، وانسحبوا عنها.

ولم يكن استرداد أورليانز دليلاً على عبقرية چان فحسب، بل كان أكبر عملية بناء روحى للفرنسيين، فانتشرت الأخبار فى كل مكان بأنه قد جاء العون الربانى لإنقاذهم، ومرة أخرى أحيا فيهم الأمل للقتال.

لقد كان على چان أن تنصت جيداً للأصوات الخفية التى تسمعها، كما كان عليها أن تجعل من الدوفين الملك الشرعى بتتويجه فى ريمس Reims، وفقًا للتقاليد الفرنسية. لقد حارب جيشها وهو يشق طريقه فى كل من أوكسير Auxerre، وتروى Troyes، وشالون Chalons إلى أن وصل إلى المدينة المقدسة، وهناك فى السابع عشر من شهر يوليو عام ١٤٢٩م تم تتويج الدوفين. ثم عادت چان إلى باريس، إلا أن حملتها العسكرية قدر لها عدم النجاح بسبب تردد الملك الجديد أو عدم شجاعته. ففى المعركة أصيبت چان فى فخذها بسهم **"وهناك لوحة تذكارية أمام مقهى الريجانس منقوش عليها عبارة تحدد الموقع الذى أصيبت فيه"**.

وخلال الشتاء توقفت الحرب حسب التقاليد الحربية التى كانت متبعة، فلم يكن هناك أحد يحبذ الحرب أثناء برد الشتاء القارس. وفى يوم ٢٣ مايو سنة ١٤٣٠ كانت چان فى طريقها لرفع الحصار عن كومبين Combiegne، فتم أسرها على يد البورجنديين، وبعد قليل من الوقت تم بيعها للإنجليز، ولم يحاول تشالز إنقاذها.

وفى يناير ١٤٣١ تم تقديمها للمحاكمة فى روونيم Rouen أمام محكمة من رجال الدين الذين تم اختيارهم بواسطة الإنجليز، والذين وجهوا إليها عدة اتهامات منها القيام بأعمال السحر، والشعوذة، وعدم الطهارة، وارتداء ملابس الرجال، والتمرد على الكنيسة. وكان القاضى هو أحد عملاء الإنجليز ويدعى الأسقف كوشو Cauchon، وكان يأمل فى تعيينه كبيراً لأساقفة رووين Rouen مكافأة له. ولم يكن الغرض من المحاكمة وكما هو اضح اكتشاف الحقيقة وإقامة العدل، ولكن كان الهدف هو تفرقة الرأى العام وإصدار قرار الحرمان ضد چان على أنها ساحرة وأنها مدينة

بانتصاراتها للشيطان. ولم يسمح لها بمحام أو من يدافع عنها، كما أن النص الأصلي لعملية المحاكمة كان قد تم بتره وتزييفه، كذلك فإن القسم الذي أعد لها لتقسم به على الملأ قد تم تزييفه. ومع هذا فإن أمانة چان، وشجاعتها وسلامة عقلها أمام الحاقدين وهم في ملابسهم المرعبة، كل ذلك يبدو واضحاً في الكلام المدون. وأخيراً وبعد حوالى خمسة أشهر من الاستجواب الذي لا ينقطع، دون تعذيب ، فقد انهارت چان، ثم قامت بالتوقيع على الاتهام المعد لإعلانه على الجمهور ثم تراجعت عما جاء به من أقوال. وهذا جعل منها متهرطقة مرتدة لا تستحق الرحمة.

وفي ٣٠ مايو ١٤٣١م أعلن الأسقف كوشو Cauchon أنها مذنبة، ولكن بدلاً من أن يحيلها إلى محكمة مدنية - لأن المحاكم الكنسية لا تستطيع أن تصدر حكماً بالإعدام - فإنه قام بتسليمها للجيش الإنجليزي، حيث تم اقتيادها إلى مكان السوق القديم في روون Rouen لإحراقها. وهناك طلبت صليباً، وقام أحد الجنود الإنجليز بعمل صليب لها من قطعتي خشب وسلمه إليها، فأخذته بكل اعتزاز وقبلته، وقامت بضمه إلى صدرها! كما قام أحد الخيرين بجلب صليب من كنيسة سانت سوڤير St. Sauveur ووضعه أمام ناظريها عند مماتها، وكانت آخر كلمات نطقت بها هي "**أيها المسيح**" التي رددتها أكثر من ست مرات، وتأثر الجميع بعملية صلبها هذه، وبخاصة ممن شاهدوها بمن فيهم من جنود، وبكوا حزناً عليها. وقال أحد مساعدي ملك الإنجليز : "**لقد ضعنا كلنا، لأننا أحرقنا شخصية طيبة ومقدسة**"، وتم إلقاء الرماد المتخلف عن إحراق جسدها في مياه نهر السين Seine تجنباً لاستخدامه في أعمال السحر أو الشعوذة.

أما الأسقف كوشو الذي لم يعترف أحد بأسقفيته، فقد أخذ ينوى غير مأسوف عليه، واستمر في معاقبة كل من يردد سيرة چان، أو من يتعاطف معها. وبأحراق جسد چان، فأن انجلترا أخذ نجمها في الأفول من وجهة نظر الشعب الفرنسي، وكأكدت عزلتها وهزيمتها. وقامت فرنسا بعقد معاهدة طويلة الأجل مع البرجنديين، ودخل الملك شارلز باريس سنة ١٤٣٦م، وروون في سنة ١٤٤٩م . وتم استرداد نورماندى، وكل شمالى فرنسا، وبوردو Bordeaux، وبايون Bayonne ،ولم يبق من ممتلكات الإنجليز في القارة الأوربية سوى كاليه Calais. وفي عام ١٤٥٣م كانت حرب المائة عام قد وصلت نهايتها.

وبعد مرور سنتين، قامت أم چان وأخواها باستئناف الدعوى، وتم فتح ملف القضية حيث تمت تبرئة چان مما نسب إليها من اتهامات، وفى عام ١٩٢٠م تم إدراج اسمها ضمن أسماء القديسين . ما الذى يمكن أن يقوله أحد المؤرخين فى هذه القصة التى لا يصدقها عقل عن إحدى بنات الريف الأميات، والتى غيرت مجرى التاريخ، وروعت الملوك، وتفوقت على كبار القادة، والتى فاقت طاقتها كل طاقات البشر، ووصلت إلى درجة القداسة ؟ فهل كانت چان ممثلة للعناية الإلهية، أم أنها استطاعت أن تجسد كل القوى الخفية الكامنة فى النفس البشرية؟

إن الرد على هذه التساؤلات يعتمد على حكمنا على الأصوات التى كانت تسمعها چان، هل كانت شيئًا حقيقيًا أم أنها مجرد شىء زائف ؟ فإذا كان فعلاً سانت مايكل، وسانت كاترين، وسانت مارجريت قد خاطبوا چان، فمعنى هذا أن معجزة قد حدثت ؛ وأن العناية الإلهية تتدخل فى شئون البشر، وتساند أتباعها المخلصين، وتكافئ من يستحق الثواب، وتعاقب من يستحق العقاب نتيجة تصرفاتهم، وهذا هو التفسير الأسهل. كما أن هذا التفسير ينحّى جانبًا القول بالشريعة الطبيعية (*) والقائم على إمكانية حدوث الشىء أو عدم حدوثه. كما أنه يفسح مجالاً للبرهان أو الدليل المباشر على نظرية السبق.

وإذا كانت هذه الأصوات زائفة، فمما لا شك فيه أنها كانت نتاجًا لتخيل متخلف، اختلطت فيه عملية التخيل بمشكلات سن البلوغ أو بأحلام البالغين، كما اختلط بالاضطراب الناجم عن اضطراب الغدد الصماء . وهناك نظرية تقول إنها كانت تعانى من مرض السل، والذى كان يؤثر فى فصوص المخ، مما كان يسبب اضطرابًا جزئيًا فى وظائف المخ . كما أن هلوسة چان الدينية،لا يمكن إرجاعها إلى قوة عقلها، بل إلى إدراكها . كما أن المشتغلين بعلم التشريح لا ينكرون ما للچينات من أثر، وأنه لا يمكن حدوث معجزة، لأن المعجزة تتنافى مع العلة والمعلول أو الصلة والأثر فى عالم يؤمن وبشكل محدد بدور التشريح الطبيعى . لذا فلم تكن هناك معجزات . وببساطة فإن

(*) هو شرع أو مبدأ يقال بأنه مستمد من الطبيعة يفرض سلطانه على المجتمع البشرى، عند فقدان القانون الوضعى "المترجم" .

چان قد جانبها الصواب فيما يخص الأصوات التى كانت تسمعها. فهى أصوات جاءت من داخلها، ولم تأت من الخارج . كما أنها كانت مجرد عمليات هلوسة وأوهاماً. وهناك احتمال ثالث، وهو أنها كانت تكذب إلى حد كبير لكى تجذب الانتباه إليها، وعلى كل قارئ أن يختار الاحتمال الذى يراه معقولاً حسبما يتراءى له، وحسب طبيعة عقله أو تجاربه.

وعلى أية حال، فسواء كانت چان ملهمة من قبل السماء، أو ملهمة من نفسها فإنها قد أنقذت فرنسا، فقد ساعدت على استعادة الروح للبلاد، وغرست فى نفوس الفرنسيين الرغبة لقتال الإنجليز وبعدها طردهم، وتدعيم الملكية الفرنسية، وأخيراً الوصول بحرب المائة عام إلى نهايتها المحتومة.

لقد كانت حرباً لا طائل منها، ولم ينجم عنها سوى الدمار، والبؤس، والشقاء، والموت. **"إن الإنسان لتأخذه الدهشة، عندما يقارن الجهود الجبارة المبذولة بالنتائج الهزيلة التى تم تحقيقها"** هكذا يقول هنرى بيرن. فلقد نجم عن الحرب خراب مادى، وخسائر كبيرة فى الأرواح ليس فحسب، بل تعصب مقيت وحالة مرضية كئيبة سرعان ما تحولت إلى هستريا . فانبثق عنها كثير من عمليات ضرب النفس بالسياط تقرباً إلى الله، وتفجر الهوس الجماعى. وظهر ذلك جلياً فى الفنون والآداب التى تخلد تعذيب الجسد والروح.

وتلاشت الروح المسيحية فى أوربا والتى كانت تظلل العالم المسيحى كله، مما ترك مجالاً للنزعات القومية للظهور. فچان دارك بصيحتها "فرنسا للفرنسيين" جسدت الروح الجديدة، فالدعوة إلى حب الوطن لم تنتشر فقط فى فرنسا، بل فى انجلترا، وفى اسكتلنده، وفى بوهيميا، وفى هنغاريا. كما أن التعصب الجنسى المقيت ظهر واضحاً وبوجه خاص لدى الجرمان والسلاف، وعبر عن نفسه بشكل مرير . وظل نظام الإقطاع باقياً ومعبراً عن النظام السياسى والاجتماعى فى ظل الحكومات والمؤسسات المختلفة.

وخلال هذه الفترة المضطربة والمليئة بالخراب، ازداد نفوذ الملوك، حيث هيمنت أسرة الهابسبرج على مقدرات الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا، كأسرة لها

الحق الشرعى فى الحكم، وفى إيطاليا فإن الحكام المستبدين غدت لهم السيادة على المدن الحرة، أو الكومونات، إلا أنهم عاشوا فى خوف دائم من مجالات دس السم لهم، فأحاطوا أنفسهم بالعديد من المنجمين والمغتربين، والفنانين، والكتاب.

كما قام هؤلاء الحكام بإضعاف وتقويض نفوذ النبلاء واستقلالهم، وحرموهم من امتيازاتهم القديمة، وخصوصاً ما كان منها متعلق بشن الحروب الإقطاعية . فعاش نبلاء ألمانيا كل منهم فى حجرتين أو ثلاث فى قلاعهم المتهدمة، غير المريحة، وسط الماشية والدواجن بعدما كانوا يعيشون وسط حشد من رجالهم المسلحين، وحشد الملوك بعض رجال الطبقة العليا فى بلاطهم، مشجعين إياهم على تمضية أوقاتهم وسط المهرجانات الشكلية والاحتفالات التى لا طائل منها.

أما عن الأراضى الخاصة بالكنيسة، فقد تحولت إلى أرض بور، كما لم يعد فى مقدور الكنيسة تحصيل ضريبة العشور المفروضة عليها، فى الوقت الذى غدت فيه الأديرة شبه مهجورة، ولم تشهد تلك الفترة تأسيس أو قيام جماعات ديرية جديدة، مما كان يوحى بتدهور حياة الرهبنة . هذا إلى جانب أن البابوية فى أفينون، والانشقاقات الدينية، والنزاعات التى شهدتها المجامع الدينية، وتلك التى حدثت بين البابوات، قد شجعت كلها معًا على قيام حركة معادية لرجال الدين فى كل مكان باستثناء بوهيميا، هذه الحركة أخذت تعارض سيطرة الكنيسة وهيمنة رجال الدين على مقاليد الأمور.

وعلى الجانب الآخر، فإن أبناء الطبقة البورجوازية "سكان المدن" كانوا قد تعودا على أن يحققوا أرباحًا طائلة بأساليب رائعة أكثر من اعتمادهم على القوة، وبذلك حققوا نوعًا معقولاً من الحياة السوية . وكان منهم من اشتغلوا كمستشارين للملوك، أو موظفين، ورجال مال، وساعدوا على إحلال النظام النقدى محل النظام الاقتصادى القديم المعتمد على الأرض الزراعية . وفى هذا المجال حقق بعضهم الكثير والكثير، أمثال جاك كوير Jacques Coeur، وهو أحد المقاولين ممن كان لهم استثمارات واسعة ومتعددة، وكان منزله فى بورجيه Bourges مثالاً رائعًا لعظمة العمارة المدنية فى العصور الوسطى "إلا أن مكانته العظيمة هذه قد جلبت عليه الكثير من المتاعب، فقد تم

اتهامه زوراً بالخيانة العظمى، وبعد سلسلة من المحاكمات فقد مات سجيناً، وهو يقاوم الأتراك".

أما عن كبار رجال المال والتجارة، فقد أدركوا أهمية التجارة البحرية، فبنوا ما لا حصر له من السفن، واستغلوا الكثير من المناجم، وشيدوا كثيراً من معامل النسيج لصناعة المنسوجات الحريرية، وكذلك معامل الورق، والأسلحة، والزجاج . وأخذت الطباعة في الظهور ؛ وتحولت كثير من القرى الزراعية إلى مدن صناعية، وحرصت الحكومات على تشجيع وحماية التجارة، فكان التجار الإنجليز موجودين فى كل مكان، من الإسكندرية وحتى ريشافيك Rykjavik، وعاش أبناء الطبقة البورجوازية فى كثير من المدن حياة مترفة، ويمكننا التعرف على منازلهم فى هيلدشايم Hildesheim وروتنبرج Rothenburg وفي بعض مدن العصور الوسطى التى لا تزال باقية إلى الآن.

ولقد عانى الفلاحون وأرباب الحرف كثيراً من الحروب والاضطرابات . كما كانت هناك فواصل تمنع الحراك الطبقى، وقيود مفروضة فى نطاق كل طبقة اجتماعية، ففى انجلترا، فإن السياج الذى يحيط بالأراضى العامة المخصصة لرعى الأغنام والأراضى الزراعية قد ساعد عدداً كبيراً من الفلاحين على استبدالها إلى مدن . وفى ألمانيا، نسمع أن ما يقرب من ٤٤٪ من القرى فى هس Hesse أصبحت مهجورة، وحدث تحول إلى النمط الألمانى المعروف باسم Vehmgericht، وهو نوع من جمعيات الكوكلوكس Ku Klux Klan (*) تم تأسيسها للضغط على الفلاحين كى لا يهجروا الأرض الزراعية، وتقديم الفارين منهم إلى المحاكمة، وإقامة المشانق فى كل مكان كنوع من التحذير لهم. وبذلك تم كبح جماح وغضب الجماعات المتذمرة، إلى أن عبر هذا الغضب عن نفسه فى شكل ثورة الفلاحين فى ألمانيا فى القرن التالى، وهى التى اشتهرت بحرب الفلاحين.

وفى الوقت الذى كانت أوربا تكافح فيه لتعيد بناء نفسها من جديد، لاح فى الأفق إعصار مدمر فى الشرق . ففى أواخر القرن الرابع عشر، اجتاح تيمورلنك التترى

(*) وهى جمعيات سرية أمريكية، نشأت بعد الحرب الأهلية لترسيخ سيطرة البيض على الزنوج "المترجم" .

آسيا الصغرى، وشمالى الهند، بل وحتى الأراضى الروسية، مخلفًا وراءه أهرامات ضخمة من جماجم البشر . كما قام الأتراك العثمانيون بعبور الدردنيل، والاستيلاء على أدريانوبل Adrianopl، وتم لهم هزيمة البلغار، والبوسنيين، والصرب فى كوسوفو سنة ١٣٨٩م . وأقسم السلطان بيازيد المشهور "بالبرق" بأنه لن يهدأ له بال حتى يطعم فرسه على مذبح القديس بطرس فى روما . وعلى أية حال، فقد تم صد التوسع التركى على يد البطل المجرى چانوس هنيادى Janos Hunyadi.

وفى سنة ١٤٥٣م قام السلطان التركى محمد الثانى بمهاجمة القسطنطينية، وبعد عمليات حصار مريرة، اقتحم السلطان المدينة . ومات الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر وهو يدافع عن عرشه ببسالة . وماتت القسطنطينية بموت قسطنطين الحادى عشر، وهى التى شيدها قسطنطين الأول، وأصبحت تعرف باسم استانبول، وتم تحويل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد . وبذلك تحولت الإمبراطورية الشرقية المسيحية إلى الإمبراطورية العثمانية ؛ وتمت إضافة جزء من أوربا إلى آسيا .

لقد كان يوم ٢٩ مايو ١٤٥٣م واحداً من الأيام الفارقة فى التاريخ، وتم اتخاذ هذا اليوم وبوجه عام على نهاية العصور الوسطى، وبداية العصور الحديثة . هذا اليوم هو أحد الأيام الحاسمة، على الرغم من وجود أيام حاسمة يمكن اقتراحها، فهو يعبر بلا شك وبوضوح عن أن شيئًا مألوفًا كان فى طريقة للزوال، وأن شيئًا جديداً فى طريقه للظهور .

كما كان نهاية لعصر مفعم بالأحداث التاريخية . ووفقا للترتيب التاريخى، فإن ذلك العصر قد بدأ بفترة فقر مدقع، تلتها فترة كفاح ونضال مرير تحققت فيها بعض الإنجازات، ثم حدثت انتكاسة مرة أخرى أدت إلى فترة ركود . إن التعبير المجازى لأى تطور إنسانى أو فردى عادة ما يكون من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج ثم إلى الشيخوخة، وهو شىء محتوم ومقدر له أن يتحقق . ويمكننا أن نصل بالمقارنة إلى حد أبعد من ذلك، فالعصور الوسطى قد تركت لوليدها التمدن، وهو ميراث أفضل بكثير مما ورثته هى منذ بدايتها . فالعصور الوسطى أنجزت أشياء عظيمة فى مجال العمارة والفنون، وفى الآداب، وفى التعليم، وفى المعرفة . وهى فترة أضافت الكثير من

الجمال، والراحة للحياة اليومية التى يعيشها الناس . ففيها كانت بدايات كثير من الصناعات ورؤس الأموال، ومفاهيم كثيرة لم تكن معروفة من قبل، وفيها حدث تطور كبير فى مجال نقابات أرباب الحرف، وفى المشاعية داخل كثير من الأديرة . كذلك مهدت العصور الوسطى للحركة الإنسانية التى قدر لها أن تزدهر فى عصر النهضة، والأفكار الدينية التى قدر لها أن تتطور فى عصر الإصلاح الدينى. كما أنها ساعدت على تطوير حركة الكشوف التى وسعت من مدارك الناس الجغرافية، ومعلوماتهم، عن العالم المحيط بهم.

إن حكمنا على العصور الوسطى ككل يجب أن يكون شيئًا نسبيًا بما تم إنجازه فى عصرنا الحالى . لقد كانت العصور الوسطى فترة فوق العادة، وهكذا هو الحال فى عصرنا، على الرغم من أن عبارة فوق العادة هذه تختلف من مكان لآخر. فقد كانت فترة لا يعوزها الألم والموت، وإن لم تكن قد ورثت عن القرون السابقة ما كان فيها من ازدهار فى المعلومات الطبية . فالحياة فيها كانت قصيرة، وخطيرة، ومقدرة ؛ ومع هذا فهى ما زالت كذلك. لقد كانت عصور قسوة، كلها معاناة، ولم تختلف إلى حد ما إلا نتيجة لمحاولات الإنسان التخفيف من حدتها، فيها قليل من الشفقة والرحمة والتعاطف، وفيها قليل من احترام الحياة الإنسانية، لدرجة أننا تقشعر أجسامنا لما كان فيها من عقوبات شنيعة مثل قطع الرأس، وسمل الأعين، وبتر بعض أعضاء الجسم. ومع هذا فهى ليست أشنع من قسوتنا الممثلة فى التراشق بكل وسائل الدمار والإبادة، واستخدام القاذفات، والإبادة الجماعية، وإماتة الشعوب جوعًا.

وهناك الكثير فى العصور الوسطى مما يستحوذ على إعجابنا، بل ويمكن أن نحسد أهلها عليه. فالمجتمع ككل كان مترابطًا، وفى داخله كان يجد كل إنسان نوعًا من الرضا. فلقد عرفوا القوانين التى رسختها السلطات الدنيوية والدينية، كما أن الناس لم يكونوا مشغولين بالتوافه التى لا طائل منها، ومن المحتمل أن تكون صحتهم العقلية والنفسية أفضل مما هى لدينا، فالفلاح الإنجليزى الصغير الذى يملك أرضًا يزرعها، وساكن المدينة الألمانى، أو أحد الحرفيين الإيطاليين كان فى مقدوره أن يحيا حياة معقولة. أما الذين كانوا يتطلعون إلى أكثر من ذلك فقد كان فى مقدورهم أن

يلتحقوا بإحدى الحملات الصليبية، أو يموتوا بشرف فى إحدى المعارك التى يخوضونها من أجل أسيادهم الإقطاعيين. كما كان فى مقدورهم أن يعتزلوا الحياة الدنيوية ويعيشوا حياة الزهد من أجل خلاص أجسامهم، ومن أجل الحصول على مكافأة أكيدة من السماء . كما أن عقيدة الناس وإيمانهم كانا سليمين، وكان لديهم إيمان راسخ بقربهم من الله ومن القديسين، كما أن القديسين أنفسهم كانوا شديدى الصلة بالناس، ولا يبعدون عنهم سوى عدة ياردات أو أميال، مستعدين لتقديم المعجزات، مخلصين فى صلواتهم، شاكرين لما يقدم لهم من هبات، مشتغلين كلية بكل ما فيه سعادة البشر.

وكان لدى رجال العصور الوسطى شعور فياض بجمال الطبيعة، هذا الشعور حاولوا أن يضاهوه فى ابتكاراتهم، تماماً مثلما نفعل متأثرين بكتابنا الرومانسيين منذ القرن التاسع عشر، بأن نحاول أن نجد ما فى حياة القلاع، والكاتدرائيات، والمدن المبنية فوق المناطق التلية من روعة لكى نهرب من العالم الصناعى الذى نعيش فيه، ولقد صور لنا خيالنا العصور الوسطى على أنها كانت أرض الأحلام، التى عاش عليها الفرسان الشجعان والنساء الجميلات، وشعراء التروبادور، والسحرة، والقديسون، والجان.

ولم يكن خيالنا كله شيئًا زائفًا، فالعالم بالنسبة لرجال العصور الوسطى كان عالمًا غريبًا، وجميلاً، وكل ما كان يجب عليهم هو أن يفتحوا أعينهم عليه. لقد كانوا مدركين لكل ما هو عجيب وغريب ورائع حولهم فى حياتهم العادية، وكان فى مقدورهم أن يعبروا عن هذا الجمال فى كثير من أدبياتهم . فهناك فقرة رائعة موجودة فى مؤرخة سالمبين Salimbene من بارما Barma، وهى تعبر عن إدراك الناس فى العصور الوسطى للجمال، وهو إدراك روحى غير بادٍ للحواس. فهو يصف لنا لحظة ساحرة، ويرسل بهذا السحر إلى القارئ الحديث، عندما يذكر أنه خرج مع زميل له وهو أحد الرهبان لجمع الصدقات من بيزا، فيقول : **لقد وصلنا إلى فناء معين، فدخلناه سويًا، وهناك كانت كرمة وارفة الظل، تروق لناظريها بأوراقها الخضراء النضرة تدعونا لأن نستظل بظلها الظليل، ونجلس تحتها لكى نستريح بعض الوقت . وهناك أيضًا**

كانت تقبع تماثيل كثير من النمور وكثير من الحيوانات المختلفة من وراء البحار، حيث كنا نحملق طويلاً وبسعادة غامرة، لأن من طبيعة البشر التطلع إلى كل ما هو غريب وجميل . وهناك كنت تجد الشباب في مقتبل العمر أو ريعان الشباب، بملامحهم الجميلة وملابسهم الرقيقة التي كانت تسر الناظرين، وتجذب إليها الأفئدة . الكل يمسك في يده إما آلة الفيول، أو العود، أو بعض الآلات الموسيقية الأخرى، يعزفون عليها أرق الألحان . ولم يكن بينهم أي شغب أو اضطراب، الكل صامت وينصت في هدوء . لقد كانت أغنياتهم غريبة وجميلة في كلماتها وألحانها، لدرجة أنها مست شغاف قلوبنا، ولم يتفوه أحدهم بكلمة معنا، كما لم نتفوه معهم بكلمة واحدة، كما أنهم لم يتوقفوا عن العزف أو الغناء أثناء تواجدنا هناك ؛ ذلك لأننا تريثنا هناك طويلاً، وقاومنا أنفسنا كثيراً في ترك ذلك المكان . لقد كانت أغانيهم أكثر من عجيبة وجميلة، وما زالت قصة العصور الوسطى جميلة وغريبة.



المؤلف فى سطور

موريس جيلبرت بيشوب

أستاذ الأدب الرومانسى ، المؤرخ الكبير ، ولد عام ١٨٩٣ م ، وحصل على شهادة الليسانس من كلية الآداب بجامعة كورنيل عام ١٩١٣ م ، وفى عام ١٩١٤م نال منها درجة الماجستير فى الآداب ، ثم فى عام ١٩٢٦ حصل على درجة الدكتوراه من نفس الجامعة ، والتى عمل بها حتى وافته المنية عام ١٩٧٣ م ، تاركًا لنا ثروة من أعماله الأدبية ، وعدداً كبيراً من الرسائل المتبادلة مع كبار أدباء عصره ، إلى جانب العديد من المؤلفات التاريخية ، يأتى فى مقدمتها كتابه عن «تاريخ جامعة كورنيل» ، و «تاريخ أوربا فى العصور الوسطى» .

المترجم فى سطور

الدكتور على السيد على

من مواليد القاهرة ١٩٣٨ ، يشغل حاليًا وظيفة أستاذ غير متفرغ لتاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ بكلية التربية بالفيوم فرع جامعة القاهرة . حصل على ليسانس الآداب فى التاريخ من جامعة القاهرة عام ١٩٧٠ م ، ثم درجة الماجستير فى الآداب بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٩ م ، وموضوعها «المجتمع المسيحى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية» .

وفى عام ١٩٨٤ م حصل على درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة الزقازيق بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وموضوعها «مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك» شارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات فى مصر والعالم العربى الخاصة بالدراسات التاريخية ، وله العديد من المؤلفات المطبوعة والمنشورة فى مجالات التاريخ الاجتماعى ، والاقتصادى ، والثقافى فى عصر الحروب الصليبية ، والمماليك ، والمغول.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

٣٨	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥	التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض .
٦٥	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
٦٦	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣	نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى
٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش

٧٦	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١	الجماعات المتخيلة	بنكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦	طول الليل	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠	وسم السيف	ميجل دي ثربانتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١	النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣	قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤	أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف علي دعدور
١٠٧	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	محمود علي مكي
١٠٩	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف
١١٣	راية التمرد	سادي پلانت	أحمد حسان

١١٤	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلي
١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧	المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨	النهضة النسائية في مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠	الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندي وإيزابيل كمال
١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل ألكسندر وقنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤	الفجر الكاذب	چون جراي	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥	التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	سمحة الخولي
١٢٦	فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧	إرهاب	صفاء فتحي	بشير السباعي
١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقي جلال
١٣١	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣	الخوف من المرايا	طارق علي	طلعت الشايب
١٣٤	تشريح حضارة	باري ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧	مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	كاميليا صبحي
١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠	حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبوري
١٤١	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومي
١٤٣	قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	عدلي السمري
١٤٤	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	سلامة محمد سليمان
١٤٥	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦	الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	علي عبدالروف البمبي
١٤٧	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوي
١٤٨	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	علي إبراهيم منوفي
١٤٩	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابي

١٥٣	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥	الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩	الإيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليقمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠	الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧	الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب
١٨٩	العمى والبصيرة	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد

١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوى
١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدى
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محمود محى الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوى
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى
٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى
٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادى
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى
٢٢٧	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣١	الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢	ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣	فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦	الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨	العولمة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالرءوف البمبى
٢٤٤	الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥	نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس	توفيق على منصور
٢٤٦	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤	الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥	أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨	الفجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض
٢٦٥	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن

٢٧٠	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤	السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	محمود على مكى
٢٧٥	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦	فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨	البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣	السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤	هرقل مجنوناً	يوربيديس	أحمد عتمان
٢٨٥	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	نخبة من المترجمين
٢٩٤	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦	مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢	فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤	ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥	الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧	الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨	علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد

٣٠٩	الذهن والمخ	أنجوس ڤيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠	يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن
٣١١	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٣١٣	أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤	الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٣٢٢	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كليتباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٣٢٤	اللعب بالنار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٣٢٥	عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٢٩	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤	لقطات من المستقبل	آرثر.س كلارك	مصطفى فهمى
٣٣٥	عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦	متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٣٣٧	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب
٣٤١	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٤٣	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٣٤٥	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧	الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو

٣٤٨ المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩ دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠ بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١ مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢ قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣ الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٤ الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٥ التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦ الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧ متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨ أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠ أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١ التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ تلميذ بابنبيرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤ حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦ نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧ القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨ المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩ المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠ الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١ المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢ عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣ كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤ اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥ الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦ الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧ تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩ ملك فى الحديقة	ستيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠ حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١ أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣ هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤ القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥ مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦ دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم

٣٨٧ أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨ مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠ الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ الحافلة الليلكية	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢ مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣ فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥ آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٣٩٦ السافاك	تقى نجارى راد	محمود سلامة علاوى
٣٩٧ نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨ سارتر	فيليب تودى	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩ كامى	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠ مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١ الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣ ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤ تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥ إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦ المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧ الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨ معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩ انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠ خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١ همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢ تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	نخبة
٤١٣ أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤ الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥ صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦ مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى
٤١٧ تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨ سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	نسيم مجلى
٤٢٠ مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١ الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣ إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤ لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود سلامة علاوى

٤٢٦	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧	باندراس الطاغية	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠	كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢	ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤	الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩	موت المرابى	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١	رب الأشياء الصغيرة	أروينداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣	اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨	علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وربيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨	الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	جمال عبد الرحمن
٤٥٩	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤	ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

٤٦٧	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد التنة
٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١	عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠	أسمار البيغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	نخبة
٤٩٧	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١	تاريخ النساء فى الغرب	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢	أصوات بديلة	هدى الصدَّة	هالة كمال
٥٠٣	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦	ربما كان قديساً	آن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال
٥٠٧	سيدة الماضي الجميل	بيتر شيفر	شرقي فهيم
٥٠٨	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبدالباقي جلبنارلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩	الفقر والإحسان في عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠	الأرملة الماكرة	كارلو جولدوني	عبدالرازق عيد
٥١١	كوكب مرقّع	آن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال
٥١٢	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤	مدخل إلى النظرية الأدبية	جوناثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي دوجلاس	فدوى مالطي دوجلاس
٥١٦	إرادة الإنسان في شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون وودونا باوندى	صبري محمد حسن
٥١٧	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٥٢٠	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفي
٥٢٣	الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفي
٥٢٤	الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
٥٢٦	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيي الدين مزيد
٥٢٧	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨	تروتسكي والماركسية	طارق علي وفلْ إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصري
٥٣٠	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١	ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢	المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوي
٥٣٤	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥	مخزن الأسرار	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦	الثقافات وقيم التقدم	صموئيل هنتنجتون	شوقي جلال
٥٣٧	الحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠	توجهات بريطانية – شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤	ميلاني كلاين	نخبة	حمدي الجابري

٥٤٥	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠	شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦	چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨	الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩	الماس الزائف	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠	صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١	جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦	تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٤٦٢ / ٢٠٠٣



يعد هذا الكتاب واحداً من أهم الكتب التى تناولت تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ؛ حيث قدم فيه مؤلفه عرضاً شاملاً لنواحى التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى، معتمداً فى ذلك على عدد كبير من أمهات الكتب الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، فضلاً عن اعتماده على كثير مما حوته المتاحف الأوروبية المختلفة من كنوز المعرفة وآثارها ، إلى جانب ما حوته بعض دور الأرشيف الأوروبية من معلومات مهمة تخدم تلك الحقبة الزمنية .

استهل المؤلف كتابه بسلسلة من التواريخ والأحداث المهمة فى تاريخ كل من إيطاليا والكنيسة ، وفرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا ، وأيرلندا، وبعض الأقاليم الأوروبية الأخرى ، كما ذكر بعض المؤشرات ذات الدلالات المهمة فى مجالات الفنون، والعلوم المختلفة ، والتعليم .

تصميم الغلاف : محمد بغدادى